روم لاندو

الإسلام والعرب

نقله إلى العربية
منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

ISLAM AND THE ARABS

by

ROM LANDAU

الطبعة الثانية

بيروت، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧

With profound respect
this book is dedicated
to
His Majesty
MOHAMMED V
King of Morocco

باحترام عميق
أرفع هذا الكتاب
إلى
صاحب الجلالة
محمد الخامس
ملك مراكش

كلمة المعرِّب

هذه ترجمة دقيقة لكتاب « الاسلام والعرب » للمستشرق الانكليزي الشهير روم لاندو ، حرصنا على تقديمها إلى القراء لأن هذا الكتاب ، في اعتقادنا ، من أنفس المختصرات التي وقعنا عليها في تاريخ العرب والحضارة الاسلامية ، وأدناها إلى الانصاف . بل إننا نجد في هذا الكتاب اكباراً للعرب وإعجاباً بمآثرهم يعزّ نظيرهما في معظم آثار المستشرقين .

وتقتضينا الامانة العلمية ان ننص ههنا على أننا أغفلنا في هذه الترجمة الفصل الأخير من الكتاب وعنوانه « مشكلات العالم العربي الحاضر » لاختلافنا مع المؤلف في كثير من وجهات النظر التي بسَطها فيه ، ولأننا نرى ان الحقبة التي يحاول ذلك الفصل تصويرها لا تزال في حاجة إلى مزيد من الدرس ولا تزال أحداثها موضع نقاش كثير .

وقد ادخلت على الكتاب بعض الاضافات التفسيرية ، وهي تظهر في المتن محصورة بين مُعَقّفين [ ] ، كما عقدت بعض الحواشي لأغراض تفسيرية أيضاً . وهذه الحواشي تظهر في الهامش مسبوقة بنجمة أو أكثر مع نصّ على أنها من وضع المعرب . أما الحواشي التي وضعها المؤلف أصلاً فقد قيّدتها برقم متسلسل .

منير البعلبكي

بيروت ١٠ شباط ١٩٦٢

X

مقدمة

لم يدرس المؤلفون الغربيون الاسلامَ ، ولم يدرسوا العرب أيضاً ، في قَدْر من السخاء أكثر مما ينبغي . ومع ذلك فأهمية الاسلام والعرب لا تكاد تحتاج إلى توكيد في عهد تكفي فيه حتى النظرةُ الخاطفةُ إلى صحيفة من الصحف اليومية لأظهار مدى ارتباط مستقبل العالم الغَرْبي بمستقبل الشرق الأدنى — مهد الاسلام والعروبة جميعاً . وعلى الرغم من ان اثر الشرق الادنى اليومي بعيدُ المدى إلى حدّ بالغ ، فالواقع أن الاسلام على العموم ، والحضارة الاسلامية (أو العربية) على الخصوص، يتمتعان بأهمية أعظم بكثير . إن الحضارة الغَرْبية — ابتداءً من الفلسفة والرياضيات إلى الطب والزراعة — مدينةٌ لتلك الحضارة بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى (الغَرْبية) إذا لم تتمّ لنا معرفةٌ ما بالأخرى (الاسلامية أو العَرَبية) .

إن في الانكليزية بضعةَ كتب ممتازة تعالج موضوعنا هذا . بيد أن بعض هذه الكتب مُسْهَبٌ أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى القارئ العام ، في حين ان بعضها الآخر موجز أكثر مما ينبغي ، أو غير شامل إلى حدّ وافٍ بحاجات اولئك القراء الذين يتوقون — من غير ان يهدفوا إلى التخصص في هذه الدراسات — إلى اكتساب صورة عن الاسلام والعرب

تطرّقتُ إلى الشؤون الاسلامية العامة ، من مثل تلك المتصلة بالفلسفة والعلوم . ذلك بأنه على الرغم من ان العرب شكلوا لُبّ الامبراطورية العربية وعلى الرغم من ان العربية ، لغةَ القرآن ، أمست القوةَ الرابطةَ الرئيسية في الحضارة الاسلامية ، فأن كثيراً من ممثلي تلك الحضارة الرئيسين كانوا غير عرب . وإلى هذا ، فأن بعض العرب كانوا دائماً مسيحيين ، في حين لم يكن المسلمون كلهم عرباً . ومع ذلك ، فأن اصطناعَ تعبيرَيْ « عربي » و « مسلم » وكأنهما شيئان متعاوضان **interchangeable** يبدو في كثير من المواطن أمراً جائزاً لا غبار عليه .

وإذ كنت قد وضعت هذا الكتاب ، في المقام الأول ، للقارىء الذي لا يعرف العربية فقد أسقطتُ المصادر المكتوبة بتلك اللغة من ثَبْت المراجع . وهذا الثبت ينتظم ، قبل كل شيء، تلك الكتب الانكليزية التي ينبغي أن تكون في متناول الطلاب في أيما جامعة رئيسية أو مدينة تحترم نفسها . أما الحواشي فقد تعمّدت الاقتصار منها على الحد الأدنى ، ولكني ذيّلتُ كل فصل بواحد أو اثنين من أكثر الكتب المتصلة بموضوعه فائدةً ونفعاً .

بقي رسم الاسماء والمصطلحات العربية . وههنا ارتضيتُ الأشكال التي كُتب لها أكبر قَدْر من السيرورة في الكتب الموضوعة باللغة الانكليزية .

روم لاندو
استاذ الدراسات الاسلامية والشمالأفريقية
في جامعة المحيط الهادىء بكاليفورنيا

لا تعوزها الدقة والوضوح . والواقع أني اوجّه كتابي هذا ، في المقام الأول ، إلى أمثال هؤلاء القراء ، مستهدفاً في الوقت نفسه ، خدمةَ الطلاب الجامعيين . وهنا أيضاً لم أفكّر في اولئك الطلاب الذين يرشحون أنفسهم للتخصص في هذا الموضوع بقَدْر ما فكرتُ في الطالب الذي يحتاج ، على الرغم من عدم تخصصِه في الدراسات العربية ، إلى كتاب يكون قصِيّ المرامي ومُجْملاً في آن معاً . وهكذا أخذت بعين الاعتبار ، لا مطالبَ طلاب التاريخ أو العلم السياسي فحسب ، بل مطالبَ المعنيّين بالفلسفة والعلم والفن ، أيضاً . ولقد حاولت سد حاجات الطلاب بإلحاق كل فصلٍ ببعض الجداول الخاصة . وهي جداول تقدّم إلى القارئ ، بمجرّد اللمح ، فكرة موجزة ولكنها شاملة وواضحة عن أهم الاسماء ، والتواريخ ، والوقائع ، والمصطلحات المدروسة في الفصل الذي يسبقها .

لقد باشرت تأليف هذا الكتاب نزولاً عند رغبة طلابي الموشكين على التخرج ، وإن بعض مادّته لمبنيّة على محاضراتي في قاعة التدريس . وإنما ساعدني مساعدةً كبيرةً ، في تعديل تلك المادة وإعادة تشكيلها لتفي بالأغراض الكثيرة المختلفة التي يُفْرَض في أيما كتاب أن يفي بها ، نفرٌ من طلابي في الصفوف العليا الذين نهضوا بقسط كبير من العمل « الشاق » ، وبخاصة في الفصول الأولى . ولعله كان خليقاً بهذا الكتاب ، لولا ما أسدوه إليّ من مساعدة ، أن لا يرى ضياء النهار البتة . ويطيب لي أن أزجي الشكر على نحو خاص إلى روبرت باهنسن **Bahnsen** (دكتور في الفلسفة) ، وروبرت واغنر **Wagner** (دكتور في الفلسفة) وادورد رالاي **Raleigh** (ماجستير في الآداب) .

إن كتابي هذا ليدرسُ على وجه التخصيص الاجزاء العربية من العالم الاسلامي ، ولا يشمل البلدان التي هي ، برغم أنها مسلمةٌ ، بلدانٌ غير عربية . ولم أُدخِل غيرَ العرب في الحساب ، أيضاً ، إلاّ حين

الفصل الأول

بلادُ العَرَبِ قَبْلَ الرَّسُول

•

* إن تاريخ العرب القديم مزيج من الحقيقة والخيال ، وذلك قَدَرٌ مقدور يشمل التواريخ القديمة للشعوب جميعاً * والواقع ان الخرافات السكندينافية القديمة تتكشّف عن شبه رائع بخرافات العرب الأقدمين . ولقد ساعد المناخ على دفع هذه الخرافات في الاتجاه الذي اتخذَتْهُ . فبينا ادّى « المؤثّر الدافئ » في احتكاكه بالثلج والجليد إلى خلق « عمالقة الصقيع » frost-giants السويدية ، خُلِقَتِ الجنّ عند العرب من نارٍ خالصة لا يشوبها دخان .

وتحدثنا الرواية ان الله خلق الجن قبل ان يخلق آدم بألفي سنة . إنها كائنات غير منظورة ، ومع ذلك فهي تحب وتتزوج ، وتتناسل وتموت . وفي البدء كانت الجنّ كلها صالحةً ، ولكنها تمرّدت قبل عهد آدم بزمن طويل على وجودها الموطّد المستقرّ وحاولت ان تغيّر نظام الأشياء . وخلال عملية التمرد هذه اكتسب إبليس ، وهو واحدٌ من

أشرار الجنّ ، سلطاناً عظيماً وأمسى « شيطان » **Satan** العـالم العربي .
ولقد احتفظ ابليس بسلطانه ذاك حتى بعدَ ان وُفـِّق ملائكة الله إلى قمع العصيان .

واتخذت الجن من الخرائب مثوىً لها ، وأقامت في الأنهار والمحيطات. لقد رآها العرب في الاعاصير والدرادير . بيد أن مثوى الجن الرئيسي كان جبلا تكتنفه الاسرار يدعى جبل قاف ، وكان ذلك الجبل قائماً ، في خيال العرب ، على زمرّدة هائلة . والواقع ان هذه الجوهرة الساطعة كانت ، في خيال العرب أيضاً ، تخلع على أشعة الشمس ذلك الخضاب اللازَوَرْدي الذي يتجلى ، في كثير من الأحيـان ، فوق المنـاطق الصحراوية .

وقبل ميلاد يسوع ، أجيز للجن ان تلج أياً من السموات السبع تشاء . ومنذ ذلك الحين أخرجت من السموات الثلاث الأولى ؛ وبعد مولد محمد حُرِّمَتْ عليها الأربع الأخريات . ومع ذلك ، واصلت الجن الدنوّ من السماء السفلى ما وسِعَها جَهْدُها أن تفعل ، فكان العربي إذا ما رأى شهاباً قال إن الملائكة تطرد جنياً فضولياً وتبعده عن «الأبواب المرصّعة باللآلىء . »

وكان العرب الوثنيون يؤمنون بآلهة متعددة . لقد عبدوا الطبيعـة ، والحجارة ، والملائكة ، والشياطين . وكانوا يوقّرون « بنات الله » الثلاث ومختلف الاصنام القومية والمحلية والاسَرِيّة توقيراً خاصاً . وكانت كل قبيلة تدين بالولاء لِحامٍ خاصٍّ بها ، وبكلمة أخرى : لإلهٍ تَفزَعُ اليه في حال الشدّة والضَّنْك .

وجائز ان تكون مذابحنا **altars** العصرية قد نَبَعَتْ أول مـا نَبَعَتْ من تقديس القدماء للحجارة . وهناك حجرٌ لا يزال ينزل في فؤاد العربي منزلةَ الاحترام والتوقير . ذلكم هو الحجر الذي سقط من السماء لَدُنْ إخراج آدم من الجنة . وإنما كان لونه بادىءَ الأمر أبيض

ناصعاً ، وكان مَصُوناً في هيكل بناه شيث ، ابنُ آدم ، حتى كان عهدٌ اجتاح فيه البلاد سيلٌ عرِمٌ خرّب الهيكل ودفنه تحت ركام من الوحل والأنقاض . وتحدثنا الرواية أن الحجر [الأسود] * ظل دفيناً حتى وجّهَ ابراهيم زوجَهُ هاجَرَ إلى الصحراء مع وليدهما اسماعيل . وذات يوم مدّدت هاجر ، وقد هدّها الظمأ ، طفلَها على الرمل التماساً للراحة ، فإذا برفساته المحمومة تَكَشْف عن ينبوع ماءٍ نَميرٍ قرب موقع الأثر المفقود . ويُروَى أن ملاكاً هبط من السماء وساعد على استرداد الحجر المقدس ، وان إسماعيل اعاد بناء بيت « شيث » الشريف يعاونه في ذلك ابراهيم وكبير الملائكة جبْريل . تلك هي ، في اختصار ، قصة الكعبة [1] ، البناء الأكثر قداسةً في الاسلام .

والحق ان مكة ، حيث تقوم الكعبة ، كان لها منذ عهد طويل مكانة بارزة في الحياة العربية . تخيّلْ ، إذا شئت ، قوافل الصحراء تتقدم وئيداً عَبْرَ الأميال الملتوية ، من واحة إلى واحة ، نحو هذه المدينة ، احدى المحطات الهامة على طريق القوافل الكبيرة . إنّ سُحُباً من الغبار لتلفّ النياق وراكبيها بحزام من الرمل . وإنّ شمساً لاهبةً لتنقضّ بحرارة لا تطاق على التّجار المرهَقين . وإنّ عيوناً مختلجةً لترنو إلى الأفق المتألق رجاةَ أن تكتحل بطلعة أغنى الحواضر في بلاد العرب . وإن حناجر مسفوعة لتردّدُ صدى الأمل بأن تقوى تلك الحاضرةُ على إنجائها من رياح الصحراء الجارفة . لقد كانت مكة بلسماً للجسد والروح ، فههنا كان في ميسور المرء أن يجد طعاماً طيباً وخمرةً جيدة ، وأن تتاح له – لقاء دراهم معدودات – زيارةُ الكعبة ، وهي « بانثيون » pantheon يزخر بأكثر من ثلاثمئة وخمسة وستين صنماً . وبينا كان

---

* ما بين معقفين هو زيادة على الأصل أضفناه توضيحاً للكلام أو شرحاً له .
(المعرب)

[1] ان لفظة « الكعبة » تعني في العربية « المكعب » ، وهي تصف شكل ذلك البناء .

الذهب الروماني والتوابل الهندية تتبادل الأيدي ، كانت النصرانية واليهودية والمجوسية والوثنية تتبادل العقول .

وعلى الرغم من ان الوثنية كانت هي الدينَ السائدَ في بلاد العرب القديمة فأن الفكرة القائلة بوجود إلـه واحد أسمى لم تكن غريبةً على العرب . فقد قال اليهود والنصارى ، طبعاً ، بالوحدانية وأقرّ الصابئة بأن ثمة الـهاً واحداً ، ولكنهم جعلوا من عدد كبير من صغار الآلهة شركاء له . وآمن المجوس باله خيّر هو «أرْمُزْد» ، وإلـه شرّ هو أهريمان . وكان كل من هذين الالـهين يناضل على نحو موصول من أجل السيطرة على العالم . وكل ما كان يتعيّن على المجوسيّ ان يفعله لكي ينسجم مع الوحدانية هو أن يؤمن بأن اهريمان كان مخلوقاً من مخلوقات ارمزد ، مخلوقاً متمرداً عليه . وليس من ريب في ان هذا الانتقال كان أيسر من ذلك الذي تعيّن على الاغريق والرومان الوثنيين القيام به عند اعتناقهم النصرانية .

وكان في مكه إلـه اسمه « الله » كان هو الرزّاق ، وكان أقوى الآلهة المحلية جميعاً ، والاله الذي يَفزَع اليه كل مكيّ في لحظات الشدة . ولكن « الله » كان ، برغم جبروته كله ، إلـهاً منعزلاً قصيّاً . بيد أن الغلبة كانت قد تمّت له في زمن محمد . كان قد انتزع السيادة على الكعبة من إلاهة القمر على الرغم من أنه ظل يحتل مركزاً ثانوياً بالنسبة إلى مختلف الأصنام القَبَليّة والالاهات الثلاث ذوات السلطان : مناة ، إلاهة القضاء والقَدَر ؛ واللات امّ الآلهة ؛ والعُزّى ، [وكانوا يعبدونها في صورة] الكوكب السماوي الزُهرة (فينوس) .

* * *

إن في « الكتاب المقدس » اشارات عديدة إلى العرب . فمن طريق إسماعيل ينتسب العرب إلى الجد الأعلى نفسه الذي ينتسب اليه اليهود . وكل من الفريقين يعتبر آدمَ ونوحاً وابراهيم آباءَه . وأيوب كان عربياً ،

و « ملوك » النبي ارميا ربما كانوا شيوخاً عرباً . ليس هذا فحسب ، بل لعل « الحكماء الوافدين من الشرق » الذين تبعوا النجم كانوا بدواً من الصحراء العربية لا مجوساً من فارس .

وفي عام ١٢٥٥ ق. م. كانت القبائل العبرية قد توقفت اربعين عاماً في سيناء والنفود في هجرتها من مصر إلى فلسطين . وتتحدث الرواية عن زواج موسى من امرأة عربية كانت تعبد الـهاً صحراوياً قاسياً يدعى ياهو ، وهو الاله الذي دعي « يَهْوَة » في ما بعد . وهدت المرأة العربية موسى إلى سبيل الـهها ، ولعلها بذلك قد اوجدت سلسلةً من الاحداث التي تربط ما بين المسيحية واليهودية والاسلام .

ومن سام ، أكبر أولاد نوح ، اشتُقّ لفظ « الساميّ » بافتراض ان الشعوب الساميّة متحدّرة منه . و « الساميّ » ، في المصطلح العلمي ، يطلق على كل من يتكلم لغة سامية . ولعل اللغات البابلية الاشورية ، والفينيقية ، والآرامية ، والعبرية ، والحبشية ، والعربية تنبثق كلها من لسانٍ مشترك . والواقع أن مؤسسات هذه الشعوب الاجتماعية ، وطقوسها الدينيةً ، وسماتها السيكولوجية ، وخصائصها الجسدية تتكشّف عن وجوه شبه مذهلة . ولعل في ميسور المرء ان يفترض ، من غير ان يبتعد كثيراً عن جادة المنطق ، ان اسلافها الأولين شكلوا ، في العصور الخالية ، جماعةً واحدة ، وتكلموا لغة واحدة ، واحتلوا مكاناً واحداً .

لقد تكلمت شعوبُ بلادِ العرب القديمةِ لهجاتٍ ساميّة عديدة . وبينا كان لعرب الشمال والجنوب لغات مكتوبة ظل عرب الصحراء أميين . وأغلب الظن أن لغات الجنوب تمتعت ، في عهود مبكرة ، بذلك الاعتبار الذي يتداعى عادةً مع الحضارة الراقية ، ولكنْ ما إن انحطت هذه الحضارة حتى تمّت السيادة للغة الشمال ، وحتى اكتسبت أخيراً شهرةً عالمية ؛ ذلك ان هذه اللغة كانت لغة النبي محمد .

وكان الاصطناع الشعري للكلام يمثل رأس المال الثقافي الوحيد عند

القبيلة العربية القديمة ، وكان شعراؤها يحتلون مركزاً مرموقاً في المجتمع . لقد كان القوم يحسبون أن قدر القبيلة رهن باختيار الشاعر كلماته . لقد كان هو داعية العرب وهجاءهم وكاهنهم الحكيم ومؤرخهم . وكان في ميسور حملاته اللاذعة أن تفل سيوف العدو وأن تكفل لقبيلته النصر . وأما قدر من حس الوحدة وجد بين القبائل الوثنية يمكن أن يرد الفضل فيه إلى اللغة كما عبر عنها في الشعر .

ولم يمل الشاعر العربي قط التغني بجود قبيلته . وبينا أدى التنافس على الماء والعشب إلى نشوب الحرب بين القبائل كان قري المسافر ضرورة في أرضه المقفرة . وكان الشاعر يحظى بما يستحقه من احترام في الاسواق المحلية العديدة التي كانت تقام في طول بلاد العرب وعرضها . وفي عُمان * ، وهَجَر ، وعكاظ وغيرها كانت القصائد الفضلى تعلق لكي يراها الناس كلهم إن لم نقل لكي يقرأوها . وفي هذه الاسواق بالذات كانت الخلافات السياسية بين القبائل تُذكى وتؤكد .

* * *

كانت الاراضي القابلة للحرث ، ولا تزال ، نادرة في بلاد العرب . ومن هنا كان العربي غير مؤهل للزراعة . لقد كان في المقام الأول راعياً وتاجراً . والواقع ان بدوي الصحراء يمثل تكيف الحياة البشرية وفقاً لبيئتها على الوجه الافضل . إنه لم يكن يهيم على وجهه عبر القفار الصحراوية ، ولكنه كان يلتمس العشب لقطعانه حيثما نبت ونما .

ولقد عمرت « العشيرة » ، وهي الوحدة الاساسية في المجتمع البدوي ، خلال عهد الامبراطورية كله ، ولا تزال قائمة حتى يوم الناس هذا . والعضو الأرشد في العشيرة هو ، في العادة ، رئيسها ، وجميع أفراد العشيرة يقسمون يمين الولاء له . وتتألف القبيلة من مجموعة من العشائر . والزعيم القبلي العربي ، الشيخ ، إنما يختاره مجلس

* في الأصل عمّان بفتح فتضعيف ، وهو تصحيف ظاهر . (المعرب)

مؤلف من زعماء العشائر ، فهو يمارس سلطته بتفويض ضمنيّ منهم . إنه حَكَمٌ ومُصْلِح لِذات البين أكثر منه حاكماً . وإذْ كان المجتمع الصحراوي يسوّي بين الناس جميعاً ويجعل منهم أفراداً متكافئين فأن كل عربيّ يقف من شيخه موقف الندّ للندّ .

لقد بنى عربيّ الصحراء حريته على أساس من انعدام القيود في الشؤون الشخصية . كان المحارب يَفْزَعُ إلى السيف اثّاراً لنفسه من كل من يُنزل به أذىً . وكثيراً ما قادت عدالة « العين بالعين » [والسن بالسنّ] إلى ضغائن دامية عُمّرت في بعض الأحيان سنوات وسنوات .

وكانت القبائل العربية تقتضي اعضاءَها ولاءً غير مشروط . وأسوأ ما يمكن ان يُلمّ بعربيّ الصحراء خسارة انتسابه القبليّ ، وهي خسارة كانت تُفضي إلى مقاطعة عشيرته له ونبذها إياه نَبْذاً كاملاً . وفي مثل هذه الحال يكون انتسابه إلى قبيلة أخرى هو سبيلَ الخلاص الأوحد . ولم يكن للحقوق والمراتب الوراثية مكانٌ بين البدو . بيد ان البِنْية القَبَلية تطورت في مكة والمدينة ، حتى في العصور الاكثر امعاناً في القِدَم ، إلى حكومة ارستوقراطية .

وكان التمر واللبن هما غذاءَ البدويِّ الرئيسيّ . وكان الجمل هو قِوام حياته . والحقّ ان الاغراض المتعددة التي سخّر هذه البهيمة لها كانت مُذهلة . فقد زوّده الجمل بوسيلة النقل وبالطعام أيضاً . ولقد اتخذ من وبره خياماً وملابس ، واتخذ من بوله دواء ، ومرجِّلاً للشعر ، وغَسولاً للبشرة يقيها أذى الشمس .

* * *

[٦] إن علم العاديّات archaeology لم يكتشف غير نتفٍ متناثرة من

آثار بلاد العرب القديمة . وهناك مواقع قليلة باليوليثية * ونيوليثية ** تؤذن بأن البلاد كانت آهلةً في العصر الحجري القديم . وبعضُ بقايا الهياكل البشرية الراقية إلى ما قبل التاريخ توحي على الأقلّ بثلاث سلالات عِرْقية : زِنجانيّة Negroid ، وشبيهة بالارمنية Armenoid ومتوسّطية Mediterranean .

والمؤرخون يجعلون من شبه جزيرة العرب موطناً للساميين . أما القول بأن شعوباً متمدنة هاجرت إلى تلك الديار فدعوى يُعوزها الدليل ، وهي على العموم متعارضة مع مُتَّجَهِ الثقافات العام في تاريخ العالم . وليس ثمة بيّنة تؤيد الارتداد من حياة الزراعة إلى رعاية القطعان أو من الحياة الحضرية إلى الحياة البدوية . بل إنه لمن المعقول أن نفترض ، على عكس ذلك ، ان السامين البُداة هاجروا من بلاد العرب عندما تضخم عدد السكان وأمسى الطعام نادراً . وإن لدينا في الواقع لوثائق تنهض برهاناً على انطلاق عدد من هذه الهجرات من بلاد العرب ، ابتداءً من عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد . في تلك السنة اندغمت جماعة ساميّة في شعب مصر الحاميّ ، وغمرتْ جماعةٌ أخرى حضارةَ بلاد الرافدين السومرية لكي نعطينا بابليّي عصرٍ متأخر . وبعد ألف عام حملتْ هجرةٌ أخرى رئيسيةٌ الاموريين من بلاد العرب إلى سورية . وكان هؤلاء هم فينيقيي التاريخ الاغريقي . وفي ما بين عام ١٥٠٠ وعام ١٢٠٠ ق. م. حملت هجرة ثالثة الآراميين إلى المناطق المحيطة بدمشق . وامتزجت شعوب الصحراء ، بوصفهم كنعانيين وعبرانيين وآراميين ، في فينيقية وفلسطين وسورية ، بشعوب تلك الديار الأصلية .

وفي ميسورنا أن نَرُدّ اهتمام مصر بشبه الجزيرة العربية إلى ما قبل خمسة آلاف سنة . ففي عام ٣٠٠٠ ق. م. استهلّت مفرزةٌ من الجنود

---

* Palaeolithic نسبة إلى العصر الحجري الاول في العالم القديم . (المعرب)

** Neolithic نسبة إلى العصر الحجري الأخير في العالم القديم . (المعرب)

المصريين أعمالاً تعدينية بحثاً عن النحاس والفيروز في يثرب (المدينة) . ولقد أفضت حملةٌ حربية شنّها الاسكندر الكبير على بابل إلى فتح أبواب شبه الجزيرة في وجه التجارة . وشجع خلفاؤه في مصر ، البطالسة ، التجارةَ في البحر الأحمر ، وانشأوا مرافئ تجارية على الشواطئ الافريقية وشواطئ شبه الجزيرة العربية .

وأول إشارة ثابتة إلى العرب حفظتها لنا الأيام هي تلك التي نقع عليها في نقش لشلمناصر الثالث ، [الملك] الاشوري ، الذي يحدثنا أنه أسَر الف جمل من جمال جندب Gindibu ، العربيّ ، عام ٨٥٤ ق. م. ويكاد لا يكون ثمة ريبٌ في ان الحضارات ازدهرت في شبه الجزيرة العربية قبل ذلك العهد بكثير ، وبخاصة في الجنوب حيث تعاونَ مناخٌ مُسْعِف وهطول امطار ملائم على جعله « بلاد العرب السعيدة » ، أو « آرابيا فيلكس » Arabia Felix عند الرومان . ولقد نهضت الصحراء الوسطى المقفرة خطاً فاصلاً ـ حجاباً من الرمل مُسْدَلاً بين ثقافتي الشمال والجنوب .

وإنما انتهت الينا من الشعوب الجنوبية اربعة أسماء . وأغلب الظن أن المَعينيين كانوا أقدم هذه الجماعات كلها ، يتلوهم السبئيون والقَتَبانيون والحَضْرَمَوْتيون . ولكن السبئيين كانوا أعظمهم شهرةً . والحقّ أن مدينتهم الرئيسية ، سبأ ، تكشّفت عن منزلة رفيعة من التنظيم السياسي . فههنا كانت مملكة انشأتها أُسَرٌ ارستوقراطية قوية ، ولكنْ كان يُعوزها ادارة مركزية متينة . وجائزٌ ان تكون ملكةُ سبأ الاسطوريةُ قد طَلَعَتْ من هناك ، على الرغم من ان المؤرخ اليهودي يوسيفوس Josephus (المولود عام ٣٧ ب. م.) يشير إلى وجود سبأ في افريقية التي قد تكون هي وَطَنَها . ويروي انها زارت سليمانَ الحكيم في اورشليم مع بطانة كاملة من الجند ورجال الحاشية [٢] ، وهو صنيعٌ ليس بالعادي

---

٢ القرآن الكريم ، السورة ٢٧ .

ولا باليسير في عهد لم تكن فيه طرق معبّدة ولم تكن فيه فنادق .

والحق أننا نجهل مصير تلك الحضارات الجنوبية ، فالتاريخ لم يدوّن لنا قصة انحلالها . والكتاب الكلاسيكيون يدْعون شعوب الجنوب الغربي « حِمْيَرِيين » ، وهو اسمٌ جامعٌ لثقافات ذلك العصر التي تشدّ بعضها إلى بعضها الآخر وشائج وثيقة . وحوالى عام ٣٥٠ ب. م. كانت اليمن وحِمْير قد أمستا مستعمرتين حبشيتين . لقد فرضت الحبشة عليهما ، طوال مئتي عام ونيف ، سيطرة متقلقلة . والواقع ان ثورات الوطنيين المتكررة أضعفت سلطان الحبشة ، وأن قوة بيزنطة الصاعدة عجلت في سقوطها . وحملت الكتائب البيزنطيةُ النصرانية إلى الحبشة ، وحمل الأحباش النصرانيةَ إلى جنوب بلاد العرب . وأمسى الدين « كرة قدم سياسية » في هذا الملعب الجنوبي . واكتسبت اليهودية أتباعاً كثيرين من أفراد الشعب ، وكان ذلك بدافع من النقمة السياسية على سادتهم النصارى أكثر مما كان بدافع من أيما إيمان ديني عميق الجذور .

كانت المستعمرات اليهودية قد قامت قبل ذلك في الجنوب ، وكانت قد أمست ، عند الغزو الحبشي ، موطدةَ الدعائم . بيد أنهـا كانت ضعيفة ، عَدَدياً ، ولم تشكل أيّ خطر كبير على الحكومة إلا بعد مجيء النصرانية . ثم إن قوّتها بلغت من العِظم حداً يجوز معه للمرء أن يفترض ان الحملة العسكرية الحبشية المخفقة والأخيرة ربما سُيِّرت انتقاماً من اليهود الذين أساءوا معاملة السكان النصارى ، وابتغاء تحطيم السلطان اليهودي في المنطقة .

وفي غضون ذلك تهدّدَتْ قوةٌ عالمية ثانية ، هي فارس ، السيطرةَ البيزنطية في جنوب بلاد العرب بخطر عظيم . وفي القرن الرابع بعد الميلاد كان الفرس قد احتلوا عُمان ، وكانوا قد بسطوا نفوذهم في اتجاه الغرب في غير ما عُسْر . والحق أن تاريخ بلاد العرب كلها في القرون القليلة الأولى التي سبقت ظهور محمد هو قصة الصراع بين الشرق

والغرب ، بين فارس وبيزنطة : النزاع الذي دام خمسمئة عام بين جبارَين قامت بلاد العرب القَزْمة حداً فاصلاً بينهما . وكان أثر هذا الصراع ضئيلاً ، نسبياً ، في الجنوب ،على حين استُشْعِر أثرُهُ الكامل في الشمال حيث انشأت كلتا الدولتين « دولةً حاجزةً » buffer state في الاراضي العربية . فلا رومة ، سَلَفُ بيزنطة ، ولا فارس وُفّقت إلى القيام بتسرّب ناجحٍ متطاولٍ عبر الفرات ، وكانت كل منهما في حاجة إلى « دافعة » buffer تصون سلامةَ أراضيها وتدرأ عنها الغزوات التي كان البدو يشنّونها عليها بين الفينة والفينة .

وانشأ الأنباط ، وكانوا في الأصل من شرق الأردن ، أول مدينة عربية حَضَرية في الشمال . وطوال فترة من العصر الهليني سيطرت عاصمتهم سَلْع أو البتراء ، على طريق القوافل بين الشمال والجنوب ، وبلغت من الشهرة شأواً جعل ذكرها يَرِدُ في التاريخ غير العربي . وأول تاريخ ثابتٍ في التاريخ النبْطي هو عام ٣١٢ ق. م. عندما صُدّ هجومٌ قام به آنتيغونوس Antigonus ، أحد خلفاء الاسكندر . [٣] وكانت سلع قُبَيْل ذلك تزهو بحصونها المنيعة ، وتتكشّف عن درجة رفيعة من الحضارة يؤكدها ، إذا جاز التعبير ، نظام ريٍّ واسع ، وهياكل مَهيبة منحوتة في الصخر الصّلْد ، وخزف يمتاز بجمال عظيم .

لقد كانت الحضارة النبْطية حضارة عربية في جوهرها ، محتفظةً بخصائصها القَبَلية ولسانها العربي برغم ما كان بينها وبين رومة من ارتباط وثيق . وطوال مئة عامٍ ونيّف ازدهرت سَلع في ظل الوصاية الرومانية . ولكن طرق التجارة انحرفت في اتجاه الشمال بعد فتْح الفرس بلاد الرافدين ، وهكذا فقدت سَلْع صفتها النافعة كحامية للتجارة الرومانية . وفي القرن الثاني للميلاد أُدْمِجَت سلع في الامبراطورية الرومانية ، فأصبحت تُعْرف باسم « المقاطعة العربية» Provincia Arabia .

---

٣ ديودوروس ، الكتاب الثاني ، الفصل الثامن والأربعون ص ٦ – ٧ .

ونهضت تَدْمُرُ – وهي مدينة أنشأتها قرب واحةٍ في بادية الشام بضعُ قبائل عربية – على طريق التجارة الشمالية الجديدة . وكان التَدْمُريون قد اعترفوا ، في فترة مبكرة من التاريخ الميلادي ، بسيادة رومة ، وكانوا قد تلقَوْا منها مساعدةً مالية تعينها على البقاء . وحين اتسعت التجارة أثرى تجار المدينة ، وحققوا خلال ذلك قَدْراً ما من النفوذ السياسي . وأسفرت حربٌ نشبت بين رومة وفارس عن تعيين زعيم تَدْمُريّ [أُذَيْنَة] نائباً للامبراطور الروماني في مصر وسورية وشمال بلاد العرب وربما في إرمينية أيضاً . وعند وفاة أُذيْنَة اتخذت أرملته ، زنوبيا ، لقبَ « ملكة الشرق » وتحدّتِ السيطرة الرومانية . وإذ حَسِبت أنها آمنةٌ في منطقتها الصحراوية المنعزلة وإذ بخَسَتْ سادّتَها الرومانَ قُوّتهم ، فقد أعلنت ثورة عدوانية حملت الرايةَ التدمرية إلى مشارف بيزنطة تقريباً . فما كان من الامبراطور الروماني ، اورليانوس ، وقد أيقظه من سباته هذا الخطرُ المتهدِّدُ أراضيَهُ ، إلا أن حشد قواته ودمّر تدمر في سلسلة من المعارك الضارية . وأسِرت زنوبيا ، وسيْقَتْ إلى رومة حيث اجتازت الشوارع مصفّدةً بسلاسل من ذهب شُدّت إلى مركبة الامبراطور الظافر . وهكذا انتهت سيطرةُ تدمر ، القصيرةُ ولكنِ المذهلة ، على جزء كبير من الشرق الأوسط .

وفيما كانت شمس تدمر تجنح للغروب أخذت قبيلة عربية جنوبية ، هي قبيلة قحطان اليمنية ، تشق طريقها شمالاً . وأسّس الغساسنة ، وكانوا فرعاً من تلك القبيلة ، مملكة قرب موقع دمشق العصرية . وفي ظل السيطرة الرومانية بلغوا شأواً من القوة والثروة بوصفهم « دولة حاجزة » buffer state واعتنقوا نصرانيةَ حكامهم . وفي عام ١٩٥ ب.م. أسس فرع آخر من تلك القبيلة ، أعني اللخميين ، مملكة الحيرة قرب خرائب بابل القديمة . وبينا اتخذت فارس من الحيرة «دولة

حاجزة » ظل كثير من سكانها وثنيين بسبب من سياسة « الزرادشتية » [٤] Zoroastrianism الفارسية غير التبشيرية . ومع ذلك فأن عناصر ذات خطر بين اللخميين أمسَوْا مسيحيين نساطرةً .

وفي القرن السادس للميلاد خفضت بيزنطة وفارس ، بعد أن أضعفتهما وأنهكتهما قرون من الصراع ، مساعداتهما المالية لغسان والحيرة ، فاذا بالانحلال السريع يُلمّ بهاتين الدولتين . وحين اصطنعت الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية سياسة الاقتصـــاد نشأ بينهما « فراغ قوى » power vacuum قُدّر له أن يستمر مئة عام . وعاد العرب سيرتهم البدائية الأولى .

وفي غضون ذلك كانت بذرة الوحدانية قد غُرِست في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها . كانت اليهودية قـد كسبت بعض الأتبـاع في الشمال والجنوب ، وكان النفوذ البيزنطي ملموساً من اليمن إلى سورية . وتبادل التجار النصارى واليهود الفكراتِ الدينية مع الوثنيين العرب على طول طرق القوافل . وتمتعت مكة بنفوذ صاعد بين المدن العربية ، وكانت منزلة « الله » ، ربّ الكعبة ، تتعاظم بتعاظم النفوذ المكي . كان الاوان قد آن للقيام بحركة إحياء ديني .

* * *

وخلال حياة عبد المُطّلب حكَمَ في اليمن نائب لأمير الحبشة كان اسمه أبْرَهة . وفي الكتب ان نائب الملك المسيحي هذا اندفع في قوة ضخمة مستهدفاً تدمير الكعبة . وأوقع فيلٌ كان مع القوة الحبشية الرعب في أفئدة العرب ، ففزعوا إلى التلال ، تاركين الكعبة في حماية الله .

---

٤ دين يقول بعبادة النار ، وكان هو دين فارس الأوحد الخاضع لسلطان الدولة . ولعل في الامكان إرجاع أصل هذا الدين إلى عبادة الشمس .

ثم إن طاعوناً أهلك الجيش الغازي وأنقذ مكة من الدمار . [٥]

وتخبرنا الرواية أنه في « عام الفيل » ذاك ولد محمد ، الرسول ، وكان والده هو عبد الله بن عبد المُطّلِب .

قِراءَاتٌ مُخْتَارة

١ - حتّي ، فيليب ك. : « تاريخ العرب » * History of the Arabs (نيويورك ١٩٥٦)

٢ - عطية ، ادوار : « العرب » The Arabs ، (بالتيمور ١٩٥٥) .

---

٥ تتحدث سورة الفيل (رقم ١٠٥) من القرآن عن حجارة دقاق رمتها جماعة من الطير لأيقاع الهزيمة بالغزاة . والمؤرخون المحدثون يخمنون أن الطاعون كان في الواقع داء الجدري ، ويشبهون بثور ذلك الداء بالحجارة التي أشار اليها القرآن .

* وقد نقله إلى العربية الاستاذان جبرائيل جبور وادوارد جرجي ونشر في بيروت في جزئين . (المعرب)

جَدْوَل كرونولوجي

لبلاد العرب قبل الاسلام

•

التاريخ	أهم الاحداث في العالم العربي	أهم الاحداث العالمية
٤٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق. ل.	اول هجرة سامية من شبه الجزيرة العربية إلى مصر وبلاد ما بين النهرين (٣٥٠٠ ق. م)	اصطناع تقويم ذي سنة شمسية مؤلفة من ٣٦٥ يوماً في مصر (٤٢٤١ — ٢٧٨١ ق . م.) . انشاء مستعمرة مصرية في يثرب (المدينة)لاستخراج النحاس والفيروز (٣٠٠٠ ق. م)
٢٩٠٠ — ٢٠٠٠ ق . ل.	الهجرة السامية الكبرى الثانية من شبه جزيرة العرب إلى سورية (٢٥٠٠ق.م)	مينا يوحد مصر العليا ومصر السفلى في مملكة واحدة (٢٩٠٠ — ٢٤٠٠ ق.م)

التاريخ	أهم الاحداث في العالم العربي	أهم الاحداث العالمية
		خوفو وخفرع ومنكورع ينشئون اهرام الجيزة (٢٥٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م) توحيد اقريطش مع سلالات حاكمة في « كنوسوس » و « فيستوس » (٢٠٠٠ ق. م) .
١٩٠٠ – ٥٠٠ ق. م.	الهجرة السامية الثالثة من شبه الجزيرة العربية إلى المناطق المجاورة لدمشق (١٥٠٠ ق. م) موسى يتزوج من امرأة عربية (١٢٥٥ ق. م) توطد دعائم المملكتين المعينية والسبئية في جنوب بلاد العرب (١٠٠٠ ق.م)	امنوفيس الرابع (إخناتون) يتصور إلهاً واحداً للعالم كله (١٣٧٥ – ١٣٥٨ ق. م) . الآخيون يدمرون طروادة (١١٨٥ ق. م) شلمانصر يرتقي عرش أشور (٨٥٩ ق. م) سطوع نجم اسبارطة . عصر هوميروس في بلاد الاغريق (٨٠٠ ق. م) . بدء حكم رومولوس ، أول ملك روماني ، على ما تقول الرواية (٧٥٣ ق.م) سرجون يرتقي العرش الاشوري (٧٢٢ ق.م) . انشاء بيزنطة (٦٦٩ ق. م) . ظهور اثينا (٦٠٠ ق. م) . نبوخذنصر ، ولي عهد بابل ، يهزم المصريين ويحول دون فتحهم الشرق الادنى من جديد (٦٠٥ ق. م) .

التاريخ	أهم الاحداث في العالم العربي	أهم الاحداث العالمية
		هيكل ديانا في افسوس ، على مقربة من المدائن ، احدى اعاجيب العالم القديم، يُبدأ في انشائه (٥٤٤ ق. م) . الفرس يفتحون مصر (٥٢٥ ق. م) . تأسيس جمهورية رومة (٥٠٩ ق. م) .
٥٠٠ ق. م – ١٠٠ ب . م.	آنتيفونوس ، احد قواد الاسكندر ، يشن هجوماً مخفقاً على مدينة سلع (البتراء) العربية (٣١٢ ق. م) .	حملة ثيرموبايلي . الفرس يدمرون اثينا (٤٨٠ ق. م) الاسكندر المقدوني الكبير يحتل مصر وينشىء مدينة الاسكندرية (٣٣٢ ق. م) هنيبعل يجتاز الألب (٢١٨ ق. م) . رومة تدمر قرطاجة (١٤٦ ق. م) . كليوباترة السابعة تحاول أن تنشىء سلالة ملكية هلينية في مصر (٤٧ – ٣٠ ق. م) . قيصر يفتح فرنسة (٥٨ – ٥١ ق. م) .
١٠٠ ب. م. إلى ٣٩٩	سلع (البتراء) تصبح ولاية رومانية (١٠٥ ب. م) . أذينة ، أمير تدمر العربي ، يهزم الفرس ويستولي على بلاد ما بين النهرين وسورية (٢٦٠ ب.م – ٢٦٣) .	أردشير الأول ينشىء دولة مركزية قوية في فارس (٢٢٦ – ٢٤٠ ب. م) . ديوقليتيانوس يعيد تنظيم الامبراطورية الرومانية (٢٨٤ ب. م) .

التاريخ	أهم الاحداث في العالم العربي	أهم الاحداث العالمية
	سقوط تدمر . زنوبيا ، « ملكة الشرق» العربية ، تحمل إلى رومة مكبلة بالاصفاد (٢٧٢ ب. م) . الحبشة تستعمر اليمن وحمير (٣٥٠ ب. م) .	الدولة الفارسية تبلغ اوج قوتها في عهد سابور الثاني (٣٠٩ – ٣٧٩ ب. م). قسطنطين يعيد توحيد الامبراطورية الرومانية (٣٢٤ – ٣٣٧ ب. م) . القسطنطينية تبنى على انقاض بيزنطة القديمة (٣٣٠ ب. م) .
٤٠٠ ب. م – ٦٢٧	الفرس يفتحون « سلع » أو البتراء (٥٤٠ ب.م) الرومان يعاودون الاستيلاء على سلع (٥٥٠ ب. م) الفرس يطردون الأحباش من جنوب بلاد العرب . بلاد العرب الجنوبية تصبح ولاية فارسية (٥٧٦ ب. م)	ألارك ينهب رومة (٤١٠ ب. م) . أتيلا يغزو ايطاليا (٤٥٢ ب. م) . الفرس يغزون سورية ويهاجمون انطاكية (٥٤٠–٥٦٢ ب.م) هرقل ، الامبراطور الروماني ، يهزم الفرس في نينوى (٦٢٧ ب.م.)

الفصل الثاني

الرّسول والقرآن والإسلام

•

لسنا نعرف على وجه الدقة غير شيء قليل عن حياة محمد المبكرة . وهذه الندرة في الاخبار ليست امراً غير مألوف في التاريخ المدوّن لكثير من عظماء العالم ، ولم تصبح الوقائع الثابتة في حياة محمد متعددةً إلا عندما شرع يعلن رسالة الاسلام . ويقول المؤرخون إنه ولد عام ٥٧٠ ب. م. ولكن هذا التاريخ ليس ثابتاً بحال من الأحوال . وتوفي والده ، عبد الله ، وأمّه [آمنة الزهرية] حاملٌ به ، وتوفيت أمه بعد ولادته بسنوات معدودات . وإذ كان يتيماً لا أخ له ولا أخت فقد نشأ في كنف جده ، ثم في كنف أحد أعمامه [أبي طالب] ، منفقاً ساعات طوالاً متوحداً في مكة ، أو في ضواحيها يرعى الغنم . وفي إمكان المرء ان يتخيل ، في يُسْر ، ما استشعره الشاب الحسّاس من وحدة وانفراد والأثر الذي كان لا بد لهذا الوضع ان يتركه في تكوينه العقلي . والواقع أن ما نُزِّل عليه بعدُ من وحيٍ لم يهبط في خواء **vacuum** ،

بل هبط في جو من الاستبطان **introspection** المحتوم والتساؤل الروحي – وهو الجو الذي يلازم في العادة حياة غلامٍ فقَدَ أباه وأمه ، وعَدِم الاخوة والاخوات .

وكان محمد في أوائل العقد الثالث من عمره عندما استخدمته ثيِّب ثرية تدعى خديجة ، وعهدت اليه في قيادة قوافلها التجارية . وكان في خدماته المخلصة لها وفي أمانته ما جذب مستخدِمتَهُ اليه ، فأذا بها تمسي زوجاً له ، على الرغم من أنها كانت تكبُرُهُ بنحو عشرين عاماً . وجائز أن لا تكون خديجة قد بلغت من الثروة ذلك المبلغ الذي تنص عليه الرواية ، ولكنها استطاعت على أية حال ان تحرره من العوز ، وان توفر له الوقت الذي احتاج اليه من اجل المغامرة التجارية ومن أجل – وهذا أعظم خطراً – التفكير الجدي .

وتنص الرواية على ان محمداً رأى في ما يراه النائم ، وكان آنذاك في الاربعين من عمره ، الملاك جبريل يتحدث اليه .[٦] وانما حدثت هذه الرؤيا ، ورؤىً تَلَتْها ، في غار قرب مكة حيث كان من دأبه أن يستغرق في التأمل ، بعيداً عن صخب الحياة المدينيّة . وفي بادئ الأمر روِّع محمد بهذه الرؤى ، وخشيَ ان يكون الشيطان هو الذي تجلّى له فيها . ولكنه ما لبث أن انتهى إلى الايمان – تشجّعه على ذلك زوجُه – بأن ما سمعه كان كلماتِ الله من غير ريب . وأنفق محمد فترة طويلة في الصلاة والصوم ، وفي إطارٍ من هذه الظروف تواصل هبوط الوحي . ولم ينسب محمد في ايما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية . على العكس ، لقد كان حريصاً على النصّ على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لابلاغِ الوحي للناس .

---

٦ راجع و . مونتغوميري واط :

W. Montgomery Watt : *Muhammad at Mecca*, **p. 39. Oxford : The Clarendon Press, 1953** .

كان محمد تقياً بالفطرة ، وكان من غير ريب مهيأً لحمل رسالة الاصلاح التي تلقاها في رؤاه . وبالاضافة إلى طبيعته الروحية ، كان في جوهره رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخُلق العربي ، وأدرك ان الاصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدّم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطاً وإلى المدينيين الوثنيين ، في آن معاً ، على نحو تدريجي . وفي الوقت نفسه كان محمد يملك ايماناً لا يلين بفكرة الاله الواحد — وهي فكرة لم تكن جديدة كل الجدة في بلاد العرب — وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الاصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب .

وكانت مهمة محمد هائلة ؛ كانت مهمةً ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية (وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتّاب الغربيين المبكّرين الرسولَ العربي) أن يرجو النجاح فى تحقيقها بمجهوده الشخصي . والزعم القائل بأن فترات تلقّيه الوحي كانت ، في الواقع ، نوباتِ صَرع ، خاطئٌ على نحو جليّ ؛ ذلك بأن من يتعرّض لمثل هذه النوبات لا يمكن أن يكون مالكاً وعيه ومنطقه إلى حدّ القدرة على النطق بمثل المقاطع المعقّدة والعميقة ، من وجهة النظر الفكرية ، التي نقع على كثير منها في القرآن . ان الاخلاص الذي تكشّف عنه محمد في أداء رسالته ، وما كان لأتباعه من ايمان كامل في ما أُنزِل عليه من وحي ، واختبار الاجيال والقرون ، كل اولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيما ضرب من الخداع المتعمّد . ولم يعرف التاريخ قط أيّ تلفيق « ديني » متعمد — حتى ولو كان صاحبه دجالاً عبقرياً — استطاع أن يُعمّر طويلاً . والاسلام لم يُعمّر حتى الآن ما ينوف على الف وثلاثمئة سنة وحسب ، بل إنه لا يزال يكتسب ، في كل عام ، أتباعاً جدداً . وصفحات التاريخ لا تقدّم الينا مثلاً واحداً على محتال كان لرسالته الفضل في خَلْق امبراطورية من امبراطوريات العالم ،

وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً .

وكانت مهمة محمد هي القضاء على النظام القَبَلي القوي الذي كان مسؤولاً عن اندلاع نار الحرب ، على نحو موصول تقريباً ، بين العرب والاستعاضة عنه بولاء لله يسمو على جميع الروابط الأُسَرية والأحقاد الصغيرة . كان عليه أن يعطي الناس قانوناً كلّياً يستطيع حتى العرب المتمردون قبوله والاذعان له ، وكان عليه أن يفرض الانضباط على مجتمع عاش « وازدهر » على العنف القَبَلي والاثّار الدموي لضروب من المظالم بعضها واقعي وبعضها مُتَوهَّم . كان عليه أن يُحِلّ الانسانيةَ محلّ الوحشية ، والنظامَ محل الفوضى ، والعدالة محل القوة الخالصة .

وطوال سنوات عديدة تلت أوائل الآيات الموحاة اليه عمِلَ محمد على بثّ دعوته بين أصدقائه الأقربين وأنسبائه الأدنين ، وكان بينهم عليّ ، ابنُ عمه وصهره ، وأبو بكرٍ خليفتُهُ الأول . ولم يجهر الرسول بدعوته إلاّ بعد أن اكتسب عدداً من الأتباع غيرَ يسير . وكان بوصفه من بيت هاشم من قبيلة قريش (سكان مكة الرئيسيين) أهلاً للحماية ، ولكن عقيدته القائلة بالايمان بإلـه واحد شكلت خطراً على مصالح القُرَشيين المالية ، وكانوا يعتمدون في حياتهم على موارد الحج الوثني إلى أصنام الكعبة . وعلى الرغم من ان عشيرته لم تعتنق عقيدته فأنها لم تستطع الاذعان لضغط القرشيين ومحاولتهم اعتبار محمد خارجاً على القانون وإهدار دمه بسبب من ذلك . بيد أن هذا الضغط ما لبث أن تعاظم واشتد ، فما كان من محمد إلا ان وجّه الكثرة الكبيرة من اتباعِهِ (حوالى ستمئة شخص) إلى الحبشة ، ابتغاء حمايتهم من أذى قريش .

* وفي عام ٦٢٠ عرف محمد نقطة تحوّل في حياته ، عندما آمن جمعٌ من الحجاج الوافدين من يَثْرِب (التي دعيت بعدُ « المدينةَ ») برسالة الوحدانية ونشروها في مدينتهم نفسها . وبعد عامين اثنين رجع

المدينيون إلى مكة ، ودعَوْا الرسول ، هذه المرة ، إلى الانتقال إلى المدينة . وإنما تمثّل الهجرة ، وهو الاسم الذي أُطلق على ارتحال النبي سراً ، من مكة إلى المدينة ، فاتحةَ التقويم الاسلامي وبداية دخول الناس في الدين الجديد أفواجاً . ٧

* * *

وطوال عشر سنوات غذا المكيون حقدهم على محمد وأتباعه ، وكان لا بد من خوض غمار معارك عديدة قبل أن يجيز الوثنيون لمحمد الحجّ إلى مكة . وانتهت آخر مقاومة مسلحة قام بها المكيون ، باستسلامهم المطلق وبدخول محمد مكةَ على رأس جماعة كبيرة من الحجاج المدينيين . وكان من أعماله الأولى في مكة تطهيره الكعبة من أصنامها الكثيرة ، مبقياً على الحجر الأسود فحسب ، ذلك الحجر الذي تقول الرواية إن ابراهيم وضعه هناك .

وباستسلام المكيين شرعت القبائل البدوية في بلاد العرب تدين بالولاء للرسول وتخضع لمفاهيم الدين الجديد كما نُصّ عليها في القرآن . وتدفق على مكة مندوبون من ارجاء شبه الجزيرة العربية كلها حتّى أمست بلاد العرب جميعها ، اسمياً على الاقل ، تؤمن بتعاليم الاسلام .

وعندما توفي محمد عام ٦٣٢ ب. م. كان في نجاح الاسلام ما زكّى ايمان خديجة بالوحي الذي تلقّاه زوجها ، وكانت العقيدة التوحيدية الجديدة في سبيلها إلى القيام بفتح روحي وماديّ لا يضارعه أيّ فتحٍ في التاريخ البشري .

* * *

٧ إذا اتخذنا من السنة التي توفي فيها صلاح الدين مثلا توضيحياً استطعنا أن نرى الفرق بين التقويمين الاسلامي والمسيحي . فوفقاً للتقويم الأول توفي صلاح الدين عام ٥٨٩ ﻫ ، أما وفقاً لتقويمنا نحن فقد توفي عام ١١٩٣ ب. م. واذ كانت السنة الاسلامية مبنية على تقويم قمري ، ومن هنا فهي أقصر بكثير من سنتنا الشمسية ، فليس في الامكان تحويل السنة المسيحية إلى سنة اسلامية بمجرد طرح ٦٢٢ سنة . ولا بد من الاستعانة على ذلك بجدول معقد .

إن الشكل المكتوب للوحي الذي تلقّاه محمد مُثْبَتٌ ، وفقاً للاعتقاد الاسلامي ، كما أنزله الله تماماً من طريق جبريل . فقد دوّن أصدقاء الرسول وأنسباؤه كلماتِه على أيما سطح تيسّر لهم الوقوع عليه ، كعظام أكتاف الضأن أو جلود الحيوانات المجفّفة ، ولكن هذه المدوّنات لم تُجْمع كلها في كتاب واحد إلا عام ٦٥١ ب. م. برعاية عثمان ، الخليفة الثالث .

والواقع أن النظام الذي اتّبع في الجمع ليفسّرُ ، بعضَ الشيء ، ذلك العُسْر الذي يجده القارئ الغَرْبي لَدُنْ تلاوة القرآن . فباستثناء السور الاستهلالية ، التي تتميّز بالقِصَر البالغ ، رُتِّبَتَ سائر السّور وفقاً لطولها — السور الطولى أولاً . وبسبب من ان طوال السّور كانت تلك التي أنزِلت خلال سنوات النبي الاخيرة في المدينة (ومن هنـا كانت زاخرة بتفاصيل متصلة بالحكم والقانون) فأن غير المسلم يجدها مملّةً بعض الشيء . إن السّور الاشدّ قِصراً والمدوّنة في مكة هي المفعمة بالحرارة الدينية وهي التي تثير شوق القارئ غير المسلم وتنتزع إعجابه .

وإذ كان ترتيب السّور غير جارٍ على أساسٍ زمني كرونولوجي فيتعيّن على المرء أن لا يتلو القرآن كما يتلو كتاب النصارى المقدس ، مبتدئاً بالفصل الاول ومتوقعاً أن يطالع دفقَـاً موصولاً من التاريخ والوحي . ولو قد اختَرنا من القرآن ، في فطنة وحكمة ، بعض قصار السور إذن لجعلنا قراءته [بالنسبة إلى الغربيين] حافلةً بالمعنى والمتعة .

وبسبب من ان مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الايقاعية ، إلى لغة أخرى ، تتطلب عناية رجلٍ يجمع الشاعرية إلى العِلم فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقّف شيئاً من روح الوحي المحمدي . والواقع ان كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب ، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على

الاسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والتغرض . ولكن حتى افضلُ ترجمة ممكنة للقرآن في شكلٍ مكتوب لا تستطيع ان تحتفظ بأيقاع السّور الموسيقي الآسر ، على الوجه الذي يرتّلها به المسلم . وليس يستطيع الغرْبي ان يدرك شيئاً من روعة كلمات القرآن وقوّتها إلاّ عندما يسمع مقاطع منه مرتّلةً بلغته الأصلية .

وإنما يجد المسلمون الهداية والألهام ، في المقام الثاني بعد القرآن ، في السّنّة ، وهي مجموعة أقوال محمد وما ثبتت صحتُهُ من أفعاله . ولقد جُمِع الحديث ، وهو الاسم الذي يطلق على هذه المجموعة ، في كتب متعددة ، ولكن أولها وأجدرها بالثقة والاعتماد هو [الصحيح] الذي نظّمه محمد البخاري في القرن التاسع [للميلاد] .

لم يهبط الوحي على محمد في خواء vacuum ، ولكن في مجتمع وثنيّ كانت له آلهته المتعددة ، وطقوسه الدينية ، بالغاً ما بلغت من الضّعة . ومن هنا فليس في استطاعتنا ان نفهم اثر الاسلام فهماً كاملاً إلا بعد ان ننظر إلى المناخ الدينيّ الذي وجد النبيّ نفسَهُ فيه . والواقع ان حياة العربي الدينية قبل الاسلام كانت تنقسم إلى شعبتين كنظامه الاجتماعي سواء بسواء ، فكانت هناك العادات والأعراف البدوية ، وكانت هناك العادات والاعراف الحضرية .

فأما قدامى البدو فكانت الصلات المختلفة بالأرواح تؤلف جمهرة الخبرة الدينية عندهم . وفي بادئ الأمر كان البدو يعتقدون ان هـذه الأرواح تسكن الاشجار والصخور ، وكانوا ينظرون اليها نظرتهم إلى ذاتيات يمكن تمييزها والتعرّف اليها . حتى إذا احتك البدو بالقبائل الحضرية أخذوا يطلقون بعض الصفات والاسماء على الأرواح حتى انتهوا إلى انشاء ميثولوجيا بدائية . ولم تكن مَناة ، إلاهة القضاء والقدر ، وجَدّ Gadd ، إله الحظ السعيد ، غير اثنين من الكائنات الكثيرة التي تعوّد البدويّ ان يقدّم اليها الضحايا والقرابين . وأخيراً استحدثت

القبائل روحاً خاصةً اعتبروها مطابقةً لذواتهم ، بل لقد ذهبوا إلى حد حَمْل آلهتهم المختارة في قِبـاء يذكّر بتابوت العهد عند العبرانيين .

وهذا التوقير لروح بعينها والخوفُ منها تطورا بعدُ إلى تعبير عن الوحدة القَبَلية . لقد أمستِ الروح رمزاً للشخصية القَبَلية ، وكـان التزامُ أحكام الديانة صنواً للولاء السياسي للمجموع . ونتيجةً لهذا الشعور اعتُبِر المروقُ منها خيانةً . ولقد نُقِل شكل من أشكال هذه العاطفة إلى كثير من ديار العالم الاسلامي . [٨]

وبتعاظم الاحتكاك بالعالم الخارجي تسربت عبادة الأوثان إلى أرواحيّة* animism البدو الغامضة . وأخيراً بدأت المماثلة ما بين روح بعينها وقبيلة بعينها تضمحل وتتلاشى . وتخطّتِ التخومَ القبليةَ آلهةٌ مثـلُ مَناة ، والعُزّى ، واللات — وهي آلهة عبدها المدينيون والبدو على حدٍ سواء . لقد كان أبناء المراكز المدينية ، بما تمتعوا به من ثروة اقتصادية أكبر ، قادرين على سَسْتَمة** systematization عبـادة الآلهة . لقد شادوا الهياكل ، واصطنعوا طبقة كهنوتية ما لبثت أن هيمنت على حياة الشعب الدينية . وكانت مكة ، بكعبتها الزاخرة بالاصنام والاوثان ، مثلاً على العبـادة المنظّمة الـتي امست نقطة الاحتراق focus لأيما قَدْر تمتّع به العَرَبي من حياةٍ روحية .

ومن بلاد العرب الوثنية اقتبس الاسلام بعض العادات والأعراف ، ولكنه طهّرها من صبغتها الوثنية . لقد احتُفِظ بالحج إلى مكة ، ولكن

---

٨ انظر برنارد لويس :

Bernard Lewis : ***The Arabs in History*** **, p. 30. London : Hutchinson's University Library , 1950 .**

* مصطلح جديد اصطنعناه تعبيراً عن الايمان بأن للناس والحيوانات والنباتات والحجارة الخ ارواحاً قد توجد في أوضاع منفصلة عنها . (المعرب)

** تعريب اصطنعناه لهذه اللفظة الاعجمية التي تفيد معنى تنظيم الفكرات في نظام **system** فلسفي أو شبه فلسفي . (المعرب)

بعد أن حطم محمد مئات الاصنام التي سادت الكعبة . وحتى تمثالا ابراهيم واسماعيل ، اللذين تذهب الرواية إلى انهما بنيا الحرَم ، أزيلا وأُقصيا . وكان سبئيو جنوب بلاد العرب الاسطوريون قد عرفوا الصيام ومارسوه ، وكانوا قد حظّروا تناول بعض الأطعمة . وقد تبنّى الاسلام هاتين العادتين ، ولكنه وجّههما نحو غايات أسمى من مجرد تهدئة الآلهة الوثنية واسترضائها .

وكان للوثنيين من غير ريب فكرة غامضة عن الحياة بعد الموت ، ذلك بأنهم جعلوا من دأبهم أن يشدّوا وثاق ناقة من النياق إلى جدث صاحبها لكي يكون في ميسوره الأفادة من المطيّة في الحياة الأخروية . صحيح أن محمداً لم يستمدّ معتقده الكامل في البعث ، بأية حال ، من هذه الفكرة ، ولكن مفهوم الحياة بعد الموت لم يكن مفهوماً ثورياً بالنسبة إلى العرب .

* * *

وبالأضافة إلى العناصر الوثنية في شبه الجزيرة العربية كان لليهودية والنصرانية أثرٌ في الحياة الفكرية قبل الاسلام . وكان تأثير اليهود الديني على العرب كبيراً ، وبخاصة على اولئك الذين سقطت الغشاوة عن أعينهم فهم بعدُ لا ينخدعون بالوثنية المتفشّية . وإلى جانب وحدانية اليهود كان لطقوسهم أيضاً بعض التأثير على العرب . وكان الاغتسال قبل الصلاة وتَوْلية الوجه عند الصلاة قِبَل بيت المَقْدس شكليْن من تلك الطقوس وجدا سبيلهما إلى الشعائر الاسلامية . ثم إن العادة الاخيرة استُبْدِل بها التوجّهُ إلى مكة عندما رفض اليهود أن ينادوا بمحمد نبيّاً . وكان كثيرٌ من صفات الله الاساسية بالنسبة إلى المعتقد الاسلامي ذا خطر عند اليهود أيضاً . وكذلك فأن كثيراً من القوانين الاخلاقية التي نقع عليها في كتب موسى والانبياء المتأخرين مُتَضَمَّنٌ في التقليد الاسلامي . ووجوه الشبه هذه لا تنطوي في نظر المسلم على أيما معنى

من معاني الاقتباس من اليهودية ؛ إنها بالأحرى تزكّي ايمان محمد بأنه كان يُبْلغ الناسَ الوحيَ الالهي الذي حُرِّف عن مواضعِه في العهود السالفة .

وعلى الرغم من ان النصرانية كانت دين كثير من غزاة شبه الجزيرة العربية ، وهذا ما جعلها غير شعبيّة بعض الشيء ، فأن كثيراً من العرب كانوا قد أمسَوْا نصارى . والواقع أن النفوذ العملي الذي كان خليقاً بالرسالة النصرانية ان تتمتع به قد حجبته المنازعات الموصولة بين الجماعات التي زعمت كل منها أن تفسيرها للحقيقة هو وحده الصحيح . وبرغم ان هذه الحال الفاجعة كانت هي القاعدة المطّردة لا الشاذّ الجاري على غير قياس فأنّ النصرانية كانت من القوة بحيث اكتسبت أتباعاً كثيرين . صحيح ان بعضهم اعتنقها لأسباب سياسية ، ولكن كثيراً منهم دخلوا فيها مفعمين بروح من الايمان صادقة . بيد أنه مثلما رفض محمد مفهومَ الالـه القبليّ كما أكّدت عليه اليهودية فكذلك شجب عقيدة التثليث النصرانية ، فاذا بهذه الأخيرة تصبح عند المسلمين بمثابة التجديف .

وكانت ثمة نقطة رئيسية في العقيدة النصرانية تركت انطباعة عميقة في نفوس العرب ، أعني الأصرار على ان ثمة يومَ حساب أو دينونة . والواقع ان اللاهوت اليهودي يكاد يكون صامتاً في ما يتصل بالحياة بعد الموت . ومن هنا تُرِك للنصارى أن يُسَسْتِموا **systematize** فلسفة الحَشْر والنشر **eschatology** . ففي المقام الثاني من الاهمية ، بعد الايمان بالله ، أكّد الاسلام على حياة المؤمن المقبلة في الجنة ، وعلى مصير الكافر في جهنم . وليس من ريب في أن كثيراً من الوثنيين عرفوا هذه الفكرات أول ما عرفوها من جيرانهم المسيحيين العرب ، فكانوا بذلك مستعدين استعداداً كاملاً لقبول تعاليم محمد الجارية في مجار مماثلة . أما مدى إلمام الرسول بدقائق اليهودية والنصرانية وتفاصيلهما فمسألة

حَدْس وتخمين ليس غير . ومهما يكن من أمر فأن كثيراً من أتباع هاتين الديانتين كانوا يقيمون في مكة والمدينة وما حولهما ، وكانت فكراتهم تتخلل الجوّ الدينيّ . بل لقد كان ثمة جماعة وثنية معروفة بجماعة « الحُنَفاء » لم تقنع بعبادة الاصنام ولكنها كانت غير راغبة في اعتناق أيٍّ من الديانتين الموحّدتين القائمتين . وأمام هذا الاهتمام المتقد في الدين يتضح ان الأوان كان قد آن لظهور نبيّ آخر — هو « خاتم الأنبياء » .

في هذا الجو ، المشحون بالريبة الكاملة بالأجانب أعلن محمد عقيدةً جعلت جميع المؤمنين أكثر من إخوة . لقد كانت مهمة الاسلام ان يحوّل قانون الشرف والوحدة القَبَلي الضاري إلى عقيدة دينية منظّمة خليقٍ بها أن تشمل البدويّ الفَرْداني **individualistic** والمزارع والمدنيّ الحضريين في آنٍ معاً . وهذه العقيدة الداعية إلى تساوي الناس أمام الله ووحدة المؤمنين في الله أحدثت تغيّراً عميقاً في تفكير العربي وسلوكه ، العربي الذي كان حتى ذلك الحين لا يكنّ غير احترام قليل لأيما شيء خارج جماعته القَبَليّة . لقد كان ثمة تعبير أصيلٌ عن المساواة ، في صدر الاسلام الأول ، تجلّى في الطريقة الديموقراطية التي اختير بها خلفاء محمد الأولون ، وانعدام التمييز العِرقي ونظام الطبقات الاجتماعية المنغلقة **caste system** .

* * *

حين نفكّر بأحد أتباع بوذا يتمثّل في خاطرنا لفظ « البوذي » ، وعندما نصف رجلاً مؤمناً بالمسيح نقول إنه « مسيحي » . وعلى هذا المنوال نجد كثيراً من الكتّاب ، الذين كان ينبغي أن يعصمهم علمهم من الوقوع في هذا الخطأ ، يطلقون على المسلمين اسمَ « المحمديين » . والواقع أن هذا يزعج المسلم ويؤذي نفسَه إلى أبعد الحدود ، إذ يوهم السامعَ بأنّ المسلمين يعبدون أو يؤلهون الرسولَ كما يعبد النصارى المسيحَ

ويؤلهونه .

إن « الاسلام » تعبير يطلق علَماً على ذلك النظام الأيمانيّ المبنيّ على القرآن ، وهو مشتق من لفظة « أسلَمَ » (أذعن) العربية كما اصطُنِعت في كثير من سُوَره [9] . وترد لفظة « الاسلام » في سُوَرٍ كثيرة بمعنى الدين الصحيح ، كقوله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » (السورة ٣ : ١٩) ، وقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (السورة ٤ : ٣) . وفي امكاننا القول إن الاسلام يعني « الاذعان لمشيئة الله » ، أو السِّلم من خلال ذلك الأذعان . ولفظة « المسلم » اسمٌ مشتق من فعل « أسلَمَ » ، وهو يعني « من أسلم نفسه لله ، وبذلك وجد السِّلم » .

والعقيدة الآلهية تحتل الحيز الاعظم من « اللاهوت » الاسلامي ، إذا جاز التعبير . ولقد كانت موضوعاً شقّ صفوفَ الفقهاء المسلمين وأحدث بينهم خلافات أساسية منذ عهد الرسول حتى يوم الناس هذا . فما هي صفة الله ، على وجه الضبط ، كما يراها المسلم ؟ هذا السؤال يجب أن يعالج في شيء من التفصيل ، ولكن ضيق المجال يجعل اللجوء إلى التعميم والمبالغة في التبسيط أمرين لا معدى عنهما .

إن روح المفهوم القرآني لله هو البساطةُ عينُها على ما يتجلى في مثل قوله تعالى : « الله لا اله إلا هو » (السورة ٢٠ : ٧) وقوله : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد » (السورة ١٦ : ٥٢) . ومن هاتين الآيتين وغيرهما انشأ المسلمون مفهوماً لوحدة الله لا يعرف اللينَ البتة ، وهي فكرة استطاعت ان تجمع العناصرَ كلّها ، « سُنيّة » كانت **orthodox** أو « هرطقية » **heterodox** ،

---

[9] انظر جب :

H. A. R. Gibb : *Shorter Encyclopaedia of Islam* **, p. 176 Leiden : E. J. Brill, 1953 .**

وتوحّد رأيها جميعاً حول هذه النقطة بالذات . وليس من ريب في أن قوة العقيدة القرآنية التوحيدية ، كما تتمثّل في سلطان هــذه الفكرة الهائل على المسلم ، قــد ضاهت قسيمها * عند اليهود . وليس يعنينا هنا أن نقرّر هل تلقّى محمدٌ الفكرة من طريق الوحي الالهي أم من طريق بعض اليهود العرب . فالواقع الذي لا شك فيه هو ان ذلك المفهوم قد مثّل خطوةً جبارة يخطوها رجلٌ عربي ، برغم ما كان يكتنفه من مئات الالهة التي غصّت بها الكعبة .

والقرآن يؤكد على أنه ليس ثمة إثم أشنع من الأيمان بأن لله شركاء ، ذلك بأنه يقول : « إن الله لا يَغْفِر أن يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشْرِك بالله فقد افترى إثمــاً عظيماً . » (السورة ٤ : ٤٩) . ويمكن تلخيص وجهة النظر السّنيّة **orthodox** بهــذه الكلمات : « الله واحد ، أحدٌ ، أزليّ . إنه لم يتخذ صــاحبــةً [زوجةً] ولا ولداً » ١٠ وفي هذا الحكم وأضرابه نقع على إنــكار واضح لمفهوم الله التثليثي عند النصارى : الآب ، والابن ، والروح القُدُس . وهذا الشجب العنيف للشّرك والفكرةُ القائلة بقدرة الله غير المحدودة يشكلان موضوعَيْ القرآن الرئيسيَّيْن .

فإذا نظرنا الآن إلى هذه الفكرة الاخرى المتصلة بالله ــ فكرة القدرة ــ وجدنا ان الله هو ، عند المسلم ، خالق الكون وسكانه . وقدرة الله أهم في نظر المسلم من محبة الله بكثير . وليس عجيباً من غير ريب أن تكون فكرة قدرة الله وقوّته أقرب إلى فؤاد العربي ، العائش في محيط

---

* قسيم الشيء : شطره المقسوم . وقد اصطنعناها مقابل لفظة **counterpart** في الأصــل الانكليزي . (المعرب)

١٠ انظر آندرسون :

J. N. D. Anderson : *The World's Religions*, **p. 63. Grand Rapids , Michigan : Wm. B. Eerdmans Publishing Company , 1953 .**

عسيرٍ قاسٍ ، من فكرة المحبة . وإنما يتضح لنا ذلك أكثر إذا أدركنا أن للفظة « الحب » عند العربي مدلولاً مادياً تصاحبهُ معانٍ جنسية **sexual** قوية . وأمثال هذه العبارات القرآنية « إن الله على كل شيء قدير » ، و « إن الله لقويٌ عزيز » ، و « وهو على كل شيء قدير » تتكرر في جوهرها ، في كثير من المواطن . وهذه المفاهيم تشكل جزءاً لا يتجزأ من الاسلام .

وفكرة كلّية القدرة الالهية لا تعني ، عند المسلم الصالح المتعلق بعمود « السّنّة » مجرد السيطرة على العالم المادي فحسب ، بل تعني السيطرة على افعال الانسان أيضاً . والواقع أن إحدى نقاط الخلاف الرئيسية مع العقيدة « السنيّة » **orthodox** إنما نشأت حول هذه النقطة : حرية ارادة الانسان مقابَلَةً بمجرى حياته المرسوم على نحوٍ سَبْقيّ . لقد ذهب مخالفو السنّة إلى القول بأن الله يجب أن يعمل في عدل ، وأن يعمل دائماً ما هو صالح لمخلوقاته ، تاركاً لهم تقرير مصيرهم الخاص . على حين ذهب أهل السنة إلى القول بأن افعال الانسان كلها مقدّرة عليه منذ الأزل ومسطورة على « اللوح المحفوظ »[11] وإذا كان ثمة أيما حلّ لهذا التناقض الظاهري ففي الامكان التماسُهُ في جواب أحد الفلاسفة المسلمين ، ابن عربي (١١٦٥ — ١٢٤٠) الذي قال إنه على الرغم من ان الله قد ُملي افعال الانسان كلها فأن علينا أن نعمل وكأنه لم يُمْلِها . ان علينا أن لا نتكل اتكالاً عبودياً على العناية الالهية من غير أن نُعْمِل تفكيرنا الخاص .

إن الآية ١٧٨ من السورة السابعة لتبرزُ وجهة النظر السّنية بقولها : « مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المهتدي ومَنْ يُضْلِلْ فأولئك هم الخاسرون » .

---

١١ راجع آندرسون :

J. N. D. **Anderson** : *The World's Religions* , p. 72 .

والسورة نفسها تبيّن أن كثيراً من الناس والجن قد خُلقوا لجهنّم . *
ولقد بولغ أحياناً في التوكيد على هاتين الآيتين وأمثالهما أكثر مما ينبغي — وهو توكيد لم يرتَحْ اليه كثير من المفكرين الاحرار في الاسلام . وأياً ما كان المعنى الذي أراده القرآن في هذا الصّدد فأنّ ضرباً ما من هيمنة الله على أفعال الانسان يبدو وكأنه جزء لا يتجزأ من الفكر الاسلامي المحافظ .

وثمة مفهوم آخر لله كان ذا شأن عظيم عند محمد ولا يزال ذا شأن عظيم عند الكثرة الكاثرة من المسلمين ، أعني المفهوم القائل بأن الله موجود في كل مكان وأن وجوده ليس مقصوراً على اىما مكان أو حيز أو زمن بعيَنْه . والحق ان السورتين الثانية والسابعة عشرة تُزَكّيان هذا المعتقد عندما تقولان : « ولله المشرق والمغرب فأينما تُولّوا فثَمّ وجه الله، إن الله واسع عليم . » (السورة ٢ : ١١٦) ، « واذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس .... » (السورة ١٧ : ٦١) . وعلى الرغم من هـذا التوكيد فأن محمداً فكّر في الله كذات entity لا ككتلة غير مُتَبَلّرة amorphous — وهو مفهومٌ عَصَمَهُ من القول بوحدة الوجود .

والاله العقلاني الواعي ذاتَهُ (personal god) جزء هامّ من التفكير الاسلامي . وينعكس هذا في قول [جلال الدين]الروميّ الصوفيّ على لسان الله : « ومع ذلك فأن قلب المؤمن يحتويني . »[12] وتقول السورة الثـامنة والثلاثون (الآية ٧٣) ان الله نفخ في الانسان من روحه . وهذا يقود المسلم إلى استشعار شخصية الله ووجوده في حياة الأنسان . وفي بعض

---

* يشير المؤلف إلى قوله تعالى (السورة ٧ : ١٧٩) « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالأنعام بل هم أضل ، اولئك هم الغافلون » . (المعرب)

١٢ راجع آندرسون :
J. N. D. Anderson : *The World's Religions* , p. 40 .

السور الأخرى التي تدعو القارىء إلى التواضع وإلى التقرّب إلى الله بَسْط للفكرة القائلة بأن الله قريب من الناس . وعلى نحوٍ مماثل ينصّ القرآن على أنه ما اجتمع ثلاثة إلا كان هو رابعهم (السورة ٥٨:٨) * . إنه قريب إلى درجة تجعل العابد في غير ما حاجة إلى رفع صوته أثناء الصلاة ، ولا عجب فقد قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسُهُ ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . » (السورة ٥٠ : ١٦) وهذه الآية والآيات التي استشهدنا بها من قبل تبيّن أن مفهوم المسلمين لله هو أكثر عقلانية مما قد يخرج به المرء من النظر السطحي في تراثهم .

لقد قيل كلام كثير في ما يتصل بصفات الله كما وردت في القرآن وهل هي ذاتُ الله أم أشياء مستقلة عنه . وعند إحدى الفئات يسود الشعور ، في ما يبدو ، بأنه إذا كانت لله صفات فعندئذ لا يكون واحداً ولكنْ سلسلةً من الصفات المتحدة . ويذهب أهل السّنّة إلى ان صفات الله ليست هي ذاتَهُ ، وليست في الوقت نفسه منفصلة عن طبيعته . إنهم يقولون بأن لله صفاتٍ يمكن أن تُدْرج في قائمة وتُبْحث حتى من وجهة نظر سلبية . ومن هنا كان في امكان المرء أن يقول لا إن الله خيّر ، باعتبار ان ذلك خليقٌ به ان يَقْصُرَهُ تعالى على مفهومنا نحن للخير ، بل إن الله ليس شريراً كما نحن شريرون . وبالطريقة نفسها نستطيع ان نصفه بأنه ليس محدوداً مثلنا ، أو ليس ظالماً ولا قاسياً ولا متحجر القلب الخ .. ، كالجنس البشري . ولعل في ميسورنا ههنا أن نستعين بكلمات مالك بن أنس (حوالى ٧١٣ – ٧٩٥) ، وهو شخصية ذات شأن في الفقه الاسلامي ، عندما كان يبحث في بعض

---

* قال تعالى : « ألم تر ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شيء عليم . » (المعرب)

صفات الله ، قال : « ... الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . »[١٣]

والواقع ان القاء نظرة على اسماء الله الحسنى التسعة والتسعين لتُعطينا فكرةً عما يعتبره السّنة أساسياً في مفهومهم لطبيعته . والقرآن يقدم الينا صُوَراً عن الله بوصفه الكلّي اللطف ، والكلّي الخبرة ، والكلّي القوة ، والكلّي المعرفة ، وغير ذلك كثير . وكلٌ من هذه الصفات يمكن أن تُبْسَط لتتمّ صورة الله في الاسلام . وإنما تتضح أهمية هذه الألقاب من دعوة المؤمن إلى اصطناعها ، ذلك بأن السورة السابعة (الآية ١٨٠) تقول : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . »

وإذا اردنا الأجمال استطعنا القول إن في الاسلام ايماناً بوحدانية الله وقدرته الكاملة ، ووجوده في كل مكان ، وعلمه بكل شيء ، ووعيه ذاتَهُ ، وطبعاً بجميع الصفات التي تعدّدها « اسماؤه الحسنى التسعة والتسعون » .

* * *

وواجبات المسلم الدينية الرئيسية تدعى في بعض الاحيان « أركان الاسلام الخمسة » . وهذا الأطار قوامه الأيمان ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت . وهذه الاركان الخمسة هي التي تؤلف شعائر الاسلام بالنسبة إلى المسلم العاديّ ، ومن خلال التزامها يتوقّع أن ينأى بنفسه عن مصير الكافرين . وإعلان الايمان يسيرٌ جداً : « لا إلـه إلا الله » . ومجرد النطق بهذه العبارة يجعل المرء في نظر الكثرة من المسلمين ، مسلماً . وفي امكاننا ان نعزو جانباً كبيراً

---

١٣ راجع تريتون :

A. S. Tritton : Islam — Belief and Practices , p. 36 London : Hutchinson's University Library , 1954 .

(وقد نقلنا النص عن الشهرستاني ، طبعة مصر ، ١٣١٧، ص ١١٨ على هامش الملل والنحل لابن حزم) . (المعرب)

من قوة الاسلام إلى هذه العقيدة البسيطة ، ولكنِ الحيوية ، التي تقطع بضربة واحدة شجرة الوثنية الميتة وتؤكد وحدة الله . وإنما يظهر ما لهذه العبارة من سلطان على المسلم في الطرائق الكثيرة التي يصطنعها بها في حديثه اليومي وعبادته اليومية .

والركن الثاني من أركان الاسلام هو الصلاة . إن على المسلم أن يصلي ، على الأقل ، خمس مرات في اليوم ، في ساعات مقرّرة ، مصطنعاً في ذلك صِيَغاً لفظية بعينها وأوضاعاً جسمانية بعينها . وإنما يُعْلَن حلولُ وقت الصلاة ، عادة ، بصوت المؤذن مردّداً هذه الكلمات : « الله اكبر . اشهد ان لا اله إلا الله . اشهد ان محمداً رسول الله . حيّ على الصلاة . حيّ على الفلاح . الله اكبر . » وفي أذان الصبح يضيف المؤذن نصيحة تقول بأن الصلاة خير من النوم . ومهما يَتْلُ المسلم في صلواته فأنه يستهلها أبداً بالفاتحة — أُولى سُوَر القرآن — التي تقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالِكِ يوم الدين . إياك نعبُدُ وإياك نستعين ، إهْدِنا الصِراط المستقيم ، صِراطَ الذين أنعَمْتَ عليهم ، غيرِ المغضوب عليهم ، ولا الضالين . »

* * *

والركن الثالث هو صوم رمضان ، الشهر التاسع من السنة الاسلامية . فخلال ساعات النهار من ذلك الشهر يمتنع المسلمون عن الطعام والشراب والتبغ والاتصال الجنسي . وهم يعتبرون أن النهار يبدأ عندما يصبح في امكان المرء أن يميّز الخيط الابيض من الخيط الأسود ، وينتهي

عندما يمسي ذلك أمراً متعذّراً . وبسبب من أن التقويم الاسلامي القمري يُنَقّل رمضان من فصل إلى فصل فأن المسلمين يصومونه في الصيف أحياناً . وحين يحدث ذلك في البلاد العربية الحارّة يصبح الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات النهار الطويلة امتحاناً حقيقياً للأيمان . ويبدو أن من أغراض الصوم ان يدرك الغنيّ معنى الجوع وبذلك يأخذه العطف على الفقير . ثم إن الصوم ولّدَ ضبطاً ذاتياً عند شعب كان بطبيعته انفعالياً شديد العناد .

والحج إلى مكة ، مرةً في العمر على الأقل ، هو رابع ركن من أركان الايمان في الاسلام . فإذا سَمَحَ الزمان بذلك للمسلم اتخذ سبيله إلى المدينة المقدسة في وقتٍ بعينه . حتّى إذا اجتمع شمل الحجيج هناك ، ارتَدَوْا ثياباً بسيطة غير مَخِيطة وأدّوْا مجموعة من الشعائر الدقيقة طوال بضعة أيام . والطواف بالكعبة ، والسعي بين هضبتين صغيرتين مجاورتين [الصفا والمروة] ، والشخوص إلى جبل عَرَفات الباعد اثني عشر ميلاً ، إن هذه كلها تؤلف بعض عناصر الحج . والواقع ان كثيراً من العادات المتصلة باحتفال المسلمين بالحج يشبه ، في شكله ، طقوس العرب الدينية قبل الاسلام ، ولكن الغرض قد تحوّل الآن من استرضاء الالهة إلى عبادة [الاله الواحد] . ولقد كان الحج ولا يزال قوةً موحّدة في الاسلام إذ يجتمع المسلمون ، في موسمه ، من بلدانٍ متناثرة في أطراف الارض ، كالصين واندونيسيا ، واميركة اللاتينية ، لأداء شعيرةٍ دينيةٍ مشتركة .

وآخر واجبات المسلم التقيّ ، التي لا يُقْبَل منه ما هو أقلّ منها ، إيتاء الزكاة . ذلك بأن محمداً ، وهو نفسُهُ كان يتيماً ، استشعر الحاجة إلى مدّ يد العون الجماعيّة إلى الفقير . ومن أجل العناية بأمر المُعْوِز والمعدِم شُرعت الزكاة . وكان مقدارها يبلغ ، عادة ، اثنين ونصف في المئة من رأس مال الفرد ، وكانت في الأصل تُجمع على أيدي جباة

رسميين يعودون بدَوْرهم فيشرفون على انفاقهـا وتوزيعها . أمـا في العصور الحديثة فقد أمست الزكاة هِبَةً اختيارية تُعْطى بالاضافة إلى أية ضريبة حكومية أخرى .

في هذه الاركان التي شرحنا نقع على سبب رئيسي من أسباب قوة الاسلام . لقد مزج الاسلام ما بين الاصلاح الاخلاقي والعبادة الدينية مزجاً ينسجم انسجاماً رائعاً مع امزجة العرب وحاجاتهم . وقد كان في مجرّد محدودية هذه الالتزامات الدينية ما راق للوثنيين حيثما وجـدهم الاسلام . وكان ثمـة شيء مُرْضٍ إلى أبعد الحدود في ادراك المرء أنه امتثل أوامرَ معتقده . وأياً ما كانت هذه الأوامر عسيرةً من النـاحية الجسدية فأن في الامكان امتثالها . ومن هنا فنادراً ما يكون المسلم عابداً مخيَّب الآمال غير واثق أبداً من أنه قد عمل بموجب أحكام شريعتـه الدينية الخـاصة .

والآن فلنقارن بين المعتقدات الاسلامية الرئيسية والمعتقدات المسيحية الرئيسية . والواقع أنّ وجوه الشبه التالية لا تحتاج إلى بَسْط أو تفصيل . ففي كلا الدينين إجلالٌ واحترام لانبياء « العهد القديم » ولحـكاية الخلْق التوراتية . ولكليهما وجهات نظر متشابهة حول الحياة الأخرى وحتمية حلول يوم الحساب أو الدينونة . وفي ما يتصل بالمسيح نجـد قَدْراً مدهشاً من الاتفاق بين الاسلام والنصرانية . فالمسلم يشـارك المسيحيّ توكيده على أن المسيح وُلد من أمّ عذراء ، وأنه معصوم عن الخطأ (وهي دعوى لم يزْعم المسلمون مثلَها لمحمدٍ نفسه) ، وأنه اجترح كثيراً من المعجزات وفيهـا إحياء الموتى ، وأنه حيّ وفي السماء مع الله .

والواقع أن الخلاف الاساسي بين الاسلام والنصرانية ناشيء مـن مفهومهما لله . فوحدانية الله المطلقة هي الأساس الذي بُني عليـه الاسلام ، ولكن هذه الوحدة تتخذ في النصرانية شكل التثليث : الله

الأب ، والله الابن ، والله الروح القُدُس . والاسلام هو وحيٌ من الله في القرآن ، ولكن النصرانية هي وحي من الله بواسطة ابنه يسوع المسيح . ومن ثمّ كان رمزُ الله الارضيّ ، عند المسلم ، هو القرآن ، ولكن الرمز الاساسي عند النصراني هو عناصر القربان المقدس التي تمثل المسيح وموته على الصليب تكفيراً عن خطايا العالم .

والله عند المسلم هو المهيمن الذي يسيطر على مظاهر الحياة اليومية جميعاً . فالتواصل الاجتماعي ، والعلاقات العائلية ، والعمل ، والسياسة ، والأعراف ، وعلم حفظ الصحة ، وفي الواقع ، كل مظاهر الحياة خاضعة لسلطان الله . إن الاسلام رسالة اجتماعية تتمتع فيه مصلحة المجتمع الكلية بأهمية رئيسية . فالفرد ، بما هو فرد ، محجوبٌ دائماً بالمجموع . أما المسيحيون فيشعرون ان الله هو المخلّص ، والخلاص الفردي من خلال الايمان بيسوع المسيح يلعب الدور الاساسي في صلة الله بمخلوقاته . إن التوكيد الأساسي ، في الاسلام ، منصبّ على قدرة الله . ومن هنا يذعن المسلم التقي له تعالى في غير تردّد ولا مناقشة . أما في النصرانية فمحبة الله لا قدرتُهُ هي موضوع التوكيد . ومن هنا فان النصراني لا يستشعر ان الاذعان شرطٌ لتحقيق الخلاص . إن الايمان وارتضاء محبّة الله هما عند النصراني المساعدان الضروريان للاتحاد به تعالى .

ولم يكد الاسلام يُولد حتى واكبَهُ النجاح والفتح ، في حين واجهت النصرانية عدة قرون من الاضطهاد القاسي . والحق ان التوكيد النصراني التاريخي على الألم وإماتة الجسد يكاد يكون مفقوداً بالكلية في الاسلام كما أراده الرسول . والثنائية المسيحية ، ثنائية الجسد والروح ، هي في نظر المسلم شيء غير معقول ، أو في أحسن الاحوال شيء غير واقعي . والزواج مَثَلٌ على اختلاف الرأي بين الدينين في هذا المجال . فشعائر الزواج هي عند المسلم شعائر شرعية لا تنطوي على أيما مسحة

من القداسة . أما المفهوم النصرانيّ فروحيّ إلى حد بعيد — إنه صورة أرضية لاتحاد المسيح بكنيسته . ومن هنا فأن سرّ sacrament الزواج في المسيحية ، يجعل الاتصال الجنسي عملاً شرعياً ليس غير ، أما في الاسلام فالحبّ وحده يطهّر الجنس sex ويحيطه بهالة قدسية .

والاسلام في أساسه دين عمليّ . فالقواعد والأنظمة التي ينصّ عليها القرآن ليست جامدة ، ولقد كُيِّفَتْ وفقاً لما قضت به الاحوال والظروف . وهذه السياسة إنما يؤيدها كثيرٌ من المسلمين عندما يستشهدون بالآية القرآنية التي مفادها أن الله يريد أن ييسّر السبيل للناس . إن المسلم ليجد أن في ميسوره التزام احكام دينه ، وهكذا ينْعم بالأمن وطمأنينة النفس .

أما العقيدة النصرانية كما وضعها المسيح والرّسل الاولون في « العهد الجديد » فلا تحتمل أيّ تعديل ، وهي واجبة الاتّباع . إنّ هدف النصرانية الممعن في الروحية ، ذلك الهدف الذي هو الانتصار على ضَعْف الجسد ، يكاد يكون متعذّر التحقيق في هذه الحياة ، ولولا محبة الله اذن لكان خليقاً بحياة المسيحي أن تكون سلسلة من ضروب الاخفاق والخيبة التي لا سبيل إلى التغلب عليها . إن في إمكان المسلم ان يبلغ مثَل دينه الأعلى هنا على سطح الارض ، ولكن النصراني يتطلع إلى الاتحاد بالمسيح في المستقبل بوصفه غاية الغايات في حياته الدينية .

ورمزية كل من الدينين تؤكد ، من جديد ، فلسفتهما المختلفة إلى حد بعيد . ففي شكل المصلي المسلم المتقوّس ، وفي شكل الكعبة المكعّب ، وفي مستطيل الجامع المقبّب ينعكس الشعور الاسلامي بالاستقلال الذاتي . إن المسلم لا يستشعر أن الله هو « هناك فوق » ، بل يستشعر أنه موجود في ذات نفسه * . وعلى الرغم من ان كثيراً من أتقياء

* أي في ذات المسلم (المعرب)

النصارى يستشعرون أن الله جِدّ قريبٍ منهم في شخص يسوع المسيح ، فأن الرمزية النصرانية ، من الناحية التاريخية ، قد عبّرت عن نفسها في بَسْط اليد التماساً للعون الخارجي . واليدان المتشابكتان المتضرعتان مرموزٌ اليهما في النصرانية بالبرج القوطيّ الموجّهِ رأسُهُ نحو السماء ، لا نحو المتضرّع نفسِه .

ويبدو ان القرآن يؤكد أن الفروق بين النصراني والمسلم ليست هي تلك التي تشكّل الفرق بين الجنة والنار . فالسورة الخامسة (الآية ٦٩) تقول : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . » وهذا يدل على ان التعاليم القرآنية تضع النصارى على قدم المساواة مع المسلمين . وتنصّ السورة نفسها ، في آيتها الثانية والثمانين على ان النصارى هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا — وهي عاطفة خليقٌ بها ان تلطّف بعض الشيء من أيما عداء قد يكنّه مسلمٌ لمسيحي . ويتضح من هذا كله ان الاسلام والنصرانية يتفقان في كثير من القضايا الهامة، ولكن ثمة إلى جانب هذه القضايا كثيراً من النقاط التي يختلفان فيها ، بوضوح مماثل ، اختلافاً كبيراً .

* * *

وعلى الرغم من أن أيما صيغة رسمية جامعة لأحكام الأيمان الاسلامي لم تحظَ في أيّ يوم من الأيام بموافقة الكثرة الكبيرة من المسلمين فأن هذه الكلمات المنسوبة إلى محمد تبدو وكأنها تقدّم الينا عقيدة بسيطة تنتظم جوهر الاسلام : « على المسلم ان يؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ... » [١٤]

وفي استطاعتنا أن نجد صورةً عن العقيدة أكثر شمولاً في هذه

---

١٤ راجع آندرسون :

J. N. D. Anderson : *The World's Religions* , **p. 72** .

الكلمات التي تُنْقش ، عادةً ، على شواهد القبور :

« إنه يشهد أن لا الـه إلا الله ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وان الجنة حق والنار حق ، وانه يؤمن بقضائه كله خيراً كان أم شراً . القرآن كلمة الله، أُوحي به وليس بمخلوق ، وان الخير والشر من عند الله . وإن الله سوف يُرى ، من غير ريب ، يوم القيامة .

« إن كل ما يُعْبَدُ بين عرشه تعالى وأساس الأرض سوف يفنى إلا وجهه . الاسلام ما أرسل ؛ الدين ما سَنّ ، الحق ما قال ، العدل ما أمر . »[١٥]

قراءَاتٌ مُخْتَارة

١ – آندرسون ، ج. ن ، د. : « اديان العالم » Anderson , J. N. D. : *The World's Religions* (غراند رابدز ١٩٥٣)

٢ – تريتون ، آ. س. : « الاسلام – معتقداً وشعائر » Tritton , A. S. : *Islam — Belief and Practices* (لندن ١٩٥١)

٣ – واط ، و . مونتغوميري : « محمد في مكة » Watt, W. Montgomery : *Muhammad at Mecca* (اوكسفورد ١٩٥٣)

---

١٥ راجع تريتون :

A. S. Tritton : *Islam — Belief and Practices* , p. 42 London : Hutchinson's University Library, 1954 .

جَدْوَل كْرُونُولوجيّ

لحيـاة محمد [١٦]

•

حوالى ٥٧٠ ب. م.	مولد محمد في « عام الفيل » .
٥٧٠ – ٥٧٢	محمد يقضي سنتين في البادية حيث أرضعته حليمة السعدية .
٥٧٦	وفاة أمه . جده عبد المطلب يكفله .
٥٧٨	وفاة جده . محمد يعيش في كنف عمه ابي طالب .
حوالى ٥٨٥	محمد يشترك في حرب الفجار .
٥٩٥	محمد يتزوج ، في الخامسة والعشرين من عمره ، خديجة بنت خويلد (وكانت قرشية من بني) أسد .
٥٩٥ – ٦١٠	محمد ينهض بأعباء مشروعات زوجته التجارية .
٦١٠	الوحي يهبط على محمد ، أول ما يهبط ، في سن الأربعين .
٦١٣	محمد يجهر بالدعوة .
٦١٥	محمد يوجه معظم المسلمين إلى الحبشة لكي يكونوا في مأمن من الاضطهاد .

---

١٦ التواريخ منقولة من كتابي مونتغوميري واط : « محمد في مكة » *Muhammad at Mecca* و « محمد في المدينة » *Muhammad at Medina* (اوكسفورد ، مطبعة كلاريندون ، ١٩٥٣ و ١٩٥٦) .

٦١٩	وفاة ابي طالب وخديجة .
٦٢٠	أول جماعة من أهل المدينة تتبع تعاليم محمد .
٦٢٢	الهجرة . محمد وأتباعه يشخصون إلى المدينة . بدء السنة الهجرية .
٦٢٧	حصار المدينة . المكيون يبذلون قصارى جهدهم للقضاء على نفوذ محمد . المسلمون يكسبون « معركة الخندق » .
٦٣٠	الفتح . المسلمون يفتحون مكة ويضعون حداً للمقاومة الجدية ضد الاسلام في شبه الجزيرة العربية .
٦٣٢ (٨ حزيران – يونيو)	وفاة محمد .

مُعجَمٌ خَاصّ

بالمصطلحات الاسلامية ★

الشهادة	:	الاقرار الاسلامي بالايمان : «لا اله إلا الله ، محمد رسول الله » .
الصلاة	:	الصلاة الاسلامية ، وتؤدى خمس مرات في اليوم ، في أوقات معينة .
الزكاة	:	الضريبة التي تجبى لأعالة الفقراء . إنها تبلغ اثنين ونصفاً في المئة من رأس مال الفرد المسلم ، وتؤدى مرة كل عام .
الأمير	:	أحد الالقاب التي تطلق على الخلفاء . (امير المؤمنين) .
الفاتحة	:	السورة الاولى من القرآن ، وهي تؤلف جزءاً من جميع العبادات الاسلامية .

★ لما كان كثير من المصطلحات التي يوردها المؤلف جزءاً من لغة القارئ العربي وثقافته العامة فقد رأينا أن نكتفي هنا بجانب من هذا المعجم المصطلحي ليس غير .

الهجرة	:	هجرة المسلمين من مكة عام ٦٢٢ ؛ بدء التقويم الاسلامي .
الامام	:	من يؤم الناس في الصلوات الجامعة .
« المرابط »	:	« القديس » أو الولي ؛ ضريح الولي .
المئذنة	:	برج الجامع ، ومنه يدعو المؤذن الناس إلى الصلاة .
المؤذن	:	موظف من موظفي المسجد يدعو الناس إلى الصلاة (خمس مرات في اليوم) .
الباشا		الحاكم التركي ؛ ممثل السلطة العثمانية في البلدان المفتوحة .
قريش		القبيلة التي كانت تهيمن على مكة في عهد محمد . وكان محمد من بني هاشم ، وهم بيت من بيوتات قريش .
الراشدون	:	خلفاء محمد الاربعة الأول : ابو بكر ؛ عمر ؛ عثمان ؛ علي .
السيد	:	المتحدر من السلالة النبوية ، لقب تشريف يصطنع في المقام الأول في بلاد الشرق الأدنى .
الشيخ	:	زعيم القبيلة أو رئيس الجماعة الدينية .
العلماء	:	فقهاء الشرع الاسلامي .

الفصل الثالث

الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون

•

١. الخلفاء الراشدون الاربعة

تركت وفاة الرسول الاسلامَ الوليد من غير قائد . فتنافست في مكة على خلافته ، ثلاث جماعات . فأما الجماعة الأولى فأيدت علياً ، صهر محمد [وابن عمه] وذهبت إلى انه هو وحده الخليفة الشرعي . ومما زاد اتباعَ عليّ هؤلاء ، أو العلويين ، تشبثاً بدعواهم إيمانُهم بأن منطق الأشياء يحتّم ان يكون الله قد قضى بأن يخلف محمداً خلفاء من أقربائه الأدنين .

وكان الرسول قد خفّض ، في حربه ضد الوثنية ، دَخْل الارستوقراطية المكية بالغائه الرسم الذي كانت تفرضه على المتعبدين في مزارات البلد الوثنية . وهكذا سعى هؤلاء الارستوقراطيون — وهم الفرع

الأموي من قبيلة قريش [١٧] ، وكانوا قد دخلوا حديثاً في الاسلام — إلى استعادة ثروتهم القديمة ونفوذهم السابق ، من طريق الدين الجديد .

أما الجماعة الثالثة من الطامحين إلى الخلافة فأكدت على العرف السائد آنذاك بين العرب والقاضي بأن يختار « ارشدهم وارجحهم عقلاً » زعيماً وقائداً . وقد كُتِبت الغلبة لهذا الاتجاه ، فانتخب ابو بكر ، عم الرسول [أي والد زوجه عائشة] ، خليفة له ، وبذلك كان أول الخلفاء الراشدين الاربعة . [١٨]

وكان ايمان كثير من الزعماء القبليين في شبه جزيرة العرب رقيقاً ضحلاً ، فلم يكد الرسول يلتحق بالرفيق الأعلى حتى أطلعت الثورة رأسها . ومن هنا كانت مهمة ابي بكر الأولى هي إعادة توحيد هذه القبائل ؛ ولقد وُفّق إلى اداء هذه المهمة كاملةً ، في مدى ستة أشهر ، وبقيادة خالد بن الوليد العسكرية البارعة . ثم إن الزخم المكتسَب في هذا النضال الداخلي تطلّع إلى الخارج التماساً لفتوح جديدة .

ولعل الاندفاعات الأولى إلى ما وراء بلاد العرب كانت مَغازيَ غير منظمة قامت بها قبائل فردية بحثاً عن الغنيمة . وكانت قبائل بكاملها قد هاجرت ، في الايام السالفة ، من بلاد العرب ، من أجل العثور على مراعٍ أكثر اخضراراً . ولكن هذه الهجرات كان يعوزها شيء تمتعت الحركة الجديدة بمقدار منه وافر ، أعني قوة الاسلام التماسكية التي شدّت الزعماء القبليين وجمهور العامة برابطة موحّدة من الايمان .

---

١٧ كان القرشيون هم سكان مكة . وكان الرسول من بني هاشم ، وهم بيت من بيوتات قريش .

١٨ الخلفاء الاربعة الراشدون هم ابو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان، وعلي ابن ابي طالب . وكان ابو بكر وعلي معروفين، بخاصة ، ببساطتهما وتقواهما . وكثيراً ما يتحدث المسلمون اليوم عن عهد الراشدين بوصفه عصر الاسلام الذهبي ، ويلح كثير منهم على ضرورة العودة إلى أيام الخلفاء الأولين المتسمة بالورع .

وكانت تهيمن على الديار المجاورة لبلاد العرب ، خلال القرن السابع ، امبراطوريتان اثنتان : الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية . وكان ابناء هذه الديار الاصليون يرزحون تحت عبء الضرائب الجائرة التي فرضها عليهم سادتهم الاغريق والفرس وتحت نير حكمهما الفاسد . وهكذا لم يجد العرب من السكان غير مقاومة يسيرة عندما أوغلوا في الاندفاع نحو العراق وسورية . وبعد معركة أجنادين الدموية ، في ٣٠ تموز (يوليو) عام ٦٣٤ ، فُتحت أبواب فلسطين كلها في وجه الغزاة . [وفي ايلول – سبتمبر – من عام ٦٣٥ وبعد حصار دام] ستة اشهر سقطت العاصمة السورية ، دمشق ، في أيديهم . وبذلك أمسى أول انتصار من انتصارات العرب على البيزنطيين حقيقة واقعة .

وفي عصر كان « السلب والنهب » فيه هو القاعدة التي يتبعها كل جيش منتصر لدن دخوله مدينةً ما ، يبدو العهد الذي أعطاه خالد لأهل دمشق انسانياً إلى أبعد الحدود ومعتدلاً إلى أبعد الحدود . ويبدو جلياً ، في الواقع ، أن الكتائب العربية اعتبرت نفسها محرِّرة للشعب المضطهد وحاملة رسالة الاسلام اليه في آن معاً . وقد اتُّخِذ من شروط الاستسلام هذه نموذجٌ احتُذِي في ما بعد عند فتح المدن السورية والفلسطينية الاخرى . [واليك عهد خالد لأهل دمشق كما أورده البلاذري] :

بسم الله الرحمان الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها : أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يُهدَم ولا يُسكَن شيء من دُوْرهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لا يعرض لهم إلا بالخير إذا أعطوا الجزية»[19]

[19] راجع حتي :
Philip K. Hitti : *History of the Arabs* , p. 150 .

وواحدةً بعد أخرى استسلمت المدن السورية حتى لقد بلغ العرب حدود سورية الطبيعيةَ في الشمال ، أعني جبال طوروس .

وكان مناسباً إلى أبعد الحدود أن تعطى هذه الشروط الانسانية في مطلع عهد الخليفة الورع عمر بن الخطاب . وكان عمر معروفاً ببساطته البالغة ، ولقد كان بابه مفتوحاً ، أبداً ، للرعية . والروايات تصوّره وقد دخل بيت المقدس ، بعد الفتح ، مرتدياً ثوباً صوفياً كان في أرجح الظن مرقعاً ، [20] وليس يرافقه غير خادم واحد . [21] وبعض المؤرخين يذهبون إلى القول بأن عمر ، وهو رجل دولة ثاقب الرأي ، كان هو القوة الحقيقية من وراء خلافة ابي بكر . [22] والواقع أن الانظمة التي وضعها لأدارة الولايات عُمّرت بعد وفاته فترةً طويلة من الزمان .

وفي غضون ذلك كان العرب قد احتلوا ، في الجبهة العراقية ، المدائنَ ، عاصمة بلاد فارس ، حيث احتكوا بحضارة لم يَقُمْ في خيالهم أن يقعوا على مثلها قط . ومثلَ الصبيّ الصغير الذي ورث دكان الحلوى ذُهل المحارب العربي حين وقع بصره على الكنوز الفارسية مطروحة عند قدميه . ومن ثم انغمس في ضروب من الاسراف والاشتطاط حطمت رغبته في القتال .

وفي بادئ الأمر أحرز السلاح العربي انتصارات هيّنة في العراق حيث رحّب بالجيوش العربية شعبٌ ساميّ ساخط سحقته الضرائب الثقيلة . بيد أنه ، فيما تقدمت الحملة شمالاً ، استجمع الامبراطور

---

٢٠ راجع طبقات ابن سعد ، المجلد الأول ، ص ٢٣٧ – ٢٣٩ .

٢١ راجع ادورد عطية :

Edward Atiyah : *The Arabs* , **p. 36** .

٢٢ راجع برنارد لويس :

Bernard Lewis : *The Arabs in History* , **p. 36 .**

الفارسي قواه الآرية ، فلم يوفق العرب إلى احراز الانتصار النهائي إلا بعد عشر سنوات .

وبينا كان العرب يخضعون فارس والعراق في الشرق زحفت كتائب عمر بن الخطاب إلى مصر . ومن طريق الفَرْماء وبابليون [ممفيس القديمة] إلى أبواب مدينة الاسكندرية الجبارة انطلقت راية النبي السوداء . وعجّل موت هِرَقْل ، الامبراطور البيزنطي ، في سقوط الاسكندرية ، فخضعت لحكم العرب في أوائل عام ٦٤٦ .

وفي عهد عثمان ، الخليفة الثالث ، اندفعت القوات العربية غرباً وجنوباً بحثاً عن الثروة . ففُرِضت الجزية على قرطاجة ، وأُخضِعَ بربر طرابلس الغرب . وبُني أول اسطول عربي ، وبه استولى العرب على جزيرة قبرس ، وغزَوْا رودس ، ودُمّر الاسطول البيزنطي عند الشاطئ الليقيائي [معركة ذات الصواري] .

* * *

ثم تولى الخلافة [بعد عثمان] علي بن ابي طالب ، وهنا يحسن بنا أن نلتفت قليلاً إلى الشؤون السياسية في بلاد العرب نفسها . فقد كان عثمان قد أسند ، في أثناء خلافته ، كثيراً من مراكز الدولة البارزة إلى أنسبائه . وأدى اتهامه بمحاباة ذوي قرباه إلى مصرعه على أيدي جماعة على رأسها محمد ابن الخليفة ابي بكر . وكان في مبايعة عليّ بن ابي طالب خليفةً ما حمل أحد انسباء عثمان ، معاوية [بن ابي سفيان] أمير سورية ، على اعلان الثورة . وبحيلة من الحيل ، وفّق معاوية إلى اخضاع شرعية خلافة عليّ للتحكيم ، مما أدى آخر الأمر إلى خلعه .[23]

[23] في بادئ الأمر لم يكن جيش علي وجيش معاوية راغبين في القتال ؛ إذ كيف يمكن لسبيل الجنة أن يمهد للمسلم الذي قضى في معركة خاضها ضد مسلمين آخرين ؟ ان النبي لم يعد بالجنة غير اولئك الذين يموتون في سبيل حمل رسالة الاسلام إلى الكفار .

وحين نشبت المعركة أحرز علي نجاحاً مبدئياً. فلم يكن من معاوية إلا أن رفع المصاحف على رؤوس حراب جنده ، وبذلك اكره علياً – وكان قليل الحظ من الدهاء السياسي – على القبول بالتحكيم الذي أدى آخر الأمر إلى فقدانه منصب الخلافة .

وهذا الخلع أخرجَ جماعة متعصبةً من أتباع عليّ ، هي جماعة الخوارج ، وقوّى موقف معاوية وادّعاءه ، في ما بعد ، الحقّ في الخلافة ، وهو الذي كان عاملاً من عمال الدولة ليس غير ، بعد أن وضعه الخلع على قدم المساواة مع عليّ .

وفي عام ٦٦١ صرع أحد الخوارج عليّ بن ابي طالب، فكان في ذلك إيذانٌ بانقضاء عهد الخلافة الراشدية . ذلك بأن معاوية ، مؤسس السلالة الأموية ، جعل الخلافة وراثيةً بأن عيّن ابنه ، يزيد ، أميراً للمؤمنين من بعده .

٢١. الخلفاء الأمويون

وكما يثير المحراث الذي يشقّ بطن الصحراء الغبارَ من حوله ، كذلك أثار الاسلام عقول العرب البسطاء وأفئدتهم . لقد تخلّل الدينُ الجوّ كله . فكان في ميسورك ان تستنشق ريّاه في الهواء الذي يكتنف مكة . فليس من غير المألوف ، بعد ذلك ، أن يختلف الناس حين يفرغون للتفكير في الموضوعات الدينية ويتجاذبون أطراف الحديث حولها . إن الظاهرة غير المألوفة هي أنه لم تنشأ خلافات أكثر حول مسائل حيوية جداً كمسألة الخلافة .

والواقع ان أتباع عليّ كانوا قد هُدّئوا ، موقتاً ، في عهد ابي بكر وعمر ، ذلك العهد الذي غلبت عليه روح التقوى ، ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا بأسباب الصخب ، يوم افسدت أسرة عثمان الحكمَ . وفي بادئ الأمر وجد هؤلاء العلويون الوحدةَ في النشاط السياسي الذي عنى ، في بلاد العرب المضطربة ، الاحتكام إلى السلاح . حتى إذا لم يوفقوا في ساحة القتال إلى أكثر من نجاح ضئيل ، انصرفوا أكثر فأكثر

إلى التصوف ، وإلى التفكير في إلـه متجسّـد .

وكان محمد قد أبلغ الناسَ رسالة لا تقرّ أيما وساطة بين الله وعبده ولا ترتضي القول بأيّ تجسّد . والحق ان اصطناعه الأوحد للرمزية ، أعني تَوْلية الوجه شطر مكةَ في أثناء الصلاة ، لم يُرْض إلا قليلا من اولئك الباحثين عن رمزٍ بشري يُفرغون فيه إيمانهم . ومع ذلك فيبدو أن من طبيعة الحافز الديني نفسِها عند الانسان أن يتوق إلى نقطة احتراق محسوسة focus ، إلى تجسّدٍ إلهـيّ ما . بيد أن « الله » إله مجرّدٌ إلى أبعد الحدود . وعلى الرغم من ان المسلمين الأولين لم يجدوا أيّ عُسْر في الايمان بمثل هذا الالـه ، فأن قلةً منهم استشعرت ، من غير ريب ، الحاجةَ إلى تجلٍّ تجسّديّ لله ، تجلٍّ من ضربٍ ما ، ولقد كان شخص عليّ بن ابي طالب هو الذي تلقّفوه في حماسة صوفية عارمة . لقد أصبح عليّ عندهم – وقد عُرِفوا بالشيعة [٢٤]– قُدُسياً ، وكان يشاركه قدُسيته ابناه ، الحسن والحسين ، اللذان أنجبتهما زوجةُ عليّ ، فاطمة ، بنتُ الرسول . وكان في مصرع عليّ الفاجع ما رفعه إلى مقام الشهادة * أيضاً ، وما ألزمَ أتباعَهُ بالعمل وَفْقَ ميثاق ممهور بدمه .

تلك كانت هي الحال عندما أُعلن معاويةُ خليفةً في بيت المقدس ، عام ٦٦١ . وسعى معاوية إلى غاياته في سرعة بالغة ، ففاوض الحسن ، وكان ضعيفاً ، [فتنازل عن حقه في الخلافة على أن تُتْرك له خمسة ملايين درهم كانت في بيت المال بالكوفة **] ووجّهه إلى المدينة ليحيا حياةً مترفة ، حيث دُسّ له السّم ، كما تقول الروايات ، فمات في

---

٢٤ ان لفظة « شيعة » تعني الحزب أو الفرقة . وكان الشيعة ، في الأصل ، ينتسبون إلى حزب علي بن ابي طالب .

* أي ما جعله شهيداً من الشهداء .

** بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، تعريب نبيه فارس ومنير البعلبكي، الجزء الأول ، ص ١٤٥ (المعرب)

الحادية والاربعين من عمره . وأخمد معاوية ثوراتٍ عديدة ، موطداً بذلك أركان الامبراطورية .

ولم يكد يزيد ، ابن معاوية ، يتولى الخلافة حتّى واجهته مصاعب كثيرة . فقد سار الحسين ، ابن عليّ الثاني ، لقتاله بقوة عسكرية ضئيلة لا يزيد عددها على مئتي رجل . وفي معركة كانت أقرب شيء إلى المجزرة صُرِع الحسين ورجاله جميعاً . والواقع ان مصرع الحسين ، الذي تُحْيَى ذكراه كل عام بمظاهرة تشبه « مسرحية من مسرحيات الآلام » [٢٥] ، كان نقطة الاستقطاب للقضية الشيعية . فقد كان هو ، على أية حال ، حفيد رسول الله ، وكان دم الرسول نفسِه هو الذي خضّب الثرى الذي سقط الحسين فوقه صريعاً . ولقد روّى استشهادُ الحسين قضيةَ الشيعة في عهد الامويين أكثر مما روّاها مصرع عليّ نفسه ، وعجّل من ثمّ في انهيار الحكم الاموي وسقوطه .

إن جميع الاديان الكبرى لتنقسم على نفسها ، كما تشهد الفرق المسيحية الكثيرة القائمة اليوم . وإن عشرة في المئة من مجموع المسلمين اليوم هم من الشيعة ، في حين أن سائرهم هم من السنة ، [٢٦] وأهل السّنة يعترفون بالخلفاء الاربعة الأولين خلفاء شرعيين لمحمد ، ولا ينحرفون عما يؤمنون بأنه يمثّل مسلك الرسول في حياته اليومية . إنهم ينكرون التجسّد ، ويعتبرون علياً مجرد واحد من خلفاء الرسول ليس غير .

ولقد أغرِيَ العربي ، اغراءً اقتضاه كثيراً من الضحايا ، بالاستيلاء على مدينة القسطنطينية ، أغنى المدن وأمنعها في ذلك الزمان . لقد انتهى

---

٢٥ تقام « مسرحية الآلام » هذه كل عام في « الكاظمية » ، وهي ضاحية من ضواحي بغداد . وبعد اربعين يوماً ، تقام « مسرحية آلام » أخرى ، تحيي ذكرى اعادة الخليفة يزيد لرأس الحسين وذلك في مدينة كربلاء ، حيث جرت المعركة التي صرع فيها الحسين .

٢٦ راجع توماس هيوز **Thomas P. Hughes** « معجم الاسلام » *A Dictionary of Islam* . ص. ٦٢٣ .

إلى أبوابها ثلاث مرات ، ولكنه صُدّ عنها في كل مرة . ولقد ضرب يزيد بن ابي سفيان الحصار على المدينة عام ٦٦٩ ، وبعد خمس سنوات هاجم الاسطول العربي اسطولَ البيزنطيين فلم يحرز غير نصر ضئيل . وكان آخر هجوم كبير شنّه الامويون على القسطنطينية ذلك الذي شُنّ في عهد سليمان ، عام ٧١٦ ، عندما تعاون الجوع ، والطاعون ، والهجمات الوحشية التي شنها البلغار المدافعون ، والنار الاغريقية — وهي مادة تشتعل في الماء — على تدمير الاسطول الاسلامي .

وعلى الرغم من امتناع القسطنطينية على المسلمين فقد فرضت القوة الاموية نفسَها في مواطن واتجاهات أخرى . ففي ظل عبد الملك وأولاده الاربعة ، الوليد وسليمان ويزيد الثاني وهشام ، بلغت الخلافة الاموية أوج مجدها . فقد عَبَرَ جيش الوليد نهرَ جَيْحون **Oxus** ، وهو التّخم التقليدي الفاصل ما بين الشعب الناطق بالتركية والشعب الناطق بالفارسية ، ووطد المسلمون أقدامهم وراءه . واندفع الاسلام في اتجاه الشمال ، فاحتك بالبوذية في بُخارى وبَلْخ وسمرقند . ولقد احتلت قواته الشّاش ، عَبْرَ نهر سيحون **Jaxartes** .

واندفعت قوةٌ عربية أخرى جنوباً عبر مكران في بلوخستان العصرية . وتقدمت هذه الكتائب في اتجاه الشمال تقدماً وئيداً حتى بلغت مُلْتان في البنجاب الجنوبي ، وبذلك بسط المسلمون حماية الله على اطراف الهند . ولولا هذا الفتح وما عقِبَهُ من نشر للاسلام في تلك الديار لما كان للباكستان الغربية أن توجد أبداً . وحوالى عام ٧١٣ كان التوسع قد استنفد نفسه في هذا الاتجاه .

وفي افريقية حمل عقبة بن نافع على البربر وأوقع الهزيمة بعدد من القبائل . بيد أن سلطان العرب على الديار البربرية كان قلقاً غير ثابت ، فاضطر العرب إلى التخلّي عنه عند وفاة عقبة . ولم تُخْضَع هذه القبائل إخضاعاً حقيقياً إلا بعد ثلاثين عاماً ، فوُضعت المنطقة تحت ادارة

دمشق المباشرة .

أما تقدم العرب في أوروبة الغربية الجنوبية فبدأ عام ٧١١ . ذلك بأن طارق [بن زياد] ، وكان بربرياً يعمل تحت إمرة موسى بن نصير أمير افريقية الغربية من قِبَل الامويين ، عَبَرَ [المضيقَ] إلى اسبانية ابتغاء الغزو ليس غير . حتى إذا لقي العرب هناك مقاومة ضعيفة اجتاحوا شبه الجزيرة الأيبيرية . ولم يُصَدَّ زَخْمُ اندفاعهم إلا في ساحة القتال ، [بين] تور وبواتييه ، عام ٧٣٢ . ولعل هزيمة العرب لنشأت عن مشاكل إطعام الجند وايوائهم أكثر مما نشأت عن ضربات جيوش شارل مارتل .

* * *

في عام ٧٣٢ كان العرب يحكمون منطقة ممتدة من المحيط الاطلسي إلى تخوم الهند والصين . كانت هذه المنطقة تؤلف امبراطورية ضخمة (في جملتها اسبانية وشمالي افريقية والشرق الأدنى) تدين بالاسلام — مجموعة من الشعوب تستظل براية واحدة لم يعرف التاريخ أرحب منها من قبل ، ورقعة من الارض مترامية الاطراف لم ينبسط سلطان الامبراطورية الرومانية على نظيرها حتى في أوج مجدها .

وواجهت الخلفاءَ الامويين ، بسبب من اشتمال الامبراطورية على هذه المجموعة المتباينة من القوميات ، مهمة ادارية هائلة . والواقع ان الاسلام واللغة العربية كانا هما العاملين الموحِّدين في خليط متنافر من الشعوب والثقافات . وفي البصرة والكوفة بدأت دراسة العربية . وأحدِثت الحركات لتوضع على الحروف الصامتة **consonants** للدلالة على الحروف الصائتة [٢٧] **vowels** . وعرّب عبد الملك والوليد الدواوين ، وضَرَبا السكة

٢٧ كان ثمة ، من غير ريب ، قبل احداث الحركات ، فوضى شديدة في اللغة العربية . ولقد شد العلماء العرب الرحال إلى بدو الصحراء ابتغاء ضبط الالفاظ العربية وتحقيق النطق بها على نحو موحد .

باللغة العربية ، وأحدثا نظاماً بريدياً . [٢٨]

وقسّمت الامبراطورية الاسلامية إلى تسع ولايات هي : سورية وفلسطين ، والكوفة ، والبصرة ، والحجاز ، وإرمينية ، وكرمان والتخوم الهندية ، ومصر ، وافريقية ، واليمن وجنوبي بلاد العرب . وقد عين الخلفاء على كل منها أميراً يرعى شؤونها السياسية ، ولقد جمع هؤلاء الأمراء ثروات طائلة على حساب أهل البلاد الأصليين . وكان على غير المسلمين ان يدفعوا الجزية إلى العرب [الفاتحين] ، مما حمل كثيراً منهم على اعتناق الاسلام من أجل التخلص من أداء الجزية . حتى إذا تناقصت حصيلتُها تعيّن على [الحكومة المركزية] أن تبحث عن وسيلة لأحداث التوازن في الميزانية . وهكذا فرض الخليفة على المسلمين الجدد ضريبةً على الارض مَزيدةً . وكان لهذا التدبير ، برغم ما نشأ عنه من استقرار موقت في موارد الدولة ، منطوياتٌ **implications** اجتماعية خطيرة . فقد عُزِل الداخلون حديثاً في الدين بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية [٢٩] ، فكان الاضطراب الذي أحدثوه في الدولة سيفاً جديداً سُلّ في وجه الحكم الاموي .

وهكذا نشهد قيام تيارين ما لبثا أن التقيا لاغراق خلافة دمشق : (١) كره الشيعة للامويين بسبب من مصرع الحسين واغتصاب الخلافة بالقوة و (٢) نقمة الموالي [٣٠] وغير المسلمين بسبب من الضرائب التي فُرِضت عليهم لمصلحة الارستوقراطية العربية المتبطّلة .

---

٢٨ يحسن بالقارىء ان لا يتوهم أن هذا النظام البريدي كان يشبه نظامنا البريدي الحالي . فقد كان ذلك النظام مصلحة حكومية خالصة اصطنعت لنقل رسائل الدولة ليس غير .

٢٩ كان المجتمع الاموي ينقسم إلى أربع طبقات اجتماعية هي التالية ، مرتبة بحسب منزلتها وأهميتها : (١) المسلمون ، (٢) الموالي ، (٣) اهل الكتاب – وكان النصارى واليهود والصابئة يؤلفون هذه الطبقة في بادىء الامر ، ثم أدرج تحتها ، في ما بعد ، الزرادشتيون ، بل و « الوثنيون » أيضاً ، (٤) والعبيد الارقاء .

٣٠ وهم الداخلون في الاسلام من غير العرب .

وكانت الحروب القَبَلية ، التي ما انفكّت تنشب منذ الجاهلية ، تشكل خطراً موصولاً على استقرار الحكم . والحق ان الصراع بين مختلف القبائل في بلاد العرب كان قد قوّى الأحقاد ما بين هذه القبائل ، قبل ظهور الرسول ، وأشْرَبَها اعتزازاً ضارياً بشخصيّتها وأنسابها . فاذا بشجرات أنسابٍ واضحةٍ كل الوضوح تعيّن أعضاء الجماعات المختلفة . ولقد حملتْ القبائلُ هذه الاحقاد وهذا الاعتزاز بالنسب إلى دنيا الامبراطورية .

وإذْ عُزِل العربُ بادئ الأمر في معسكرات خارج المدن المفتوحة فقد احتفظوا بتكتلاتهم القَبَلية القديمة ومن ثمّ التأموا في وَحَدات تكاد تكون منطابقة مع مواطن نشأتهم في شمالي بلاد العرب وجنوبيّها . وثارت العصبيات بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب خلال العهد الأموي كله ، وكانت تدور عادةً حول محور الخلافة ووراثة العرش . ولقد كان من دأب الخلفاء الامويين ان يصطنعوا هذا الفريق حيناً وذاك الفريق حيناً ، وان يسخروهما لتحقيق أغراضهم السياسية الخاصة .

وبينا كان كثير من أقدم المستقرين في سورية والعراق عرباً من أهل الجنوب ، فأن السواد الأعظم من القبائل الفاتحة كان من أهل الشمال . والواقع ان كل جيشٍ فاتحٍ خليقٌ به ان يثير في نفوس الناس قَدْراً من الضغينة والنفور ، لسبب واحد – على الأقل – هو مسلك أفراد الجيش أنفسهم . فاذا أضفت إلى هذا خلفيّة **background** الصراع القبلي تيسّرت لديك عناصرُ الثورة كلّها .

* * *

وكانت الأغراض الثقافية في عهد الامويين يُعْوِزها التوجيه ، وباستثناء الدين واللغة لم يحمل العربيّ إلى الشعوب المغلوبة أيما شيء جديد . إن تراثه الصحراوي قد حدّ من أفقه الفكري ، ذلك بأن المحارب الصحراوي كان يرمز إلى المثل الأعلى عند العرب . وكانت « طبقة النبلاء »

العربية تعنى بالحرب أكثر من عنايتها برعـاية الفنون والعلوم .

وعلى الرغم من هذا الرفع لمقام الطبقة المحاربة فأن ثمة دليلاً على أنه كانت للعرب بعض المنجـَزات خارج ميدان المعركة . ولقد وجد الفن الاموي تعبيره في المساجد والقصور ؛ وازدهر الشعر والموسيقى في مكة والمدينة ؛ وأسبغ بعض الخلفاء ، وبخاصة الوليد وعمر الثاني ، رعايتهم على علم الطب .

ووضع الخلفاء الامويون التوكيد على القومية العربية في حياة الامبراطورية التي أُسنِدت جميع مناصبها الرئيسية إلى العرب . وسياسة الامتياز العرقي هذه أورثت الدولةَ نقمة الشعوب المغلوبة ، والفرس منهم بخاصة ، الذين رأوا — في استياء — إلى الاثر الذي خلّفه العربي نصف المتبربر في ثقافتهم القديمة . ولقد سبقت منا الاشارة إلى ما أصاب المحارب العربي من ذهول لدن وقعت عيناه ، أولَ مرةٍ ، على ثروات الشعوب المغلوبة .

وشيئاً بعد شيء تحوّل الخليفة الاموي [في نظر الشعوب المغلوبة] إلى رمز للظلم الجافي . لقد اثارت سياسته القائمة على التمييز العنصري ثائرة الفرس ، الذين كانت نقمتهم تتعاظم كلما فكروا في خضوعهـم لسلطانه . وإنمـا طما سيل الاستياء ، أكثر مـا طما ، حوالى مدينة دمشق .

وكان التعلم الشعبي في عهد الامويين قوامه تلقين القرآن والحديث[٣١] على أيدي حَفَظة محترفين كانوا يعقدون حلقات الدرس في المساجد . وكان حفظ القرآنَ عن ظهر قلب فرضاً بالغ الخطورة ، وهو لا يزال كذلك في الديار الأسلامية اليوم . ويحدثنا ابن بطوطة أنه شاهد ، خلال رحلاته في البلدان الاسلامية في القرن الرابع عشر ، صبيةً

٣١ الحديث هو كلام الرسول وأعماله . وللحديث في الاسلام قوة القانون ، وهو من حيث الأهمية والشأن يحتل المقام الثاني بعد القرآن .

مصفّدين بالاغلال بسبب من تخلّفهم في تعلّم القرآن . [٣٢] وليس من ريب في ان هذا الصنيع كان ظاهرةً غير مألوفة ، ظاهرة مقصورة على جزء صغير من العالم الاسلامي . وأياً ما كان ، فقد كان في ندرة أدوات الكتابة ما حمل القوم على تقوية الذاكرة والاعتماد عليها ، فاذا بالحافظ يصبح عضواً هاماً في المجتمع .

وكانت بادية الشام هي المدرسة التي تلقّى فيها أبناء البيت الأموي الأولون ثقافتهم . ههنا كان الامير الأموي يتعلم اللغة العربية صافيةً مبرّأةً من آفات الاحتكاك بالحضارات الاجنبية . وقد ساعد اتصاله هذا بالعربية « الصافية » على صيانة اللغة ونشرها . ومن سوء طالع الأمويّ أن هذا الاتصال ساعد أيضاً على تعزيز ايمانه بامتياز العربي على غيره . والواقع ان عقول شعرائه أمست متحجرة نتيجة لطغيان الأسلوب والشكل . فاذا بالأدب الأموي يعكس التكلف الناشئ عن ذلك وكأنه يتراءى في مرآة تنقل مشهداً واحداً ، هو مشهد ابن البادية . كان الرجل المثقف ، عندهم ، هو من يُحْسِن القراءة ، والكتابة ، واصطناع القوس والنشّاب . وكانت الشجاعة والجَلَد ، المتناغمان مع التقاليد البدوية ، موضع تمجيد عظيم ، شأنُهما في ذلك كشأن قِرى الضيف واحترام المرأة .

وبسبب من عجز الحكام العرب عن تقدير ثقافتي السوريين والفرس المتفوقتين وعدم رغبتهم في ذلك فقد آثروا في كثير من الأحيان أن يمجّدوا اسوأ عناصر تَيْنِك الثقافتين . وهكذا أمست الخلاعة واتخاذ المحظيّات ومختلف ضروب الانغماس في لذّات الجسد جزءاً من حياة البلاط ، برغم أن الاسلام يوصي بالاعتدال في كل شيء . والحق ان رؤية الخليفة يتباهى بأعماله الطائشة على مشهد من الناس ومسمع اثار

---

٣٢ ابن بطوطة ، رحلات في آسية وافريقية ، *Travels in Asia and Africa* ترجمة جب **H. A. R. Gibb** .

غيظ العنصر المتدين في مجتمع كان أساسُ وجودهِ الرئيسيّ هو الدين .
بل إن المزاج الدنيوي الخالص الذي غلب على الامويين المتأخرين جعل سيلَ النقمة الأخيرَ يبلغ الزّبى فانضاف إلى نهر الكراهية الجبار المندفع نحو دمشق .

* * *

وفي داخل المدن ثنى المدينيون أذرعهم يغمرهم أملٌ باسم . ذلك بأن التوسع الأقليمي العربي كان قد انتهى إلى التوقف عام ٧٣٢ . وكان عهد المحارب ، بوصفه العنصر الاعظم شأناً في المجتمع الاسلامي، قد أمسى خبراً ماضياً . لقد انقضى زمانُ الفتح فاذا بالتاجر ،والحِرَفيّ، والعالم ، والمزارع يتصدّرون الآن للمطالبة بحقوقهم . ولقد كرِهَ المدنيّ العربيّ ان يدفع الضرائب الثقيلة الضرورية لأعالة الجندي والنهوض بعبء نفقاته ، مما يذكرنا بالشعور الاميركي أو بالشعور البريطاني نحو القوات المسلحة بعد الحربين العالميتين الأخيرتين .

أما وقد وسّع الجيش الامبراطورية إلى ما وراء حدود السيطرة الفعّالة فلم يَبْقَ في وسعه ان يقوم بأكثر من مناوشات ثانوية على طول التخوم ، أو بأكثر من محاولات لأبقاء الشعوب المغلوبة تحت سيطرة خليفة فاسد . ومع تعاظم النقمة على القوات المسلحة ، في الحواضر والمدن ، أمست تغذية الجيش بعناصر جديدة عسيرةً أكثر فأكثر . حتى إذا خسر الجيش التأييدَ الشعبي فَقَدَ صفتَهُ كآلةِ مقاتلة فعالة .

* * *

وفي مياه الاستياء الجائشة ، تغذّيها نقمة الشيعة ، والضرائب الباهظة ، والمنازعات القبَلية ، والعنصرية العربية ، والضغينة المدينية ، والحكومة الفاسدة ، وتفسّخ الجيش الأموي ، أبحرت سفينة العباسيين في شخص ابي العباس ، الذي يرجع نسبه إلى عمّ الرسول ، العباس بن هاشم .

ومن طريق الدعاية البارعة وفق هذا العباسي إلى التربّع في ذروة الطوفان الذي صبّ الانتقام على السلالة الاموية المتداعية إلى السقوط .

وكان المعمّرون العرب قد استقروا في البصرة والكوفة حوالى عام ٦٧٠ . وبين اولئك المعمّرين كانت فرقة شيعية متطرفة توفي قائدها من غير عقب يرثه فانتقلت سلطته إلى محمد بن علي بن العباس، والد الخليفة العباسي الأول . [٣٣] وهكذا نشأ تحالف ملزم بين الشيعة وبين آل العباس ، تحالف مكرّس لاسقاط الامويين عن مقام السلطة . وإذ أخذ العباسيون على أنفسهم عهداً أن يرجعوا بالمسلمين إلى سنّة الرسول فقد استطاعوا أن يكسبوا عطف كثير من أتقياء المسلمين على قضيتهم . لقد بدا وكأن المسلم الورع ، الذي أثارت نقمتَهُ دنيويّةُ البلاط الأموي ، قد وَجَد نصيراً منافحاً . وتقاطر الموالي وغير المسلمين، وبخاصة الفرس والعراقيين ، للانضواء تحت راية العباسيين وفي ظنّهم أن أيما تغيّر يحدث سوف يكون لخيرهم .

وهكذا اشتد ساعد المعارضة ، وقد تأصلت جذورها في الاحقاد القديمة والخلافات المستجدة . وفي ٩ حزيران (يونيو) عام ٧٤٧ اعلِنت الثورة . وعلى رأس قبيلة من عرب الجنوب انضاف اليها كثير من الموالي والفلاحين الايرانيين دخل ابو مسلم [الخراساني] ، وهو مُعْتَقٌ فارسي ، مدينة مَرْو عاصمةَ خراسان . وحالت ثورةٌ سورية دون ارسال الخليفة أمداداً إلى الحاكم الفارسي المحاصَر . [٣٤] وانضم الخوارج – وهم مجموعة الثوريين الصغيرة ، ولكن المتعصبة ، التي كان قاتل علي واحداً من أفرادها – إلى المتمردين في العراق . ولم يكن لدى مروان الثاني – آخر خليفة أموي ، وهو معدود بأجماع المؤرخين

---

٣٣ ارتضى الشيعة محمد بن علي زعيماً لهم لأن نسبه كان يشده إلى الرسول على نحو اوثق من نسب الامويين الحاكمين .

٣٤ كان الخليفة مروان الثاني قد أثار نقمة السوريين بسبب من نقله مقره (إلى حران)في العراق.

حاكماً كفوءاً – غير القليل الذي يدفع به الكارثةَ ، وكان قد جاء بعد فوات الأوان على أية حال .

وسقطت الكوفة في أيدي العباسيين ، ذوي الراية السوداء ، عام ٧٤٩ ، ونودي بأبي العباس خليفةً . وبعد عام واحد استسلمت دمشق. وولى مروان الثاني فراراً ليُحتَزّ رأسُهُ بعد ذلك خارج احدى الكنائس في مصر . ثم إن الخليفة الجديد شرع ينفذ برنامجاً مُبيّتاً للقضاء على كل اثر من آثار السلالة السابقة وتطهير الحياة العامة منه . وحتى قبور الامويين نُجّسَتْ ، ما خلا قبر الخليفة الورع عمر الثاني [بن عبد العزيز] .

واختيرت الكوفة ، على التخوم الفارسية ، عاصمةً [للدولة] الجديدة . ونزع توجيه الدولة كله إلى الانحراف ، على نحو لا مفرّ منه ، نحو فارس : لقد شكل الفرس حَرَسَ الخليفة الملكيّ ، واحتل الفرس مناصبَ الحكومة الرئيسيةَ .

وكان سقوط الامويين ايذاناً بانقضاء العهد العربي في تاريخ الاسلام . ففي ظل العباسيين اتخذ البلاط وممتلكاته صفةً أكثر دوليةً .

٣. الخلفاء العباسيون

لقد حُمِل العباس إلى مقام السلطة على أكتاف كثير من العناصر المنشقّة : فقد ارتقب الشيعة عودة أبناء علي إلى العرش ؛ وقاتل الخوارجُ بدافع من روح ثورية وحبٍّ للقتال ؛ وناضل الموالي ، وغير المسلمين ، والفرسُ والعراقيون من أجلّ المكانة والاعتبار الاجتماعيين . وبالنسبة إلى

معظم هؤلاء الأحلاف الذين يعوزهم الانسجام ، لم تكن القيادة العباسية غير وسيلة مؤقتة ، غير تسوية تجمع شملهم وتحشد جهودهم للعمل الموحّد ضد عدوّ مشترك . [٣٥]

وفي أعقاب النصر سعت كل من هذه القوى المتباينة إلى تحقيق اغراضها الأصلية . وكان الشيعة قد أضافوا إلى الايمان بالالـه الواحد وبالقرآن الكريم عقيدةً ثالثة ، هي الايمان بقدسيّة إمام [٣٦] يتصل نسبُهُ بالرسول من طريق عليّ وفاطمة . ولقد عنى وَعْدُ العبّاس بـ « العودة إلى سنّة الرسول » ، عند الشيعة ، اسناد الخلافة إلى رجل يُختار من ذريـة الحسن ، أخي الشهيد الحسين ، « الألـهية » . وهكذا نظر الشيعة إلى العباسيين نظرتهم إلى مغتصبين وسلّوا السيوف لقتالهم . وكما حدث في أحيان كثيرة خلال التاريخ الاسلامي خسرَ الشيعة المعركةَ ولكنهم لم يخسروا الحرب ، وظلّت النقمة الشيعية دُمّلاً مقيّحاً في جسم السياسة العباسية .

وأياً ما كان الكلام الذي قد توحي بقوله الاساليب العنفية الـتي اصطنعها ابو العباس لكبت النقمة فليس من ريب في انها كانت فعّالة . ولم يكن اتخاذُهُ لقب السفّاح عبثاً ولهواً . فالواقع ان هذا الخليفـة العباسي الأول نشر إلى جانب عرشه نِطعاً * لكي لا يلوّثه تدحرُج الرؤوس تحت ضربات جلاّده .

واسترضاءً لأهل التدين والورع أحاط ابو العباس نفسَهُ بالفقهـاء ورجال الدين . وعلى نقيض الامويّ الذي ارسل احدى محظيّاته إلى

[٣٥] في الحرب العالمية الثانية شكل الحلفاء حلفاً مماثلا على أساس أوسع وأرحب ، إذ ســارت الديموقراطية جنباً إلى جنب مع الشيوعية ابتغاء القضاء على الدولة الفاشستية في اوروبة . ولا حاجة بنا إلى التذكير بالخلاف الذي مزق معسكر المنتصرين بعد خروجهم من الحرب ظافرين .

[٣٦] قائد ديني .

* النطع بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس .
(المعرب)

المسجد لتؤمّ الناس في الصلاة حرص العباسيّ على الاستتار وعلى حَجْب معاصيه عن أعين الناس . وأياً ما كان فقد استمرت كؤوس الخلاعة والفسوق دائرةً ضمن جدران القصر [كعهدها من قبل] .

وبتأثير الفرس حدث تغيّر بيّـنٌ في مفهوم الخلافة . لقد أصبح الخليفة حاكماً اوتوقراطياً على الطريقة الفارسية ، بل لقد نزع إلى أن يتخذ لنفسه صفات الله . وإذْ لم يقنع بلقب « خليفة رسول الله » فقد سمّى نفسه « خليفة الله » . وقد روجت آلةُ دعايةٍ ، مزّيتةٌ في عناية ، لقصة « منصب الخليفة الالـّهي » واذاعَتْها في الناس .

وفي عام ٧٥٤ أخذت رقعة الامبراطورية العباسية في التقلص . لقد أبت اسبانية ، وشمالي افريقية ، وعُمان ، والسّند ، وخراسان ، أن تدين بالولاء للخليفة العباسي . واكره أهلُ الكَوفة العلويو الهوى الخلفاء العباسيين على نقل عاصمتهم من تلك المدينة إلى الأنبار . ووُفّق المنصور ، أخو السفاح وخليفتُهُ ، إلى إقرار النظام ظاهرياً على الأقل . واصطنع هذا الخليفة — وكان رجلَ دولةٍ داهيةً وزعيماً مقتدراً — سياسة القسوة والغدر في بعض الأحيان . فأذاً بأبي مسلم [الخراساني] ، الذي كان سيفه عظيمَ الاثر في إحراز الانتصارات التي تمّت لأبي العباس ، يلقى حتفه في مجلس « ودّي » من مجالس الخليفة . وفي تعاقب سريع ، قمع المنصور ثورة عمه عبد الله في سورية ، وسحق ثورةً شيعية ، وهزم فرقة من متطرفي الفرس ، وأخمد فتنةً في خراسان قادَها سُنْباذ المجوسي . وباستثناء اسبانية وافريقية الشمالية اورث المنصور ابنَهُ امبراطوريةً متراصّةً متماسكةً .

وكما وَجّهت حكمة عُمَر الفتوحَ العربية الأولى ، ووجّهت حكمة معاوية الامويين كذلك وجّهتِ حكمةُ المنصور بني العباس . فأليه يرجع الفضل في وضع أساس الخلافة العباسية . ومن أبرز مآثره بناء بغداد ، وهي مدينة ما لبثت أن أمست ، في أقل من خمسين عاماً ، مركز

الثقافة العالمية . وأحدث المنصور أيضاً منصب الوزير [٣٧] في الدولة العربية ، وأحدث من ثمّ دواوينيةً (بوروقراطية) نفذت إلى كل مظهر من مظاهر الحياة في الامبراطورية . ولقد عَمِلَ خالدُ بن بَرْمَك ، الوزيرُ الأول ، مستشاراً للخليفة ، ولم تكن له بادئ الأمر غير صفة استشارية مَحْض . أما يحيى ، ابن خالد ، فقد تولى تثقيف هارونَ الرشيد ، حتى إذا استُخْلِف الرشيدُ أسند اليه منصب الوزارة ومنحه سلطةً غير محدودة . وشيئاً بعد شيء اكتسبت اسرة خالد ، البرامكة [٣٨]، ثروةً هائلة وأمسى أفرادها هم الحاكمين الفعليين للامبراطورية من عام ٧٨٦ إلى عام ٨٠٣ ، ولكن الخليفة هارون ، ذا العزم الشديد ، وضع حداً لسلطانهم بقَتْلِهِ جعفرَ ، حفيد خالد .

* * *

وفي امكاننا ان نَصِفَ الفتح العسكريّ في ظل العباسيين بجملة واحدة : لقد فتحوا صِقِلِّيةَ وبضع جزر أقلّ شأناً في البحر الأبيض المتوسط . [٣٩] والواقع ان بغداد لم يكن لها غير سلطة اسمية على هذه الممتلكات النائية . وحتى قيام السلالة الفاطمية في مصر كانت هذه الممتلكات تُحكم من تونس ، وعلى نحو مستقل في كثير من الأحيان عن الحكومة المركزية .

وحاول المهدي ، الخليفة [العباسي] الثالث أن يخضع بيزنطة ، ولكن محاولته هذه اجهضت عند البوسفور . وسَعَتْ ايرين ، الوصية على العرش البيزنطي ، إلى الصلح ، ودفعتِ الجزية إلى العرب . وبين

٣٧ واللفظة تعني « حامل العبء » — راجع سيد امير علي : « مختصر تاريخ العرب » *A Short History of the Saracens* ص ٤١٠ ، وإذا كانت اللفظة عربية فأن المنصب نفسه فارسي .

٣٨ اشتهر هؤلاء البرامكة بسخائهم . وحتى اليوم ، لا يزال هذا التشبيه « سخي مثل جعفر » مفهوماً في كل رقعة من رقاع العالم العربي .

٣٩ كانت سردانية وإقريطش بين الجزر المفتوحة .

الفينة والفينة شنت القوات المسلحة غزوات عَرَضيةً على طول تخوم الامبراطورية ، ولكن هذه الغزوات كانت تغلب عليها صفة المناورات المراد بها إبقاء الجيش في حالة استعداد للقتال . كان عهد الجندي قد ولّى . وإن علينا أن نلتفت إلى المظاهر الفكرية في ظل العباسيين التماساً لمعيار نقيس به عظمتهم .

* * *

كانت الامبراطورية العباسية مزاجاً من الشرق والغرب . وكان في نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد ما اضعَف من نفوذ بيزنطة الغربي وعزّز نفوذ فارس الشرقي . وصَهَر الاسلامُ واللغةُ العربية ضروب النفوذ المتباينة هذه ، وأحالاها إلى مزيج عربيّ حقاً . وإنما حكَمَ هارون الرشيد وابنُهُ ، المأمون ، في بغدادٍ كانت تُعتبر مركز الثقافة في العالم الغَرْبي .

والواقع أن الاسباب التي ساعدت على بلوغ بغداد قمةَ السيادة الثقافية لا تقلّ أهميةً عن حقيقة بلوغها هذه القمة . وهذه الأسباب أعمق من الموقع الجغرافي بكثير ، على الرغم من أن قربها من فارس كان له أثره في ذلك من غير ريب . بل إنها أعمق من العوامل التي ساعدت على توطيد السيادة العباسية : أعني الصوفية الدينية التي وخزت عقول الناس ، والضرائب الثقيلة التي تُكْره القوم دائماً على النظر إلى الحكومة في انتباه أكثر ، والفقر الذي يحفزُ إلى التغيير لاقامة عالم أفضل ، والصراع من أجل الكرامة والاعتبار ، هذا الصراع الذي يدفع الناس في كثير من الاحيان إلى التماس القوة والسلطان ، والتقلص العسكري الذي يحرّر ملكات الناس الفكرية ويوجّهها نحو أغراضٍ أخرى .

فقد شعر العربيّ بالدونية إزاء ما اكتنفه من ثقافات متفوّقة . والرجل الذي يشعر بالدونية قد يختار سبيل الامويين ويخنق فضوله خلف جدارٍ من المقاومة الرواقية **stoic** للنشاط الثقافي ، وقد يعتزل بيئته ويرفض

الاعتراف بوجودها . هذا من ناحية . ولكنه من ناحية ثانية قد يؤثر أن يتتبع في حيوية ونشاط سبيلَ العباسيين ويفتح مسارب الفيضان على مصاريعها مجيزاً للتيارات الفكرية المختلفة أن تغزو عقله . ولم يكد العربيّ يفتح البــاب حتى تدفّقت الثقافة الفارسية كلها على الامبراطورية .

وإنه لمن الظلم ان نعدّ الأمويّ كُلّـيّ الركود من حيث الفضول الفكري وان نعدّ العباسي كليّ الحيوية في المطالب العقلية [40] . فهذان التعبيران نسبيان ، وهما جزء من العصر بقَدْر ما هما جزء مـن الشعوب التي لعبت أدوارها ضمن نطاقهما . لقد أقام العباسيّ قوّته على الدين . وأياً ما كانت دوافعه الباطنية فأن ابا العباس قد انتهى إلى مقام السلطة محمولاً على غارب موجة من الأحياء الديني ، وكان في حاجة إلى إعلان ولائه وتوقيره للاسلام [وأحكامه] تعزيزاً لسلطته هو على رعاياه الداخلين حديثاً في الدين . إن الحديث النبوي يأمر العربيّ بأن « يطلب العلم ولو في الصين » . [41] ولقد التمس العباسيّ العلمَ والمعرفة ، على الاقلّ في سبيل التمكن من إدارة امبراطورية ذات ثقافات متعددة إن لم نقل اذعاناً منه للأمر الدينيّ ليس غير . وبالتماس المعرفة من طريق الدين أرضى الخلفاء جماعة المصلحين الدينيين وجماعة المفكرين المستطلعين ، على حدٍ سواء .

* * *

كان هرون الرشيد وشارلمان هما الشخصيتين الأشدّ بروزاً ، في العالم ، عند مستهل القرن التاسع . ويذهب الكتّاب الغربيون إلى ان هذين العاهلين تبادلا الهدايا والسفراء ، مراتٍ عديدة . بيد ان المؤرخين

---

٤٠ كانت لعبد الملك وابنه الوليد ، إذا أردنا ان نكتفي بذكر خليفتين امويين اثنين ليس غير ، أياد بيضاء كثيرة على فن العمارة . ولقد كانت قبة الصخرة التي أقامها عبد الملك في القدس تحفة لا تضاهى جمالا وروعة .

٤١ راجع مجموعة الاحاديث النبوية الموسومة بـ « مصباح الشريعة » .

العرب يلزمون الصمت في هذا الموضوع ، موقعين في روعنا أن « الامبراطورية الرومانية المقدسة » كانت غير ذات شأن في أعين العرب .

وخلافة هارون الرشيد توصف عادةً بأنها عهد يتميز بالعيش الناضر الخصيب . إنها حكاية صحاف ذهبية ، وبُسُط فاخرة ، وليالي أُنْسٍ متلألئة لا يضارعها في تاريخ العالم نظير . لقد نزل العبيد والجواري بالمئات قصوراً فخمة ، واشبعوا كل نزوة من نزوات الخليفة . ولقد كانت حياة البلاط غنية زاخرة بمشاهد رائعة صُوِّرت ، في ما بعد ، في حكايات الف ليلة وليلة .

وكان قصر الخليفة في بغداد أشبه بمحور دولاب عملاق ذي شعاعات متّجهة إلى مختلف أجزاء الامبراطورية . وكان سيلٌ غير منقطع من العلماء ، والفقهاء ، والموسيقيين ، والشعراء ، والتجار يديرون هذه الشعاعات إعظاماً للخليفة العباسي وإظهاراً لولائهم له ، وكان هو بدَوْره يصغي ، ويتعلّم ، ويرعى . كان عصر الفنون والآداب العربية الذهبي قد أطلّ ، وكانت العلوم العربية قد بلغت أوج مجدها .

وحملت تجارةٌ مزدهرةٌ مختلف أسباب الترف إلى بلاط بغداد . فمن الروسيا وضفاف الفولغا أقبلت الفراء ، والجلود ، والكهرمان . وقد وجدت نقود عربية ، ترقى إلى ذلك العهد ، في سكندينافيا القصيّة ، على الرغم من أن المرء ليشكّ في أن يكون التجار العرب قد بلغوا هاتيك الديار النائية . وعملت الافاويه والمنسوجات الحريرية الشرقية ، والذهب والرقيق الافريقيان ، على زيادة الثروة العباسية .

هذا العيش المترف حمل في ثناياه جراثيم الانحلال . كانت جماعة النبلاء قد نسيت الأمر القرآني القاضي باجتناب الانغماس في الملذات الجسدية ، فاذا بالخمر تتدفق كالسيل في حفلات القصور وسهراتها

العديدة ، وإذا بالمحظيات ، والجواري ، والخصيان ، والسكيرين يصبحون ذوي كلمة مسموعة عند الخلفاء ، وكثيراً ما كانوا يُملّون عليهم سياساتهم أيضاً .

وعند وفاة هرون الرشيد نشأت المشكلة العريقة في القدم ، مشكلة مَنْ سوف يخلفه ، فأورثت العباسيين بلاءً كبيراً . وكان الرشيد قد قسم مملكته بين ولدَيْه ، الأمين والمأمون . ولكن كلاً من الأخوين أراد أن يستأثر بالأرث كله ؛ وبعد صراع مرير صُرِع خلالَهُ الأمين ، وليَ المأمون الخلافةَ عام ٨١٣ .

وبأرشاد المأمون وتوجيهه بلغ الأثر الاغريقي في الثقافة العربية أوج قوّته . والواقع ان المأمون كان جديراً بخلافة أبيه هارون ، فأنشأ في بغداد « بيت الحكمة » الذي انتظم مكتبةً ، واكاديميةً ، ومكتباً للترجمة . وهكذا نُقِلت إلى العربية كتب يونانية كثيرة ، وبخاصة كتب ارسطو . ويحسن بنا ههنا ان نشير إلى أن الثقافة الاغريقية التي تدفقت من بغداد إلى مراكش واسبانية قُدِّر لها أن تستحث خطى النهضة الاوروبية (الرونيسانس) ؛ إنها طريق غير مباشرة من غير ريب ، ولكنها طريق تعوّد توكيدُ التاريخِ المتحولُ أن يسلكها .

ومالت شمس الحضارة العباسية إلى الغروب بعد ارتقاء المتوكل ، ابن أخي المأمون ، عرش الخلافة عام ٨٤٧ . ومن ذلك الحين أمسى خلفاء بغداد رؤساء صُوْريين لامبراطورية متجزئة . والواقع أن قوة الامبراطورية العباسية كانت ، خلال وجودها الاسميّ الطويل ، متناسبةً تناسباً طردياً مع قوة الخليفة الذي على رأسها . فاذا اتفق ان كان خليفة بغداد قوياً سيطر على اقاليم امبراطوريته بيدٍ من حديد ، وإذا اتفق أن كان ضعيفاً ألفى سلاطين صغاراً يسيطرون على تلك الاقاليم ، تاركين له بغداد وأرباضها ليس غير .

إن انحلال الامبراطوريات ليس ، بأية حال ، ظاهرةً تاريخية

جديدة . والحق أن حجم الامبراطورية وتعدد القوميات فيها يساعدان عادةً على تجزئتها ، ولا بدّ أن تحمل الامبراطوريات جميعاً ، في ثناياها ، بذور التفسخ والانحلال التي تجعل تحقيق الوحدة أمراً عسيراً . وبرغم هذا كله كانت الامبراطورية العباسية أحسن حالاً من سابقتيها في بلاد الاغريق وروما . لقد تزيّا شعبها بالزي العربي ، وعاش عيشَ العرب . ومن وجهة نظرٍ ثقافيةٍ ودينية ولغوية تمتّعت الامبراطورية العربية بقَدْر من التجانس أكثر من ذلك الذي تمتعت به امبراطوريات أخرى سابقةٌ أو لاحقةٌ .

لقد وُلِدت الدولة العباسية في الشِّقاق ، وترعرعت على التسوية ، وبلغت سن النضج بتمثّل الثقافات الأجنبية وهضمها . صحيح أن أبا العباس والمنصور وُفّقا إلى قمع ثورات الشيعة والخوارج ، في ميدان المعركة ، ولكن الشغب استمرّ على نحوٍ سِرّي . ولعل تقوى العباسيين الظاهرية استطاعت أن تحمل الورعين من المسلمين على الصمت مؤقتاً ، ولكن هؤلاء الورعين لم يكونوا غافلين عن مفاسد البلاط وانغماسه في الملذات .

والواقع ان رياء العباسيين الديني أحيا التشايعية **sectarianism** في طول الامبراطورية وعرضها . وقد ساعد هذا أيضاً على نشوء التصوف الاسلامي. وفي هذا العهد اتخذ التشيّع شكله الأخير ، ولكنه أطلعَ أيضاً عدداً من الفروع الصوفية . [٤٢]

وكان الفرس قد أفادوا من انتصار العباسيين أكثر مما أفادت أية جماعة أخرى منفْردة من جماعات الامبراطورية . ومن طريق منصب الوزارة نشأت طبقة بوروقراطية **bureaucracy** ضخمة جداً ، طبقة ما لبثت أن اختنقت تحت ثِقْل أعدادها نفسِها . لقد أمسى هذا الهرم

٤٢ كانت الفرقة الاسماعيلية من هذه الفروع . ولقد انقسمت الاسماعيلية ، بدورها ، إلى فرق ، منها الحشاشون ، والدروز ، والقرامطة وغيرها .

الهائل ، هرَمُ الجهاز البوروقراطي الذي كان الخليفة في قمته ، عاجزاً وغير فعّال كأداة حكومية عاملة .

وتردّى الشعب في هوة من الفقر اشدّ عمقاً لكي يقدم إلى الخليفة نفقات متارفه في بغداد . وكانت الضرائب الثقيلة ضرورية لتمكين الحكام من الاستمرار في العيش على الطريقة التي ألِفوها ، ولكن انقضاء الفتوح جعل من المتعذر الفوز بمصادر جديدة من الثروة يستطيع الحكام استغلالها . وهكذا كان لا بدّ من ابتزاز الاموال الضرورية لاشباع موظفي الدولة و « عالات » * البلاط من جيوب الشعب داخل الامبراطورية نفسها .

وناصرَ الخلفاء العباسيون الأولون الزراعةَ . فقد خفض المنصور والمهدي والمأمون الضرائب المفروضة على الفلاحين ، وأقاموا أجهزة للريّ ، وجففوا المستنقعات . أما في ظل الخلفاء العباسيين المتأخرين فقد عاقت الضرائب الباهظة نموّ الزراعة والصناعة . كانت الصناعات التي تزوّد البلاط بما ييسّر له الانغماس في متارفه هي وحدها التي نَعِمَتْ ، عادةً ، بتأييد من الخليفة موصول ، فكانت النتيجة المحتومة لهذه السياسة اقتصاداً غير متوازن لم يجد فيه المزارع غير مكافأةٍ ضئيلة على حراثته التربةَ .

لقد أفسد الزواج من امرأتين واتخاذ المحظيّات الحكومةَ العباسية . وكان غلمانٌ أرقاء يُعْنَوْن بخدمة الامراء الناشئين ، فاذا بالمودة بين هؤلاء الشبان تقود ، عند بلوغهم سنّ الرشد ، إلى التآمر السياسي ؛ ذلك بأن العبد الرقيق الذي يترعرع مع أحد الامراء في صَدْر صباه كثيراً ما كان يحتل مركزاً هاماً في الدولة .

ومنذ بزوغ فجر الامبراطورية العباسية تقريباً والممالك المستقلة تنشأ على التعاقب ضمن حدودها . فقد أسس عبد الرحمن سلالة أموية في

---

* جمع عالة .

اسبانية بعد ست سنوات ليس غير من تولي ابي العباس عرش الخلافة. وبعد اثنتين وعشرين سنة ، في عام ٧٨٨ ، أسس ادريس بن عبد الله ، وهو حفيد آخر من حَفَدة الرسول ، سلالة شيعية في مراكش . وحكم الأغالبة تونس بعد عام ٨٠٠ ، وسيطر الطولونيون على مصر في ما بين عام ٨٦٨ وعام ٩٠٥ .

وفي الشرق قام الاتراك والفرس بعملية انفصال عن الامبراطورية العباسية شبيهة بتلك التي قام بها العرب في الغرب .

ظهور الدويلات في الشرق — القرن التاسع

الدولة	المؤسس	الرقعة	المدّة
الطاهرية	طاهر بن الحسين الخراساني . وكان اميراً من امراء الاقاليم في خلافة المأمون	المناطق الواقعة شرقي بغداد إلى حدود الهند	٨٢٠–٨٧٢
الصفّارية	يعقوب بن الليث الصفار . خارج على القانون كان قد عهد اليه من قبل بالقيادة العليا	فارس وأطراف الهند	٨٦٧–٩٠٨
السامانية	نصر بن أحمد	ما وراء النهر وفارس	٨٧٤–٩٩٩

وبينا تفسّخت الامبراطورية مُني الحكم الداخلي بالضعف في ظلّ سلسلة من الخلفاء المستضعفين . ولقد خشي ابن هرون ، المعتصم ، سطوةَ القوات الفارسية التي كانت تؤلف حَرَسَ البلاط ، فاستقدم الاتراك لكي يقاوم نفوذها ويُحبطه . فما كان من هذا الصنيع إلا أن زاد الوضع الحرِج سوءاً . فسرعان ما اختصم الاتراك المتغطرسون مع أهل بغداد . وإذْ خشي المعتصم اندلاع نار الثورة الأهلية فقد نقل عاصمته إلى سامرّاء ، حيث أمسى الخلفاء الذين جاءوا من بعده أسرى القوات

المحاربة . وحتى إعادةُ الخلافة إلى بغداد عجزت عن تعزيز مركز الدولة المتقلقل .

لقد أطفأ الفسوق ، والفساد ، والضرائب الثقيلة ، والانغماس في الترف ، عظمةَ بغداد ، ولكنّ لَقْحَ pollen حضارتها انتشر غرباً حتى أوروبة . ولا يزال اثر ذلك بادياً اليوم ، بعد انقضاء الف ومئة عام كاملة .

قِراءاتٌ مُخْتَارة

١ – بروكلمان : « تاريخ الشعوب الاسلامية » * Brockelman , Carl : *History of the Islamic Peoples* (نيويورك ، ١٩٤٧) .

٢ – حتي ، نيليب : « تاريخ العرب » Hitti , Philip : *History of the Arabs* (لندن ، ١٩٥٦) .

* وقد نقله إلى العربية الاستاذان نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ، ونشرته دار العلم للملايين في بيروت ، في خمسة أجزاء . (المعرب)

جَدْوَل كْرُونُولوجيٰ

الخلفاء الراشدون

•

الخليفة	مدة حكمه	أعمال وأحداث
ابو بكر	٦٣٢ – ٦٣٤	وحد بلاد العرب في ظل الاسلام . استهل فتح سورية . جمع القرآن من كثير من الوثائق المدونة وشرع في مهمة جمعه .
عمر	٦٣٤ – ٦٤٤	نظم حكومة الامبراطورية الجديدة . فتح العراق وسورية ومصر . استهل فتح فارس .
عثمان	٦٤٤ – ٦٥٦	جمع القرآن في مصحف رسمي . فتح فارس . أسند مناصب الحكومة الهامة إلى أنسبائه .
علي	٦٥٦ – ٦٦١	أمسى رمز التجسد عند الشيعة . أبو الحسين ، أعظم شهيد شيعي .

الخليفة	مدة حكمه	أعمال وأحداث
هشام	٧٢٤ – ٧٤٣	آخر رجال الدولة الامويين العظام. كان متسامحاً في شؤون الدين . تشييد الكنيسة المسيحية في الكوفة . أعاد فتح بلاد ما وراء النهر . قمع عدة ثورات افريقية (٧٤١) .

الخلافة العباسية

الخليفة	مدة حكمه	أعمال وأحداث
السفاح	٧٥٠ – ٧٥٤	أقام امبراطورية دولية من الفرس والسوريين والعرب . زعم ان للخلفاء العباسيين « حقاً الهيّاً » في الحكم .
المنصور	٧٥٤ – ٧٧٥	وطد دعائم الحكم العباسي . بنى بغداد (٧٦٢) . أحدث منصب «الوزير» في الحكومة . أقام طبقة بوروقراطية لضبط أمور الدولة . اصطناع الرياضيات الهندية للمرة الأولى في البلاط .
هرون الرشيد	٧٨٦ – ٨٠٩	كان أعظم حاكم في القرن التاسع . كان معاصراً لشارلمان . كان أعظم راع للفنون والعلوم . شجع الزراعة والصناعة . وسع نظام البريد . في عهده نمت بغداد فأصبحت مدينة ذات أهمية عالمية .
المأمون	٨١٣ – ٨٣٣	انشأ في بغداد دار الحكمة التي انتظمت

الخلافة الأموية

الخليفة	مدة حكمه	أعمال وأحداث
معاوية	٦٦١ — ٦٨٠	وطد اركان الامبراطورية العربية . بسط السيطرة العربية عبر شمالي افريقية وعبر نهر جيحون ولكن ليس على أساس دائم . جعل عاصمة حكمه في دمشق ، سورية . جعل الخلافة وراثية .
عبد الملك	٦٨٥ — ٧٠٥	وسع ووطد المكاسب العربية في شمالي افريقية وطخارستان . أخضع الاقاليم الهندية المتاخمة للامبراطورية . عرّب الدولة . سك أول نقد عربي . عرّب الدواوين . أحدث نظاماً بريدياً . شيد مسجد الصخرة في بيت المقدس .
الوليد الاول	٧٠٥ — ٧١٥	رعى الفنون وناصرها . واصل تعريب الدولة . كان أعظم الامويين شأناً في حقل العمارة . بنى المستشفيات والمدارس والجوامع . انشأ المؤسسات لخدمة المجذومين والمكفوفين والعرج . ادخال الحركات على الخط العربي . طارق يفتح اسبانية (٧١١ م.)
عمر الثاني	٧١٧ — ٧٢٠	كان يعتبر بمثابة «الولي أو القديس الاموي». وكان قائداً تقياً زاهداً محاطاً بطائفة من الفقهاء .

الخليفة	مدة حكمه	أعمال وأحداث
		مكتبة واكاديمية ومكتباً للترجمة.
		بلغ نفوذ الثقافة اليونانية أوجه . في عهده ترجمت مؤلفات جالينوس وأبقراط وافلاطون وارسطو .
		علماء الفلك يحددون طول خط الهاجرة.
		العناية بدراسة الجغرافية والطب والحساب .
		محمد بن اسماعيل البخاري يصنف صحيحه ، وهو مجموعة الحديث النبوي الاجدر بالثقة والاعتماد .
المتوكل	٨٤٧ – ٨٦١	أول الخلفاء العباسيين المستضعفين . وقد صرع بأيدي حرسه الفارسي.



الفصل الرابع

مِنَ الخِلافَةِ إلى نِهايَةِ العَهْدِ العُثماني

●

١. السلالات الحاكمة المتأخرة

عندما انشأ المعتصم العباسي حرساً له من الموالي الاتراك مهد السبيل لسيطرتهم على الخلافة طوال قرون تالية . وخلال نحوٍ من عشرين سنة انقضت على وفاة المنصور قنعت العناصر التركية بالتفرد بأمر تنصيب الخلفاء الذين تعاقبوا على العرش بمثل السرعة التي يخلف فيها رئيس وزراءٍ فرنسيّ رئيس وزراء فرنسياً ، تقريباً . حتى إذا وجّه الخليفة المعتزّ (٨٦٦ – ٨٦٩) احمدَ بن طولون إلى مصر بوصفه ممثلاً له فيها، طرأ تغيّرٌ على مطامح هذه الجماعة ذات البأس . فقد اغتصب ابن طولون السلطة في مصر ، وتربّع على عرشها ، وأعلن استقلالها عن خليفة بغداد وهو عملٌ جعل الديار المصرية مستقلة للمرة الأولى منذ عهد الفراعنة .

وبعد أن انشأ ابن طولون جيشاً قوياً يسيطر عليه حرسُهُ المؤلّفُ من مَوالٍ أتراك زحف إلى سورية وأخضعها لسلطانِهِ . وعلى الرغم من ان هذا التفتيت لامبراطورية الخلفاء قد أوهنها إلى درجة جعلتها لا تستعيد مكانتها العظيمة السابقة في ايما يوم من الأيام ، فأن عاقبة ذلك كانت — — على الجملة — في مصلحة مواطنيها . لقد ظلت السلالة العباسية تُقَدِّمُ الخلفاء لتوجيه مصائر الاسلام حتّى أوائل القرن الثالث عشر ، ولكن ازمّة السيطرة الحقيقية كانت في أيدي سلالات صُغْرى كانت تشكل في مجموعها الامبراطورية الاسلامية . وإذْ كانت هذه السلالات الحاكمة مسيطرةً على مساحاتٍ من الأرض أضيق فقد ُوفّقت إلى ان تفرض على رعاياها حكماً أكثر َفعالية ، وهكذا عزّزت الصناعة والتجارة ورفعت مستوى المعيشة .

وعُنِـي الطولونيون بتشجيع الفن والعمارة ، ولقد انشأوا في ظل ابن طولون الجامعَ الشهير الذي يحمل اسمه في عاصمته — الفسطاط . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان ابن طولون مَعْنياً بتنمية مصر ، اقتصادياً ، لأن مصلحته كانت تقضي بأن يكون البلد الخاضع لسلطانه رافلاً بالازدهار . ومن أجل تحقيق هــذه الغاية عُنِـي بشؤون الريّ ، وبتحسين مقياس النيل **Nilometer** وهي اداة اصطُنِعت لتحديد عمق النهر ذي الأهمية الحيوية إلى أبعد الحدود بالنسبة إلى الوجود المصري .

ولكن العساكر التركية التي كانت قِوام قوة ابن طولون ما لبثت ان أمست هي السبب في تقويض دعائم دولته التي لم تُعَمّر طويلاً . ذلك بأن تلك العساكر المرتزقة كانت مستعدة لأطاعتِهِ ما بقيَ قابضاً على ازمّة الحكم بِيَدٍ قوية . ولكن ما إن تكشّفَ خلفاؤه عن ضَعْف وانغماسٍ في العيش المترف حتى خلعت تلك العساكر طاعته وأبتْ أنّ تؤيده . وهكذا أمسى الطولونيون عاجزين عن الصمود في وجه الخليفة العباسي الذي ما لبث أن قضى على دولتهم .

ولم يقتصر التوسع الاسلامي في حوض البحر الابيض المتوسط على آسية الصغرى أو شمالي افريقية . فمنذ عام ٦٥٢ غزا المسلمون ، بُعَيْد انتصاراتهم في سورية ومصر ، ثغر سَرَقوسة **Syracuse** في صِقِلّية وأخضعوه لسلطانهم . وشهد القرنان التاليان غزوات عَرَضية قام بها قراصنة ومغامرون مسلمون ، ولكن اغالبة شمالي افريقية لم يشرعوا في غزو الجزيرة ابتغاء فتحها إلا في عام ٨٢٧ . حتى إذا كانت سنة ٨٧٨ سقطت صقلية ، نهائياً ، في أيدي المسلمين . وعندما قضى الفاطميون الاقوياء على دولة الأغالبة استولوا على الحكم في صقلية، إلى ان انتزعته منهم دولة اسلامية أهلية عُرِفت بالدولة الكَلْبيّة .

وخلال العقد الاخير من القرن العاشر بلغت الدولة الكَلْبيّة غاية قوّتها . وانتهت الثقافة الاسلامية إلى اوج ازدهارها في صِقلّية . وفي هذه الفترة حُمِل قَصبُ السكر والأرزّ إلى تلك الجزيرة ، لأول مرة ، من الهند ، ودودةُ الحرير وشجر التوت من فارس ، والمشمش والخوخ والليمون من سورية ، والقطن والرمان والزعفران من مصر وبلاد العرب . [٤٣] ولكن تقدم الزراعة والعيش المترف لم يكونا كافيين لأضفاء صِفة البقاء على مملكة الكَلْبيين . فإذا بالحرب الأهلية وبالتدخل البيزنطي يوهنان من قوّتها ويمهدان لغزو الجزيرة ، عام ١٠٦٠ ، على يد روجر الأول ، أحد أبناء تانكرد دو هوتفيل المتعددين .

وسلخ روجر الاول ثلاثين عاماً في اخضاع المسلمين وتوطيد سيطرته على الجزيرة — وهو صنيع اروع من الغزو النورماني الشهير لانكلترة ، باعتبار أن جيش روجر الاول كان أصغر بكثير وأنه لقي مقاومة أشدّ وأعنف . والحق ان روجر الاول شجع العلماء والصناع

---

٤٣ راجع جوزيف ر. ستراير :

Joseph R. Strayer : *The Middle Ages : 395 — 1500* , **p. 142 . New york : D. Appleton — Century Company,1942.**

المسلمين ، حتى إذا جاء روجر الثاني وفريدريك الثاني من بعده واصلا هذه السنّة التي أحدثها . وهكذا فاق ازدهار العلم في صقلية في ظل النورمانيين أيما ازدهار مماثل في اوروبة الوسيطية . واحتفظ روجر الاول بالنظام الاداري الذي أقامه المسلمون ، وراح البارونات النورمانيون والامراء المسلمون يضطلعون بشؤون الحكم اليومية في تناغم كامل .

والواقع ان أقدم وثيقة ورقية اوروبية معروفة إنما دوّنت في صقلية ، وأن أول قطعة نقد اوروبية تحمل تاريخ سكّها بالارقام العربية إنما ضُرِبت في الجزيرة (صقلية) عام ١١٣٨ . وقد وضع الجغرافي العربي العظيم ، ابو عبد الله الادريسي ، خرائطه المشهورة للعالم المعروف آنذاك برعاية روجر الثاني . أما عناية فريدريك الثاني بالعلم الطبيعي فقادته إلى الاخذ بناصر العلماء المسلمين في حقول متفاوتة جداً — حقول الرياضيات ، وعلم الأحياء ، وعلم الحيوان ، وعلم التنجيم ، والبَزْدرة * falconry وعلم حفظ الصحة .

ولم يطبع المسلمون بطابعهم حركةَ صقلية العلمية فحسب ، بل طبعوا حياتها اليومية أيضاً بذلك الطابع . فخلال عهدَيْ روجر الثاني وفريدريك الثاني أمست العربية لغة رسمية ، في صقلية ، إلى جانب اللاتينية ، وغدا من العسير على الزائر — بسببٍ من اصطناع الازياء العربية ، والمآكل العربية ، والعمارة العربية أن يميّز هذه المملكة النصرانية من جاراتها الاسلامية المعاصرة في الشرق الأدنى أو اسبانية .

ولا حاجة بنا إلى المغالاة في التوكيد على أهمية صقلية بوصفها إحدى القوى التي حفزت النهضة الاوروبية (الرونيسانس) في أطوارها الأولى . إن صَهْر الثقافة الاسلامية والفلسفة الاغريقية في بوتقة واحدة ، في صقلية ، قد أمدّ التطورَ الفكري الاوروبي كله خلال القرنين الرابع عشر

* فن رياضة الصقور وتدريبها . (المعرب)

والخامس عشر بقوّة دافعة .

وبينا كان نجم الطولونيين يجنح ، في مصر ، إلى الأفول كانت قوة جديدة قد شرعت تفرض سلطانها على شمالي افريقية . ولقد اتبعت هذه القوة الجديدة اسلوبَ العباسيين فاتخذت من الاصلاح الديني ستاراً نعمل من ورائه لتحقيق أغراضها السياسية الخاصة . وقد ردّ الفاطميون، وهو الاسم الذي عُرِف به أصحاب تلك الدولة الجديدة ، نَسَبَهم إلى فاطمة ، بنت الرسول ، وأفادوا من هذه الوشيجة لكي يخلعوا على فتوحهم مسحةً من الشرعية . وأفاد الفاطميون أيضاً من نشاطات الاسماعيلية (وهي فرقة من الشيعة) لكسْب تأييد الشعب في طول افريقية الشمالية وعرضها . فقد قالت هذه الفرقة بأن لآيات القرآن معنيين أحدهما ظاهر أو حرفيّ ، والثاني باطنٌ لا يعرفه إلا الراسخون في العلم . وكان رأس هذه الجماعة هو الأمام ، المعدودُ قائداً معصوماً يستطيع أن يُسْنِد نَسَبَهُ إلى عليّ وفاطمة . [٤٤]

ومن القرن التاسع إلى انهيار الامبراطورية الفاطمية تعاظمت قوة الإسماعيلية ونفوذها . ووجّهت جماعةٌ [إسماعيلية] قوية في اليمن رُسُلاً إلى شمالي افريقية ، فاستطاع اولئك الرسل ان يثيروا قبائل البربر ويغرسوا بذور الاستياء والانشقاق الديني ، ممهّدين السبيل لسقوط دولة الأغالبة التي كانت قد بسطت سيطرتها على رقعة كبيرة من افريقية الشمالية . وبمساعدة بعض القادة العسكريين والدعاة الدينيين استطاع الامام الفاطمي الاول ، عُبَيْد الله ، أن يقبض على زمام الحكم في تونس عام ٩٠٩ . وبدعوتهم الناسَ إلى الطاعة العمياء وفوزهم بهذه الطاعة ومن طريق تمثيلهم دورهم كأئمة معصومين وفّق الزعماء الفاطميون

---

٤٤ راجع برنارد لويس :

Lewis , Bernard : *The Arabs in History* **, p. 107. London, Hatchinson's University Library, 1954 .**

الأربعة الأولون إلى توطيد سلطانهم في شمالي افريقية وإلى تمهيد السبيل لغزو مصر .

واصطنع المعزّ ، الخليفة الفاطمي الرابع ، مزيجاً من النشاط الدعاويّ ونشاط « الطابور الخامس » لتقويض أركان الدولة الإخشيدية التي كانت قد حلّت محل الطولونيين . وفتح الفاطميون الاسكندرية عام ٩١٤ ، واقليم الدلتا عام ٩١٦ ، حتى إذا كانت سنة ٩٦٩ زحفوا ، بقيادة جَوْهر ، القائد العسكري العظيم ، إلى عاصمة الطولونيين القديمة ، الفُسْطاط . واختطّ جوهر مدينة جديدةً في ضواحي الفسطاط ، دعاها « القاهرة » . وكان هو صاحبَ الفضل ، أيضاً ، في بناء الجامع الأزهر الذي لا يزال حتى يوم الناس هذا أهمّ مركز ديني ومدرسي في الاسلام .

وخلال عهد الخليفة الفاطمي الخامس ، العزيز ، بلغت الدولة أوجها من حيث القوة والازدهار واتساع الرقعة . وكان في تنمية التجارة ، وإنشاء المزارع ، وتعزيز الصناعة ما زاد في قوة هذه الدولة حتى لقد استطاعت ان تبسط سلطانها على سورية ، وبلاد العرب ، وجزء كبير من شمالي افريقية ، وفي مناسبة من المناسبات حتى على بغداد نفسها . وأياً ما كان فأن عهد المنَعَة والقوة هذا انقضى بوفاة العزيز وتولي [أبي] علي المنصور الحاكم عرشَ الخلافة ، عام ٩٩٦ . وفي عهد هذا الأخير ساءت معاملة الدولة لغير المسلمين وانتهت إلى دَرْك لم تنته إلى مثله في أيما فترة من فترات التاريخ الاسلامي . لقد كان المسلمون ، في الأعم الاغلب ، متسامحين مع النصارى واليهود ، ولكن « الحاكم » أحدَثَ اجراءاتٍ كَبْتيّةً قاسيةً جعلت حياتهم بغيضة إلى أبعد الحدود .

وإنما تجلّى شذوذ « الحاكم » العقلي في اصداره الأمر بتدمير كنيسة القيامة في بيت المقدس عام ١٠٠٩ ، وبقتله بعض وزرائه لغير ما سبب ظاهر ، وزعمه ان الله قد تجسّد فيه . حتى إذا صرعه بعض السفاحين

استبدّ بالدولة وزراء تولّوا مقاليد الحكم باسم بعض الخلفاء اليافعين . وبسبب من الاحتكاك الداخلي والحسد البالغَيْن تمرّدت الاقاليم النائية من الامبراطورية الفاطمية ، ثم انفصلت عنها آخر الامر انفصالاً نهائياً . ومن ذلك الحين خاضت السلالة الفاطمية معركة خاسرةً لاقرار النظام ، ولو ظاهرياً ، في ارجاءِ امبراطوريتها المتفسخة .

والواقع ان السياسة الخطرة التي استنّها العزيز حين اصطنع جيوشاً مستأجرة للسيطرة على الامبراطورية قادت آخر الأمر إلى انهيارها المحتوم . وأدى التنافس بين العساكر البربريّ والتركية والسودانية إلى إبقاء مصر في حال من الاضطراب الموصول — وهو وضع زادتْهُ سوءاً مكائدُ الوزراء المتعطشين للاستئثار بالسلطة والذين اصطنعوا القوات المحاربة لتحقيق مطامحهم الشخصية . وقد تميّز القرن الاخير من عهد الحكم الفاطمي بالاغتيال والاختطاف واغتصاب السلطة ، وما كان لهذه كلها أن تعمل لتحسين حال الشعب البتة . وأهلك الجوع والطاعون عدداً من السكان كبيراً ، وقضت الضرائب الباهظة على روح المبادرة عند الصناع الحِرَفيين وعند المزارعين الذين كانوا ، في الأيام الخالية ، حجر الزاوية في ازدهار الدولة الفاطمية .

وأخيراً أفضى الاعتماد على القيادة الخارجية والقوات الاجنبية إلى سقوط السلالة الفاطمية سقوطاً لا قيام بعده . وارتكب آخر الفاطميين خطأً مُهْلِكاً عندما أسند منصب الوزارة إلى ضابط كردي شاب يدعى صلاح الدين بن ايوب (ومن هنا اسم السلالة الايوبية) ، فوضعتْ هذه الخطوة الخاطلة ، التي تشبه تكليف يسّي جايمس * **Jesse James** القيامَ بمهام أمين الصندوق في البنك الوطني ، حداً لقرنين ونصف قرن من الحكم الفاطمي . فقد وفّق صلاح الدين ، بهمّته القعساء المألوفة ،

* كان يسي جايمس هذا (١٨٤٧ – ١٨٨٢) رجلا اميركياً متمرداً على السلطة والقانون . (المعرب)

التي قُدِّر على الصليبيين أن يلمسوها لمسَ اليد ، إلى القضاء على الخلافة الفاطمية وإعادة مصر إلى كنف السنّة .

ولم يجد صلاح الدين عُسْراً كبيراً في توطيد سيطرته على مصر ، حتى إذا كانت سنةُ ١١٧٤ بسط سلطانه على اليمن والحجاز وأجزاء من السودان . وازدهرت مصر ، كرة أخرى ، في ظل زعامته القوية ؛ وفي عام ١١٨٧ بلغت جيوشه من البأس مبلغاً مكّنها من شنّ الحرب على الصليبيين . وفي سنة ١١٩٣ وُفّق صلاح الدين إلى طرد الأوروبيين من معظم أجزاء فلسطين وسورية . ولكن ما إن بدا وكأنّ الصليبيين قد قُذِف بهم إلى البحر حتى التحق صلاح الدين بالرفيق الأعلى .

وفي عام ١١٩٣ ، وهو العام الذي توفي فيه صلاح الدين ، أخذت امبراطوريته التي بناها بجهاد طويل موصول سبيلها إلى التفسّخ والانحلال. وإذْ لم يعيّن خليفته من بعده فقد اقتسم أولاده الثلاثة وأخ له أصغر منه تلك الامبراطورية في ما بينهم . وأفاد أخوه ، العادل، من الخلاف الناشب بين الحكام الآخرين فبسط سيطرتَهُ على الجزء الاعظم من الديار التي فتحها صلاح الدين . والواقع ان المئة السنة التي نعم فيها الأيوبيون بقوة وبأس شديدين كانت حافلة بالمعارك المتواصلة ضد الصليبيين الذين واصلوا تهديدهم مصرَ بخطر عظيم . وإنما خاضت هذه الدولة آخر معاركها ضد النصارى عندما غزا ملك فرنسة لويس التاسع دلتا النيل وقد انتهى هذا الغزو الجهيض بأسْر الملك الفرنسي والكثرة الكبيرة من نبلائه ، ولكن النصر كان نصراً فارغاً بالنسبة إلى خلفاء صلاح الدين .

فبعد عام واحد من انزال الهزيمة بالفرنسيين خسر الأيوبيون سيطرتهم على مصر ، واضطروا إلى الاكتفاء ببعض الممتلكات الصغيرة المتناثرة في سورية والعراق . والواقع أن سقوطهم لم ينشأ عن جهود أعدائهم

الطبيعيين : أعني الصليبيين . لقد كان العدو في داخل بلاطهم نفسه . ذلك بأن السياسة التقليدية التي قضت باستئجار القوات الاجنبية والتي قضت ، في أحوال أكثر تكرّراً ، بشراء المماليك لتعزيز الجيش أفضت كرةً أخرى إلى انهيار دولة التمست عندهم أسبابَ البقاء .

وَسَعَتْ شجرة الدر ، أرملة آخر سلطان ايوبي قويّ – وكانت في الأصل جاريةً من الجواري – إلى إقصاء وريثَيْ زوجها الشرعيّيْن عن الحكم ، واغتصاب العرش الايوبي المتداعي . ولقد حكمت ، بوصفها سلطانةً ، ثمانين يوماً ، فكانت المرأة المسلمة الوحيدة التي قُدِّر لها في أيما يوم من الايام ان تبلغ هذه المنزلة في افريقية الشمالية أو في آسية الغربية . وقد ضَرَبَت شجرة الدّر النقود باسمها ، ودُعِي لها من على منابر المساجد في خطبة الجمعة . [٤٥] وبعد أن تسبّبت في مقتل زوجها ، وكان هو مملوكاً سابقاً ، ضُرِبت حتى الموت من قِبَل جواري احدى زوجاته الاخريات . وهكذا خُتِمت في عام ١٢٥٠ الحياة السياسية لامرأة يمكن أن تُعتبر آخر الايوبين وأول ممثّل للدولة الجديدة – دولة المماليك .

والواقع ان مآثر الدولة الايوبية وخدماتها الايجابية كانت ثمرة مواهب صلاح الدين البارزة . فقد أقام سياسته التوجيهية على أساس من مقارعة التشيّع بأعادة تثقيف الشعب وفقاً لمذهب السنّة . ولبلوغ هذه الغاية انشأ المدارس والكليات في طول امبراطوريته وعرضها – وبخاصة في القاهرة والاسكندرية ودمشق . وتحدّث زائر وفَدَ على المدينة الاخيرة عام ١١٨٤ فقال ان فيها عشرين مدرسة ، ومستشفيين مجانيين ، وعدداً كبيراً من الخانقاهات . [٤٦]

---

٤٥ راجع حتي :

Hitti : *History of the Arabs* , **p. 672** .

٤٦ راجع حتي ، المصدر السابق ٦٦٠ .

ومن المباني الكثيرة التي اشتهرت بجمال هندستها والتي شيّدت في عهد صلاح الدين لم تُبْق لنا الايام غير قلعة القاهرة الشهيرة . ويشير فنّها المعماري إلى ان القوم استخدموا بعض أسرى الصليبيين كمساعدين في تصميمها وبنائها . والقلعة مدينةٌ أيضاً لمصر القديمة ، لأن حجارة أساسها أخِذت من بعض الأهرامات الصغيرة .

* * *

وعُمّرت دولة المماليك في مصر نحواً من مئتين وسبعين سنة ، تعاقب على العرش خلالها نحوٌ من خمسين سلطاناً قضَوْا معظم فترات حكمهم في إخضاع رعاياهم الثائرين . وكان أول السلاطين المماليك العظام هو بَيْبَرْس ، وكان تركياً قبْشاقيّاً . ومن المفيد أن نستعرض الخطوات التي قادته إلى العرش ، فقد كانت هذه خطواتٍ نموذجية مشاها معظم سلاطين المماليك .

بعد ان بيع بَيْبرس لواحد من سلاطين المماليك الأولين ، عُيّن قائداً لفرقة من حرس السلطان . ومن هذا الموقع المنيع تقدّم بيبرس ، ذو البأس الشديد والقلب الذي لا يرحم ، في خطىً سريعة إلى قيادة الجيش . وفي منصبه الجديد هذا كان هو العامل الرئيسيّ في إيقاع الهزيمة بالمغول الذين اجتاحوا فارس وسورية بقيادة هولاغو ، حفيد جنكيز خان . ولم يُكافَأ على خدماته لمصر المكافأةَ التي استشعر أنه كان حقيقاً بها ؛ ومن أجل ذلك ، عمد ، بمعونة بعض الساخطين من الجند ، إلى قتل [السلطان] قُطُز ، والتربع على العرش مكانَهُ . وبالاضافة إلى ايقاع الهزيمة بالمغول يتعيّن علينا أن نقرّ بأنه صاحب الفضل في القضاء على الخطر الصليبي الحقيقي في سورية .

إن بيبرس لم ينشىء جيشاً ويَبْنِ اسطولاً فحسب ؛ لقد عمِلَ شيئاً أكثر من ذلك . كان معنيّاً ، على نحو خاص ، بالاعمال العمرانية على اختلاف ضروبها ، وفي جملتها شق القنوات ، وبناء المساجد

والمدارس والمرافئ . فبتوجيه منه أقيم نظـام بريدي ، اصطنع الخيل الرشيقة وحمامَ الزاجل ، لكي يربط مصرَ بسورية . ومن الأعمال التي تنهض دليلاً على عبقرية بيبرس أنه دعا احد افراد الاسرة العباسية إلى القاهرة ونصّبه فيها خليفةً على المسلمين . ولقد أفاده هذا الصنيـعُ فائدتين : فمن ناحية ، خلع على حكمه مظهر الشرعية الدينية ، ومن ناحية ثانية جعل أهل السنة يلتفّون حوله ويأخذون بناصره . بيد أن صنيعه هذا لم يعزّز ، إلا قليلاً ، قوةَ الخلفاء ، الذين اُتّخِذوا مجردَ دُمَىً لا مهمة لها غير الموافقة على أعمال السلطة الدنيوية .

وكان من سوء طالع المماليك أن كثيراً من السلاطين الذين خلفوا بيبرس لم يتمتعوا بغير جزء ضئيل من عبقريته في الادارة . وممن يمكننا أن نقارنهم به ، من حيث المكانة والعظمة ، السلطان الناصر الذي قدّر له أن يتولى العرش ثلاث مرات مختلفات ، ما بين عام ١٢٩٣ وعام ١٣٤٠ . وأشهر منجزاته القناة التي شقّها من الاسكندرية إلى النيل — وهو جهدٌ أقتضى كدحَ مئة ألف رجل . والحق أن الجامع والمدرسة اللذين بناهما يؤذنان ببلوغ العمارة الاسلامية درجة من الفن رفيعة ، في حين ان الصّناع في عهده وُفّقوا إلى إبداع بعض النماذج ، الاكثر روعة ، من الفنون الاسلامية الثانوية .

وبعد بضع سنوات من وفاة الناصر استولت جماعة جديدة مـن المماليك على مقدّرات مصر . فحتى ذلك الحين كان السلاطين إما اتراكاً وإما مغولاً عُرفوا بالمماليك البحرية ، ولكن مقاليد الأمر في مصر انتقلت — منذ عام ١٣٨٢ — إلى سلالة جديدة من العبيد الجراكسـة المعروفين بالمماليك البُرْجية . ولقد كانت هذه الجماعة الجديدة أقـلّ كفاءة وأشدّ تعطشاً إلى الدم حتى من سلاطين الجماعة السابقة ، فأذا بالأحوال العامة في البلاد تتدهور في سرعة . وتعاون المرض والجوع وسوء الادارة والضرائب المرهِقة والفساد الحكومي مع ضياع احتكار

الطريق الحيوية إلى الهند لكي تجعل مصرَ المملوكية على شفا الانهيار الاقتصادي . ولكي يغطي المماليك نفقاتهم التبذيرية فرضوا ضرائب باهظة على تجارة العبور (الترانزيت) من الهند إلى أوروبة . وكان لهذا الصنيع صدى سيء بحكم الطبع ، وكان أحد الدوافع التي حملت فاسكو دا غاما على استكشاف طريق بحرية جديدة إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح - وهكذا خسرت مصر مركزها الستراتيجي كجسر تعبره التجارة الهندية .

وبعد أن صمدت دولة المماليك المتفسخة في وجه هجمات الصليبيين والمغول ، قضى عليها آخر الامر غازٍ جديد أقبل مما يُعْرف اليوم بتركية . وتفصيل ذلك ان الاتراك العثمانيين - الذين عُرِفوا بهذا الاسم نسبةً إلى مؤسس اسرتهم عثمان الاول (١٢٩٩) - قطنوا في الأصل في منغوليا ، ولكنهم كانوا قد اندفعوا إلى ديار الاناضول ، المقاطعة البيزنطية ، واستقروا هناك . وفي عام ١٤٥٣ استولى العثمانيون على القسطنطينية وشرعوا يزحفون على سورية . وبذل المماليك جهوداً يائسة لوقف اندفاع الاتراك ، ولكن على غير طائل ، وأخيراً اجتاح الغزاة القاهرةَ ، عام ١٥١٧ ، واضعين حداً لدولة المماليك الفريدة .

إن حقبة الحكم المملوكي هذه في مصر وسورية تميّزت ببعض التغيّرات الهامة في صورة العالم الاسلامي . فالحياة الاقتصادية التي كانت مبنيّةً على التجارة ارتدّت إلى نظام اقطاعي في أساسه ، نظامٍ استند وجودُهُ نفسُهُ إلى الزراعة . وفقدت الثقافةُ العربية بعضَ مكانتها ، وهو تغيّر أعظم شأناً وأبعد مدىً . فمنذ عهد الفاطميين استولت على مقاليد الحكم في البلدان الاسلامية أجناس غير عربية - كالأتراك والمغول - أغرقت مؤسسي الامبراطورية الاصليين في ظلمة نسبية . وخسر الشعب الناطق بالعربية استقلاله طوال الف سنة تقريباً ،

ولم يستردّه إلا في القرن العشرين .

* * *

درسنا حتى الآن نشوء الدولة الاسلامية وانحلالها في مصر وبلاد العرب وسورية . وفيما كان الفاطميون والايوبيون أصحاب السلطان في الجنوب والغرب نهضت دولة قوية أخرى وانهارت في فارس والعراق . فحوالى عام ٩٧٠ اتخذت عشيرة الغُزّ ، وهي عشيرة تركية من آسية الوسطى ، سبيلها إلى الاطراف الشرقية من الديار الاسلامية . ولكي يحول سلطان المنطقة دون اندفاع الغزّ إلى فارس ، أقطع جماعة منهم ارضاً أبعَدَ إلى الغرب . ولكن اصطناع قاعدة « فرِّق تَسُدْ » العريقة في القدم ، هذه ، مُنِي بأخفاق كلّي . ذلك بأن السلاجقة ، كما دُعوا نسبةً إلى زعيمهم ، ارتدّوا على مضيفيهم السابقين وقضَوْا على سلطانهم إلى الأبد .

وبعد هذه المعركة انتخب السلاجقة رجلاً منهم ، طُغْرُلْبَكْ ، زعيماً لهم . وسرعان ما وفّقوا ، بقيادته البارعة ، إلى السيطرة على العراق وسورية وفلسطين والاناضول ، ونادَوْا بزعيمهم طغرلبك سلطاناً في بغداد . وتلقّى السلطان الجديد من الخليفة العباسي تاجَيْن اثنين رمزاً إلى أنه كان ملكاً على فارس وبلاد العرب و « سلطاناً للشرق والغرب » في آن معاً . [٤٧] وعلى الرغم من ان السلاجقة كانوا يعتنقون مذهب السنّة فأنّهم لم يمنحوا الخليفة أية سلطة حقيقية ، بل أبقَوْه لمجرد اضفاء الصفة الشرعية على حكمهم .

والواقع ان عهود طغرلبك ، وابن أخيه أَلْب ارسلان، ومَلِكْشاه ابن ألب ارسلان ، تمثّل الأوج الذي بلغته الدولة السلجوقية في تاريخها

---

٤٧ راجع سيد أمير علي :

Ameer Ali : *A Short History of the Saracens* , **p. 310 .**
London : Macmillan and Co. Ltd. , 1953 .

كله . لقد طردت جيوشُ السلاجقة،يقودها ألب أرسلان ، البيزنطيين من معظم ممتلكاتهم الآسيوية ، ولكن الدولة تجلّت في أحسن أحوالهـا خلال عهد ملكشاه . ولعل عهد ملكشاه هذا حظيَ بأعظم الشهرة بفضل كبير وزرائه ذي الشهرة الأكثر بعداً ، أعني الوزير نظام المُلْك ، الذي أعاد تنظيم اقتصاد البلد من اقتصاد نقدي **monetary** محض إلى نظام اقطاعي معدّل . لقد تبدّى له أنه ما لم يكن لقوات السلاجقة الـتي يعوزها الانضباط العسكري مصلحة شخصية ما بازدهار البلاد فلا بدّ لهذه القوات أن من تَقْنَعَ بابتزاز المال من السكان ، من غير مـا شعور بالمسؤولية البتة . وهكذا منح نظام المُلك الأرض نفسها إلى الأكفاء من الضباط مكافأةً لهم على اخلاصهم للعرش . حتى إذا أدرك الضباط أن ازدهارهم الشخصي رهنٌ بالارض راحوا يُظهرون اهتماماً جدياً بأدارة ممتلكاتهم في فعالية ونشاط . وهكذا استطاع ان ينشىء ، بأقل قَدْر من الجهد ، اقتصاداً مزدهراً .

وكانت الخدمة التي أسداها نظام الملك إلى الحياة الثقافية أبعد مدىً من خدماته للحياة الاقتصادية نفسها . ففي عام ١٠٦٥ انشأ المدرسـة النظامية ، أول جامعة حسنة التنظيم في الاسلام . ليس هذا فحسب ، بل لقد أصلح التقويم بمساعدة الشاعر – الرياضي الشهير عمر الخيام . ولكن الحشاشين [٤٨] ، الذين كانوا قـد ظهروا على مسرح التـاريـخ الاسلامي في الجزء الاخير من القرن الحادي عشر ، ما لبثوا أن عطلوا النظام الاداري الجيد الذي أحـدثه نظام المُلك تعطيلاً نهائياً .

ففي عام ١٠٩٠ استولى زعيم الحشاشين ، الحسن [بن] الصبّاح على عدد من القلاع الجبلية المنيعة إلى أبعد الحدود في شمالي فارس وفي سورية ، ومن هذه القلاع راح يصدر أوامره إلى اتباعه المتعصبين .

---

٤٨ **Assassins** وهي تحريف للفظة « الحشاشين » العربية ، وتعني مدمني « الحشيش » وهو مخدر قوي .

وكانت سياسة الحشاشين تقضي بقتل كل من استشعروا أن وجوده يعرّض مصالحهم للخطر ويحول دون نشر مذهبهم الاسماعيلي المغالي في التطرف. ولم يُقمَع هذا الارهاب في قلب العالم الاسلامي قمعاً نهائياً إلا بعد أن قضى المغول على الحركة الاسماعيلية في القرن الثالث عشر.

وبعد مصرع نظام المُلْك على أيدي الحشاشين تجزأت الامبراطورية السلجوقية إلى أقسام متوافقة مع حدود الممتلكات الاقطاعية التي رسمها. وإذْ خلَتْ بغداد من رجل قويّ يضبط النبلاء الصغار الجشعين فقد نشبت بينهم منازعات موصولة، وإذا ببعض الدويلات المستقلة تحلّ محلّ الدولة التي كانت في يوم من الايام موحّدة. وهذه الفترة من الضعف كانت من الاسباب المساعدة على النجاح المبدئي، والمتواتر في بعض الاحيان، الذي أحرزه الصليبيون. فقد استطاع الغربيون ان يوقعوا الهزيمة بالامارات الاسلامية المُفْردة، بل استطاعوا أن يحرضوا بعض الزعماء المسلمين على بعضهم الآخر، أحياناً.

وبرغم ان سلطان الاسرة السلجوقية على امبراطورية موحّدة كان قد أمسى خبراً ماضياً فأن بعض الضباط، وبخاصة زَنكي، استطاعوا أن يقيموا شبه دولة سلجوقية. بيد أن الأسرة الأيوبية، وهي اسرة صلاح الدين المالكة التي برزت على مسرح الاحداث بعد النجاح الذي وفّق اليه في مصر وسورية، ما لبثت أن سيطرت على الممتلكات السلجوقية الصغيرة في الشرق. أما البقية الباقية من السلاجقة في فارس فقد أطاح بهم خطر جديد مقبلٌ من آسية الوسطى.

ففي سهوب منغوليا كانت القبائل المتوحشة قد توحّدت تحت قيادة تموجين (جِنكيز خان). وقد وُفّق تموجين هذا إلى اخضاع الصين، عام ١٢١٩، وإلى الارتداد غرباً لغزو الامبراطورية الاسلامية المجزّأة. وما هي إلا سنة حتى اجتاز نهر جيحون واجتاح فارس بمثل جبروت سدٍّ منفجر. لقد تطايرت المهالك الصغيرة، التي كانت قد بقيت من

حُطام الامبراطورية السلجوقية الغريق ، تطايُرَ الهباء المنثور ، أمام جحافل المغول ، وإذا بهذه الجحافل تتخذ سبيلها إلى مصر . وبدا وَضْع المسلمين يائساً وقد وقعوا بين نارَيْن : نار جيوش « الخان » من ناحية الشرق ، ونار الصليبيين من ناحية الغرب . حتى إذا توفي جنكيز خان عام ١٢٢٧ تنفّس الاسلام الصعداء ، بينا اتجه المغول شرقاً لكي يختاروا زعيماً جديداً .

وفي أقلّ من خمس وعشرين سنة تلت ظهر الخطر المغولي ، من جديد ، عند تخوم فارس . وهذه المرة دشّن غزو البلاد الاسلامية سياسة « الأرض المحرَقة » * scorched earth التي ما تزال الجيوش تصطنعها ، في نجاح ، حتى يومنا هذا . فبقيادة هولاكو ، أحد حَفَدَة جنكيز ، احتل المغول عاصمة الخلفاء العباسيين التقليدية : بغداد . وعلى الرغم من ان قوماً زعموا له « انه إذا ما قُتِل الخليفة فأن الكون كله سوف يضطرب ، وان الشمس ستحجب وجهها ، وان المطر سوف يكفّ عن الهطول ، وأن النباتات لن تنجُمَ بعدَ اليوم » فقد أعدم هولاكو آخر خليفة عباسي من خلفاء بغداد — رجالٍ كانوا هم رؤساء الاسلام الروحيين طوال خمسمئة عام سالفة .

ومع ان المغول عطّلوا الحياة الفكرية والثقافية نحواً من قرن كامل في المناطق التي اجتاحوها فقد أسدوا إلى العالم الاسلامي خدمةً لا تنكر . ذلك بأنّ الغزاة الوافدين من السّهوب لم يظهروا من التسامح مع « شيخ الجبل » وحشّاشيه أكثر مما أظهرته السلالات الاسلامية الحاكمة . ففي سلسلة من المعارك اليسيرة إلى حد يثير الدهش دُمّرت معاقل هذه الفرقة الاسماعيلية ، وقُضِي على الارهاب الذي عرفته الديار الاسلامية طوال مئتي سنة تصرّمت قبل ذلك .

---

* سياسة تصطنعها الجيوش المتراجعة وتقضي بتدمير المدن ، ونسف الطرقات واحراق النباتات والمحاصيل والوقود وكل ما قد يحتاج اليه الغزاة أو يفيدون منه . (المعرب)

وبعد أن غزا المغول سورية ليصدّهم عنها سلطان المماليك ، بيبرس ، وطدوا أقدامهم في فارس والعراق وانصرفوا إلى تعمير الارض التي كانوا قد خرّبوها في غير ما رحمة . والواقع ان هذا التغيّر المدهش الذي طرأ على سياسة المغول إنما هو ثمرة من ثمرات نفوذ الاسلام المُمَدّين المرسّخ . فبعد أن احتل المغول الامبراطورية الاسلامية وجدوا انفسَهم في وضع كالوضع الذي جابهه كثير من المنتصرين قبلهم : لقد خضعوا لدين ضحاياهم وثقافتهم .

* * *

وعلى الرغم مما حفلت به غزوات المغول للبلاد الاسلامية من أرزاء وكوارث فأن أثر هذه الغزوات كان عابراً سريع الزوال إذا ما قورن بالاثر الذي خلّفته جماعةٌ تالية من الفاتحين فرضت سلطانها على المنطقة. وهؤلاء الفاتحون ، الاتراك العثمانيون ، إنما اندفعوا إلى أواسط آسية الصغرى ، متّبعين في ذلك سبيلَ بني عمومتهم السلاجقة . ووطّد عثمان ، مؤسس الأسرة ، أقدام شعبه في الديار التي خضعت للسلاطين السلاجقة من قبل . وما هي غير سنوات معدودات حتى امتدّت الاراضي التي سيطروا عليها من سورية إلى الدانوب . وإذ تمّت لهم السيادة على هذه المنطقة ، وبعد أن وُفّقوا إلى فتح القسْطنطينية عام ١٤٥٣ وجّه العثمانيون أنظارهم إلى مملكة المماليك المتداعية إلى السقوط وفي عام ١٥١٧ وضع السلطان سليم ، بمعونة الخيانة والمدفعية ، حداً لحكم المماليك لمصر ، وقضى على الدولة المملوكية قضاءً نهائياً .

وبقيادة سليمان الأول ، ابن السلطان سليم ، بلغت الامبراطورية العثمانية أعظم اتساعها المادي ، وأوج مجدها الثقافي . لقد وفق سليمان العظيم ، وهو معاصر لفرنسيس الأول ملك فرنسة وهنري الثامن ملك انكلترة ، إلى توسيع حدود دولته لتمتدّ من أبواب فينّا إلى الخليج الفارسي ، ومن بحر قزوين إلى شلال النيل الأول . وفي شمالي افريقية دانت طرابلس

الغرب وتونس والجزائر للعثمانيين بالولاء ، ولكن مراكش ظلّت في نجوة من حكمهم .

ووفّق العثمانيون إلى الاحتفاظ بسيطرة اسمية على امبراطوريتهم ، ولكن الولايات النائية اتخذت سبيلها ، بعد وفاة سليمان ، وعلى نحو متعاظم ، نحو الاستقلال . والواقع ان رغبة الشعب المتزايدة في التحرر القوميّ ، هذه الرغبة التي تجلّت خلال القرن التاسع عشر ، ومطامع فرنسة وانكلترة الاستعمارية تعاونت على إضعاف العثمانيين حتى لقد أمست سلطتهم على امبراطوريتهم رمزيةً أو شبه رمزية ليس غير . والحق ان الاجراءات القمعيّة القاسية التي اتخذها العثمانيون ضدّ كل اصلاح اجتماعي أو تشريعي أثارت نقمة ضاريةً في صفوف رعاياهم . صحيح ان هذه السياسة القصيرة النظر لم تقضِ على امبراطوريتهم قضاء عاجلاً ولكنها تعاونت آخر الامر مع هزيمة تركيا ودول الوسط في الحرب العالمية الأولى فسبّبت انهيار دولة نافسَت يوم كانت في أوج مجدها امبراطوريةَ الامويين العربيةَ في اتساع الرقعة وترامي الأطراف .

ولكي نفهم طبيعةَ الامبراطورية العثمانية الحقيقيةَ يتعيّن علينا أن ندرس بعض العوامل الاساسية التي أثّرت في نشوئها وتطورها . كان ثمة ، قبل كل شيء ، كثير من القوى الغربية التي كيّفت ثقافة الاتراك ، أعني الاوروبيين الذين أظلّتهم راية العثمانيين ، والحضارة البيزنطية التي اقتبسوها ، والعلاقات التجارية والصلات الديبلوماسية الواسعة . وكان هناك الاسلام الذي لعب دوراً حيوياً في تكوين الثقافة التركية . ولقد كان العثمانيون شديدي التعلّق بأهداب السنّة ، ولكنهم كانوا إلى جانب تقواهم متزمتين في تفسيرهم للاسلام . وبالاضافة إلى هذين العاملين الرئيسين تركت التقاليدُ المحلية ، والعادات المتّبعة في الاشكال الفنية ، واللغة واصطناع الحروف العربية في كتابتهم — اقول

تركت هذه كلها طابعها على الاتراك .

وعلى الرغم من انه كان خليقاً بهذه العوامل كلها ان تتعاون على اضفاء مسحة تحررية على الدولة ، فان الواقع لم يكن كذلك ؛ ذلك بأن نظاماً هيراركياً hierarchic قوياً في الحكومة والدين ما لبث أن نشأ . والحق أن المركز المنيع الذي احتله ممثلو الاسلام الرسميون في المجتمع ، اولئك الممثلون الذين كانوا مصفّدين هم انفسُهم بأغلال التقليد ، لم يُبْقِ أيما مجال لضروب الاصلاح التي احتاجت اليها الدولة حاجةً ماسّة . لقد فسّروا الشريعة بروح ضيقة غير متسامحة ، روحٍ لم تطق صبراً على أيّ تساؤل أو اعتراض . ولقد اجتمعت هذه المجالي السلبية مع ارتياب عامٍّ في الثقافة الغربية ومع عجز « الباب العالي » السياسي وتعاونت لتبرير الاسم الذي اطلق على تركية : « رجل اوروبة المريض » The Sick man of Europe .

ولم توفّق تركية إلى استعادة استقرارها إلا بعد الحرب العالمية الأولى وإلا بعد ان جُرّدت من امبراطوريتها . ولقد كانت هذه الخطوة التقدمية ثمرة نضال رجل فَرْد ، أعني كمال اتاتورك الذي يُعتبر صاحب الفضل في احتلال تركية مركزاً محترماً جداً في أسرة الأمم المعاصرة . ولكي يحقق أتاتورك غرضه الغى ، في غير ما رحمة ، معظم التقاليد القديمة التي عاقت تقدّمَ بلاده دهراً طويلاً . ولتيسير التعلم ألغِيَ الحرف العربي واستُبْدِلت بِهِ أبجدية لاتينية الحرف . وإلى هذا حُرِّرت البلاد من القبضة الخانقة التي كانت قد أخذت بعنقها نتيجةً لاساءة فهم الاسلام ، وجُعِل التسامح الديني قانونَ البلد . وباصطناع ضرب من اشتراكية الدولة state socialism استطاع الرئيس التركي أن يحقق بعض التقدم في طريق الازدهار ، وان يبقى في الوقت نفسه متحرراً ، كثيراً أو قليلاً ، من الرساميل الاجنبية وما يصاحبها من سيطرة سياسية .

إن نهوض تركية الحديثة على أنقاض الامبراطورية العثمانية والغاء

السلطنة والخلافة في ٣ آذار (مارس) عام ١٩٢٤ ليمثلان نهاية الامبراطوريات الدينية – السياسية التي كانت قد استهلت بالرسول وصحابته . والواقع ان الروح الاستقلالية التي تغلب على البلدان الاسلامية لم تجز لشعوب هذه البلدان ، حتى الآن على الاقل ، أن تقوم بأكثر من خطى بطيئة نحو إعادة إنشاء الامبراطورية الاسلامية . ولسوف يكون من مهمة المستقبل ان يكشف عن أيما اتجاه قد ينشأ نحو تحقيق هذا الشكل من التعاون .

قراءات مختارة

١ – غرونيباوم ، ج. فون : « الاسلام الوسيطي » **Grunebaum , G. von** *Medieval Islam* (تشيكاغو ، ١٩٤٦) .

٢ – لويس ، برنارد « العرب في التاريخ » **Lewis , Bernard** *The Arabs in History* (لندن ، ١٩٥٠) .

جَدْوَل كْرُونُولوجي

تواريخ	دول وزعماء	الأحداث الهامة: في العالم الاسلامي	الأحداث الهامة: في اوروبة والغرب
٨٦٨ – ٩٠٥ م.	الدولة الطولونية		الاقطاعية تشيع في اوروبة
٨٦٨ – ٨٨٣	أحمد بن طولون	يحرر مصر من سيطرة العباسيين؛ يفتح سورية؛ يبني جامع ابن طولون المشهور .	الملوك الكارولنجيون يحكمون الفرنج (الفرنك) الغربيين ؛ ألفرد الكبير يهزم الدانيين (٨٧٨ م) .
٩٠٩ – ١١٧١	الدولة الفاطمية	أسسها أحد المتحدرين من فاطمة بنت الرسول.	
٩٠٩ – ٩٣٤	عبيد الله المهدي	يعلن نفسه خليفة ومهدياً ؛ يفتح افريقية الشمالية كلها ما عدا مراكش ؛ يحل المذهب الشيعي محل المذهب السني .	عبد الرحمن الثالث يتولى الحكم في اسبانية (٩١٢ – ٩٦١) ؛ بداية الدولة السكمونية في المانية (٩١٩ – ١٠٢٤) .
٩٦٩	جوهر الرومي (اليوناني)	هذا القائد العسكري يؤسس مدينة القاهرة؛ يبني الجامع الأزهر .	أوتو الكبير (٩٦٢) يحيي امبراطورية الغرب الرومانية .
٩٧٥ – ٩٩٦	العزيز الفاطمي	يسيطر على أعظم امبراطورية في ذلك العصر ؛ يتوسع في بناء القاهرة ؛ يقرب النصارى ويكرمهم .	ملوك أسرة كابيه يحكمون فرنسة .

٩٩٦ – ١٠٢١	الحاكم بأمر الله	كان متطرفاً في التعصب وعدم التسامح ؛ يدمر كنيسة القبر المقدس في القدس .	الملك كانوت يبسط سلطانه على انكلترة ، والدنمارك ، ونروج .
حوالى ١٠٥٠ – ١١٧١		العساكر المستأجرة تضعف مصر ؛ المجاعة والطاعون وفساد الحكم تفقدها قوتها ؛ الفاطميون يخسرون صقلية (١٠٧١) ومالطة (١٠٩٨) وطرابلس الغرب (١١٤٦) .	الحملة الصليبية الأولى تبدأ (١٠٩٦) ؛ الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧) ؛ روجر الثاني يحكم صقلية (١١٣٠ – ١١٥٣) .
١١٧١ – ١٢٥٠	الدولة الأيوبية		
١١٧١ – ١١٩٣	صلاح الدين الايوبي	يستولي على مصر ؛ يعيدها إلى المذهب السني ؛ يضم اليها اليمن،والحجاز ، وسورية ، والسودان ؛ يطرد الصليبيين من معظم أجزاء الارض المقدسة ؛ يبني قلعة القاهرة .	ريكاردوس قلب الاسد ، وفردريك بربروسا ، وفيليب الثاني يبدأون الحملة الصليبية الثالثة .
١٢٥٠ – ١٥١٧	دولة المماليك	انشأها وحكمها العبيد .	
١٢٥٦ – ١٢٥٨		الغزو المغولي بقيادة هولاكو ؛ تدمير بغداد .	
١٢٦٠ – ١٢٧٧	الظاهر بيبرس	يهزم المغول ؛ يقضي على الخطر الصليبي ؛ يقيم حكومة وصناعة ومواصلات تتصف بالفعالية؛ يدعو الخليفة العباسي إلى القاهرة .	بداية الحملة الصليبية الأخيرة (١٢٧٠) .

تواريخ	دول وزعماء	الأحداث الهامة: في العالم الاسلامي	الأحداث الهامة: في اوروبة والغرب
١٢٩٣ – ١٢٩٤ ١٢٩٨ – ١٣٠٨ ١٣٠٩ – ١٣٤٠	ناصر الدين محمد	يحكم مصر ثلاث مرات متواليات ؛ يحفر قناة من الاسكندرية إلى النيل ؛ مصر تبلغ درجة رفيعة في فن العمارة .	حرب السنوات المئة تبدأ (١٣٣٧) .
٩٥٦ – ١١٩٤	الدولة السلجوقية	أسسها سلجوق ، وهو تركماني ؛ تحكم الجزء الشرقي من العالم الاسلامي .	
١٠٣٧ – ١٠٦٣	طغرلبك	يبسط سلطانه على العراق ، وسورية ، وفلسطين ، والاناضول ؛ يفتح بغداد ؛ يتخذ لقب السلطان .	هنري الأول يسيطر على فرنسة (١٠٣١ – ١٠٦٠) .
١٠٦٣ – ١٠٧٢	ألب ارسلان	يطرد البيزنطيين من معظم آسية الوسطى .	النورمان يغزون انكلترة (١٠٦٦) .
١٠٧٢ – ١٠٩٢	ملكشاه	يحكم خلال بلوغ دولة السلاجقة اوجها من حيث القوة والثقافة؛ ينظم الامبراطورية؛ يوطد القانون والنظام .	
١٠٦٣ – ١٠٩٢	نظام الملك	كان هذا الوزير ذا أثر كبير في ما تميز به عهد ألب ارسلان وملكشاه من عظمة ؛ ينشئ المدرسة (أو الجامعة) النظامية ؛ يرعى مختلف فروع المعرفة ؛ لقي مصرعه على أيدي الحشاشين .	

١٠٩٠ – ١٢٥٦	الحشاشون	كان مؤسسهم هو الحسن ابن الصباح ؛ يروعون العالم الاسلامي ؛ قضى عليهم المغول عام ١٢٥٦ .	عصر الحروب الصليبية .
١٤٥٣		العثمانيون يحتلون القسطنطينية .	سقوط غرناطة ، آخر معاقل المسلمين في اسبانية ، عام ١٤٩٢ .
١٥١٧ – ١٩٢٢	الامبراطورية العثمانية	تسيطر على العالم الاسلامي من الجزائر إلى فارس ومن تركية إلى اليمن .	
١٥١٧ – ١٥٢٠	سليم الأول (« السلطان المهول »)	يحتل مصر ؛ يضع حداً لحكم المماليك ؛ يتخذ لقب خليفة الرسول .	هنري الثامن يحكم انكلترة (١٥٠٩ – ١٥٤٧) .
١٥٢٠ – ١٥٦٦	سليمان الأول « العظيم » (أو القانوني)	يسيطر على منطقة البحر الابيض المتوسط من جبل طارق إلى الفرات ومن هنغارية إلى النيل الأعلى .	انكلترة تختصم مع البابوية (١٥٣٤) .
١٥٢٩		سليمان الاول يحاصر فيينا ؛ يضم هنغارية إلى امبراطوريته .	كورتيز يفتح المكسيك (١٥٢١) .
١٦٥٩	الجزائر	تستقل ، أو تكاد ، عن السيطرة العثمانية ؛ العثمانيون يخسرون هنغارية .	الحجاج يصلون إلى اميركة (١٦٢٠) .
١٧٠٥	تونس	تتخلص من الحكم التركي .	حرب الملكة حنة (حرب الوراثة الاسبانية ، ١٧٠٢ – ١٧١٣) .
١٧٨٣		الروسيا تنتزع شبه جزيرة القرم من الاتراك	معاهدة الصلح الاميركية البريطانية تمنح المستعمرات استقلالها .

تواريخ	دول وزعماء	الأحداث الهامة: في العالم الاسلامي	الأحداث الهامة: في اوروبة والغرب
١٧٩٨		نابوليون يغزو مصر .	الثورة الفرنسية تندلع (١٧٨٩)
١٨٠٥	محمد علي	يحرر مصر ، تحريراً شبه كامل ، من السيطرة العثمانية .	معركة واترلو (١٨١٥) .
١٨٢٦	محمود الثاني	يفتك بالأنكشارية المتمردين ليقضي على سلطانهم في الأمبراطورية العثمانية .	
١٨٢٨		بلاد اليونان تتحرر من الحكم التركي .	
١٨٦٦		رومانيا تستقل بعد ثلاثة قرون من الحكم التركي .	الحرب الأهلية الأميركية (١٨٦١ – ١٨٦٥) .
١٩١٨		الحلفاء يهزمون « دول الوسط » في طول الشرق الادنى وعرضه .	
١٩٢٤		الخلافة العثمانية تنتهي رسمياً .	

الفصل الخامس

الحروب الصليبية

•

إذا اعتُبِرت القرون الوسطى عصر ايمان وحرب فالحروب الصليبية هي أكمل تعبير عنها وأشنعه . والذي لا ريب فيه أن العقل الاوروبي الوسيطي **medieval** قد اعتبر الحروب الصليبية حروباً مقدسة من أجل قضية مقدسة . ففي الاسلام لم يُعلن أيّ « جهاد » عام ضد الصليبيين ، ولم يُوجّه الخليفة ، بوصفه رأس الحياة الدنيوية ، دفة هذه الحروب . أما في الغرب فقد فني البابا ، بوصفه رئيساً روحياً ، في تلك القضية واعتبرها قضيته الذاتية . والواقع ان الحروب الصليبية ، كحركة دينية ، كشفت — من طريق التعصب والتطرف الدينيين — عن اسوأ مظاهر النصرانية الوسيطية كلها . لقد نجحت الحروب المقدسة في خلق شقّة واسعة تفصل ما بين الشرق والغرب بدلاً من أن تعيد تدعيم الجسر الرابط ما بين ثقافتين تجمع ما بينهما في نهاية المطاف مفاهيم إيمانية مشتركة ، ومصالح ثقافية تمتنع على الأحصاء . وإذ عجز النصارى عن

تشكيل جبهة متحدة في وجه الخطر الحقيقي الوافد من الشرق المغولي فأنهم بحملاتهم الصليبية لم يوفقوا إلى أكثر من قسمة العالم إلى معسكرين متعادين . وهذه القسمة الفاجعة لا تزال قائمة حتى يوم الناس هذا ، فهي تحولُ دون حدوث امتزاج ثقافي وسياسي سليم بين الحضارتين الغَرْبية والعَرَبية .

إن حسّاً من الاتحاد في الغرب قد استُمِدّ ، في المقام الاول ، من العمل المشترك ضد الشرق الأدنى والهجوم المشترك عليه . لقد كانت اوروبة في حاجة إلى الفرار من وجه الفقر والمرض ، ولقد استهلّ النورمان والفرنج [الفرنك] حركةَ الهجرة من الغرب إلى الشرق بحثاً عن أراضٍ أكثر خصباً وغنىً . وهكذا نشأ المفهوم المسيحي للوحدة الغَرْبية من موقفٍ لو اتّخذ في العصر الحديث اذن لدُعي موقفاً استعمارياً . لقد عمِلَ الدافعُ الديني جنباً إلى جنب مع الدافع الاقتصادي . ولقد قادا ، متعاونَيْن ، إلى انشاء حركة استعمارية استبدادية تُعتبر هي المسؤولة عن جانب كبير من المكانة التي أحرزتها اوروبة في القرن التاسع عشر .

صحيح ان الحركة الصليبية أنعشت التجارةَ بين الشرق والغرب ، ولكن ازدهار التجارة كان خليقاً به أن يتمّ بمَعْزِل عنها أيضاً . وإذ واجه الصليبيون حضارة أرقى من حضارتهم ، من الناحيتين المادية والثقافية ، إلى ما لا نهاية ، فقد حملوا معهم إلى اوروبة منتجاتٍ من مثل السكر ، والمنسوجات الحريرية ، والبخور ، والأفاويه ، والأصباغ ، ومبدأ سك العملة الذهبية ، وأساليب الصَيْرفة وصناعة البنوك . وفي فنّ العمارة العسكري أفاد الشرقُ والغرب معاً من تلاقي الفكرات وتبادلها .

وعلى الجملة فان العرب لم يفيدوا ، من احتكاكهم بالصليبيين ، إلا قليلاً . كان كل ما ألفَوْه عند هؤلاء الصليبيين لا يعدو الجشع والتعصب وافتتاناً بالحرب والتدمير . وحتّى يومنا هذا لا تزال صورة

الرجل الغَرْبي ، في أذهان العرب ، مشوبة بالانطباعات السيئة التي تركها الصليبيون في الذهن العَرَبي .

* * *

لقد التفت نصارى الغرب نحو الشرق وكأنما يجذبهم اليه حجر مغناطيس . فمنذ أقدم العصور والشرق ينتج أسباب النِّعْمة ومتارف الحياة . وإذْ كانت النصرانية في بادئ أمرها ديناً شرقياً فقد اعترفت بالشرق مركزاً للجاذبية الدينية أيضاً . فمنذ القرن الثالث والنصارى يقصدون بيت لحم حيث وُلِد المسيح ، وجبلَ الزيتون وحديقة الجثمانية لأداء الصلاة فيها وللفوز ببعض المكافآت الروحية . والقديس جيروم نفسه أقام في فلسطين حيث تحلّق حوله جماعة من المؤمنين . والواقع ان الكثرة الكبيرة من القديسين والشهداء النصارى كانوا شرقيين ؛ ومع الايام نزع النصارى نزوعاً طبيعياً إلى تعظيم هؤلاء الرجال وتكريمهم بالحج إلى المواطن التي كانت مسرح نشاطهم .

وما هي إلاّ فترة حتى نشأ الأيمان بفضيلة المخلّفات المقدسة . وبسبب من ان أكثر هذه المخلّفات قداسةً ، وهي مخلفات المسيح ، ظلّت في الشرق ، اولاً في بيت المقدس وبعد ذلك في القسطنطينية ، فقد تعيّن على الحجاج ان يقوموا بالرحلة من أقاصي الغرب في كثير من الأحيان ، لكي يعبدوا الله في الموطن الذي آمنوا أن « الرب » طهّر فيه الارض من الخطيئة . فاذا كان الحاجّ مجدوداً حَسَنَ الطالع فقد ينقلب إلى وطنه حاملاً مخلّفاً صغيراً — ذكرى مقدسة . وفي بعض الاحيان كانت تؤلف بعثة كاملة للفوز بمثل هذا الكنز . فقد وُفّق أبناء لانغر **Langres** إلى الاحتفاظ بأحدى اصابع القديس ماماس **Mamas** . ورجعت احدى سيدات مورين **Maurienne** حاملةً ابهام يوحنا المعمدان . ولقد كان في امكان ابناء وطنها الذين أُلهموا أداء الحج ان يروا ، لو قصدوا إلى هذين الموطنين ، جثمانَ القديس يوحنا هذا في السّامرة ، ورأسه

في دمشق . ولم يكد القرن الرابع ينقضي حتى كان قد أمسى في بيت المقدس عددٌ ضخم من الاماكن المقدسة بحيث تعذر على الحاج زيارتها كلها في يوم واحد .[49]

وكان غزو الفرس لفلسطين ، عام ٦١٤ ، صدمة للعالم النصراني . فقد وفّق الفرس ، يساعدهم السكان اليهود ، إلى احتلال المدينة ، ومن ثم ارسلوا الصليب المقدس والأدوات التي عُذّب بها المسيح هديةً إلى ملكة فارس النصرانية . وفي عام ٦٢٢ غادر هِرَقل ، بعد احتفالات دينية خاشعة ، مدينة القسطنطينية ليشنّ الحرب على الكفار . وكانت الحملة مظفّرة . واستُرِدّت القدس من أيدي الفرس ، وأعيد الصليب الحقيقي إلى المدينة ، فعمّت البهجة قلوب المسيحيين جميعاً . وأمر هرقل ، غيرَ ناسٍ خيانة اليهود ، بأن يصار إلى تعميدهم [تنصيرهم] على نحو إلزامي في جميع أجزاء الامبراطورية . فكان من نتائج ذلك ان وجد متعصبو النصارى عذراً يبرّر قيامهم بمذبحة علنية ضد العِرق البغيض . ومن حيث التسلسل التاريخي ، كانت هذه الحرب المقدسة ضد الكفار حرباً صليبية سبقت « صليبية » البابا اوربانوس في القرن الحادي عشر .

* * *

لم تكد تنقضي على وفاة الرسول خمس سنوات ليس غير حتى كانت سورية وفلسطين قد خضعتا للسيطرة الاسلامية . ففي عام ٦٣٧ اعلنت بيت المقدس رغبتها في الصلح على ان يتولى عقده الخليفة عمر بنفسه . وفي عام ٦٣٨ دخل عمر المدينة مرتدياً ثوباً خَلَقاً وليس معه غير عِدْل من الشعير ، وكيس تَمْر ، وقِربة ماء ، وليس يصحبه غير عَبْد واحد . واذ تكشّف في سياسة الرحمة التي انتهجها عن حكمة وبُعْد

---

٤٩ راجع ستيفن رانسيمان :
Steven Runciman : *History of the Crusades* , **I, 41** .
Cambridge : Cambridge University Press , 1951 .

نظر فقد بذل قصارى جهده للحؤول دون التعرض للكنائس النصرانية وللمحافظة على سلامة قدس الاقداس في العالم المسيحي ، أعني كنيسة القيامة . حتى إذا أبدى الخليفة رغبته في زيارة المقام المقدس حان موعد الصلاة الاسلامية . فما كان منه إلا ان مضى إلى خارج الكنيسة ، حتى باب الشهداء ، وصلى هناك ، خشيةَ أن يطالب أتباعهُ المتحمسون بتلك الكنيسة بوصفها مكاناً أدى فيه عُمَر فريضة الصلاة . وكان النبي محمد نفسه قد قال إن النصارى واليهود على السواء أهل كتاب ، وإن على المسلمين أن يجيزوا لهم الاحتفاظ ببيوت عبادتهم ولا يتعرضوا لها بأذى .

وعلى نقيض الامبراطورية النصرانية التي حاولت ان تفرض المسيحية على جميع رعاياها فرضاً اعترف العرب بالاقليات الدينية وقبلوا بوجودها . كان النصارى واليهود والزرادشتيون يُعْرفون عندهم بـ « أهل الذمة » ، أو الشعوب المتمتعة بالحماية . لقد ضُمِنت حرية العبادة لهم من طريق الجزية ، وهي ضريبة على الرؤوس ما لَبثت بعدُ ان امست ضريبة تُدفع بدلاً من الخدمة العسكرية . وكانت هذه الضريبة ، مضافاً اليها الخراج ، أو ضريبة الأراضي ، أقلّ في مجموعهما من الضرائب التي كانت مفروضة في ظل الحكم البيزنطي . كانت كل فرقة من الفرق الدينية تعامَلُ كملِّة ، أي كطائفة نصف مستقلة استقلالاً ذاتياً ضمن الدولة. وكانت كل ملّة تخضع لرئيسها الديني ، الذي كان بدَوْره مسؤولاً عن مَسْلكها أمام الحكومة العربية .

والواقع انه لم يكن ثمة كبير أساسٍ لشكوى المسيحيين في ظل الحكم العربي الذي استُهِلَّ عَقِب فتح سورية وفلسطين مباشرةً . لقد انشئت هناك حكومة مستقرة ، ولقد راجت التجارة وازدهرت . ليس هذا فحسب ، بل لقد عرفت البلاد فترة ازدهار أيضاً في تطور ثقافة الشرق الأدنى الهيلينية . فقد عمِلَ الفنانون والصّناع النصارى في تناغم وانسجام ، مع زملائهم المسلمين واليهود ، في خدمة سادتهم العرب .

وفي عهد الخليفة عبد الملك أُكمِل بناء مسجد الصخرة الرائع ، في بيت المقدس ، عام ٦٩١ . وهذه الاحوال المسعِفة التي خلّقها الاسلام ، دينُ الطبقة الحاكمة الجديدة ، أغرت النصارى بالدخول في الدين الجديد . فما انقضت على الفتح مئة عام حتى أمست سورية ، التي كان سكانها في الأعم الاغلب نصارى هرطقيّين ، بلداً اسلامياً في المقام الأول .

وطوال القرن السابع والقرن الثامن والقرن التاسع استمر تدفق الحجاج النصارى الموصولُ ، من الغرب ، استمراراً لا يعوقه أيّ عائق . وحين اظهر شارلمان اهتماماً بأمر الأماكن المقدسة شُجّـِع على إنشاء الاوقاف في القدس وعلى ارسال الصدقات إلى الكنيسة . لقد عزّز الاتصالَ الناشط بالشرق ، ورأى في الخليفة هارون الرشيد حليفاً له ضد بيزنطة . وعلى الرغم من ان وَضْع شارلمان كحامٍ شرعي للارثوذكس في فلسطين لم يعمّر طويلاً فأن الاسطورة قد أفضت إلى تضخيم الواقع ؛ وهكذا نشأ الاساس ، مهما يكن ضعيفاً ، لادعاء الاجيال المقبلة من الفرنج (الفرنك) بأن من حقها أن تحكم بيت المقدس .

وفي مطلع القرن الحادي عشر طرأ على سياسة المسلمين التقليدية ، القائمة على التعايش مع الاقليات الدينية ، انقلاب قصير الأجل ، على يد الخليفة الحاكم [بأمر الله] . وكانت القدس ، في مستهل تلك الحقبة ، خاضعة لخليفة القاهرة الفاطمي ، أبي علي منصور الحاكم — وكانت أمه نصرانية وكان ثمرة تنشئة نصرانية — الذي تولى الخلافة عام ٩٩٦ وهو صبيّ في الحادية عشرة . حتى إذا بلغ مبلغ الرجال تكشّف عن مزاج غير سويّ وارتكس ارتكاساً **reaction** عنيفاً ضد تراثه . فاضطهد المسيحيين ، واضطهد اليهود أيضاً . وصادر ممتلكات الكنيسة ، وأصدر أمره بهدم كنيسة القيامة . حتى إذا اعلن نفسَهُ ، عام ١٠١٦ ، خالقاً للكون ، قلب سياسته رأساً على عقب ، فقرّب النصارى واليهود

وأنشأ يضطهد المسلمين . وأغلب الظن أن وفاته عام ١٠٢١ ، لم تكن طبيعية ، وانها كانت نتيجة تحريض من شقيقته .

* * *

وأسوأ ، بالنسبة إلى الغرب اللاتيني ، من هذه الاضطهادات التي أنزلها « الحاكم » المخبول كان استيلاء الاتراك السلاجقة على بيت المقدس في عام ١٠٧١ . وكان الاتراك برابرةً جاهلين متعصبين ، وكانوا قد وفدوا من الشرق وعبروا الفولغا إلى سهوب البحر الأسود . ولقد وُفّق فرع من عشائر الغُزّ ، عُرِف بالسلاجقة نسبةً إلى سلجوق جد العشيرة، إلى احتلال فارس كلها بقيادة طغرلبك . واعتنق هؤلاء السلاجقة الاسلام، ودخلوا في خدمة الخلفاء العباسيين في بغداد . ولم يكن السلاجقة ، أو زعماؤهم على الأقل ، في نجوة كاملة — في الأعم الاغلب — من الاتصال الثقافي بالحضارة الاسلامية . وعلى الرغم من ان السلاجقة كانوا أشدّ بأساً وخشونةً من فاطميي مصر فأنهم كانوا من الذكاء بحيث يفيدون من عقول رعاياهم الأكثر فطنة وبراعة .

بيد ان بذور الانحلال كانت مستكنّة ضمن الامبراطورية السلجوقية . ففي عام ١٠٩٢ ، عند وفاة ملكشاه ، آخر حكامها العظام ، نشبت الحرب الأهلية بين أبنائه ، وانقسمت الامبراطورية إلى عدة إمارات منفصلة . وكان في اضطراب الاحوال العامة وما انتهت اليه البلاد من ضَعْفٍ بالغ بسبب من الأسر المتنازعة ، ما أتاح الفرصة لظهور المسيحيين شاهري السيوف . ولكن حتى قبل بروز الصليبيين أمام أبواب المدينة المقدسة عام ١٠٩٩ كان المصريون قد وُفّقوا إلى طرد السلاجقة من بيت المقدس .

* * *

وكان البابا غريغوريوس السابع قد فكر فعلياً — يحدوه حُلمٌ بأنشاء كنيسة كلّيةٍ خاضعة لسلطان البابوية — في تنظيم حملة لأنقاذ الامبراطورية

الشرقية منذ عام ١٠٧١ ، بعد معركة منزيدرت . حتّى إذا تجزأت الامبراطورية السلجوقية وجّه الامبراطور البيزنطي ، ألكسيوس كومنينوس، رُسُلاً إلى البابا أوربانوس الثاني ، عام ١٠٩٤ ، يلتمس منه ارسال قوات مستأجَرة إضافية تساعدهُ على استرداد آسية الصغرى من الاتراك . فاذا بالايام التي تلت تقديمه هذا الالتماس تتمخض عن سلسلة من الأحداث عجز خياله — في أشد حالات اشتطاطه — عن تصوّرها .

إن الروح الصليبية ، التي كانت قد شرعت قبيل ذلك تعتلج في نفوس « الفرنج البرابرة » ، ما لبثت — لَدُنْ إلقاء اوربانوس خطبه في كليرمون فيرّان **Clermont - Ferrand** — أن تبلورت لتصبح حرباً مقدسة . ولم يكن الهدف الرئيسي إسداء العون إلى البيزنطيين ، بل فَتْحَ فلسطين . وكان لا بدّ من ضمان الأمن بهدنة مدّتها ثلاث سنوات تعم ممتلكات الصليبيين . ولقد وُعِد جميع المشاركين في الحرب « التي ارادها الله » بالفوز ببركة الكنيسة وبالغفران الكامل لخطاياهم — مكافأةً أزلية لهم على نضالهم .

وكانت الاستجابة لهذه الدعوة إلى السلاح عاجلة وكاملةً . فلم ينقض عام واحد حتى تطوعت آلافٌ عديدة للانضواء تحت راية الحرب الصليبية . والواقع ان لفظ « الصليبية » **crusade** ، المستمد من حَمْل الصليب — على طريقة المسيح وعملاً بوصيته — إنما اصطنعه اولئك الذين شكلوا مادة « الصليبية » الأولى ، ثم اتخذ بعد ذلك علَماً على الحملات التي تلت . وكان الصليب القماشي الذي حمله الصليبيّ فوق ملابسه هو رمزَ هذا النَذْر . ولقد كان البابا هو الذي أعلن الحروب الصليبية واستهلها ، ولكن دول أوروبة الغربية الاقطاعية وبلدانها الملكية وجمهورياتها المدينية شاركت في الحركة . لقد كان هدفهم المباشر هو بيت المقدس .

ومهما يكن الدافع الديني الذي يحدو بصاحبه إلى اكتساب الثواب

الروحي أصيلاً عند كثير من الصليبيين فأن رؤيا الفتح الدنيوي هي التي تفسّر على وجهٍ أصحّ اجتماع القوى التي أُطْلِقَتْ للعمل . والواقع ان استرداد الدول النصرانية الديارَ المفقودة من أيدي المسلمين كان قد تقدّم تقدّماً موصولاً طوال مئة سنة ونيفٍ قبل الحملة الصليبية الأولى . كان روبرت غيسغار Guiscard وأخوه روجر قد غَزَوَا صِقلية الاسلامية . وفي اسبانية كان الأمراء النصارى يستعيدون الاراضي من المسلمين . والحق ان البابا كان في غير ما حاجة كبيرة إلى رفع الصوت بالدعوة ، إذْ كان خليقاً بالاقطاعية المحبة للمغامرة أن تكون قد أنشأت ، حوالى تلك الفترة بالذات ، حماستَها الخاصة للحملات المسلحة . كانت فرنسة تشكو تضخماً في السكان ، وكانت المجاعات والطواعين متواترة مألوفة . فخليقٌ بأيما فرارٍ أن يكون موضع ترحيب ، وبخاصة إلى أراضٍ كانت الروايات والاشاعات قد أحالتها إلى جنةٍ أرضية .

واحدثت قوانينُ الوراثةِ الاقطاعيةُ طبقة ضخمة من الأبناء الصغار المحرومين من ملكية الأرض ، الشاكين من البطالة ، الراغبين في أن يوجدوا لأنفسهم إقطاعاتٍ في ديارٍ جديدة . وأغريت البندقية ، وجنَوا ، وبيزا وغيرها من الثغور الايطالية التجارية بالحصول على منتجات الشرق بنفقات أقل ومن طريق مباشر إلى حدّ أبعد . وقد خيّل اليها انها خليقة ببلوغ هذا الهدف إذا ما استطاعت أن تبسط سلطانها على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط .

واذ نُظِّمت الحروب الصليبية في فرنسة ، وعلى يد بابا من أصل فرنسي ، فقد بدأت وظلت حتى النهاية مشروعاً فرنسياً في المقام الأول ، واضعةً الاسس « الروحية » للحركة الاستعمارية الفرنسية في القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من ان الملك الفرنسي كان معاقباً بالحَرْم البابوي فأن النبلاء الاقطاعيين في فرنسة الشمالية والجنوبية وفي ايطالية النورمانية أيضاً سارعوا إلى الاستجابة لدعوة البابا وحملوا الصليب في تعطّش .

وكان بطرس الناسك ذا أثر كبير في تعبئة العامة من أبناء فرنسة الوسطى ووادي الراين .

لقد دُعي الجزء الأول من الحملة الصليبية « صليبيةَ الشعب » ، ولكن من أصل الفِرق الخمس المستقلة التي أعوزتها القيادة الصالحة والتي ألهبت عواطفها خُطَب الناسك لم يُوفَّق إلى بلوغ القسطنطينية غيرُ فرقتين اثنتين . كانت اثنتان منها قد سحقهما الهنغاريون سحقاً بعد أن عمد أفرادهما إلى السلب والنهب في الاراضي المجرية . واستهلت فرقة ثالثة « التقليد » الصليبي بأن نهبت وذبحت نحواً من عشرة آلاف يهودي . أما العصابات غير المنظمة التي قُدِّر لها ان تصل إلى آسية الصغرى فقد بدّد الاتراك السلاجقة شملها في سهولة ويسر .

وفي ربيع عام ١١٠٧ التقت الجيوش المتأخرة المؤلفة في الأعم الأغلب من الفرنج (الفرنك) والنورمان تحت ألوية أمرائهم أنفسهم . لقد قادَ غودفري دي بويون ، وأخوه بولدوين ، صليبيي اللورين ، وقاد ريموند دي تولوز الصليبيين البروفنساليين ، وقاد بوهيموند أوف أوترانتو وابن أخيه تانكرد الصليبيين النورمان . وبعد أن أدى الامراء يمين الولاء للامبراطور ألكسيوس سارعوا هم وجيوشهم إلى الاشتباك بالسلاجقة في ميدان المعركة . وتخلّى الاتراك السلاجقة ، الذين كان الضعف قد ألمَّ بهم ، عن نيقية أولاً ثم عن أنطاكية . وكانوا قد تخلوا قبل ذلك عن بيت المقدس للفاطميين الذين رفضوا أن يتخلوا عنها للصليبيين . وفي عام ١٠٩٩ ، بعد حصار للمدينة دام شهرين اثنين اقتحم النصارى بيتَ المقدس بمثل ابتهاج المنتصرين المتعصبين المتوقّد ، وأعملوا السيف في رقاب المسلمين من غير ما تمييز ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، سواء أكانوا في بيوتهم أو في المساجد . وواصل النصارى وهم يبكون فرحاً مجزرتهم حتى أُخْلِيَتِ المدينة من جميع سكانها المسلمين واليهود . ومثلُ هذا الافناء البشري باسم المسيح كان لا بدّ له ان يذهل

الناس . ولقد عجزت القرون المتعاقبة عن محو هذه الوصمة .

ومن مملكة القدس كمركز للنشاط الصليبي بسط العالم المسيحي الغربي سلطانه على « شريط » من الارض غير ذي شأن مُحاذ للطرف الشرقي من البحر الابيض المتوسط من الفرات إلى مصر . ولكّن اللاتين نادراً ما استطاعوا النفاذ إلى داخل البلاد مسافةً تزيد على خمسين ميلاً من الشاطئ . فمدينتا حلب ودمشق السّتراتيجيتان لم تُحتلاّ البتة . ولم يكن ثمة غير قوة صغيرة دائمة من المسلحين أقامت في البلاد للدفاع عن المناطق المفتوحة ، برغم ان سيلاً مستمراً من الحجاج المقاتلين ظلّ يزوّد الصليبيين بالأمداد حتى في الفترات التي تراخت بين حملة صليبية وأخرى . وكانت مدينتا البندقية وجنوا التجاريتان ، اللتان وجدتا في التجارة مع سورية عملاً رابحاً ، تقدّمان إلى الصليبيين أعداداً صغيرة من الجنود المرتزقة .

وبدت المملكة اللاتينية فيسورية أشبه شيء بمقطع مستعرض **cross-section** من فرنسة الاقطاعية منقولٍ إلى ما وراء البحار . ولم تعِشْ الحاميات المختلفة المعزولة على شيء سوى الجشع غير القانوني ، وكانت الرغبة في الكسب غير المشروع كثيراً ما تغري تلك الحاميات بأسْر المسلمين التماساً للفدية ، او بسلب القوافل ونهبها . ولم يوفق اللاتين في أيما يوم من الايام إلى حثّ أبناء الغرب على الهجرة إلى الارض المقدسة وبناء دولة نصرانية من الاوروبيين . وما كان لدولتهم الشاذة ان تُعمّر ، ولو فترةً قصيرة من الزمن ، من غير ما تعاون مخلصٍ من جانب المسيحيين المشرقيين على الاقل ، ولكنهم عجزوا عن الفوز بذلك أيضاً .

* * *

وكان استيلاء المسلمين على الرُّها ، عام ١١٤٤ ، ايذاناً بانحطاط المملكة اللاتينية وبدء الحملة الصليبية الثانية . ودعا القديس برنارد ، في فرنسة أيضاً ، إلى تجريد حملة صليبية شارك فيها لويس السابع (١١٢١

١١٨٠) وكونراد الثالث (١٠٩٣ — ١١٥٢) ملكا فرنسة وألمانية . ولكن جيوشهما أُفنيت ، أو كادت ، فيما هي تجوز آسية الصغرى ؛ ومن هنا عجزت الحملة الصليبية الثانية عن تحقيق أيما شيء . والواقع ان سقوط مملكة القدس نفسها كان قد أمسى مسألة وقت ليس غير .

ذلك بأن استنقاذ بيت المقدس كان قد أضحى أمراً لا مفرّ منه بعد ان وجد الاسلامُ قَدْراً من الوحدة في شخصية صلاح الدين (١١٣٨ — ١١٩٣) ، القائد الكبير والسياسي العظيم . وكان صلاح الدين قد وُفّق عام ١١٧١ إلى القضاء على الحكم الفاطمي في مصر ، وكانت سورية والعراق ومصر قد خضعت كلها لسلطانه . وفي عام ١١٨٧ استسلمت بيت المقدس ، ولكن موقف صلاح الدين المنتصر تغاير تغايراً حاداً مع المذابح التي ارتكبها النصارى قبل ثمانية وثمانين عاماً . لقد احتل صلاح الدين المدينة احتلالاً نظامياً وإنسانياً ، لم يُؤْذَ فيه أحد من النصارى ، ولم ينهب خلاله ايّ من البيوت . وجمع القادرون من النصارى مقادير من المال فاشتروا بها حريتهم الكاملة . ولو لم يكن فرسانُ الداويّة أو الهيكليون ، وفرسان الاسبتارية ، والكنيسةُ بالغي الشحّ والبخل اذن لكان من الجائز ان ينجو آلاف من النصارى من العبودية . [٥٠] والواقع ان صلاح الدين الشّهْم أطلق الأزواجَ الأسرى ، وقدّم الهبات إلى الأرامل وإلى اليتامى من خزانته الخاصة .

وفي عام ١١٨٩ حاولت المسيحية الغربية ، من طريق صليبية ثالثة ، أن تمدّ يد العون إلى مملكتها المشرقية التي كانت قد تقلّصت حتى أمست مقصورةً على ثغور أنطاكية وطرابلس وصور . ولقد شارك في هذه الصليبية شخصيات شهيرة من مثل فردريك بربروسا (١١٥٢ — ١١٩٠) ملك المانية وصاحب الامبراطورية الرومانية المقدسة ؛ وفيليب اوغسطس

---

٥٠ راجع ستيفن رانسيمان :

Steven Runciman : *History of The Crusades* , I , 22 .

(١١٦٥ – ١٢٢٣) ملك فرنسة ؛ وريكاردوس قلب الاسد (١١٥٧ – ١١٩٩) ملك انكلترة . ولكن الصليبية الثالثة لم توفق برغم ذلك إلى أكثر من انقاذ قبرس ، وجانب من الشاطئ المشرقي مع مدينة عكا البحرية . وكان من مجالي الحملة الصليبية الثالثة المميّزة نشوء صلات أوثق بين النصارى والمسلمين . كان ريكاردوس قد اكتسب احترام صلاح الدين الذي كان مفعماً بروح الفروسية ، والذي كان قد بعث اليه بشيء من الثلج والفاكهة يوم أصابته الحمّى . ومثلٌ آخر على هذه الصلات الوثيقة الاقتراحُ القاضي بأن يتزوج أخو صلاحِ الدين « جوهانا » أخت ريكاردوس . صحيح ان الزواج لم يتمّ فعلاً ، ولكن معاهدة ما لبثت أن عُقِدت ، على الاقل ، عام ١١٩٢ ، عقِبَتْها فترةٌ من السلم . لقد تُرِكت المدن الساحلية ، حتى يافا جنوباً ، للمسيحيين . وأجيز للحجاج ان يقوموا بزيارة الاماكن المقدسة ، في حرية ؛ وكان في ميسور المسلمين أن يجتازوا بالاراضي الخاضعة لسلطان المسيحيين ، والعكس بالعكس .

وعلى الرغم من ان هذه الاحداث لطّفت من حدة العداء الاسلامي المسيحي فأن المسيحيين ما كانوا بقادرين على تصوّر بقاء بيت المقدس خاضعةً للادارة الاسلامية . وهكذا دَعَوا إلى تنظيم صليبية رابعة في مطلع القرن الثالث عشر ، وبخاصة في فرنسة الشمالية والفلاندر . واجتناباً للطريق البرية الطويلة ، عمد الفرنسيون – وكانوا يؤلفون كثرة الجيش الكاثرة – إلى مساومة البنادقة لنقلهم بمراكبهم إلى مصر أو فلسطين . حتى إذا بلغ الصليبيون البندقية عجزوا عن دفع الأجر المتفق عليه مقابل حملهم على متن البحر . وسرعان ما أُقنِعوا بالفوز بنفقة الرحلة البحرية من طريق القيام بحركة التفاف ومهاجمة مدينة « زارا » الواقعة على بحر الأدرياتيك ، والتي طمع البنادقة في انتزاعها من ملك هنغارية . وهكذا لم يجد الصليبي نفسَهُ مضطراً إلى مقاتلة أخيه النصراني الذي لم يُنزل

به أيما أذىً فحسب ، بل لقد أُغرِي ، فوق ذلك ، بأن ينهب رومَ القسطنطينية ويفتك بهم . وليس بين جرائم التاريخ جريمة ارتُكِبت لمجرد الرغبة في التدمير أشنع من غزو القسطنطينية عام ١٢٠٤ . وكرةً أخرى ، كشف اللاتين عن وجههم الحقيقي .

* * *

وأفْضَتْ موجات النصارى المتعاقبة خلال القرنين التاليين إلى قيام عدد من الصليبيات المختلفة . ومن المتعذر في كثير من الأحيان الفصل ما بين هذه الصليبيات وتمييز بعضها من بعضها الآخر بالارقام ، نظراً إلى اتصال القتال واستمراره . وفي عام ١٢١٢ نشأت حركة صليبية مُشْجية بين الأطفال الذين رَجَوْا أن يوفّقوا حيث أخفق الآثمون . وهكذا قاد صبي من أبناء الفلاحين الفرنسيين آلافاً من أترابه إلى مرسيليا حيث توقعوا أن ينشقَّ البحر أمامهم ، كما سبق للبحر الأحمر أن انشق أمام أطفال اسرائيل . وأدت الحيل الخسيسة التي اصطنعها أصحاب السفن إلى اختطاف الأطفال وبيعهم في سوق النخاسة في مصر . وجمع نقولا ، وهو شاب من كولونْيْ ، نحواً من عشرين ألفاً من الأتباع . ولكنهم غابوا في مطاوي النسيان فلم يُسْمَعْ عنهم بعد ذلك أيما نبأ ، شأنهم في هذا كشأن اولئك الاطفال الذين قادهم زامر « هملين » ذو الثياب المختلفة الألوان . [٥١]

واستهل ملك هنغارية ودوق النمسا حرباً صليبية خامسة ، عام ١٢١٧ ، بانطلاقهما إلى سورية . وفي السنوات الاربع التالية وُجّهت حملة إلى دلتا النيل . وكان في هذه المحاولة المخفقة لفتح مصر ما وضع حداً لتلك الحرب ، من غير ان تتمخض عن أيما كسبٍ ذي شأن ،

---

٥١ راجع باركر ، ارنست :

Barker, Earnest : *« The Crusades »*, **in** *The Legacy of Islam* **p. 75 . London : Oxford University Press , 1925 .**

اللهم إلا استرداد الصليب المقدس .

وكان البابا انوسنت الثالث قد حثّ فردريك الثاني (١١٩٤–١٢٥٠) صاحب الامبراطورية الرومانية المقدسة وملك صقلية حثاً موصولاً على القيام بحملة صليبية جديدة . وكان بلاط فردريك هوهنشتاوفن هذا ، مثل بلاط جده روجر الثاني ملك صقلية (١١٣٠ – ١١٥٤) نصف شرقي ونصف غربي ، وكانت تربطه بالمسلمين صلات ودية في حقلي السياسة والتجارة . ليس هذا فحسب ، بل لقد عمِلَ – بوصفه واحداً من أكثر حكام القرون الوسطى ذكاءً وأشدهم تطلعاً فكرياً – على تشجيع ترجمة العلم والفلسفة العربيَيْن إلى اللاتينية . وفي عام ١٢٢٤ أنشأ جامعة نابولي حيث درس القديس توما الأكويني (١٢٢٦ – ١٢٧٤) آثار الشارحين العرب لفلاسفة اليونان . ولقد فاقت مملكته الصقلّية جميع جاراتها الأوروبيات ازدهاراً وحضارةً .

وبفضل التسوية السلمية التي عقدها فردريك ، عام ١٢٢٨ ، مع سلطان مصر الايوبي ، الكامل ، أسفرت الحملة الصليبية السادسة عن تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس والاراضي الواقعة بينها وبين الشاطئ . وقد عُمّرت مملكة القدس المجدَّدة حتى عام ١٢٤٤ عندما ضاعت من أيدي النصارى ، بسبب من خطأهم هم أنفسِهم في الحساب والتقدير ، حتى القرن العشرين . لقد آثروا التحالف مع صاحب دمشق على التحالف مع سلطان مصر ، وفي عام ١٢٤٤ هُزِموا في معركة غزة ، وكان الذي هزمهم هو ركن الدين بيبرس (١٢٣٣ – ١٢٧٧) ، سلطان مصر المملوكي المقبل . وفي السنة نفسها سقطت بيت المقدس في يد الخوارزميين ، الذين كانوا بدواً طورانيين تشدّهم إلى الاتراك صلة نسب .

وكان الطورانيون ، الذين كان المغول قد أخرجوهم من ديارهم إلى آسية الصغرى وسورية ، خطراً رهيباً على المسلمين والنصارى على حد

سواء . ومع أنهم كانوا غزاةً أجلافاً غير متحضرين فأن الخطر الحقيقي على العالم المتمدن كان خطر عشائر المغول المترحّلة . وكان هؤلاء المغول طورانيين من سهوب آسية الشرقية ، ولم يكونوا قد اعتنقوا الاسلام ، ولم تكن الثقافة الاسلامية قد صقلتهم كما صقلت الاتراك إلى حدٍّ ما . ولقد اجتاح هؤلاء المغول الصين وآسية الوسطى برمّتها ودمّروا مختلف الحضارات المحيطة بهم . وقد خلق زعيمهم تموجين (جنكيز خان ، ١١٦٧ – ١٢٢٧) قوة حربية لا تُقْهر ، قوةً انزلت بالشرق أذىً لا سبيل إلى تقديره .

* * *

ومن وجهة نظر منطقية وعقلانية نستطيع ان نفترض انه كان خليقاً بالنصارى ان يتحالفوا مع المسلمين النزّاعين إلى الوفاء بالمعاهدات لكي يدفعوا عن الانسانية بلاء المغول . والواقع أنه كان في ميسورهم أن ينهجوا هذا النهج ، ومع ذلك فنحن نجد ان ما حدث كان هو العكس تقريباً . فقد وجّه زعيم العالم المسيحي ، البابا انوسنت الرابع ، بعثتين إلى منغوليا . وكان القديس لويس ، الورع ، قد أبى على نحو موصول أن يتفاوض مع المسلمين بأية حال ، ومع ذلك فانه لم يجد أية غضاضة على معتقداته الدينية ان يوجّه موفدَيْن دومينيكيين لمفاوضة المغول الوثنيين .

ولا حاجة إلى القول إن العشائر الآسيوية المترحلة لم تخرج إلا ابتغاء الغزو والفتح ، وأنها ما كانت تعتزم غضّ الطرف عن أيما ضرب من الدولة النصرانية . لقد ساعدت النصارى من طريق غير مباشر ليس غير بغزو العالم الاسلامي وبأنزال البؤس والشقاء في ساحة الانسانية . إن حضارة الشرق الأدنى لن تنير العالم بعد ذلك كرةً أخرى .

وفي عام ١٢٥٣ غزا المغول ، بقيادة هولاكو (١٢١٧ – ١٢٦٥) ، حفيد جنكيز ، القسمَ الجنوبي من فارس ، وفي عام ١٢٥٨ تم

الاستيلاء على بغداد . لقد صُرِع ثمانون ألف مواطن ، ولقد دُمّرت المدينة تدميراً كاملاً . وبسبب من تخريب أنظمة الري الرائعة لم يوفّق الريف ، حتى يومنا هذا ، إلى استعادة خصبه السابق . لقد قُضِي على الخلافة العباسية ، وفُصِمت عُرى الوحدة العربية . وابتهج النصارى الآسيويون ، غير مميّزين ما بين الوسائل والغايات . ولكن ابتهاجهم لم يعمّر طويلاً ، وسرعان ما زارتهم آلهة انتقامهم . لقد أمست سورية حقل التجربة الاخير بين المغول والمسلمين ، وسقطت المملكة اللاتينية في يد المنتصرين .

وفي سنة ١٢٤٩ جُرّدت الحملة الصليبية السابعة التي أسفرت عن أَسْر القديس لويس (لويس التاسع) ثم افتدائه ، وكانت هذه الحملة قد وُجهت للاستيلاء على مصر بدلاً من ان توجه لاسترداد القدس المفقودة . وكانت دولة المماليك هي الدولة الاسلامية الوحيدة التي لم يهزمها المغول . كان المغول قد استولوا على بغداد ، وحلب ، ودمشق ولكنهم صُدّوا عن سبيلهم في معركة عين جالوت الحاسمة ، حيث هزمتهم [قوات] السلطان المصري قُطُز ، عام ١٢٦٠ . وبذلك أُنقِذ الاسلام وانقذت آسية الغرْبية من أعظم خطر قُدّر لهما ان يواجهاه وأشدّه هولاً . وخلال القرنين التاليين أمست سلطنة المماليك بمصر الدولة الرئيسية في الشرق الأدنى حتى قيام الامبراطورية العثمانية .

وواحداً بعد واحد سقطت مراكز القوة الصليبية — انطاكية ، وطرابلس ، وأخيراً عكا عام ١٢٩١ . ولكن المؤسسات تموت موتاً بطيئاً . وهكذا استمرت الحروب الصليبية ، على المستوى الدولي ، طوال قرن آخر على الأقل . وكان آخر مظهر من مظاهر سفالة الغزاة ولؤمهم نهبُهُمْ مدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥ . والواقع ان المجازر التي رافقت ذلك العمل لا يضارعها شيء غير مجازر القدس عام ١٠٩٩ والقسطنطينية عام ١٢٠٤ . وفي ذلك برهان قاطع على أن كرّ السنين

لم يخفف ، إلاّ قليلاً ، من أعمال اللاتسامح التي قام بها الصليبيون باسم الله .



قراءات مختارة

١ – رانسيمان ، ستيفن : « تاريخ الحروب الصليبية » **Runciman , Steven :** *History of the Crusades* ٣ مجلدات (كايمبريدج ١٩٥١ – ١٩٥٤) .

٢ – سيتون كينيث : « تاريخ الحروب الصليبية » **Setton , Kenneth M. , ed. :** *History of the Crusades .* (فيلاديلفيا ، عام ١٩٥٦) .

جَدْوَل كْرُونُولوجِيّ

تواريخ	اسماء	أحداث هامة: في العالم الاسلامي	أحداث هامة: في اوروبة والغرب
٦١١ – ٦٢٢	محمد (٥٧٠ – ٦٣٢)	الفرس يغزون فلسطين ؛ ينهبون بيت المقدس وينقلون الصليب المقدس إلى بلادهم .	هرقل الأول (٦١٠ – ٦٤١) امبراطور الامبراطورية الرومانية الشرقية .
٦٢٢ – ٦٣٠	« الصليبية البيزنطية »	هرقل يهزم الفرس ويعيد الصليب المقدس .	الحجاج الغربيون يفدون إلى الشرق خلال القرن السابع والقرن الثامن والقرن التاسع.
٦٣٧	الخليفة عمر	سقوط بيت المقدس في ايدي المسلمين ؛ المسلمون يعاملون النصارى و اليهود في تسامح . بناء قبة الصخرة يكتمل عام ٦٩١ .	
٩٩٦ – ١٠٢١	الحاكم بأمر الله	الخليفة الفاطمي المخبول يضطهد النصارى واليهود ؛ تدمير كنيسة القيامة .	الملك كانوت يسيطر على انكلترة والدنمرك ونروج .
١٠٧١	ألب أرسلان	معركة منزيكرت تمكن الاتراك السلاجقة من غزو آسية الصغرى .	النورمان يغزون صقلية
١٠٩٥	البابا اوربانوس الثاني	اعلان الحملة الصليبية الأولى في كليرمون فيران .	وليم الثاني يحكم انكلترا (١٠٨٧–١١٠٠)

أحداث هامة

تواريخ	اسماء	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
١٠٩٩	غودفري دي بريون ؛ بولدوين ؛ ريموند دي تولوز ؛ بوهيموند أوف اوترانتو .	النصارى يستولون على بيت المقدس .	
١١٤٤	القديس برنار ؛ لويس السابع (١١٢١ – ١١٨٠) ؛ كونراد الثالث(١٠٩٣–١١٥٢) .	سقوط الرها يجدد الأهتمام بالحملات الصليبية؛ بدء الحملة الصليبية الثانية .	روجر الثاني يحكم صقلية (١١٣٠ – ١١٥٣) .
١١٨٧	صلاح الدين	المسلمون ينقذون بيت المقدس من أيدي الصليبيين .	جامعة أوكسفورد (١١٦٧)
١١٨٩	فردريك بربروسا ، ملك المانية و امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ؛ فيليب الثاني ملك فرنسة ؛ ريكاردوس قلب الأسد .	الحملة الصليبية الثالثة	
١٢٠٢ – ١٢٠٤	الحملة الصليبية الرابعة	الصليبيون ينهبون القسطنطينية (١٢٠٤) .	
١٢١٢	صليبية الأطفال		الوثيقة العظمى **Magna Charta**(١٢١٥)

١٢١٧ – ١٢٢١	أنوسنت الثالث	الحملة الصليبية الخامسة .
١٢٢٨	فردريك الثاني ، غريغوري التاسع .	الحملة الصليبية السادسة .
١٢٤٩ – ١٢٥٤	القديس لويس	الحملة الصليبية السابعة .
١٢٧٠	ادورد ملك انكلترة	الحملة الصليبية الثامنة . هولاكو يستولي على بغداد (١٢٥٨) .

الفصل السادس

المغرب (مراكش - الجزائر - تونس)

•

١ . مراكش

على الرغم من ان مراكش والجزائر وتونس شاركت بلدان الشرق الأدنى تراثها المشترك في اللغة والدين فقد صنعت تاريخها المميز وثقافتها المميزة . وهذه الحقيقة تفرض علينا ان نفرد فصلاً خاصاً لهذه البلدان ، وبخاصة «للمغرب الاقصى» – أعني مراكش .

لقد كان في موقع مراكش الجغرافي الخاص وعزلتها النسبية عن العالم المحيط بها ما مكّنها من انشاء ثقافة وحضارة مستقلتين خلال فترة كانت الجزائر وتونس فيها موطئاً لغزوات الجيوش والدول الاجنبية على نحو موصول . إن المغرب لم يكن مفترق طرق تجارية أو حربية بقدر ما كانت الديار الواقعة في حوض البحر المتوسط الشرقي . ولقد تعاون المحيط الاطلسي في الغرب والبحر الابيض المتوسط في الشمال والصحراء

الكبرى المترامية الاطراف في الجنوب والجبال والبادية في الشرق ... تعاونت هذه كلها على حماية مراكش من موجات الغزو الاجنبي التي اجتاحت سائر العالم الاسلامي مرةً بعد مرة .

هذه العزلة النسبية ، التي دامت منذ أواخر القرن السابع حتى مطلع القرن العشرين ، مُردَفةً بوجود شعب شجاع إلى حد استثنائي يتميز بحب الحرب والقتال – أعني البربر – أجازت لمراكش ان تختط لنفسها طريقة في الحياة فريدةً إلى حد بعيد .

ولا تقلّ عن الجغرافية أثراً في تكوين التاريخ المراكشي وقَوْلبته صفةُ شعب مراكش الفطرية ، تلك الصفة التي يغلب عليها في المقام الأول عنصر الانفعال . إن الانفعال ليشكل الاساس الذي تقوم عليه النزعات الحربية عند البربر ، الذين شكلوا خلال التاريخ المراكشي كله العنصرَ المقاتل . فاذا اتفق ان كانوا متعاونين مع الحكومة – أو المخزن ، كما تدعى – وُفِّقَ السلطان وبلاطه إلى توحيد البلاد . أما إذا اتفق أن كانوا نزّاعين إلى حجب تأييدهم عن الحكومة فعندئذ كانت تنشأ حالة من الاضطراب والفوضى تعوق النمو القومي والوحدة الوطنية .

ومما كان له أثرٌ متكافئٌ في تقرير صفة التاريخ المراكشي ذلك التوق الأهلي العارم إلى الاستقلال . وهذا التوق ادّى ، عند البربر ، إلى نزعة قَبَلية مغالىً فيها ، وإلى حرص على الاحتفاظ بشخصية القبيلة واستقلالها . ولقد انطوى ذلك ، على نحوٍ لا معدىً منه ، على الاستقلال عن سلطة السلطان المركزية وعن سلطة حكومته : المخزن . وحين وَفَدَ العرب إلى المغرب اضطروا إلى ان يخلّفوا وراءهم بعضاً من روابطهم القبليّة الوثيقة . وشيئاً بعد شيء اخلى ولاؤهم القبليّ القديم مكانتَهُ لعاطفة الولاء القومي . وهذا – بالاضافة إلى حب العرب الغَرَزيّ للحرية – ما جعلهم شديدي الحرص على استقلالهم القومي .

وبسبب من ميل العربي الاقوى إلى الشؤون الفكرية ، ومن تفوقه في ميداني العلم والفصاحة أمسى هو اللسانَ المعبّر عن هذه النزعة إلى الاستقلال ، وهي نزعة شاركه فيها البربر ، الذين كانوا أشد بساطة وأقل فصاحة من اخوانهم العرب .

والمجرى الثالث الذي كان من دأب الانفعال المراكشي ان يعبّر عن نفسه من خلاله هو مجرى الدين . ولقد غلبت هذه العاطفة على العربي والبربري سواء بسواء ، وهذا ما جعل الدين قوة من أبرز القوى المكوِّنة في تاريخ البلاد المراكشية . ولقد اشترك العرب والبربر في الاخلاص للسلطان بوصفه المركز الذي تبأّرت **focused** عنده حياتهم الدينية . وكان السلطان ، بوصفه شريفاً — أي سليلَ العترة النبوية — يملك القدرة على أن يمنح البركة ويفعل الخير ، وكان — بوصفه هذا — ينعم بالاجلال والتشريف حتى في الأحوال التي ما كان القوم يدينون فيها له بالطاعة السياسية . ذلك بأن سلطته الروحية كانت أعظم شأناً ، بما لا يقاس ، من سلطته الزمنية .

* * *

وتاريخ مراكش تاريخ طويل ومتفاوت ، وهو يرقى إلى ما قبل غزوات القرن السابع العربية بكثير . فقد كشف الآثاريون عن بيّنات تثبت وجود البشر في هذه المنطقة منذ خمسين الف سنة أو نحو ذلك . وفي الاساطير تبرز وجوه مثل أطلس ، وآنتايوس ، وهرقل ، في الزاوية الغربية الشمالية من مراكش ؛ وكشاهد على ذلك نجد أسماء أماكن طوبوغرافية مثل أعمدة هرقل وجبال الأطلس . وفي القرن الخامس قبل الميلاد اشار المؤرخ هيرودوتس إلى هذه المنطقة ، وتحدّث أعلامٌ بارزون مثل بليني الأرشد وبطليموس عن مراكش . وانشأت قرطاجة مستعمرة في طنجة ، واحتل الرومان مواقع أمامية في أجزاء من مراكش الشمالية ، ولكنهم لم يوفقوا في أيما وقت من الأوقات إلى احتلال البلاد برمّتها .

وفي ظل اوكتافيوس آمست طنجة مدينة امبراطورية وعاصمةً لمقاطعة « موريتانيا طنجيتانا » **Mauritania Tingitana** الرومانية — التي أخذ منها الاسم الذي نطلقه على المغرب : مراكش . وباستثناء الخرائب الرومانية في فوليوبيليس قرب مدينة مكناس ، لم يبق لنا غير أطلال قليلة تنهض دليلاً على قرون من الاحتلال الروماني . وعقب انهيار السلطان الروماني في مراكش اتّسم تاريخ البلاد حتّى منتصف القرن السابع بسِمَةٍ مضطربة ناشئةٍ عن غزوات الفاندال والقوط من اسبانية .

وظل البربر في نجوة من التأثر بهذه الاحتلالات الاجنبية كلها ، نسبياً . وإنما دخل اسم « البربر » في الاستعمال الغَرْبي خلال الحقبة الرومانية ، وقد اشتُقّ من اللفظة اللاتينية التي تقابل كلمة « بربريّ » **barbarian** . بيد أن البربر لا ينظرون إلى أنفسهم هذه النظرة ، ولكنهم يسمّون انفسهم « ايمازِرهين » **Imazirhen** أي الرجال الأحرار أو النبلاء . ولقد تحدّث كثير من الكتّاب ، خطأً ، عن أمة بربرية وكأن البربر شعب واحد ذو لغة مشتركة . والواقع أنهم ليسوا أكثر من جماعات يمكن القول إن بينها مشابهةً كالتي تكون بين أبناء العمومة . وقبل دخول البربر في الاسلام كانوا في الاعم الاغلب عبدة طبيعة واوثان تمازجوا مع بضع أُسَرٍ نصرانية ويهودية . حتى إذا دخلوا في الاسلام تكشّفوا عن تعصّب للدين الجديد ، ولكنْ من غير ان يتخلوا تخلياً كاملاً عن بعض معتقداتهم الوثنية . وهذه الفكرات الوثنية لم تعدّل ممارستهم للاسلام فحسب ، بل عدّلت فكرات جيرانهم العرب أيضاً . إن اشتراك العربي والبربري في التكوين الديني والعرقيّ قد ساعد على منح مراكش صفةً مميّزةً عن أيما بلد اسلامي آخر .

* * *

كان الغزو الاسلامي لمراكش امتداداً لانتشار القوى الاسلامية عبر

افريقية الشمالية ، ذلك الانتشار الذي استُهِلّ بعد عشر سنوات انقضت على وفاة محمد . ففي سنة ٦٦٠ وفقت جيوش الأمويين ، بقيادة عقبة ابن نافع ، إلى دخول أراضي البربر ، وممتلكات البيزنطيين ، وممتلكات القوط الغربيين **Visigoths** حتى شواطئ الاطلسي . بيد أن السيطرة الاسلامية على شمالي افريقية كانت قلقة جداً ، وهكذا لم يتم ايما ضرب من الاحتلال الدائم للبلاد إلا في مطلع القرن الثامن . وفي عام ٧٠١ اخضع قائد أموي آخر ، هو موسى بن نُصَيْر ، تونس ، وزحف إلى مراكش فاحتل طنجة . وطوال ثمانين عاماً ، قاوم البربر محاولات المسلمين للسيطرة عليهم ، ولم يوافقوا على التعاون مع الغزاة العرب إلا بعد ظهور واحد من أبناء الدوحة النبوية على المسرح السياسي .

وحين انهارت الدولة الاموية في الشرق وأديل منها لبني العباس وفّق شاب من الاسرة المالكة اسمه إدريس إلى النجاة بنفسه . لقد فرّ إلى المغرب ، فرحّب به العرب والبربر ، في عام ٧٨٨ ، بوصفه شريفاً ينتسب إلى العترة النبوية ، واستطاع ان يخضع لسلطانه أجزاء واسعة من مراكش ، فوحّدها في دولة متماسكة . بيد ان البربر لم يرتضوا الخضوع لسيطرته وسيطرة ذريته ، حتى في ذلك الحين ، إلا بوصفهم زعماء دينيين ، أما سلطته وسلطة ذريته السياسية فلم يرتضها البربر دائماً . وحتى مطلع القرن العشرين اكره هذا الولاء المنقسمَ الموروثُ مختلفَ الدول والأسَر الحاكمة على شنّ حملات موصولة على القبائل المنشقة ابتغاء إكراهها على مدّ الحكومة المركزية بالضرائب والقوّات المحاربة .

ولم يحكم ادريس غير ثلاث سنوات ، حتى إذا توفي خَلَفَهُ ابنه ادريس الثاني الذي منح البلاد ادارةً صالحةً وأسس العاصمةَ فاس . ولم يأتِ خلفاؤه بشيء يلفت انتباهنا ، ومن أجل ذلك لا أرى أي حاجة إلى قول شيء عنهم وعن الأسر العديدة المتنافسة التي تعاقبت على

الحكم خلال القرن الذي تلا .

* * *

وحوالى العهد الذي غزا فيه النورمان انكلترة ، حلّت دولة قوية محل الأسر المتنازعة التي كانت قد خلفت الأدارسة في حكم البلاد . والحق أن دولة المرابطين بدأت ، كما بدأت كثرة الأسر المراكشية الرئيسية الحاكمة ، بوصفها حركة دينية . لقد أقبل المرابطون من الجنوب ، شأنَ كثير من الأسر الحاكمة المتأخرة . وفي القرن العاشر استعان زعيم من زعماء قبيلة صَنْهاجة البربرية بأحد المصلحين الدينيين على تعليم أفراد قبيلته [اصول الدين] . ومن أجل تحقيق ذلك انشأ المصلح الديني ضرباً من الدير العسكري يدعى « الرباط » ، ومن هذا الرباط انبثقت نواةٌ دينية عسكرية ما لبثت ان سيطرت على مراكش كلها وعلى الجزء الاعظم من اسبانية .

وبزعامة يوسف بن تاشْفين شرع أعضاء الرباطات ، المرابطون ، ينتشرون من جنوب مراكش ، وراحوا يحتلون مدن الادارسة ويكرهون الناس على الخضوع لحكم المرابطين . وحوّل ابن تاشفين معسكره الاول القائم في الصحراء إلى ما يعرف اليوم بمدينة مراكش ، ومن هناك طار صيتُهُ في طول افريقية الشمالية واسبانية وعرضهما . وكانت اسبانية مقسومة بين الحكام العرب والملوك النصارى الذين كانوا قد وفقوا إلى إقرار سلمٍ قلق ما لبث آخر الأمر أن انقلب إلى حرب ضروس . كانت الممالك العربية ضعيفة ، ولقد التمست ، حفظاً لذاتها ، من قوات ابن تاشفين البربرية القوية أن تهرع لمساعدتها . وبعد تظاهر بالتلكؤ أقبل زعيم المرابطين ، على رأس جيش بربري قويّ ، وأخضع الممالك النصرانية ، وألحقها مع ممتلكات حلفائه السابقين بأمبراطوريته المراكشية .

وخلال السنوات الباقية من حكم المرابطين حاول ابن يوسف بن

تاشفين وحفيدُهُ ان يُوَفقا إلى مثل ما وفّق اليه سَلَفهما من نصر ، ولكنْ على غير طائل . كان سلطان المرابطين قد بدأ كحركة اصلاح ديني ، ولقد قُدِّر على خلفاء يوسف ان تزيحهم عن المسرح حركة ذات طبيعة مماثلة وأسرة أثبتت أنها أقوى منهم وأشد بأساً . والواقع ان المرابطين أسدوا إلى مراكش خدمات جليلة لم يكن توحيد القوى الاسلامية أقلها شأناً . لقد قضوا على طائفية الادارسة الشيعية ، وأحيَوْا شعائر الاسلام من طريق « اخويّاتهم » الدينية . ليس هذا فحسب ، بل لقد وفقوا إلى فرض سلطة مركزية قوية على القبائل المستقلة ، وإلى تحطيم الروح الانشقاقية التي كان خليقاً بها أن تحول دون أي امتداد للسلطان المراكشي إلى اسبانية . ولعل ابعد خدمات هذه الأسرة مدىً وأجلها شأناً هي تلك الخدمة التي كان لها في أغلب الظن أثرٌ كبير في اضعافها — أعني نشر الثقافة المعقدة التي كان العرب ينشئونها ويطورونها في اسبانية . فالواقع ان البربر السذّج امتصوا تلك الثقافة ، التي قُدِّر لها أن تصبح جوهر عظمة اسبانية الاسلامية ومراكش ، امتصاصاً سريعاً أكثر مما ينبغي ، فقاد ذلك إلى انغماس في الترف والعلم على حساب الادارة الحكومية الحازمة .

* * *

وحتى فيما كان سلطان المرابطين مبسوطاً على مراكش واسبانية ، كانت قوةٌ جديدة قد أخذت تتشكل في الجنوب ، قوةٌ كتب لها في ما بعدُ أن تسيطر على افريقية الشمالية برمتها وأن تكسف ، إلى ذلك الحدّ ، أنوار الدولة السابقة . وتفصيل ذلك أن محمد بن تُومَرْت ، (المولود حوالى عام ١٠٧٥) أحد أبناء مراكش الجنوبية ، كان قد سلخ عشر سنوات في الشرق الاوسط كطالب دينيّ وكمصلح مُقْبل . حتى إذا نزل بين قبائل مَصْمودة في جبال الأطلس وُفّق إلى انتزاع اعجابهم بعلمه وبحماسته الدينية ، فاجتمع حوله خَلْقٌ كثير ومريدون

متعددون . ثم إنه أسس دولة ذات صفة ديموقراطية متميزة ، دولة مبنيّة على أساس من الاخلاقية الاسلامية الصارمة . وليس في استطاعة المرء ان يشك البتة في عبقرية ابن تومرت كمنظّم ، أو في تفوق نظامه الحكومي على الانظمة التي سبقته في اسبانية وفي شمالي افريقية على حد سواء .

إنه لم ينس قط ، وهو في غمرة من واجباته الادارية كلها ، واجبه الرئيسي كمصلح ديني . وكان يعلق على مفهوم وحدة الله المطلقة أهمية بالغة إلى درجة جعلته يطلق على أتباعه اسم الموحدين . وقد حرّف الاسبان هذا الاسم إلى **Almohade** الذي عُرِفت به منذ ذلك الحين ابرز اسرة من أُسَر مراكش الحاكمة . وتكاثر أتباع ابن تومرت حتى أصبح قادراً على تحدّي سلطة المرابطين . وبالتعاون مع مريده ومؤسس دولته الحقيقي ، عبد المؤمن ، شرع يغزو أراضي دولة المرابطين المتداعية إلى السقوط . وعلى الرغم من وفاته خلال المعركة الثانية التي شنها ضدهم فقد احتاجت الحركة الجديدة الى عشر سنوات ليس غير للتغلب على أيما معارضة جدية لها .

وسرعان ما استطاع عبد المؤمن ، وهو أعلى كعباً في فن الحرب من أستاذه ، أن يفتح اسبانية الاسلامية كلها وان يقضي على كل مقاومة في مراكش . ولم تكتفِ قواته باستعادة المنطقة التي احتلتها الدول الاسلامية السابقة ، بل زحفت شرقاً في اتجاه الشمال ففتحت الجزائر وتونس وليبيا . وبلغ عبد المؤمن من القوة والسلطان ومن الثقة بتأييد شعبه له مبلغاً مكّنه من اعلان نفسه خليفةً ومن اتخاذ لقب « أمير المؤمنين » . ولكن انتصاره لم يعمّر طويلاً ، ذلك بأنه توفي عام ١١٦٣ — وهي السنة التي أمسى فيها خليفةً . بيد أن مقدرته تجلّت حتى في موته ، ذلك بأنه كان من بُعد النظر بحيث وطّد دعائم دولته وسمّى ابنه خلَفاً له من بعده .

أما أعظم سلاطين الموحدين فكان يعقوب المنصور ، حفيد عبد المؤمن ، الذي حكَمَ من عام ١١٨٤ إلى عام ١١٩٩ . ولقد سيطر هذا القائد ، المتمسك بأهداب المذهب السني إلى أبعد الحدود ، على منطقة ممتدة من الصحراء الكبرى إلى اسبانية ، ومن الاطلسي إلى حدود مصر الغربية . بيد أن ترامي أطراف هذه الامبراطورية جعل إدارتها أمراً عسيراً ، وساعد على نشوب الثورات ضدها على نحوٍ أفضى آخر الأمر إلى سقوطها . والواقع ان كثيراً من الخدمات التي أسدتها دولة الموحدين إلى مراكش هي الثمرة المباشرة للحكم المستنير الذي عرفته البلاد في عهد المنصور وسلفهِ عبد المؤمن . ويتمثل جانب من هذه الخدمات ، ليس غير ، في دمجه العناصر البربرية والعربية في الجيش ، كما يتمثل في نظام من الادارة الاقليمية ممتازٍ وطد اركان الدولة ومنحها قدراً من الاستقرار ، وفي بعض الروائع المعمارية ، مثل الكُتُبيّة في مدينة مراكش ، وبرج جيرالدا في اشبيلية . وفي ظل الموحدين ازدهرت التجارة مع البلدان الاجنبية ، ووُقّعت معاهدة اقتصادية مع بيزا . وشجع الموحدون ابنَ رُشْد وابن طُفَيْل وغيرهما من العلماء الممتازين على العمل والأنتاج ، وفي مراكش بالذات وضع ابن رشد شروحه لكتب أرسطو ، تلك الشروح المُؤْذِنة بانبلاج عصر جديد ، والتي قدّر لها ان تخلّف أثراً عميقاً في الفلسفة الغربية بعامة ، والسكولاستيّة المسيحية **Scholasticism** بخاصة .

* * *

وكان مصير دولة الموحدين شبيهاً بمصائر الدول التي سَلَفَتْها والتي خَلَفَتْها . لقد انشأها مؤسس الاسرة ، ثم وطد دعائمها خليفتاه الاثنان طوال فترة قصيرة من الزمان ، ولكن حكاماً اقلّ حظاً من القوة ما لبثوا أن أضعفوها . ولم تكد تنقضي على وفاة يعقوب المنصور غير سنوات قليلة حتى شرعت قبيلة بربرية بدوية شجاعة ، هي قبيلة بني مَرِين ، تغزو

المنطقة التي تشكل اليوم الجزائر . وكأن المرينيين لم يقنعوا بهذا النصر المبدئي ، فاجتاحوا فاس واندفعوا جنوباً مخترقين الديار المراكشية . واحتل يعقوب الثاني ، أكبر سلاطين المرينيين ، مدينة مراكش ، وأتمّ فتح البلاد ، وحاول أن يعيد إلى مراكش سابق عظمتها . وكانت أهمّ خدمة أسداها إلى حياة البلاد تشييده مدينة ملحقةً بمدينة فاس القديمة ، دعاها فاس البيضاء أو فاس الجديدة .

وفي عهد المرينيين وُفّق البرتغاليون إلى اكتساب موطئ قدم في عدة مدن ساحلية . وكانت سَبْتة على البحر الابيض المتوسط ومَزَغان على المحيط الاطلسي بين المرافئ التي سقطت في أيديهم . وهاجم الأمير هنري الملاح طنجة ، فضاعت من يد المراكشيين فترةً يسيرة من الزمان. ولو ان المرينيين لم يحاولوا ان يضارعوا أو يتأسّوا بأسلافهم في ميدان الفتح والظفر العسكري إذن لكان من الجائز ان يوفقوا إلى الصمود في وجه هجمات الغزاة ، واذن لكان من الجائز ان يوفقوا إلى الاحتفاظ بامبراطوريتهم . ولكن المرينيين حاولوا ان يعيدوا فتح اسبانية ، وان يبسطوا رقعة بلادهم حتى تبلغ الحدود التي بلغها الموحدون — وهي محاولة جهيضة أضاعت عليهم قوتهم وخلّفتهم عاجزين عن حكم بلادهم على نحو فعّال أو عن حماية أنفسهم من الدول الاجنبية .

وعلى الرغم من ان انتصارات المرينيين العسكرية لا تضارع انتصارات الموحدين فقد تركت الدولة الجديدة طابعَها المميِّز على الثقافة المراكشية . ولقد أسند المرينيّون إلى المؤرخ العظيم ، ابن خلدون ، منصب الوزارة ومنصب المدوّن للتاريخ المراكشي في بلاطهم . وبين المدارس الكثيرة التي بنَوْها مدارسُ فاس الجميلة . لقد شجعوا التأليف ، وجمعوا الشرائع الدينية ونسّقوها في مجموعة كاملة ، وخلعوا على الاعياد الدينية ، التي لعبت وما تزال دوراً هاماً في الحياة المراكشية ، شكلَها الأخير . وبكلمة ، فأن جانباً كبيراً من عادات المراكشيين المصقولة ، في حضارة

مدنهم وفي أعرافهم على العموم ، مردّهُ إلى المرينيين .

* * *

حتّى إذا دبّ الضعف شيئاً فشيئاً إلى جسم الدولة المرينية ، بعد حكم دام عدة قرون ، ازدادت جرأة البرتغاليين عليهم حتّى وفقوا آخر الأمر إلى احتلال جانب كبير من السواحل . واستشعر كثيرٌ من البربر ، أيضاً ، ضَعْفَ السيطرة المرينية ، واستردّوا استقلالهم القَبَلي . وفي هذه الفترة ظهرت في الجزء الجنوبي من البلاد أول دولة عربية منذ دولة الادارسة . فخلال القرن الرابع عشر كانت أسرة تنتسب إلى العترة النبوية قد دُعيت إلى النزول هناك ، حتّى إذا مسّت الحاجة إلى حكومة مركزية قوية في مراكش ، طلب القوم إلى هؤلاء الأشراف أن يتولوا الزعامة عليهم . وعلى رأس عدد من الأتباع متكاثر تكاثراً موصولا أخذت هذه الأسرة تعيد فتح المناطق الخاضعة للمرينيين ، والمدن الساحلية الواقعة تحت سيطرة البرتغاليين .

وأفضت قوة هذه الأسرة السّعْدية المتعاظمة إلى نشوب « معركة الملوك الثلاثة » الشهيرة . ففي عام ١٥٧٨ هبط الملك « دون سيباستيان » اليابسة في طنجة بعد ان نذر على نفسه ان يسحق الدولة الجديدة ، ويخضع البلاد للسيطرة المسيحية . وكان خصمه هو السلطان عبد الملك ، وكان رجلا أريباً شديد البأس وُفّق ، برغم موته في المعركة ، إلى التسبّب في مصرع سيباستيان ، ومصرع أخيه هو (أي اخي عبد الملك) ، وهو مرتدّ انتحل لقب السلطان ، وفي هزيمة الجيش النصراني المؤلف من عناصر متنافرة .

حتّى إذا سُحقت القوى الاوروبية سحقاً كاملاً شرعت الانباء عن القوة الجديدة التي وطدت قدمها في مراكش تصل إلى بلاطات اوروبة . وسرعان ما أثبت أحمد المنصور ، وهو أخ آخر وخلَفٌ لبطل « معركة الملوك الثلاثة » ، أنه أعظم السّعديين ، وسلطانٌ وفد عليه السفراء من

جميع أنحاء اوروبة ليرفعوا اليه آيات احترامهم . لقد تمّ له قدْرٌ من القوة مكّنه من تحرير بلاده من كل سلطة أجنبية وأن يفتح المنطقة الممتدة من جنوبي مراكش إلى السودان الغربي . وخلال عهد المنصور بدأت البلاد تنقسم إلى مناطق ارتَضَتْ سلطة السلطان المركزية وسلطة حكومته فعُرِفت بـ « بلاد المخزن » ، ومناطق رفضت الاعتراف بتلك السلطة فعُرفت بـ « البلاد السايبة » . وقد استمر هذا الانقسام ، إلى حدٍ ما ، حتى عام ١٩١٢ عندما احتل الفرنسيون مراكش .

وعلى الرغم من السلطة التي تمّت لأحمد المنصور فقد عجز عن ان يكفل للدولة السّعدية عمراً طويلاً . فلم تكد تنقضي على وفاته (١٦٠٣ م) خمسون عاماً ، أو أقل من ذلك ، حتى وُفّقت أسرة جديدة إلى التربع على عرش مراكش .

* * *

وحوالى الفترة التي دعي فيها السّعديون الأولون إلى النزول في السوس (جنوبي مراكش) استقرت في الجنوب ، في تافيلالت ، اسرة من أسر الشرق الأدنى تنتسب إلى العترة النبوية أيضاً ، هي الاسرة الفيلالية التي عُرِفت في ما بعد بالاسرة العلوية . وما هي إلاّ فترة يسيرة حتى اكتسبت احترام القبائل البربرية ، ووفقت شيئاً بعد شيء إلى انتزاع السلطة من أيدي السعديين . ولا تزال مراكش ، حتى يوم الناس هذا ، تخضع لهذه الاسرة العلوية .

وأشهر سلاطين العلويين الأولين مولاي اسماعيل ، وكان معاصراً للملك لويس الرابع عشر ، الذي امتد حكمه من عام ١٦٧٢ إلى عام ١٧٢٧ . ولقد ذاع صيت قسوتهِ ، المضروبِ بها المَثَلُ ، في اوروبة بفضل الحكايات التي نشرها القلائل من العبيد النصارى الذين حاولوا الفرار من مراكش أو الذين افتداهم أهلوهم . ولقد اصطنع هذا السلطان آلافاً من الصّناع الأسارى لانشاء قصر أراده أن يكون أضخم

وأروع من قصر فرساي ، في عاصمته الجديدة مكناس . وفي ظل حكمه القاسي ، ولكن الفعّال ، نعمت مراكش بالوحدة كرة أخرى وتمتعت بادارة فعّالة حسنة التنظيم . وفرضت الضرائب على أساس شبه تجاريّ ، ونشّطت التجارة الخارجية ، وأنشئت السفارات الاجنبية في العاصمة . وكانت طنجة قد ضُمّت إلى ممتلكات التاج الانكليزي عشية ارتقاء مولاي اسماعيل العرش ، بوصفها جزءاً من بائنة كاثرين البرانغازية عند زواجها من ملك انكلترة تشارلز الثاني . ولكن انكلترة ألفتْ نفسها غير قادرة على الاحتفاظ بطنجة أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً ، حتى إذا كانت سنة ١٦٨٤ احتلتها القوات المراكشية من جديد .

وطوال ثلاثين عاماً انقضت على وفاة مولاي اسماعيل انتهت مراكش إلى الدرك الاسفل من الاضطراب والفوضى . وكان الوضع قلقاً إلى درجة جعلت أحد أبنائه يرقى العرش ثم يفقده ست مرات متواليات . ولم يظهر حاكم قويّ وعادل حتى كان عهد محمد بن عبد الله الذي احتفظ بالعرش من عام ١٧٥٧ إلى عام ١٧٩٠ . وكان محمد بن عبد الله هذا هو الذي وقّع ، في عام ١٧٨٦ ، معاهدة صداقة مع الولايات الاميركية المتحدة ، وهو الذي شكره جورج واشنطون شخصياً لما بذله من جهود مختلفة في مصلحة الجمهورية المنشأة حديثاً عبر الاطلسيّ .

وبقيادة سليمان أحد أبناء ابن عبد الله ، أُلغيت القرصنة المراكشية وحُرّرت السفن الاجنبية ، وبخاصة سفن الولايات الاميركية المتحدة ، من المضايقة والازعاج . وأكد سليمان أيضاً مشاعره الودية نحو الولايات المتحدة بأن منحها قصراً في طنجة لكي تتخذ منه مقراً لسفارتها ، وهو بناء لا يزال الممثل الاميركي في تلك المدينة يحتله إلى اليوم . أما أقوى سلاطين مراكش في القرن التاسع عشر فكان مولاي الحسن ، حفيد سليمان وجدّ الملك الحالي ، محمد الخامس ، الذي تولى الحكم من

عام ١٨٧٣ إلى عام ١٨٩٤ . ولكي يقاوم النزعة المتنامية إلى العزلة عن سائر العالم ، اشترى مولاي الحسن اول مطبعة قُدّر لمراكش أن تعرفها ، وشجّع إنشاء الصحف الوطنية والاجنبية على حد سواء . وإذْ خشي السلطان ، وكانت خشيته في محلها ، العدوان الاوروبي ، فقد عرض – ولكن على غير طائل – وضع بلاده تحت حماية الحكومة الاميركية . لقد كانت مخاوفه صحيحة في ما يتصل بأوروبة ، لأن الدول الأوروبية، عبثت بمراكش ، منذ رقي ابنهُ العرش عام ١٨٩٤ إلى أن انتزع حفيده الاستقلال [من الفرنسيين] عام ١٩٥٦ ، وجعلت منها ، وفي تواترٍ متعاظم ، بَيْدقاً في سياساتها الاستعمارية الخاصة .

وفي ختام القرن التاسع عشر أمسى الوضع في مراكش خطيراً . كان العجز هو الصفة الغالبة على ادارة شلّتْها العزلة ، والخوف من النفوذ الاجنبي ، والظلم . وصِينَت الديموقراطية المحلية من طريق الاحتفاظ بالمجالس القَبَلية ، ولكن ضرباً من الاوتوقراطية البدائية كان يَطْبَعُ الادارة المركزية . وفي عام ١٨٩٤ رقي العرش السلطان عبد العزيز ، وليس له من العمر غير ثلاث عشرة سنة ، فاذا به يجد نفسه في وضع سديمي . وكان عبد العزيز نزّاعاً إلى الاصلاح ، ولكن رغبته في الأخذ بأسباب الحضارة الغربية زعزعت ثقة شعبه به ، فرفض في الأعم الاغلب تأييد حكومته . ثم إن الادارة السيئة ، والتعويضات الثقيلة التي فرضتها اسبانية وفرنسة على مراكش ، والثورات القبليّة التي حرضت عليها واذكت نارها الحكوماتُ الاجنبية ، والضرائب المزيدة على نحو لا معدى عنه ، كل اولئك تعاونّ لخلق المعاذير لتدخل الدول الاجنبية .

وعلى الرغم من ان دولاً اوروبية عديدة أحبت أن تفوز بموطىء قدم في مراكش ، فقد كُتِب النصر للفرنسيين . وطوال نِصْف القرن الماضي فقَدَ التاريخ المراكشي تلك الصفة الاستقلالية التي كانت أدعى صفاته إلى الاعتزاز منذ القرن الثامن ، وأمسى مُوْثقاً على نحو لا يكاد ينفصل

عن السياسة والادارة الفرنسيتين .

فمنذ ان احتلت فرنسة الجزائر عام ١٨٣٠ وجعلت منها مكمّلاً للاقتصاد الفرنسي ، والفرنسيون يُبْدون اهتماماً بمستقبل مراكش غير منزّه عن المنفعة الذاتية . ولكي يخضعوا الاقتصاد المراكشي للمصلحة الفرنسية رسموا استراتيجية فتحٍ ذات ثلاث شُعَب : مالية ، وعسكرية ، وديبلوماسية . وإن تاريخ مراكش الحديث منذ عام ١٩٠٠ ليُظْهِر أن السلطة الفرنسية استهدفت ، أبداً ، القضاءَ على المصالح الأهلية والادارة المحلية .

ولكي يفرض الفرنسيون سيطرتهم الاقتصادية على مراكش ، أفادوا من هذه الواقعة : وهي أن عدداً من الدول الاجنبية ، هُمْ في جملتها ، كانت قد فرضت على مراكش تعويضات ومنحتها قروضاً يكاد تسديدها أن يكون أمراً متعذراً . والواقع ان الفرنسيين كانوا شديدي الرغبة في ان يقرضوا الحكومة المراكشية مبالغ ضخمة من المال تمكّنها من دفع هذه الديون ، لكي تصبح يد فرنسة مطلقةً في إكراه مراكش على الدفع بأية طريقة يختارها الفرنسيون . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة على أسرع وجه راحت المصالح الفرنسية المالية ، الممثلة في هيئة قوية دُعيت « لجنة مراكش » *Comité du Maroc* ، تضغط ضغطاً موصولاً على الحكومة وتغريها ببسطِ سيطرتها على الاقتصاد المراكشي .

وفي عام ١٩٠٧ ، قرب الدار البيضاء ، حاولت شركة فرنسية أن تمدّ خطاً حديدياً عبر جبّانة محلية . فأذا بالشّغَب الناشئ عن ذلك العمل ، والذي صُرِع فيه تسعةٌ من العمال ، يُتيح للفرنسيين فرصة طالما انتظروها . وبعد ان قصف الفرنسيون الدارَ البيضاء بنيران مدافعهم أكرهوا الحكومة المراكشية على دفع تعويضات باهظة . ولم يكن بدٌّ من زيادة الضرائب ، نتيجةً لذلك ، فنشبت ثورات مريرة على المخزن

[الحكومة] ، خدمت المخطط الفرنسي ودفعت الفرنسيين خطوات نحو غاياتهم .

واتخذ الفرنسيون من تلك الثورات ، عام ١٩٠٧ ، ذريعة للقيام بخطوة حاسمة فزحفوا على الدار البيضاء والرباط والبقاع المحيطة بهما ، واحتلوا هاتيك الديار « احتلالاً موقتاً » استمرّ نحواً من خمسين سنة . واثّاراً لمقتل طبيب فرنسي صرعه بعض قطاع الطرق قرب مدينة مراكش احتلّت فرنسة « أوجده » ، وهي مدينة واقعة على التخوم الجزائرية المراكشية كانت أبعد ما تكون عن مسرح الجريمة ولكنها مع ذلك ضمن حدود البلد نفسه . وفي عام ١٩١١ قررت « لجنة مراكش » ان الوقت قد حان لاحتلال العاصمة ، فاس ، وهكذا بُيّتتْ خطة دعاوية زعمت أن الخطر كان يحدق بالاوروبيين في فاس ، وان الضرورة تقضي بحمايتهم . ووجدت حكومة باريس نفسها مكرهةً على تجريد حملة قوامها ثلاثون الف مقاتل ما لبثوا ان احتلوا مدينة فاس ، من غير ان يطلقوا رصاصة واحدة .

والحق أن حملة فرنسة الديبلوماسية لاحتلال مراكش احتلالاً نهائياً تحدّت براعة ديبلوماسييها أقصى ما يكون التحدي . فقد كان عليهم أن يهدّئوا من معارضة جميع منافسيها المُقبلين – بريطانية العظمى ، واسبانية وايطالية ، وألمانية – قبل ان توفق فرنسة إلى قطف ثمرة [عدوانها] كاملةً . كان البريطانيون قد جعلوا من قواعد سياستهم الرئيسية ان لا يجيزوا لأيما دولة أوروبية ان تحتلّ الجانب الافريقي من مضيق جبل طارق . ثم إن ألمانية وايطالية كانت لهما ، أيضاً ، مخططات خاصةٌ تتصل بأمكانات مراكش الاقتصادية وبموقعها الاستراتيجي الذي لا يُضارَع . وأخيراً كانت ثمة اسبانية ، جارة مراكش الاوروبية الأشدّ قرباً ، التي كانت ترجو ، منذ أيام ايزابيلا ، أن تبسط سلطانها ، بطريقة ما ، على المغرب . وكانت الصلات الثقافية والعرقية التي تربط

اسبانية بالمغرب ترقى إلى أكثر من الف عام خلت ، ولعله كان من الجائز أن يكون لمطامحها في مراكش تبرير ما .

وحين ارتقى العرش ادورد التاسع ، ذو المشاعر العاطفة على فرنسة على نحو لا يحتمل اللبس ، آن الأوان لأحداث تقارب ... بين انكلترة وفرنسة . وفي عام ١٩٠٤ وُقّعت بين البلدين معاهدة كان من ثمراتها « الاتفاق الودي » *Entente Cordiale* . فبينا تخلّت فرنسة عن دعاواها في مصر أطلقت انكلترة ، مقابل ذلك ، يدَ فرنسة في مراكش . ولتهدئة اسبانية ، وقعت فرنسة معها ، في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٠٤ ، معاهدة ضمنتْ ، ظاهرياً ، استقلال مراكش ، ولكنها قسمتها ، وفقاً لبعض الاتفاقات السرية ، بين الدولتين . وتعاظمت شكوك الدول المتبادلة في ما يتصل بمراكش وكادت تؤدي إلى انفجار الأزمة عندما قام القيصر ، عام ١٩٠٥ ، بزيارة دراماتيكية إلى طنجة ، لكي يؤكد للسلطان تأييد المانية لسيادته . ولاجتناب نزاع محتمل بين المانية وفرنسة عُقِد في « الجزيرة » **Algeciras** ، في اسبانية الجنوبية ، مؤتمر دولي عام ١٩٠٦ .

كان أول مؤتمر دولي كبير عُقِد في القرن العشرين ، وأول مؤتمر من نوعه شاركت فيه الولايات الاميركية المتحدة . كان اجتماعاً سرياً التقى فيه ممثلو اثنتي عشرة دولة من دول العالم الكبيرة للاتفاق على صيانة استقلال مراكش وسيادتها . ولكن مؤتمر الجزيرة أخفق ، كما دلّت الاحداث بعد ، في تحقيق هذا الهدف . إنه ، على العكس ، لم يُفْضِ إلا إلى تعزيز الاحلاف الاوروبية المختلفة ، وإظهار ما بينهامن أسباب الخلاف على نحو صارخ .

والواقع أن القيمة الحقيقية للتوقيع الفرنسي على مقررات مؤتمر الجزيرة ما لبثت ان تجلّت ، عام ١٩٠٧ ، باحتلال فرنسة للدار البيضاء ، والرباط ، وأوجدة ، ثم بزحفها الذي تلا ذلك كله على فاس . وفي

نفس السنة التي احتل الفرنسيون ، خلالها ، مدينة فاس وجّه القيصر الألماني ، الذي لم يُهدَّداً بأية ترضيات خاصة ، البارجةَ « النَّمِر » *Panther* إلى ميناء أغادير ، في مراكش الجنوبية ، لألقاء الرعب في قلوب الفرنسيين . وإذْ واجهَ الفرنسيون هذا البرهان الواضح على استياء الألمان ، فقد اضطروا إلى تهدئة ألمانيا من طريق التنازل لها عن بعض المقاطعات الافريقية . وفي عام ١٩١١ أطلقت المانية لفرنسة حرية العمل في مراكش ، مقابل تنازل الفرنسيين لها عن ١٠٧,٠٠٠ ميل مربع من أراضي الكمرون .

وفي أواخر عام ١٩١١ كانت فرنسة قد أتمت عملها التمهيدي لاحتلال مراكش احتلالاً « شرعياً » . وحوالى ذلك الوقت كانت الماليّة المراكشية قد مُزِّقت تمزيقاً ، وكانت حكومة السلطان قد انتهت إلى ان تعتمد على فرنسة ، من الناحية المالية ، اعتماداً كلياً . ومن الناحية العسكرية كانت فرنسة تسيطر على معظم المواقع ذات الاهمية السّتراتيجية الحاسمة في مراكش ؛ ومن الناحية الديبلوماسية كانت فرنسة مُطلَقَةَ اليد في مراكش تتصرّف ثمةَ كما يحلو لها . وكانت فرنسة قد قوّضت سلطة السلطان عبد العزيز ، يعاونها في ذلك الزعماء الثائرون بوحي منها ، تقويضاً كاملاً اضطره آخر الأمر إلى التنازل عن العرش . فاذا بأخيه وخَلَفه ، مولاي عبد الحفيظ ، يجد نفسه محاطاً بمصاعب مماثلة خلقتها أسباب مشابهة .

ولكي يخلع الفرنسيون صفةً شرعيةً ما على احتلالهم مراكش اكرهوا السلطان في الثلاثين من آذار (مارس) عام ١٩١٢ ، على توقيع معاهدة فاس ، التي فقدت بها مراكش استقلالها لتخضع « للحماية » الفرنسية . وعلى الرغم من ان الفرنسيين زعموا ، في السنوات التالية ، ان شعب مراكش قد رحّب بهم كمحررين من الظلم والفقر ، فالحقيقة الواقعة هي أن فرنسة احتاجت إلى عشرين سنة أخرى لكي تحتل كامل الاراضي

المراكشية وتخضعها لسيطرتها . ولو أن الفرنسيين طبقوا في اخلاص أحكامَ المعاهدة التي فرضوها هم أنفسُهم على مراكش إذن لبقي زمام الأمر في تلك البلاد ، على الراجح ، في أيديهم .

* * *

ولقد ودّ أول مقيم فرنسي عام في مراكش ، الجنرال ليوتي ، من صميم فؤده ، أن يساعد مراكش من طريق إنشاء ادارة واقتصاد عصريَيْن في البلاد ، ومن طريق احترام حقوق الأهلين . بيد أن سلطةَ « لجنة مراكش » في باريس أثبتت ، منذ البدء تقريباً ، أنها أشد بأساً من سلطة الجنرال ليوتي ، وفي ظل خلفائه حُوِّل نظام الحماية ، تدريجياً ، إلى نظام استعماري خالص . لقد حلت السيطرة الفرنسية المباشرة محلّ الادارة غير المباشرة ، وأغفلت حقوق المراكشيين إغفالاً متعاظماً يوماً بعد يوم . ولم يكن بدٌّ من أن يؤدي ذلك إلى ولادة حركة وطنية ، وإلى قيام نزاع مستفحل شيئاً فشيئاً بين مراكش وفرنسة. وقد بلغ هذا النزاع ذروته عام ١٩٥٣ عندما عمد الفرنسيون ، متخذين من بعض « العملاء » المراكشيين ستاراً يعملون من ورائه ، إلى خلع السلطان الشرعي ، محمد الخامس ، الذي كان قد أمسى في تلك الآونة الناطقَ الرئيسي باسمِ شعبه . وقبل تلك الحادثة كان كثير من المراكشيين لا يزالون يؤمنون بـ « حسن نية » فرنسة ، وكانوا يأملون أن تفتح فرنسة عينيها على النُذُر الصريحة وان تعيد اليهم تلك الحقوق التي كان الفرنسيون قد أخذوا على أنفسهم ، عام ١٩١٢ ، عهداً باحترامها . وعلى الرغم من ان مُنْجَزات فرنسة في مراكش كانت مُعْجِبة ورائعة إلى حد بعيد ، وعلى الرغم من أنها صَبَغت البلاد بالصبغة العصرية وعزّزت ثروتها وزادتها ، فأن الكثرة الكبيرة من المنافع الجديدة كانت حكراً للفرنسيين ، مستوطنين كانوا أم تجاراً أم مصرفيين أم رجال صناعة . أما أصحاب البلاد فكانت حالهم قد انتهت إلى اسوأ مما كانت

قبل عام ١٩١٢ .

وحين ثار المراكشيون عن بكرة أبيهم ، بين عاميّ ١٩٥٣ و١٩٥٥ ، في وجه فرنسة ووجه ابن عرَفة – « السلطان الدمية » الذي فرضه الفرنسيون على البلاد – أدركت حكومة باريس آخر الأمر ان اللعبة الاستعمارية قد انتهت . وهكذا سارعت إلى نقل السلطان الشرعي من منفاه في مدغسقر إلى أرض الوطن ، وسرعان ما أُكرِهت فرنسة على منح مراكش سيادة واستقلالاً كاملَيْن . بيد أن من الخطأ ان نحمّل فرنسة مسؤولية الأخطاء الاجرامية التي ارتُكِبَتْ في مراكش . فالواقع ان الشعب الفرنسي ، ككلٍّ ، لم يعرف إلا قليلاً مما كان يجري فعلاً في المغرب ، إذ كانت معرفته مستمدةً في معظمها من الحملة الدعاوية التي شنّها ، في غير ما تحرّج وفي سخاء بالغ ، ممثلو « لجنة مراكش » وصحفها والناطقون بلسانها داخلَ الحكومة الفرنسية والبرلمان الفرنسي . ومع ذلك ، فقد كان على فرنسة ان تدفع هي ثمنَ سياسات « لجنة مراكش » الأنانية ، خاسرةً بهذه العملية لا صداقة عشرة ملايين مراكشي فحسب ، بل حارمةً أيضاً هذه الملايين العشرة من كثير من العون الاقتصادي الذي كانت تعتمد عليه .

وإنه لمن السابق لأوانه أن نقول بأية طريقة سوف يُحَلّ هذا النزاع ، وأية دول أخرى سوف تتقدم لتزويد مراكش بالعون المالي والتقنيّ technical الذي كان في وقت من الاوقات وقفاً على فرنسة وحدها . إذ ما كادت فرنسة تتخلى عن حقوق الحماية في مراكش ، حتى ألغت أيضاً القروض التي كانت قد وعدت بتقديمها إلى الدولة المستقلة الجديدة . وعلى الرغم من ان الحكومة المراكشية ضمِنَتْ ، في جلال ، حقوق الموظفين الفرنسيين ورواتبهم ومعاشات تقاعدهم ، سواء أكانوا يعملون في الادارة أم كانوا معلمين وخبراء تِقْنيين ، فقد شجعت السفارة الفرنسية في الرباط رحيل الفرنسيين عن البلاد ، مُضيفة بذلك إلى

مشكلات الدولة الجديدة مشكلة جديدة . وبرغم هذه المصاعب كلها – التي زادها انحباس المطر وزادتها المواسم الرديئة استفحالاً – لم تعرف مراكش كيف تشق طريقها في عزم فحسب ، بل استطاعت فوق ذلك أن تخطو خطواتٍ رائعة في مختلف الحقول أيضاً . وهكذا ضُوعِف عدد الاطفال المراكشيين في المدارس ، مثلاً ، في مدى عامين من الاستقلال ليس غير ، وانشئت حركة نقابية عصرية ، ووُسِّع نطاق الاشغال العامة ، وأقيمت جمعية وطنية تمهيدية . وتولى حزب الاستقلال الحكم ، ذلك الحزب الذي كان قد أسهم إسهاماً عظيماً في تحقيق الاستقلال . ولكن زعيم البلاد الحقيقي وراسم سياستها لم يكن في الواقع غير الملك محمد الخامس الذي جعله نضاله من أجل الاستقلال معبود الشعب ، والذي ضمنت له حكمتُهُ السياسيةُ واعتدالُهُ السياسي احترامَ الدول الاجنبية .

٢ . الجزائر

إلى الشرق من مراكش تغطي الجزائر ، مترامية الاطراف من البحر الابيض المتوسط إلى قلب الصحراء الكبرى ، مساحةً تبلغ اربعة أضعاف مساحة المغرب تقريباً . بيد أن الرُبْع الشمالي من الجزائر ، البالغة مساحتُهُ نحواً من ١٨٥,٠٠٠ ميل مربع ، هو وحده القابل للحياة الزراعية أو للحياة المدينية . أما سائر البلاد فصحراء متجَهَّل تُنقِّطها ، على نحو متناثر ، بعض الواحات والمعسكرات الفرنسية . وذلك الجزء من الجزائر الذي ينتظم جميع سكانها ، ما عدا حفنةً منهم ، هو منطقة تتألف من جبال خفيضة تفصل بعضها عن بعض بضعة أودية خصيبة ، ولكنها لا تنعم بالريّ الكافي .

ومن ناحية تاريخية ، كانت الارض المروية مكرّسةً لأنتاج القمح

وغيره من المحاصيل الغذائية . ولكن ما إن استولى الفرنسيون على البلاد حتى احتلت الكرمة حيزاً كبيراً من الارض الطيبة . وهذا الوضع اكرَهَ الجزائريين على استيراد الاغذية من فرنسة ، فكان في ذلك إضرار بمصالح السكان الوطنيين الاقتصادية . وتنتج الجزائر ، شأن بلدان البحر الابيض المتوسط الأخرى ، مقادير ضخمة من زيت الزيتون ، الزيتون الذي تلتفّ أشجاره على أكتاف الكثبان .

والواقع ان تاريخ الجزائر المبكّر هو إلى حدّ بعيد عَيْنُ تاريخ مراكش ، مع فارق وحيد ، هو أن الجزائر لم تخضع قط خضوعاً كاملاً لأية دولة أجنبية إلا في القرن العشرين . لقد كان للرومان سيطرة على الجزائر ، ولقد اعتبروها جزءاً هاماً من امبراطوريتهم . وكانت الفترة الممتدة ما بين انسحاب الرومان والاحتلال العربي متميزة بحروب قبَلية تخلّلتها ، بين الفينة والفينة ، غزواتٌ فندالية من شبه الجزيرة الأيبيرية . وسيطرت قبائل بربرية وعربية مختلفة على مصائر البلاد من القرن السابع إلى القرن السادس عشر عندما قضى العثمانيون على الاسر الوطنية الحاكمة وأحلّوا محلها بعض الحكام الاتراك . ومن القرن السابع عشر حتى الاحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠ سيطر العثمانيون على الجزائر ، اسمياً ليس غير ، إذ كانت أنأى من ان يقوى « الباب العالي » على حكمها حكماً مباشراً .

إن قصة القراصنة في شمالي افريقية ومآتي ستيفين ديكاتور * في شواطئها معروفة لا تحتاج إلى اعادة في هذا الكتاب ، ولكن أعمال الفرنسيين في الجزائر هي التي تحتاج إلى تحليل . فقد اتخذت فرنسة من نشاط بعض القراصنة الجزائريين ذريعة لغزو البلاد ، وبعد أن رمى « الداي » ممثل فرنسة بالمِذَبّة ** في أثناء مجادلة حامية احتلت القوات

---

* Stephen Decatur ضابط بحري اميركي (١٧٧٩ – ١٨٢٠) (المعرب)

** المذبة ما يطرد به الذباب .

الفرنسية البلاد ، وأقامت فيها إدارة خاصة . وقد تميزت المقاومة الجزائرية للفرنسيين بجهاد عبد القادر الذي ظل يحارب الاحتلال حتى أسِرَ ونفي في عام ١٨٤٨ .

ومن ذلك التاريخ إلى اليوم والفرنسيون يعتبرون الجزائر جزءاً من فرنسة . وفي عام ١٨٧٠ قسِمت البلاد إلى ثلاث مديريات يمثلها في البرلمان الفرنسي نوابٌ لها ، ولكن الفرنسيين لم يجيزوا إلا لقليل من الجزائريين الوطنيين أن يشاركوا في الانتخابات النيابية . وفي القرن العشرين مُنِح الجزائريون حق الانتخاب ، ولكنْ على شرط ان يصبحوا مواطنين فرنسيين . وكان معظم السكان غير راغبين في ذلك أو غير قادرين عليه ، لأن « المواطنية » لم تكن تُمْنح إلا لاولئك الذين كانوا يتمتعون بمِلْكيّة ما ، والذين كان دَخْلهم يبلغ قَدْراً بعينِه ، والذين كانوا يحسنون الكلام باللغة الفرنسية ويرغبون في الانضواء تحت لواء القانون الفرنسي . وهذا الشرط الاخير كان هو العائق الرئيسي لأن القانون المدني [الفرنسي] والشريعة الاسلامية يتعارضان في مواطن كثيرة ، ولقد كان طبيعياً أن يستنكف المسلمون عن اطّراح روابطهم الدينية والتخلّي عنها .

وكانت النتيجة الأخيرة لهذه السياسات الفرنسية هي فَرْض نظام استعماري إلى حد قليل أو كثير على الجزائر . وعلى نحوٍ مطّرد راحت جماهير متعاظمة من « المستوطنين » تنتقل إلى الجزائر وتحتل المزارع التي كانت من قبل مِلْكاً للوطنيين . ولقد أُجْبِر الوطنيون على الهجرة إلى المراكز المدينية القائمة على الشاطئ حيث كدحوا للفوز بعيش الكفاف كأشخاص أخرجوا من ديارهم .

إن الشعب الجزائري ، المتخذ من نضال مراكش وتونس من أجل الاستقلال مَثَلاً يحتذيه ، ليخوضُ اليوم غمرات القتال ضد الفرنسيين في سبيل الفوز بالحرية . وبعد اليوم الاول من تشرين الثاني (نوفمبر)

١٩٥٤ بلغت هذه الحركة الاستقلالية مستوى حدثٍ رئيسي في الشؤون العالمية ، ووُفـِّقت إلى لفت انتباه الامم المتحدة . وعلى الرغم من اصرار فرنسة على ان المسألة مشكلة داخلية محض فهي بذلك لا تدخل في اختصاص أية هيئة دولية ، أدرك العالم كله ان نضالاً يُشَنّ من أجل التحرر من السيطرة الاستعمارية هو نضالٌ جديرٌ بأن يثير اهتمام الناس في كل مكان .

٣ . تونس

وطَبَعَ تاريخُ تونس المبكر على غرار التاريخ الجزائري ، إلى حدّ بعيد . والمدوّنات القديمة تظهر ان الفينيقيين أنشأوا مستعمرة هامة على الشاطئ التونسي ، ثم تَبِعهم القرطاجيون والرومانيون والفندال . ومن ناحية ثقافية تستطيع تونس ان تباهي بامتياز غير يسير ، فقد كانت موطنَ القديس اوغسطين ، والقديس سيبريان ، وترتوليان ، وفوق ذلك كله كانت موطن ابن خلدون أبي علم التاريخ وعلم الاجتماع الحديثين ، وكان من أهل القرن الرابع عشر . لقد طرد البيزنطيون ، يقـودهم بيليزاريوس ، الفندالَ من تونس ، ولكن عقبة بن نافع ، الأموي ، ما لبث أن طرد البيزنطيين ، بدَوْرهم ، في القرن السابع . وسيطر الفاطميون ، الذين نشأت دولتهم أول ما نشأت في تونس ثم امتدّت بعدُ فشملت مصرَ ، أقول سيطروا على المنطقة فترة من الزمان ، ولكن بعض الأسر الحاكمة المحلية ما لبثت ان حلت محلهم ، كما حلّ محلهم نورمان صقلّية الذين احتلوا البلاد برهةً وجيزة . وقبل انقضاء القرن السادس عشر أُديل للعثمانيين من الحَفْصيين ، وهم أعظم الأسر الوطنية المحلية شأناً . ولكن الاتراك عجزوا ، جرياً على مألوف عادتهم ، عن أن يفرضوا على هذه الديار التي فتحوها أكثر من سيطرة اسمية ، فكان

يحكم البلادَ باشاواتٌ نصف مستقلين . وظل الحال على ذلك حتى القرن الثامن عشر عندما انتخب الانكشارية « باياً » وحرّروا أنفسهم من السيطرة التركية . وهنا أيضاً ، ظلت القرصنة ، كشأنها في الجزائر ، تجارة هامة مزدهرة إلى ان قضت عليها الولايات الاميركية المتحدة والدول الاوروبية الكبرى .

وعلى الرغم من أنه كانت ثمة فترات من القيادة الحكيمة والادارة الفعالة فأن تاريخ تونس خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان ، على الجملة ، تاريخ حكومة ضعيفة ونزاع داخلي . وتلك حال لم تكن فرنسة لتطمع في شيء أفضل منها ، فعمدت بموافقة انكلترة — وقد فازت بها مقابل إطلاقها يدَ الانكليز في قبرس — إلى غزو تونس بدعوى ان الفوضى الداخلية في تلك البلاد كانت تتهدّد سلامة الجزائر بالخطر . وفي عام ١٨٨٠ وجد « باي » تونس نفسه مكرَهاً على قبول الحماية الفرنسية ، وهو وضع أُضفِيَتْ عليه ، في ما بعد ، الصفة الشرعية بمعاهدتَيْ باردو عام ١٨٨١ ، والمرسى عام ١٨٨٣ .

وخرق الفرنسيون اتفاقيات « حمايتهم » بأخضاع التونسيين لأدارة مباشرة أقاموها في البلاد ، وبمعاملتهم تونس كمستعمرة لا كبلد مستقل . وإنما انطلق أول احتجاج رئيسي على الادارة الفرنسية ، عام ١٩٠٤ ، عندما انشئ حزب تونس الفتاة لاكراه الفرنسيين على الوفاء بالتزاماتهم . وقد اكتسبت هذه الخطوة الابتدائية المعتدلة توكيداً جديداً خلال الحرب العالمية الأولى عندما انتشرت فكرة تقرير المصير القومي وراجت رواجاً كبيراً . حتى إذا وافت سنة ١٩١٩ نُظِّم « حزب الدستور » ، الذي ما لبث أن أُتبِع بعد بضع سنوات « بحزب الدستور الجديد » وقد أسسه الحبيب بورقيبة الذي تقلد في ما بعد رئاسة الجمهورية التونسية .

وفي عام ١٩٣٨ حلّ الفرنسيون حزب الدستور الجديد ، وسجنوا بعض زعمائه ونفَوْا بعضهم الآخر . وولّدت الحرب العالمية الثانية انبعاثاً في الشعور الوطني ، فاستجاب الفرنسيون لهذا الانبعاث بمنح التونسيين بعض عناصر الحكم الذاتي . وفي عام ١٩٥٠ طالب التونسيون يقودهم وطنيّ معتدل هو محمد شنيق ، ببعض الاصلاحات الهامة ، وهددوا بالالتجاء إلى « الامم المتحدة » للفوز بها . فأثار هذا الصنيع نقمة الفرنسيين فشنّوا على الوطنيين حملة انتقامية أفضت إلى اندلاع نار العنف في البلاد ، ولم تخمد تلك النار إلا بعد انسحاب فرنسة من البلاد . وتفصيل ذلك ان الثورة المسلحة وما رافقها من مقاطعة اقتصادية جعلت فرنسةَ في مركز يائسٍ اكرَهَ رئيس الوزراء الفرنسي ، بيير مانديس فرانس ، في صيف عام ١٩٥٤ ، على أن يعِدَ الشعبَ التونسي بالحكم الذاتي . بيد ان استقلال البلاد كان منقوصاً غير كامل ، لأن فرنسة احتفظت بالهيمنة على السياسة الخارجية ، وشؤون الدفاع ، وجهاز البوليس . حتى إذا وافت سنة ١٩٥٦ نعمَتْ تونس ، آخر الأمر ، بالاستقلال ، ولكنه كان استقلالاً نظرياً أكثر منه فعلياً لأن فرنسة ظلت تسيطر ، اقتصادياً ، على البلاد ، ولأن قواتٍ فرنسية ضخمة ظلت تحتل الترابَ التونسي . وهكذا أُبقِيَتْ تونس في حال من التوتر الداخلي الدائم ، وهو احتكاك زاده بِلّةً اندلاعُ حرب الاستقلال على مقربة من حدود تونس ، في أرض الجزائر المجاورة .

وفي صيف عام ١٩٥٧ خلعت الحكومة التونسية « الباي » عن العرش وأعلنت تونسَ جمهوريةً تولى رئاستها ، أول ما تولاّها ، الحبيب بو رقيبة . ومثل مراكش ، اعتبرت تونس نفسَها جزءاً من الغرب ، وأبدت رغبتها في انشاء علاقات اوثق مع الدول الغربية . أما ما إذا كانت عواطف الزعماء المراكشيين والتونسيين الموالية للغرب ، هذه ،

ستَعَمُرّ وتبقى وما إذا كان هـذان البَلَدان سيلعبان دورهما الطبيعي في انشاء جسر بين الغرب والشرق الاوسط فأن ذلك سيكون آخر الأمر رهناً باستجابة الدول الغَرْبية وباستعدادها لمساعدة هاتين الدولتين الشمالأفريقيتين في فترة الانتقال العصيبة هذه التي تجتازانها .

* * *

وفي مطلع عام ١٩٥٨ أظهرت الأحـداث ، على نحو واضح ، ان مراكش وتونس والجزائر تشكل كلاً واحداً ، وأن مـن المتعذّر على المرء ، أو يكاد ، ان ينظر إلى أيّ منهـا كشيء منفصل عن شقيقتَيْه . والواقع ان الحرب في الجزائر فرضَتْ على حارتيهـا مهامّ لم يكن متوقّعـاً من الدولتين الجديدتين ، الطريّتَيْ العود ، أن تنهضا بعبئها على الوجه الأكمل . وكلما اصرّت فرنسة وحليفاتها الغربيات على اعتبـار القضية الجزائرية « مسألة فرنسية » خالصـة – وبذلك يَعْزِلْنَ هـذه البلاد عن مراكش وتونس – تعاظم شعور هذه الدول الثلاث بأن الوحدة في ما بينها ، وربمـا اتخذت هـذه الوحدةُ شكلَ اتحـاد فيديرالي ما ، هي وحدهـا السبيل إلى احتفاظها بوجودها . ولقد بدا لأعين العرب أن قِصَر نظر السياسة الفرنسية وعنادها الدائمَيْن تجـاه شمالي افريقية يتمتعان بتأييد الولايات الامركية المتحدة وبريطانية العظمى . وهذا مـا اكره المغربَ ، أكثر فأكثر ، على التخلي عن دوره التاريخي كوسيط بـين الغرب والشرق ، وحمله ، على نحو لا مفرّ منـه ، على التطلّع إلى الشرق وعقد آماله عليه دون غيره .

إن الغرب وحده قـادرٌ على تمكين دول المغرب من اداء الرسالة التي فرضهـا عليهـا موقعها الجغرافي وتاريخها . ومن اسف ان

قِصَر نظر الغرب أو انحلاله قد حالا بينها وبين النهوض بعبء رسالتها هذه .

قراءات مختارة

١ –جوليان ، شارل آندريه «افريقية الشمالية في معارج التقدم» : **Julien, Charles —André,** *L'Afrique du Nord en Marche* (باريس ، ١٩٥٢) .

٢ – لاندو ، روم **Landau , Rom** « الدراما المراكشية » *Moroccan Drama* (سان فرانسيسكو ، ١٩٥٦) .

٣ – ميكين ، بودجيت : « الامبراطورية المغربية » **Meakin , Budgett** *The Moorish Empire* (لندن ، ١٨٩٩) .

جَدوَل كرونولوجي

المغرب

تواريخ	دول وزعماء	احداث الهامة: في العالم الاسلامي	احداث الهامة: في اوروبة والغرب
القرن الخامس ق. م.	هيرودوتس	يكتب عن مراكش	
حوالى ١٠ ب. م.	اوكتافيان	يجعل طنجة مدينة امبراطورية.	
٤٢ ب. م.	كلوديوس	يجعل موريتانيا تبنجيتانا جزءاً من الامبراطورية الرومانية .	
٤٢٩ – ٥٣٤	الفندال	يسيطرون على افريقية الشمالية من الاطلسي إلى تونس .	انهيار الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس .
٥٣٣ – ٥٤٣	بيليزاريوس	يستولي على افريقية الشمالية منتزعاً اياها من أيدي البيزنطيين .	العصور المظلمة في اوروبة ، من القرن السادس إلى القرن التاسع .
٦٦٠	عقبة بن نافع	يفتح شمالي افريقية ويخضعها لحكم الامويين ؛ يؤسس مدينة القيروان .	
٦٩٧ – ٦٩٨	العرب	يفتحون قرطاجة ؛ يضعون حداً لسلطان البيزنطيين على شمالي افريقية .	

التاريخ			
٧٠١	موسى بن نصير	يحتل طنجة ، ويستهل غزو اسبانية .	
٧٦٠ – ٩٠٩	دولة الأغالبة	تحرر افريقية (تونس) من سيطرة العباسيين .	
٧٨٨ – ٩٧٠	دولة الادارسة		
٧٨٨ – ٧٩١	ادريس الأول	البربر والعرب يرتضون زعامة احد الاشراف الامويين وينادون به حاكماً على مراكش .	شارلمان يحكم في اوروبة (٧٧١ – ٨١٤) .
٧٩١ – ٨٠٤	ادريس الثاني	يؤسس مدينة فاس .	
٩٠٠ – ٩٦٩	الفاطميون	يدخلون المذهب الشيعي إلى تونس .	
٩٧٠ – ١٠٥٣		مراكش تنقسم إلى دويلات متقاتلة .	الدانيون يخلفون الانكلوسكسون في حكم انكلترة؛ ملوك اسرة « كابيه » يحكمون فرنسة .
١٠٥٣ – ١١٤٧	دولة المرابطين		
١٠٦١ – ١١٠٢	يوسف بن تاشفين	يؤسس الرباطات العسكرية ؛ يجدد الاسلام؛ يفتح اسبانية وشمالي افريقية ؛ يقيم حكومة مركزية قوية .	النورمان يغزون انكلترة (١٠٦٦) ؛ بدء الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥) .
١١٤٧ – ١٢٧٥	دولة الموحدين		بدء الحملة الصليبية الأخيرة (١٢٧٠) .
١٠٧٥ – ١١٢٨	ابن تومرت	مصلح ديني يقيم حكومة ديموقراطية .	
١١٤٩ – ١١٦٣	عبد المؤمن	يؤسس دولة الموحدين ؛ يفتح مراكش عام ١١٤٨ ؛ واسبانية عام ١١٥٠ ؛ يؤسس نظاماً ملكياً وراثياً .	هنري الثاني (١١٥٤ – ١١٨٩) . (القديس) توما بيكيه (اسقف كانتربوري ، ووزير هنري الثاني ١١١٧ – ١١٧٠) .

تواريخ	دول وزعماء	الأحداث الهامة: في العالم الاسلامي	الأحداث الهامة: في اوروبة والغرب
١١٨٤ – ١١٩٩	يعقوب المنصور	يبعث الحياة في مذهب السنة ؛ ينشىء امبراطورية .	ريكاردوس قلب الأسد (١١٨٩ – ١١٩٩) .
١١٩٦		معركة الأرك (Alarcos) ؛ المنصور يسيطر على اسبانية .	
١٢١٢		معركة حصن العقاب (Tolosa) ؛ افول سلطان المسلمين في اسبانية . مآثر الموحدين : نظموا الحكومة ؛ طوروا الصناعة والزراعة ؛ بنوا برج جيرالدا في اشبيلية ومئذنة « الكتبية » في مدينة مراكش ؛ رعوا ابن رشد وابن طفيل .	البراءة العظمى Magna Charta (١٢١٥) هنري الثالث (١٢١٦ – ١٢٧٢) لويس التاسع . فرنسة تبلغ قمة مجدها الوسيطي (١٢٢٦ – ١٢٧٠) . نمو البندقية ، وبيزا ، وجنوا ، بتأثير من الحروب الصليبية .
١٢١٣ – ١٥٢٤	دولة المرينيين	قبيلة بني مرين تفتح مراكش .	
١٢٢٨ – ١٥٣٤	الدولة الحفصية	تحكم تونس .	
١٢٥٨ – ١٢٨٦	يعقوب الثاني	ينشىء مدينة فاس الجديدة ويبني فيها المدارس؛ يمكن لمذهب السنة من جديد ؛ يجمع الشرائع الدينية وينسقها ؛ ينشىء ثقافة فاسية نموذجية .	
١٤١٥		البرتغاليون يستولون على سبتة ومازاغان .	تنفيذ حكم الموت في جان دارك (١٤٣١) .

١٤٩٢		المسلمون يكرهون على الخروج من اسبانية .	ايزابيلا وفرديناند يعيدان توحيد اسبانية .
١٥١٨ – ١٨٣٠		العثمانيون يسيطرون على الجزائر	
١٥٢٤ – ١٦٦٨	الدولة السعدية	ابناء العترة النبوية في مراكش .	مارتن لوثر ينشر قضاياه (الخمس والتسعين) (١٥١٧).
١٥٧٤		العثمانيون يسيطرون على تونس	
١٥٧٨	« معركة الملوك الثلاثة »	هزيمة دون سيباستيان ملك البرتغال في مراكش.	اليصابات الأولى (١٥٥٨ – ١٦٠٣) .
١٥٧٨ – ١٦٠٣	أحمد المنصور	يسيطر سيطرة كاملة على مراكش ؛ يفتح السودان الغربي ؛ يقيم علاقات تجارية مع إنكلترة .	« كومونولث » كروموبل في انكلترة (١٦٤٩ – ١٦٦٠) .
١٦٦٨ – ٠٠٠٠	الدولة الفلالية (العلوية)	ابناء العترة المحمدية الذين لا يزالون يحكمون مراكش إلى اليوم .	البرتغال تتخلى عن طنجة للانكليز (١٦٦٢).
١٦٧٢ – ١٧٢٧	مولاي اسماعيل	يوحد البلاد ؛ ينظم الحكومة .	لويس الرابع عشر ملك فرنسة (١٦٦١ – ١٧١٥) .
١٦٦١ – ١٦٨٤		طنجة تحت سيطرة الانكليز .	
١٧١٤ – ١٨٣٥	الدولة القرمانلية	أحمد باي يؤسس دولة في الجزائر .	
١٧٥٧ – ١٧٩٠	محمد بن عبد الله	يوقع معاهدة صداقة مع الولايات الاميركية المتحدة (١٧٨٦) .	حرب السبع سنوات (الحرب الفرنسية الهندية) (١٧٥٥ – ١٧٦٣) .
١٧٩٥ – ١٨٢٢	سليمان الثاني	يلغي القرصنة المراكشية	اندلاع الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ؛ معركة واترلو (١٨١٥) .

أحداث هامة

تواريخ	دول وزعماء	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
١٨٣٠		الفرنسيون يغزون الجزائر	لويس فيليب يحكم فرنسة (١٨٣٠ – ١٨٤٨)
١٨٧٣ – ١٨٩٤	مولاي الحسن	خير السلاطين المراكشيين في القرن التاسع عشر .	
١٨٨٠		فرنسة تحتل تونس .	
١٨٩٤ – ١٩٠٧	عبد العزيز	يرث حالة من الفوضى والاضطراب في مراكش .	مؤتمر الجزيرة لدراسة المسألة المراكشية (١٩٠٦)
١٩٠٧ – ١٩١١		الفرنسيون يحتلون الدار البيضاء ، والرباط ، وفاس .	
١٩١٢		معاهدة فاس تجعل مراكش محمية فرنسية .	نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) .
١٩٢٧	محمد الخامس (بن يوسف)	يصبح سلطان مراكش .	نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) ؛ قوات الولايات المتحدة الاميركية تغزو شمالي إفريقية (١٩٤٢) .
١٩٥٣		الفرنسيون يخلعون السلطان محمد بن يوسف	اندلاع الثورة الوطنية ضد الفرنسيين (١٩٥٣– ١٩٥٥) .
١٩٥٤		الجزائريون يخوضون غمار الحرب ضد فرنسة .	
١٩٥٤		تونس تفوز بالاستقلال (غير الناجز) .	

١٩٥٥	محمد بن يوسف يعود إلى عرش مراكش .
١٩٥٦	مراكش وتونس تستردان استقلالهما .
١٩٥٦	مراكش وتونس تصبحان عضوين في « الأمم المتحدة » .



الفصل السابع

اسبانية الإسلامية

•

على الرغم من ان اسبانية ومراكش كانتا الولايتين الواقعتين في أقصى الغرب من الامبراطورية العربية فقد شكلتا معاً الجسر الرئيسي الـذي تسرّبت الحضارة والثقافة الاسلاميتان عَبْرَه إلى اوروبة. فلم تكد تنقضي على الهجرة مئة عام ، أو أقل ، حتى امتد سلطان العرب ، عَبْرَ شمالي افريقية ، إلى شواطئ الأطلسي . إنهم لم يفتحوا شمالي افريقية فحسب ، بل احتلوها احتلالاً سرمدياً . وما وافَتْ سنة ٧٠٩ حتى كان موسى بن نُصَيْر ، العامل الذي أسند اليه الأمويون حكْمَ المنطقة المفتوحة منذ قريب ، قد وفّق إلى اخضاع بربر مراكش . وكان قد انتهى أيضاً إلى تفاهم مع الكونت جوليان أو أوربان الاسطوري ، حاكم سبتة البيزنطي ، الذي ساعده بعدُ على فتح الجزيرة الأيبيرية فتحاً خاطفاً .

وفي ذلكْ العهد كان الملك القوطي ، لُذَريق ، هو أقوى حكام

اسبانية . ومع ذلك فقد كان مركزه غير منيع .كان قد اغتصب العرشَ القوطي من وريثه الشرعي ، آشيلا ، ولعل أنصار هذا الاخير كانوا مستعدين للترحيب بأية قوة غازية . ليس هذا فحسب ، ولكن لذريق كان طاغية فرض على شعبه عبودية قاسية أيضاً . والواقع ان المدن المنكوبة بالاضطهاد وسوء الادارة والفقر كانت هي ثمرة نظام اقطاعيّ يُعتبر أسوأ آفات القرون الوسطى. وكان اليهود ، بوصفهم أقلية كبيرة العدد ولكنها مضطهدة اشنع اضطهاد ، مثلاً إضافياً على ضرب من الحكم القوطي الموسوم باللاتسامح وبمستوىً من الثقافة خفيضٍ . وانحاز الاساقفة النصارى ، في معظم الاحوال ، إلى جانب النبلاء وأيدوهم في جهودهم الهادفة للاحتفاظ بمركزهم الممتاز وحكمهم الفاسد .

وهكذا وجد موسى في نصيحة جوليان ، القائلة بأن اسبانية كانت ثمرة ناضجة تنتظر من يقطفها ، حافزاً إلى العمل . ومع ذلك فلم تكن دمشق قد أجازت له العبورَ إلى اسبانية . على العكس ، فقد كان الخليفة الوليد قد حذّر موسى من ركوب البحر خشية أن يعرّض قواته لخطر عظيم . ولكن موسى كان في حاجة إلى ان يشْغل البربر ويُلهيهم ، فوجّه إلى اسبانية قوة استطلاعية صغيرة مؤلفة من بربر وعرب بقيادة ابي زُرْعة طريف . وفي عام ٧١٠ هبطت البعثة ، وعِدّةُ رجالها خمسمئة ، اليابسة عند موقع أمسى يعرف منذ ذلك الحين باسم « طريفة » .

وفي السنة التالية جازت المضيق قوة أكبر بكثير ، مؤلفة من سبعة آلاف رجل ، معظمهم من البربر ، بقيادة طارق بن زياد ، مولى موسى بن نصير وأحد رجاله العسكريين المقدّمين ، وكان عتيقاً * بربرياً . ووُفّقت أولى مفارز هذه القوة إلى احتلال [ما عُرِف منذ

* العتيق : العبد الذي أعتقه سيده .

ذلك الحين] باسم جبل طارق . وبفضل أمداد بربرية إضافية استطاع طارق ان يلتقي ويهزم الملك لذريق في معركة دارت رحاها عند مصبّ نهر الارباط غيرَ بعيد عن رأس « طرف الغار » . ولاذ لذريق بالفرار ، وانقطعت أخباره بعد ذلك .

وهكذا أمسى في ميسور طارق ان يزحف ، من غير ان تعترضه مقاومةٌ ما ، إلى طُلَيْطُلَة وان يستهلّ فَتْح البلاد على نحو خاطف . والواقع ان الحسد ما لبث ان داخَلَ نَفْسَ موسى بن نُصَير بعد أن رأى إلى الانتصارات التي حققها قائده والتي لم يُسْبَقْ إلى مثلها قط ، فجاز المضيقَ إلى اسبانية على رأس جيش ، لكي يضمن لنفسه نصيبه الحقّ من المجد . ولدى التقاء الرئيس والمرؤوس عام ٧١٣ في طليطلة، العاصمة القوطية السابقة ، عمد موسى إلى تعنيف طارق تعنيفاً علنياً ، من غير أن يدرك انه سوف يلقى بعدُ في دمشق عقوبة قاسية وإذلالا مخزياً بتهمة تمرّد مماثلة .

* * *

وبعد ذلك راحت القوات العربية تواصل فَتْح اسبانية من غير ان تَلْقى مقاومةً جدية إلا في مناسبات متفرقة . وسرعان ما انهارت هذه المقاومة نفسها . لقد استسلمت مدنٌ كثيرة حالما تَلَقّت وعداً بأن تعامَل في تسامح ، ورحّب اليهود — الذين اضطُهِدوا أقسَى الاضطهاد في ظل القوط — بالفاتحين المسلمين واعتبروهم مخلّصين . ووُضعت المدن المفتوحة ، قُرطبة ومَلَقة وغرناطة واشبيلية وطليطلة ، تحت ادارة السكان اليهود . لقد مُنِحت حريةً دينيةً كاملةً ، ولم يُطْلَبْ اليها إلاّ دفعُ جزية على الرؤوس *per capita* مقدارها دينارٌ ذهبيّ واحد . ولم يتبنَّ النصارى ، بادئ الأمر ، العاداتِ العربية ، بل احتفظوا بلغتهم الرومانية وتمتعوا باستقلال كامل يتجلى في احتفاظهم بكنائسهم الخاصة ، وقوانينهم الخاصة ، ودُوْر قضائهم الخاصة ، وقضاتهم

واساقفتهم وكونتاتهم (نبلائهم) المخصوصين [٥٢] . وكرة أخرى أظهر المسلمون تسامحهم نحو « أهل الكتاب » .

وهكذا حُقّق فتح اسبانية أو الأندلس ، وهو اسم مشتق من الفندال Vandals ، في فترة قصيرة نسبياً لا تزيد على سبعة أعوام . وبعد ذلك لم يبقَ من المقاومة النصرانية للاسلام غيرُ جانبٍ هزيل ضئيل الخطر ، في الزاوية الشمالية من البلاد . ولم يتمّ اجتياز جبال البرانس (البيرينيه) إلا عام ٧١٨ ، بقيادة ثالث خلفاء موسى ، الحُرّ بن عبد الرحمن الثّقفيّ . وكان السبب المباشر هو الطمع في الغنيمة . ولم يطلّ عام ٧٢٥ حتى كانت الغزوات قد بلغت بورغاندية ، ولكن المسلمين رُدّوا على أعقابهم عام ٧٣٢ في معركة دارت في « تور » و « بواتييه » بينهم وبين قوات القائد الفرنجي شارل مارتل ؛ وهي معركة كثيراً ما بولغ في تقدير آثارها . والواقع أن التوسع العربي كان قد بلغ ، قبيل ذلك ، أقصى امتداده الطبيعي — آلاف الأميال بعيداً عن مركز الامبراطورية العربية . ولقد كان العرب هم أنفسهم فئة قليلةً ، وكان عليهم أن يعتمدوا على مساعدة البربر تأتيهم من شمالي افريقية .

وفي عام ٧٤١ أخمد جيشٌ ضخم مؤلف في المقام الأول من عرب سوريين ثورةً بربرية في اسبانية . وكان هذا العنصر السوري هو الذي جعل الاحوال مواتيةً لظهور أمير أمويّ قُدّر له أن يخضع اسبانية لسلطان اسرة حاكمة منفصلة . وفي عام ٧٥٠ أُديل للعباسيين من الأمويين في الشرق الأدنى . وكان العباسيون قد عقدوا العزم على القضاء على افراد البيت الاموي الباقين على قيد الحياة عن بكرة أبيهم ،

---

٥٢ راجع توماس ايرفنغ :
Thomas Irving : *Falcon of Spain* , **p. 16 . Lahore : Orientalia , 1954 .**

ولكن واحداً منهم هو الفتى عبد الرحمن بن معاوية ، حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق ، وُفّق إلى النجاة بنفسه . وفرار عبد الرحمن هذا قصة دراماتيكية تبدو ، في الحقّ ، أغرب من الخيال . فما إن أطبق العباسيون على معسكر الفتى الوسيم الرشيق حتى لاذ بالفرار إلى النهر مع أخيه . وسبحا معاً ملتمسَيْن النجاة عند الضفة المقابلة ، ولكنّ أخاه خُدِع بما بُذِل له من وعود بالعفو ، فانقلب راجعاً ، فصرعه العباسيون في الحال .

وطوال السنوات الخمس التي تلت ، طوّف عبد الرحمن ،متنكراً ، في سورية ، وفلسطين ، ومصر ، يطارده الجواسيس والعيون على نحو موصول . ولقد وفق إلى النجاة من الموت ، كرة أخرى ، على يدَيْ عامل افريقية الشمالية ، حيث التمس لنفسه مَفْزعاً . وأخيراً استقبله ، لدن وصوله إلى مراكش ، أخوالُهُ الذين كانوا من البربر . وإذ كان على مثل هذه المقربة الدانية من اسبانية ، فقد نازعته نفسه إلى الاستيلاء على زمام الحكم فيها . وكان الظرف مواتياً ، ذلك بأن السوريين الدمشقيين ، الذين سبق للدولة ان وجّهتهم لأخماد الثورة البربرية ، كانوا ناقمين تعصف بهم موجة من استياء . وعرض عبد الرحمن ، حفيد معاوية الخليفة الاموي الكبير ، خدماته عليهم ، وكان يتمتع بمؤهلات الزعامة القوية كلها . وسرعان ما أتيحت له فرصةٌ لأثبات كفاءته .

وفي عام ٧٥٥ جاز المضيقَ إلى ما قدِّر له ان يصبح بعدُ وطنه الجديد ، وتساقطت مدن الجنوب في يديه واحدةً بعد أخرى . وما انقضت على سقوط قرطبة سنةَ ٧٥٦ غير أعوام معدودات حتى أمسى سيداً على الجزء الأعظم من اسبانية الاسلامية ، وحتى أمسى قادراً على الشروع في إنشاء الدولة الاموية في الغرب ، هذه الدولة التي قدّر لها أن تعمّر ثلاثة قرون ، تقريباً .

وعبّر الخليفة العباسي في بغداد عن تحدّيه لسلطان عبد الرحمن ، بأن عيّن عاملاً ينازعه الحكم . فكان جواب عبد الرحمن ، الوحيد ، أنه أعاد إلى الخليفة رأس عامله مضمخاً بالكافور والملح ، ملفوفاً براية عباسية سوداء من رايات القتال .

وكانت البلاد قد عرفت قبله ثلاثة وعشرين عاملاً عربياً تعاقبوا على الحكم تعاقباً سريعاً ، ولكنه عمد الآن إلى توطيد دعائم سلطته بأن قطع الخطبة للخليفة العباسي ، على الرغم من أنه لم يتخذ هو نفسُهُ هذا اللقب . ولقد انشأ أيضاً ، بوصفه أميراً ، جيشاً يزيد عدد رجاله على اربعين الفاً من البربر المرتزقة . وعندما تقدّم شارلمان ، عام ٧٧٨ ، حتى سَرَقُسْطة ، اضطُرت قواته الفرنجية إلى الفرار من وجه جيش عبدالرحمن القوي المتماسك . والحق أن عبد الرحمن أثبت أنه كفوءٌ لمناجزة أعظم ملوك الغرب قاطبة .

ومع إنشاء حكومة مستقرة أجيز للنصارى واليهود معاً أن يشاركوا فيها أقبل الازدهار واقبلت المنافع المادية . وأمست قرطبة عاصمة البلاد ، وانشأ عبد الرحمن جسراً عَبْرَ نهر الوادي الكبير **Guadalquivir** ، وقناة تمدّ البلد بالمياه الجارية ، وقصراً ذا جنائن زيّن جيدها بكثير من النباتات الدخيلة المجلوبة مما وراء البحر . لقد أنفق مقداراً كبيراً من ماله الخاص على تجميل المدينة ، ولكن أعظم منجزاته هو بناؤه الجامعَ الكبير .

وخلَفه في الحكم ابن له تغلب عليه أخلاق العلماء هو هشام الأول (٧٨٨ — ٧٩٦) ، وخلَفَ هشاماً الحَكَمُ الأول (٧٩٦ — ٨٢٢) فكان أقلّ اتصافاً بالفضيلة من هشام التقيّ . ولم يحرز أيّ من هذين شهرةَ عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ — ٨٥٢) الذي سار سيرةَ سَميّه بتحويل اسبانية إلى واحد من أكثر بلدان العالم تقدميّةً وحضارة . وشرعت قرطبة تنافس دمشق في الجمال ، وبغداد في الثروة ، ولا

حاجة إلى النصّ على أنها فاقت مدن اوروبة كلها في ذلك . وأمسى البلاط مركزاً يلتقي فيه العلماء والفنانون الوافدون من الشرق . واكتسب زِرْياب ، وهو موسيقي فارسي ، كان عاليّ الكعب في العلم والفنون في آن معاً ، شهرةً عالمية بوصفه حَكَماً في كل ما يتصل بالذوق السليم والأزياء . لقد ادخل إلى البلاد نباتات جديدة وضروباً من الاطعمة جديدة ، كما أحدث ازياء مختلفة لم تكن من قبل ، لعظيم اقتناعه بأنه لا بدّ ، في كل وجود حضاري حقّ ، من توازن صحيح بين النشاط الفكري وإشباع حواسّ الجسد . إن علينا أن نعترف ، حامدينّ ، بكلّ من الروح والمادة .

والواقع ان المستوى الرفيع الذي أحرزته الاغراض الثقافية المتشعبة في اسبانية الاسلامية راقت للنصارى إلى حد جعل كثيراً منهم يستعربون وإن لم يدخلوا فعلياً في الاسلام . وبتبنّيهم طرائقّ العرب الاكثر تَمَدْيناً من طرائقهم خلقوا طبقة اجتماعية كاملة عُرِفت بـ « النصارى المستعربة » **Mozarabs** ، أي النصارى الذين تَبَنَّوا اللغة العربية والعادات العربية .

ودُعي الذين اعتنقوا الاسلام فعلاً « المولّدين » ، ولكنهم عُرفوا في التاريخ الاسباني بالمرتدّين . وقد أفضى الاتجاه الطاغي نحو التعرّب إلى انفجار حركات استشهاد طَوْعي أبطالها نصارى متعصبون .

* * *

وكان أول من اتخذ لقب « الخليفة » من أمراء البيت الأموي في اسبانية هو عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١) . وبأعلانه نفسَهُ رئيساً دينياً أعلى للمسلمين في اسبانية لم يُبْقِ مجالاً لأيما شكّ في قوة هذه الخلافة المستقلة عن الشرق وفي رفعتها وعظيم شأنها . وفي ظلّه سَعِدَتْ اسبانية الاسلامية وازدهرت كما لم تسْعَدْ وتزدهِرْ في أيما عهد مضى .

لقد حُوّلت الأندلس في الواقع إلى حديقة غناء ، ذلك بأن العرب ادخلوا إلى البلاد طرائق في الريّ والزراعة مستوردةً من آسية الغربية . وعلى نقيض اسبانية الحاليّة ، التي تكثر فيها الاراضي المهملة القاحلة ، لم يكن ثمة في اسبانية اكرٌ واحد ، تقريباً ، من غير ما حراثة ، باستثناء الغابات . وكان البرتقال ، والليمون ، والرمان ، والهليون ، والقطن ، والأرزّ ، وقصب السكّر بعضَ الاثمار والنباتات التي عُني المسلمون بزراعتها .

وبينما كانت سائر بلدان اوروبة تتمرغ في القذر والحِطّة نعِمَت اسبانية بمدنٍ نظيفة منظمة ذات شوارع معبّدة ومضاءة . وكان في ميسور قرطبةً وحدها أن تعتزّ بنصف مليون من السكان ، وسبعمئة مسجد ، وثلاثمئة حمام عمومي ، وسبعين مكتبة عامة ، وعدد كبير من دكاكين الورّاقين (المكتبات التجارية) [٥٣] .

وجنباً إلى جنب مع التطور الصناعي العظيم عرفت البلاد توسعاً زراعياً . وعزّز آلافٌ من الحائكين والدابغين صناعاتِ قطنٍ وصوف وحرير وجلد مزدهرة . واكتسب السجاد والبُسُط شهرةً دولية، وكذلك اكتسبت سيوف طليطلة ودروعها وطُرَفها الفولاذية الدقيقة المطعّمة بالذهب والفضة مثل هذه الشهرة . ولقد ضاهت صناعة الخزف والزجاج في بَلَنْسِية أروعَ منتجات فارس وسورية في هذا الميدان .

وبعد عهد الخليفة عبد الرحمن ، وكان عهداً طويلاً مثيراً دام خمسين عاماً ، جاء عهدُ ابنه الحَكَم الثاني (٩٦١ – ٩٧٦) . وكان الحَكَم عالماً كبيراً وراعياً للمعرفة ، وكان محباً للكتب لا يضارَع ، ذلك بأنه وجّه رجاله إلى كل مكان بحثاً عن المخطوطات . ولقد اشتملت

---

٥٣ راجع ستانلي لين بول :

Stanley Lane — Poole : ***The Moors in Spain*** **, p. 135 . London : T. Fisher Unwin , 1886 .**

مكتبته على اربعمئة ألف مجلد ونيّف ، قرأ هو بنفسه عدداً كبيراً منها وعلّق عليها . وبالاضافة إلى توجيه البعثات المكلّفة القيامَ ببعض الأعمال الأدبية وإلى وَقْف الاموال لتنفق على العلماء أنشأ الحَكَم عدداً كبيراً من المكتبات العامة والمدارس المجانية . وفي عهده أمست جامعة قرطبة، التي أنشأها أبوه في زمن سابقٍ على انشاء كلٍّ من الجامع الازهر والمدرسة النظامية ، مركزاً للمعرفة بالنسبة إلى المسلمين والنصارى الوافدين من سائر أجزاء أوروبة ومن الشرق . وبينا لم يكن في اوروبة خلال ذلك العهد غير قلة قليلة ممن يعرفون القراءة والكتابة ، معظمهم من رجال الدين ، كان كل امرئ في اسبانية الاسلامية تقريباً قادراً على القراءة والكتابة متمتعاً بامتيازات الثقافة .

واحتفظت اسبانية بمستوى حضارتها الباهرة الرفيع في ظلّ محمد ابن ابي عامر المنصور ، الوزير الذي حكم البلاد من عام ٩٧٦ إلى عام ١٠٠٢ باسم هشام الثاني المستضعَف . ولكن فقدان السيطرة المركزية القوية ونشوب الحرب الاهلية أدّيا آخر الامر إلى تفسّخ الدولة الأموية عام ١٠٣١ . وكانت قوة البلاد العسكرية مستمدة من عناصر أجنبية — بربرٍ من شمالي افريقية ، وسلاف **Slavs** كانوا في بادئ الامر عبيداً ارقاء من أصل أوروبي شرقيّ ثم عبيداً ارقاء من أيّ جزء من أجزاء اوروبة في ما بعد . وطوال الخمسين السنة التالية نشأت دويلات عديدة أسسها ملوك وامراء كانوا إما من أصل بربري ، أو أصل سلافي ، أو أصل اندلسي . وعلى الرغم من أن عهد « ملوك الطوائف » هذا كان عهداً مطبوعاً بعدم الاستقرار السياسي فقد وُفّقت بلاطاتهم المختلفة إلى الاحتفاظ بالازدهار المادي وبمستوى رفيع من النشاط الثقافي . بيد أن البلاد كانت قد تردّت في مهاوي الضعف إلى حدّ أغرى النصارى بغزوها من الشمال ، ليوفّقوا عام ١٠٨٥ ، يساعدهم الفرنجة ، إلى استرداد مدينة طليطلة الهامة .

ومن الجنوب أقبلت قوىً أشد بأساً ، ولكن هذه كانت قوىً بربرية وفدت استجابةً لدعوة الاندلسيين أنفسهم لدفع الخطر المتهدّد من ناحية الشمال . وفي ظل دولة المرابطين (١٠٩٠ – ١١٤٧) ضُمّتْ اسبانية الاسلامية كلها ، ما خلا طُلَيْطلة وسَرَقُسْطة ، إلى مراكش . وفي عام ١١٥٠ حلت دولة بربرية شمالأفريقية أخرى ، هي دولة الموحدين ، محل دولة المرابطين ، وأمست اسبانيةُ تُحكم ، كرةً ثانية ، من شمالي افريقية .

وبلغت الدراسات الفلسفية أوج ازدهارها في القرن الثاني عشر بظهور وجوه لامعة من مِثْلِ ابن باجة ، وابن طُفَيْل ، وابن رُشد ، وابن ميمون ، وابن عربي . وفي عام ١١٧٠ نُقِلت عاصمة الموحدين من مدينة مراكش إلى اشبيلية ، وفي عهد ابي يوسف يعقوب المنصور (١١٨٤ – ١١٩٩) بُني برج جيرالدا العظيم .

وبانحلال دولة الموحدين عاد الحكم المسيحي إلى توطيد دعائمه في اسبانية ، وفي أواسط القرن الثالث عشر كان استرداد النصارى الديارَ الاسبانيةَ على وشك أن يتمّ . وفي عام ١٢١٢ مُني المسلمون في عهد الخليفة محمد الناصر (١١٩٩ – ١٢١٤) بهزيمة قاسية في معركة حِصْن العُقاب . وسقطت قرطبة نفسُها عام ١٢٣٦ واشبيلية عام ١٢٤٨ .

أما غرناطة فقد عُمِرت ، في ظل الدولة النَصْرية ، من عام ١٢٣٢ إلى عام ١٤٩٢ ، وكانت أشبه بجزيرة خاضعة لسلطان العرب . وطوال قرنين ونصف واصلت حمل مشعل التقليد الاسلامي العظيم في العلم والفن . وأبرز آثارها الضخمة هي الحمراء ، أحد كنوز العالم المعمارية الاكثر روعة وحسناً . ولعلّ اسمها مشتق من الحجر الملوّن الذي شُيِّدت به . والواقع أن غرناطة هي وريثة قرطبة ، من الناحيتين الثقافية والروحية ، ولكنها هي الاخرى كان مقدّراً عليها أن تهلك ، عام ١٤٩٢ ، بتوحيد اسبانية في ظل صاحبَيْ الجلالة الكاثوليكيين :

فرديناند وايزابيلا .

وكان الاسبان قد نعموا ، في ظل الحكم الاسلامي ، بمعاملة متسامحة تحررية ، ولكنهم لم يكونوا الآن في وَضْع نفسيّ يساعدهم على تبنّي السياسة المتَمَدينة نفسها . فراحوا يحنثون ، في حرارة دينية متعصّبة ، بالعهود الغليظة التي أخذوا على أنفسهم باحترام الدين الاسلامي والممتلكات الاسلامية ، فاذا بهم يحرقون الكتب العربية ويتلفون معظم الآثار التي كانت عنوان تفوّق الثقافة الاسلامية . وفي عام ١٤٩٩ دشّن معرِّف الملكة ، الكاردينال كزمينيز دو سيسنيروس ، برنامجاً للتنصير الاجباري شعاره : إما المعمودية وإما الاخراج من البلاد . ونشطت محاكم التفتيش نشاطاً رهيباً ، وأكرِهَ كثيرٌ من المسلمين واليهود على مغادرة اسبانية . وعام ١٥٥٦ أجبر الملك فيليب الثاني مَنْ بقي من المسلمين في البلاد على التخلّي عن لغتهم ودينهم ومؤسساتهم . حتى إذا كانت سنة ١٦٠٩ أفضى مرسوم ملكيّ نهائي إلى ترحيلهم ترحيلاً كاملاً . ويقدّر المؤرخون عدد المسلمين الذين أُبعِدوا أو قُتِلوا ، ما بين سقوط غرناطة ومطلع القرن السابع عشر ، بثلاثة ملايين ونيفٍ . [٥٤]

* * *

لقد كانت اسبانية الاسلامية ، في اوج مجدها ، مَجلىً رائعاً للأبداع الثقافي والمادي . ذلك بأن أرض اسبانية ، وقد غذّتها وتعهّدتها العناية الاسلامية ، ما لبثت أن أزهرت وأمست مثمرة . وطبَعَ فنّ المسلمين المعماري الديارَ الاسبانية بطابعٍ لا يُمْحَى ، من طريق جامع قرطبة ، وبرج جيرالدا و « القصر » في اشبيلية ، والحمراء في غرناطة . ولقد تجلّى هذا النفوذ حتى في البناء العادي ، وامتدّ — في عهودٍ أكثر

---

٥٤ راجع حتّي ، فيليب :

Hitti , Philip K. : *History of the Arabs* **, p. 556. London Macmillan , 6 th. ed. , 1956 .**

حداثةً – إلى كاليفورنيا وجنوبي غربي الولايات المتحدة الأميركية. وفي تذكُّر مُوْجِع لحقبةٍ مفعمة بالمجد، لا يزال أبناء كثير من الأسر الاسلامية المُبْعَدَة إلى مراكش يحتفظون إلى اليوم بمفاتيح بيوتهم في قرطبة أو اشبيلية.

وفي فنون وصناعات الخزف والفولاذ والجلد من العسير على المرء أن يقرر، حتى يومنا هذا، أيّ الآثار اسبانيّ خالص وأيها مراكشي خالص. ومع ان أساس اللغة الاسبانية العصرية لاتينيّ فقد أضاف الاحتلال الاسلامي اليها عدداً ضخماً من الكلمات ذات الأصل العربي. وفي امكاننا ان نتبيّن كثيراً من هذه الكلمات بواسطة السابقة * *(al)*، مثل *alcoba* (القبّة)، و *alcalde* (القاضي)، و *alacena* وإذا كانت لغات الغَرْب تحفـل بهـذا القـدر كله مـن الكلمات العربية الأصل فأنما تمّ ذلك عن طريق اسبانية. وهكذا نجد أن اسبانية وأوروبة برمّتها أيضاً مدينتان أعظم الدَّيْن لعبقرية المسلمين، سواء في اللغة والادب، أو الفن والعمارة، أو الحرف والصناعة، أو العلم والفلسفة.

ومن أسف ان هذا الاحتلال الذي استمر أكثر من خمسمئة عام كان له، إلى جانب اثره الايجـابي، أثر سلبيّ. فقد نشأ عن ذلك ارتكاس **reaction** كادَ ان يكون تدميرياً بالكلية. ذلك بـأن المسلم اعتُبِر أجنبياً ومُعْتدياً، فأذا باسبانية تصبح بلداً من أكثر بلدان اوروبة تعصباً وعدمَ تسامح. ولقد عِيْقَ التطور الاسباني الأهلي الخالص قروناً عديدة كان الاسبان خلالها إما مستمتعين بالمنجـزات الاسلامية وإما منهمكين في مقاومتها على نحو عقيم. وإلى جانب قوة الجيش نشأت كنيسةٌ مقاتِلة واستبدادية اعتمدت، أكثر ممـا ينبغي

---

* **prefix**

بكثير ، على السيف واللاتسامح . إن كثيراً مما هو نافعٌ ومفيد في الحضارة الاسلامية قد أبعِد عن اسبانية مع المسلمين أنفسهم .

قِراءاتٌ مُختَارة

١ – دوزي ، ر . : « الاسلام في الاندلس » **Dozy, R.** *Spanish Islam* (لندن ، ١٩١٣) .

٢ – لين بول ، ستانلي : « المسلمون في اسبانية » **Lane - Poole** *The Moors in Spain* (لندن ، ١٨٨٦) .

جَدْوَل كْرُونُولوجي

اسبـــانية الاسلامية

تواريخ	دول وزعماء	الأحداث الهامة: في العالم الاسلامي	الأحداث الهامة: في اوروبة والغرب
٧١٠ ب. م.	موسى بن نصير	حاكم شمالي افريقية الاموي ، الذي وجه قوة استكشافية إلى اسبانية .	اوروبة تغرق في ديجور العصور المظلمة من القرن السابع إلى القرن التاسع .
٧١١	طارق بن زياد	عتيق بربري ، وقائد من قواد موسى العسكريين هزم لذريق ، آخر ملوك القوط ، في المعركة التي دارت رحاها على نهر البرباط (غواداليت) .	—
٧١٨	الحر بن عبد الرحمن الثقفي	المسلمون ، بقيادة الحر ، يبلغون البرانس؛ اخضاع الجزء الأعظم من اسبانية .	اخفاق الحصار الكبير الثاني الذي ضربه العرب على القسطنطينية .
٧٣٢	شارل مارتل	قائد الفرنجة الذي رد المسلمين على أعقابهم في موقعة جرت بين « تور » و « بواتييه » .	

أحداث الهامة

تواريخ	دول وزعماء	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
٧٥٦	عبد الرحمن الأول	سليل الخليفة الأموي ، معاوية ، الذي استولى على قرطبة وأسس الدولة الاموية في اسبانية .	غزو شارلمان لاسبانية يصد عند سرقسطة (٧٧٨) . القضاء على مؤخرة قواته عند « باب الشزري » – انشودة رولان .
٧٨٨ – ٧٩٦	هشام الأول	ابن عبد الرحمن الاول وخليفته ؛ إدخال المذهب المالكي إلى اسبانية .	شارلمان (٧٧١ – ٨١٤) .
٧٩٦ – ٨٢٢	الحكم	يخلف هشاماً الأول .	المسلمون يفتحون صقلية (٨٢٧ – ١٠٩١) .
٨٢٢ – ٨٥٢	عبد الرحمن الثاني	قرطبة تأخذ في منافسة دمشق في الجمال و بغداد في الثروة .	
٩١٢ – ٩٦١	عبد الرحمن الثالث	يتخذ لقب « خليفة » ؛ الثقافة الاسلامية تبلغ أوجها .	بدء عهد الدولة السكسونية في المانية (٩١٩ – ١٠٢٤) .
٩٦١ – ٩٧٦	الحكم الثاني	كان عالماً كبيراً ، ومولعاً باقتناء الكتب ، ونصيراً للعلم .	اوتو الكبير يبعث امبراطورية الغرب الرومانية (٩٦٢) .
٩٧٦ – ١٠٠٢	محمد بن ابي عامر المنصور	الوزير الذي حكم باسم هشام الثاني الخليفة المستضعف ؛ انحلال الدولة الاموية في اسبانية .	انتخاب هيوغ كابيه (ملكاً على فرنسة) (٩٨٧) .
١٠٨٥		سقوط طليطلة يؤذن بشروع النصارى في فتح اسبانية من جديد .	ادورد المعرف (١٠٤٢ – ١٠٦٦) .

١٠٩٠ – ١١٤٧	دولة المرابطين	ضم الجزء الأعظم من اسبانية الاسلامية إلى مراكش .	بدء الحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٦ .
١١٥٠	دولة الموحدين	الموحدون يحلون في اسبانية محل المرابطين .	هنري الثاني (١١٥٤ – ١١٨٩) .
١١٨٤ – ١١٩٩	يعقوب المنصور	بناء برج جيرالدا ؛ معركة الأرك (١١٩٦) .	
١٢١٢		معركة حصن العقاب .	
١٢١٢		السلطان الاسلامي في اسبانية يذبل ويذوي .	« البراءة العظمى » (١٢١٥) .
١٢٣٢ – ١٤٩٢	الدولة النصرية	غرناطة تظل خاضعة لسلطان العرب فكأنها في قلب اسبانية أشبه بجزيرة في خضم نصراني ؛ بناء الحمراء .	مولد عصر النهضة (الرونيسانس) .
١٤٩٢	فرديناند وايزابيلا	المسلمون يبعدون عن الأندلس ؛ توحيد اسبانية من جديد .	كولومبوس يكتشف اميركة .
١٦٠٩	فيليب الثالث	ترحيل المسلمين نهائياً وكلياً من اسبانية .	جايمس الاول (١٦٠٣ – ١٦٢٥) .

الفَصْلُ الثَامِنُ

الشَريعَة

●

قد يكون من الخير ، قبل البحث في تطور الشرع الاسلامي منذ عهد الرسول إلى التعديلات الحديثة ، ان نلقي من جديد نظرةً على الاحوال الاجتماعية في شبه جزيرة العرب قبل انبلاج الاسلام . والواقع أنه لم يكن في البِنْية القَبَلية لشبه الجزيرة العربية ما يقابل القانون كما نفهمه اليوم من وجهة النظر الدنيوية الخالصة أو القانون الذي هو فريضة دينية كما هي الحال في الاسلام . فقد كان شعب المنطقة المترحِّل منقسماً على نحو منظّم إلى جماعات أُسَرِية أو سلالية تدين بولاء غير مُلزِم لرئيس يُنْتخب من بين أفرادها . ولم تكن القوانين، إذا جاز لنا ان نطلق عليها هذا الاسم ، إلا مجرد عادات انبثقت من خلال الممارسة والرضا العام ، أو أكثر من ذلك قليلاً ، عادات يضعها موضع التنفيذ إما ضغطٌ عام أو نفوذ زعيم من الزعماء . إننا سوف نشير إلى ما يدين به الشرع الاسلامي للبُنى **structures** الجاهلية ، قبل

الاسلامية ، في مواطن تالية من هذا الفصل . فبِحَسْبنا هنا أن نقول ان القانون الوثني كان يتألف من قواعد تنظم العلاقات ما بين قبيلة وأخرى ، **inter - tribal** وقواعد تنظم العلاقات ما بين أفراد القبيلة الواحدة [55] **intra - tribal** . وإذ كان الضرب الأول قد أمسى غير ذي موضوع بعد ان أظلّ الاسلام جميع المسلمين براية الاخاء ، فلم يُحْتَفَظْ بغير تلك العادات التي نظمت حياة الفرد في المجتمع .

والواقع أن مجموعة الشرائع التي نشأت من طريق النظام والتنظيم اللذين أحدثهما الاسلام ليس لها ما يقابلها في القوانين الغربية التي انبثقت عن أنماط من السلوك متعارَف عليها . ذلك بأن القانون في الاسلام أُسِّس ، منذ البدء ، تأسيساً مباشراً على الوحي الالهي الذي تلقّاه محمد ، ومن هنا لم يكن في حاجة إلى الاقتران بموافقة الجماعة . وبسبب من طبيعته الالهية ، وبالتالي المعصومة عن الخطأ ، سنّ القرآن شرائع منزّهة عن الضلال مفروضاً في المؤمنين ان يعملوا بموجبها ، لا كواجب اجتماعي ، كما هي الحال في الغرب ، ولكنْ كجزء من الايمان بالله .

إن المصطلَح ، « الشريعة » ، يشمل جُمّاع القوانين الاسلامية كما نشأت وتطورت منذ عهد الرسول . ونحن إنما نصطنعها في هذا الفصل بهذا المعنى بالذات ، على الرغم من ان بعض الجماعات تؤثر أن تَقْصُرَ المصطلَح على خمسمئة أو ستمئة اشارة شرعية في القرآن أو في الحديث . و « الشريعة » تعني ، حرفياً ، « السبيل إلى معَين الماء » — الطريق اللاحبة التي رسمها الله للمؤمنين لكي يسلكوها . وإذ كانت الشريعة مستمدة في الأصل من القرآن مباشرة فأنها ليست مجرد مجموعة من

---

٥٥ راجع آصف أ. أ. فيضي :

Asaf A. A. Fyzee : *Outlines of Muhammadan Law* **, p. 6. London : Oxford University Press , 1955 .**

القوانين التي تترك اثرها في حياة المسلم في مناسبات بعيّنها ، ولكنها المبدأ الاساسي الذي يقوم عليه وجوده كله ؛ إن أحكام الشريعة لتنظّم حياته الدينية والسياسية والاجتماعية والبيتية والخاصة ، وإن هذه الحيوات لمرتبطة أكملَ ارتباطٍ بتلك الأحكام . والواقع انه ليس ثمة اىما حاجة إلى التوكيد على الأهميّة البالغة التي تلعبها الشريعة في حياة المسلم ، لأنها نطبع الفكر الاسلامي بطابعها وتميّزه تمييزاً كاملاً — لقد دُعِيَتْ في الواقع نواةَ الاسلام . [٥٦]

كانت مهمة القانون الرئيسية ان يساعد الجنس البشري على الافادة ، على أكمل وجه مستطاع ، من الحرية التي هي هِبة من هبات الله . ولكن الناس أساءوا فهم هذه المهمة ، وحرّفوها إلى شيء جامد خانق . والواقع ان القاعدة الاساسية التي تقوم عليها الشريعة الاسلامية هي الحرية ، وقد نصّ الرسول على هدفها بقوله : « يسّروا ولا تعسّروا ، ولا يكلف الله نَفْساً إلا وسعها . » [٥٧] بيد أن الحرية إذا ما تُرِكت من غير قيد يقيّدها تُمْسي ضرباً من خلْع العذار ، ويتردّى المجتمع في الفوضى بأبشع أشكالها . إن « الحدّ » الذي وضعه الله للحرية الفردية ليؤلفُ « حُكم » القانون الرسمي الذي يشكّل ، متجسّداً في « الشريعة » المخطّط المفصّل لحياة المسلم . ومن المهم ان نشير هنا إلى ان الشريعة ، برغم هيمنتها الكاملة على الجماعة الاسلامية ، لا تُلزِم غير المسلمين ،

---

٥٦ راجع « جب » و « كرايمرز » :

H. A. R. Gibb and J. H. Kramers , editors : *Shorter Encyclopaedia of Islam* **, p 525 . Leiden : E. J. Brill , 1953 .**

٥٧ راجع سير توماس آرنولد وألفرد غيوم :

Sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume : *The Legacy of Islam* **, p. 289 . London : Oxford University Press , 1952 .**

بصرف النظر عن مكان إقامتهم ، إلا إلى مدى محدود جداً . ليس هذا فحسب ، بل إن المسلم المقيم في بلد لا تطبَّق فيه أحكام الشريعة تطبيقاً شاملاً أو شبه شامل ، لا يطالَبُ بأكثر من التزام جانبٍ بعينِه من جوانب الشريعة ليس غير . وهكذا نرى ان الشريعة لا تدّعي لنفسها نطاقاً عالمياً ، وأنها – على العكس – محدودةٌ بالمكان والدين . [58]

ولما كان القانون قد وُضِع لإتمام حرية الانسان وضمانها فلا معدى له عن التصدّي لمسؤولية الفرد تجاه المجتمع ضمن الجماعة الاسلامية – أو ما يُعرف بـ « دار الاسلام » . إن حماية المجتمع لتتمتّع بأهمية بالغة ، وهو مفهوم يَنْبع ، جزئياً ، من حرص بلاد العرب في عهد وثنيّتها على سلامة القبيلة ووحدتها . والحقّ ان اهتمام الاسلام الرئيسي لينصبّ على المجتمع أكثر من انصبابه على الفرد . ومن أجل ذلك تُعْنَى الشريعة ، على الجملة ، بالمظهر الاجتماعي من القانون ، وليس فيها غير النزر القليل مما يمكن أن يُدْعى حقوق الانسان . وبينا يستطيع الفرد المتوحّد العائش في مَعْزِل عن الناس أن يتحرر في يُسْر من القيود التي يفرضها القانون ، نجد أن المجتمعات لا تستطيع بحال من الاحوال ان تستغني عن القانون ، فهو يتمتع فيها بأهمية حيوية ، بل بأهمية عُلْيا . ولما كانت عنايةُ المسيحيةِ الرئيسيةُ منصبّة على الفرد لا على المجتمع كان « الخلاص » الفردي هو غايتها المطلقة ، وكان ذلك الخلاص أعظم شأناً وخطراً ، في نظرها ، من الخضوع للقانون . وليس كذلك الحالُ في الاسلام .

وكان الخليفة هو حافظَ القانون وراعيه . وكانت مهمة الخلافة ، ابتداءً بالخليفة الأول ، ابي بكر ، إنفاذَ القوانين وتطبيقها ، لا وَضْعَ التشريع . وما لبثت القاب من مثل « ظل الله على الارض » الذي أُطْلِق على أحد الخلفاء الفاطميين أن عمّ استعمالها في الاسلام ، ولعل

[58] راجع « جب » و « كرايمرز » : المصدر السابق .

ذلك يفسّر الفكرة الخاطلة التي انتشرت عند الغربيين والتي تقول بأن مركز الخليفة يقابل مركز البابا في المسيحية . والواقع ان جميع النظم المثالية تُشوّه بالممارسة البشرية و تحرّف ، وليست الخلافة بشاذة عن القاعدة . والقرآن ينصّ في وضوح بالغ على انه لو كان في الكون إلهـان اثنان اذن لفَسَدَ الكون وعمّته الفوضى ، فيلزَمُ عن هذا أن وجود ممثّلَيْن اثنين لله ، في الارض ، لا يقلّ عن ذلك إفساداً . بيد أننا نجد ، في الواقع ، أن ثلاثة خلفاء حاولوا ، في مناسبة واحدة على الأقل ، أن يمثّلوا الله على الأرض . ولقد اغتصب بعض الخلفاء مهامّ وضع القوانين ، فجعلوا من أنفسهم حكاماً بأمرهم يستبدّون بأمر الجماعة .

وكانت خطبة الجمعة هي الواجب الديني الوحيد ، بالمعنى الغَرْبي ، الذي أدّاه الخليفة . ومع ذلك فجميع واجباته كانت ، في نظر العقل المسلم ، دينيةّ ، لأن الفَصْل بين الديني والدنيوي لا وجود له . إن بعض مهامّ الخليفة لتمثّلُ وحدة الهدف هذه : صيانة الدين في صفائه الأصلي ؛ التثبّت من خضوع الناس للقانون ومن تنفيذ العقوبات الناشئة عن التمرد عليه ؛ الدفاع عن تخوم البلاد ؛ إقامة صلاة الجمعة ؛ وعلى العموم التمكين لمجتمع تستطيع فيه الجماعةُ الاسلامية أن تؤدي واجباتها الدينية . وهكذا فأن مهمة الخليفة هي تمكين المجتمع من تحقيق ذاتِهِ روحياً ، من طريق نشاطاته اليومية .

* * *

كان أول عامل أثر في نشأة الشرع الاسلامي ذلك التبنّي الطبيعي للعادات الوثنية التي كانت سائدة بين بدو الجزيرة العربية وقروييها . كانت المتعة ، أو الزواج المؤقت ، معروفة عند هؤلاء القوم ، فتسامح بها النبيّ ؛ أما اليوم فلا يجيز المتعةَ غير مذهب فقهي اسلامي واحد . وكذلك اقتُبِس المَهْر عن الأعراف قبل الاسلامية ، حيث كان في

الواقع ثمن شراء . وقد عدّل الاسلام بهذه الفكرة من صفقة تجارية خالصة إلى ضرب من « هدية زفاف » . [٥٩]

واقتبس الاسلام الأعراف التجارية المكيّة التي نظّمت التجارة طوال قرون من الزمان وضمّها إلى الشريعة الآخذ نطاقُها في الاتساع . وعلى الغِرار نفسه امتصت الشريعة الاسلامية في عهدها المبكر العادات الزراعية التي كانت نافذة في المنطقة المحيطة بيثرب (المدينة) . [٦٠] ولعل أهم مصدر خارجي مُفْرد استَقَتْ منه الشريعة هو القانون الروماني على صورته المُتّبعة في الولايات البيزنطية التي فتحتها الجماعة الاسلامية المتوسعة . وليس من ريب في ان بضعة أمثلة من القانون الروماني قد نفذت قبل الاسلام إلى بلاد العرب ، من خلال الطرق التجارية القديمة وتركت أثرها في العُرْف المحلي . فمن المبادئ المشتركة بين الشرعين الاسلامي والروماني ان البيّنة على من ادّعى . فاذا عجز عن تقديم البيّنة فللمدّعَى عليه أن يُقْسِم اليمين ، منكراً التهمة ، وبذلك يبرّئ نفسه .

وقد استُمِدت بعض الأحكام التي اشتملت عليها الشريعة من القوانين الطَقْسية اليهودية ، في حين استمِدّ بعضها من مصادر فارسية ويونانية . وعلى الجملة ، ففي إمكان المرء القول إن المسلمين تبنّوْا المؤسسات التشريعية كما أَلْفَوْها في البلدان المفتوحة ، مؤكدين بذلك لنزعتهم العارمة نحو الأخذ بكل ما هو عمليّ . وإنه لمن الأمور المتسقة مع طبائع الاشياء أن يُبْدَه العرب السّذّج — لدُن احتكاكهم بمدنيات ممعنة في التطور — وأن يعجبوا بالشكل والنظام اللذين وجدوهما

---

٥٩ راجع فيضي :

Asaf A. A. Fyzee : ***Outlines of Muhammadan Law*** **, p. 8 . London : Oxford University Press , 1955 .**

٦٠ راجع « جب » و « كرايمرز » : المصدر السابق ، ص ٥٢٥ .

فيحاولوا تمثيل هذه العناصر كلها وهضمها ، جاعلين منها جزءاً من مجتمعهم . وفي الامكان القول إن الرسول لم يعتزم سنّ قانون كامل ، وإنه اعتبر ، على عكس ذلك ، ان مهمة الشريعة تقويم بعض الاعوجاجات ومعالجة بعض وجوه الظلم والاعمال غير الأخلاقية التي لاحظها في المجتمعات الاخرى . وهكذا لم يجد المسلمون أيّ حرج في الافادة من أيما بُنىً تشريعية وجدوها في الديار المفتوحة ما دامت هذه البُنى لا تنطوي على أيّ انتهاك لأحكام العقيدة . ٦١

* * *

لقد تحدثنا عن القرآن ، حتى الآن ، بوصفه أساسَ الشريعة ، ولكن الوضع كان على هذا النحو خلال حياة الرسول ليس غير . وإنما نجد في السّنّة ، مصدر الشريعة الثاني ، أول استناد إلى القانون العادي واستمداد منه . لقد كانت السّنّة ، سيرةُ الرسول ، كما دُوّنت في « الحديث » ، مصدراً رئيسياً تُستقى منه تفاصيل القانون التي أهملها القرآن أو ألمَعَ اليها مجردَ إلماع . وعلى أساس من القرآن والسنة حاول مذهب ابن حنبل التشريعي ان يتخذ مواقف في ما يتصل بالقانون . ولقد اصطنع ، على العموم ، ذلك الجزءَ من الشريعة المسمّى « النّصّ » ، وهو فَرْضٌ مُلْزِم بيّنٌ في القرآن أو في الحديث .

ونشأ سائرُ الشريعة عندما أحدث بعضُ العلماء الأتقياء قوانين جديدة زادتْها نفعاً . وعلى الرغم من أن اصطناع مصطلحات غير مصطلحات القرآن ومصطلحات محمد في لغة القانون بدا أمراً غريباً في بادئ الأمر فأن هذين المصدرين نفسيهما شجّعا هذا التطور وساعدا عليه .

وكان أبو حنيفة (٧٠٠ — ٧٦٧) وأتباعه أولَ من نظّم توسّع الشريعة التشريعي هذا . ولقد عُرِف الأحناف بأنهم متحررو التشريع الاسلامي لأنهم اتكلوا اقلّ ما يكون الاتكال على الحديث واعتمدوا

٦١ راجع المرجع السابق ، ص ٦١٢ .

أكثر ما يكون الاعتماد على « القياس » ، الذي استجمعوه من القرآن . ولقد عُزِي إلى ابي حنيفة الفضلُ في ابتداع القياس ، ولكن الحقيقة غير ذلك . والواقع ان أبا حنيفة اصطنع هذه الطريقة لتوسيع نطاق القانون لأن وَضْع الحديث الكاذب كان قد شاع في تلك الفترة . وإذ خشيَ ان يبني أحكامه على أشياء زائفة فقد اعتمد على الحديث أقلَّ اعتماد ، مؤثراً أن يطلق أحكاماً مَصُوغة بالقياس . ٦٢

وأنشأ مالك بن أنَس (٧١٣ – ٧٩٥) ثاني المذاهب الشرعية الرئيسية الأربعة (وينبغي ان لا يخلط المرء ما بينها وبين الفِرَق الدينية ، لأن هذه المذاهب الأربعة سُنِّيَّةٌ كلها) . وإذْ كان مالك مقيماً في المدينة فقد كان طبيعياً أن يعتمد اكثر ما يكون الاعتماد ، عند وضعه مجموعة أحكامه الشرعية الموسومة بـ « المُوَطَّأ » ، على سيرة محمد وأَصحابه في تلك الديار . بيد أنه لم يَقْصُرْ نفسه قَصْراً عُبُودياً على الحديث ، بل كيَّفه ليلائم بعض الحالات الجديدة من طريق اصطناع القانون العادي والمحاكمة العقلية الشخصية .

أما ثالث المذاهب الفقهية في الاسلام فهو مذهب الشافعي (٧٦٧ – ٨٢٠) . وهذا المذهب يمثل موقفاً وسطاً بين التقليد (أو الاعتماد على الحديث) وبين التفكير المستقل . ورسم الشافعي حدوداً لاصطناع المحاكمة العقلية السليمة اصطناعاً غير مقيَّد ، ونسَّق السنّة على نحو نظاميّ أفضل . إنه هو الذي يُعْزَى اليه الفضل في انشاء علم أصول الدين .

ووضع ابن حنبل (٧٨٠ – ٨٥٥) فلسفة تشريعية تختلف اختلافاً بيّناً عن المذاهب الثلاثة الأولى . ففي حين اصطنعت تلك المذاهب

---

٦٢ راجع فيضي :

Asaf A. A. Fyzee : *Outlines of Muhammadan Law*, **p. 23 . London : Oxford University Press, 1955 .**

القياسَ أو الاجماعَ ، أي اتفاق الرأي على مسألة شرعية ، التزم ابن حنبل الرأي المقدّس المسمّى « النصْ » التزاماً انتهى به إلى حد الانقياد المتعصّب . وإذ رفض كل شكل من أشكال المحاكمة العقلية الانسانية ، تقريباً ، فقد اضطرّ إلى قبول بعض الأحاديث الضعيفة واتخاذها أساساً لبنائه التشريعي .[٦٣] ومع ذلك ، فقد كان ابن حنبل ، المغالي في النزعة المحافظة ، رجلاً ذا شخصية أشبه بشخصيات القديسين وذا إخلاص جعله يرتضي أقصى الاضطهاد في سبيل مثله العليا .

ولا يحسبَنّ القارئ ان هذه المذاهب الشرعية الأربعة كانت هي « المدارس » الفقهية الوحيدة في الاسلام . فقد اكتسب كثير من الزعماء الدينيين الآخرين أتباعاً وأنصاراً ، ولكن مذاهبهم لم تعمّر في شكلها الأصلي . وللمذاهب الرئيسية الأربعة ، اليوم ، أتباع في أرجاء العالم الاسلامي كله : (١) فالأحناف موزّعون في آسية الوسطى ، وسورية ، وتركية ، وشمالي الهند . (٢) والمالكية منتشرون في المقام الاول في مصر العليا وشمالي إفريقية . (٣) والشافعية يؤلفون جمهرة السكان المسلمين في مصر السفلى ، وجنوب الهند ، وآسية الجنوبية الشرقية ، وساحل شبه جزيرة العرب . (٤) أما المذهب الرابع ، مذهب ابن حنبل المحدّث ، فيتّبعه الوهابيون ذوو النزعة التطهّرية (البيوريتانية) في أواسط شبه الجزيرة العربية .

* * *

كان المؤمنون يلتمسون ، خلال حياة النبي ، كلما احتاجوا إلى فتوىً شرعية ، نصّاً قرآنياً يستندون اليه . فأذا أعوزهم ذلك سَهُلَ عليهم الاتصال بالرسول يلتمسون عنده الرأي والنصيحة .

وبعد وفاة محمد اضطرّ أصحابه وتابعوهم إلى البحث عن طريقة جديدة لاتخاذ موقف من المشاكل غير المنصوص عليها في القرآن والحديث

٦٣ راجع « جب » و « كرايمرز » ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ٢٠ .

نصّاً مباشراً . ولسنا ندري من كان أول من أفاد من الحادثة التالية في سبيل توسيع الشريعة ، ولكن من حقه أن يحتلّ مكاناً رفيعاً في ثَبْت عظماء الاسلام . وتفصيل الأمر أن حديثاً « كلاسيكياً » يتصل بمحادثة جرت بين الرسول وبين مُعاذ بن جبل ، العامل الذي عيّنه منذ فترة قريبة على اليمن ، قد أعطى الجماعة الاسلامية النامية أساساً شرعياً لتعديل الشريعة . فقد سأل النبي العاملَ : « كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ » فكان جواب العامل عن هذا السؤال : « أقضي بكتاب الله » . وحين سئل عن الذي سيفعله إن لم يجد في القرآن نصاً خاصاً بمسألة ما أجاب العامل قائلاً إنه سوف يقضي وفقاً « لسنة رسول الله » . ثم إن معاذاً أضاف قائلاً إنه ان لم يجد ضالّته في السنّة أيضاً قضى وفقاً « لاجتهاد الرأي » * ، في غير ما تردّدٍ البتة ، يعني وفقاً لما تقضي به محاكمته العقلية للمسألة . عندئذ هتف محمد قائلاً : « الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ اللهِ لما يرضى به رسول الله » . ٦٤ وعلى الرغم من ان هذا الجواب يبدو ، في صيغته المترجمة ، متكلفاً بعض الشيء ، فالذي لا ريب فيه هو أن هذا الحديث هو واحدٌ من أهم الاحاديث على الاطلاق ، لأن تأثيره شمل ، وما يزال ، جوانب الحياة الأسلامية كلها .

إن السطور السالفة لتصور معنى الاجتهاد وتطبيقه الرئيسين ، هذا الاجتهاد الذي نستطيع تعريفه بقولنا إنه « بذل أقصى الجهد في سبيل بلوغ هدفٍ ما » . وعلى الرغم من ان فكرة اصطناع المرء عقله السليم

---

* في نص الحديث انه قال : « اجتهد برأيي ولا آلو . » والحديث رواه الترمذي وابوداود عن ابي هريرة . (المعرب)

٦٤ راجع محمد أسد :

Muhammad Asad : « *On the Principles of Islamic Law* », **reprinted from** *Arafat* , **1948** , **p. 138** .

هذه قد قُبِلت في عهد من العهود قبولاً لا يشوبه نقد أو اعتراض فسرعان ما راحت المذاهب الفقهية تفتي ، بعد ذلك ، في « الاجتهاد » ومدى حظِهِ من الشرعية .

لقد بدأ « الرأي » ، أي الاعتماد على رأي المرء الشخصي ، أول ما بدأ بوصفه طريقة معترفاً بها اعترافاً كاملاً للوصول إلى حكم من الأحكام الشرعية ؛ ولكن كلاً من المذاهب الفقهية المتعاقبة – ابتداء من المذهب الحنفي إلى المذهب الحنبلي – ما لبث ان حمل على اصطناعه حملةً لم تزدها الايام إلا قسوةً وعنفاً . ولقد أقيم الدليل على صحة هذا النقد عندما حاول اناسٌ ان يتخذوا من بعض الفتاوى سوابق يقاس عليها لا مجرد أحكام عاجلة . فما كان من دعاة الاعتماد على المحاكمة العقلية الشخصية إلا ان أحالوا منتقديهم إلى سيرة الرسول . والحق ان للحديث الذي نقلناه آنفاً أهمية خاصة لأنه لا يبيِّن ان محمداً أقرّ « الرأي » فحسب ، بل لأنه يعدو ذلك الى إظهار ما لصاحب الرأي الخاطئ من فضل جزئي أيضاً . فقد قال محمد إن للمجتهد ، إذا أخطأ ، أجراً يُجزاهُ لقاء طاعته . أما المجتهد الذي أصاب فيستحق ، على أية حال ، ضِعْفَ أجر المجتهد الذي أخطأ . ٦٥

وكان « الاجماع » شكلاً من أشكال « الاجتهاد » أرْجَح من « الرأي » وأعظم شأناً . وهذا الاسلوب يختلف عن « الرأي » اختلافَ المحادثة عن المناجاة – أي في عدد المشاركين . وشيئاً بعد شيء تطور الاجماع ليصبح اجماعَ آراء العلماء في منطقة بعينها أو فترة تاريخية بعينها على أمر ما . وهكذا أمسى ، في الواقع ، نوعاً من الاجتهاد الجماعي . ولكي نصوّر اصطناع الاجماع نستطيع ان نفترض أن حاكم اليمن عيّن ، استناداً إلى رأيه الشخصي ، حداً أقصى لسرعة الأبِل في منطقته . فاذا اتفق ان انتهى ثقات آخرون ، لدُنْ مواجهتهم

٦٥ راجع « جب » و « كرايمرز » ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ١٥٨ .

مشكلةً مماثلة ، إلى الرأي نفسه فعندئذ يشكّل الحكم المشترك « إجماعاً » .

وكان لاجماع المالكية سلطةٌ عظيمة لأنه كان مبنيّاً على اتفاقٍ في الرأي مُنْعَقِدٍ في « المدينة » ، مقر الرسول . وكذلك كان لاتفاق الرأي المنعقد في الكوفة والبصرة في عهد مبكر من التاريخ الاسلامي وزنٌ عظيم لأن سكان هاتين المدينتين كانوا في كثرتهم الكبيرة ممن شهدوا أُولى المواقع التي خاضتها الجماعة الاسلامية المتوسعة . وهكذا نرى أنه على الرغم من ان اجماع آراء أيما مجموعة اسلامية صحيحٌ من الوجهة النظرية الخالصة فأن العرف يقضي بأن يُعْتَبر إجماعُ صحابة الرسول أرجَحَ وزناً وأحقّ بالاتّباع .

ومما يُؤْذِن بأن الاجماع لا يمكن أن يضلّ قولُ الرسول في حديث أساسيّ : « لن تُجْمِعَ أمّتي على ضلال »[٦٦] . وهذا الحكم لا يقرّ ، إقراراً مطلقاً ، إدخالَ بعض الاضافات على الشريعة فحسب ، بل يقر إحداث بعض التعديلات الاساسية فيها أيضاً . وحين ندرك أن بعض الفكرات والأعمال التي حرّمها القرآن وحرّمها محمد في وضوح كثير كادت تصبح ، من طريق « الاجماع » جزءاً من عمود السنّة نفسه ، تتجلى لنا في الحال قوة هذه الأداة وخطورتها . وهكذا قُبِلت بِدْعة الايمان بكمال محمد وعصمته عن الخطأ لمجرد اتفاق كثير من الزعماء الدينيين على الأخذ بها . وعلى الغرار نفسه نشأ نظام الخلافة وتطوّر — وهو نظام غير قرآني — وخُلِعت عليه الصفةُ الشرعية .

وكان التجديد الأهم والأخير الذي أحدثه الأجماع هو « القياس » ، أو « الاستدلال القياسي » إذا أردنا أن نصطنع تعبير المحامين المسلمين المعاصرين . ذلك بأن الفقهاء الأولين حين عدِموا في « النصّ » أساساً يبنون عليه حكماً من أحكامهم قرروا أن الخطوة الفضلى التالية هي بناء ذلك الحكم على أساسٍ من حادثة مماثلة منصوص عليها في القرآن أو

٦٦ راجع « جب » و « كرايمرز » ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ١٥٧ .

في الحديث . [٦٧] وكان في اتفاق زعماء الاسلام الدينيين ما أضفى على « القياس » أهمية بالغة وجعل له سلطاناً عظيماً . والواقع أن المذاهب الاسلامية كلهـا ارتضت « القياس » وعملت به ، ما خلا المذهب الحنبلي .

ولكي نرى كيف طُبِّق « القياس » عملياً يَحْسُن بنا أن ننظر إلى النص القرآني الذي يحرّم الخمرة . فحين واجه الفقهاء مشكلة الأشربة الكحولية الاخرى قادهم الاستقراء إلى القول بأن طبيعةَ الخمرِ المُسْكرةَ كانت هي السبب في تحريمها . ومن هنـا ذهبوا إلى ان جميع المسكرات ، سواء أكانت مقطّرة أم مخمَّرةً ، محرمةٌ شرعاً . [٦٨]

وجَبَهَ التقدمُ التقنيّ المعاصرُ الجماعةَ الاسلامية بمشكلات من مثل المشكلة التـالية : لنفرض أن أحد القرويين أساء استعمال صهريج المـاء الجديد في القرية بأن دأب على ترك الماء يجري من الحنفية . فاذا اتفق ان خلا القرآن من نصّ في موضوع سدادات البراميل التي يقطر منها الماء على نحو موصول فعندئذ يبحث علماء القرية عن حادثة مماثلـة يستطيعون أن يبنوا على أساسها حكماً قياسياً . وقـد يقعون على مثل هذه الحادثة في ما رُوي من ان الرسول أنّب بعض المزارعين لأخذهم ، في غير ما رويّة ولا تقدير ، كميّةً من ماء الريّ زائدةً عن حاجتهم . فيستدل العلماء من هذه الحادثة أن التفريط في الماء أمرٌ حرّمه محمد ، فهو بهذا الاعتبار جُرْمٌ يعرّض مرتكبه للعقاب .

إن أركان التشريع الاسلامي الأربعة لتزوّدنا ، كما أظهرنا حتّى الآن ، بمادّة الشرع المعروفة بالفقه . وفي امكاننا تعريف « الفقه »

---

٦٧ المصدر السابق ، ص ٦١٤ .

٦٨ راجع غوستاف فون غرونيباوم :

Gustave E. von Grunebaum : *Medieval Islam*, **p. 148. Chicago : University of Chicago Press, 1946**.

(أو علم التشريع الاسلامي) ، تبعاً لما ذهب اليه أحد المتشرعين المعاصرين ، بأنه معرفة حقوق المرء وواجباته بالاستناد إلى القرآن أو السنة ، أو بالاستدلال القياسي منهما ، أو من طريق إجماع العلماء واتفاقهم . [69] وهنا يحسن بنا أن نشير إلى أن كلاً من « النص » (القرآن والسنّة) و « الاجتهاد » (القياس والأجماع) يشكلان اليوم أساس التشريع عند الجماعة الاسلامية .

وأكمَلَ الأحناف ، بعضَ الشيء ، هذه الاركانَ الاربعةَ بأن أضافوا ما يُعْرَف بـ « الاستحسان » (أو اعتبار ما هو أفضل) . لقد شعروا ان في الأمكان إغفال « القياس » نفسه إذا قضت بذلك بعض الاعتبارات العملية . ولو قد اصطُنع هذا الاتجاه خلال العهود الاسلامية كلها اذن لنشأ عن ذلك تجديدٌ كاملٌ للشريعة . وأحدث مالك نظاماً جديداً دعاه « الاستصلاح » ، ويعني « اعتبار المصلحة العامة » أو « أخذ الانصاف والخير المطلق بعين الاعتبار » . فقد استشعر أن هذا النهج خيرٌ ، بعض الشيء ، من « الاستحسان » لأنه يكفُلُ مصلحة الجماعة كلها . بيد أن ما لقيته هذه المناهج التعديلية من معارضة قوية عاق محاولات إفراغ الشريعة في قالب عصري وأخَّر هذه المحاولات تأخيراً كبيراً .

وثمة مشكلة تواجه الاسلام المعاصر ، وهي ان الأحكام المبنية على الاجتهاد لم تحظَ بالقبول إلا إذا أخذ بها الفقهاء في العهود السالفة . والواقع أن مبدأ « التقليد » ، الذي يعني اتّباع رأي ثقة من الثقات ، من غير دليل أو بيّنة ، قد أدى إلى تقديس آراء هؤلاء الثقات . وهذا ما جعل إعادة التأويل متعذرة لأن الفقه لم يُخْضَعْ في أيما يوم من الأيام للنقد الموضوعي . وإذ كانت الشريعة هي أساس الحياة الاسلامية كلها فقد عنى ذلك اعتراض نسغِ الحضارة الاسلامية وإقامة العقبات

---

٦٩ راجع فيضي ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ١٧ .

في طريقه . ان معرفة الشريعة معرفة مباشرة ينبغي أن تكون شأناً من شؤون كل مسلم ، ولكن « التقليد » جعل تلك المعرفة وراء متناول الرجل العادي . وهكذا نجد ان ثمة أنشوطة محكمة تطوّق عنق التقدم في العالم العربي .

* * *

وقد يكون من المفيد أن نقول الآن كلمة في ما فرضته الشريعة من أعمال بشرية بعينها . إن في رأس اللائحة ، ههنا ، أشياءَ أُمِر المسلم بالقيام بها . وكل من هذه الأشياء يدعى « فرضاً » ، وهي تشمل الأمر بصيام رمضان وأداء الصلوات [الخمس] . ويليها في مقام الأهمية أعمالٌ (يدعى الواحد منها « مندوباً ») تستحسنها الشريعة كالتزام جانب الطهارة يومَ الصيام . وفي وسط اللائحة أعمال سكتت عنها الشريعة. فليست الشريعة لتبالي أركب المسلم طائرة أم سفينة في رحلة من رحلاته ؛ وهكذا فأن هذا العمل « مباح » . أما ما يكرهه الشرع ولكنه لا يحرّمه فهو « مكروه » ، ومن الواجب اجتنابه . وتقع بعض ضروب السمك في هذا الباب ، ومن الخير للمسلم أن لا يَقْربها . بقيت أشياء من مثل الظلم ، والسرقة ، ومعاقرة الخمر . وهذه هي « حرام » ، ومن هنا يُحظّر على المسلمين اقترافها حظراً صارماً .

وفي أيام الاسلام الأولى كان إنفاذُ القانون مهمةً من مهامِّ الخليفة ، ولكن الفصل في الخلافات كان من صلاحيات القاضي . وإذ كانت هذه القضايا ، من مدنية وجنائية ، تقع كلها نظرياً ضمن نطاق الشريعة فلم تكن ثمة حاجةٌ إلى أكثر من نوع من القضاء واحد . كان من الجائز ان يجلس في مقعد القضاء قاضٍ لكلٍّ مذهب من المذاهب الاربعة ، في المدن الكبرى ، ولكن مهامّهم العامة كانت متماثلة . بيد أن القضايا الشديدة الاتصال بالدين ، كالمشكلات العائلية ومشكلات الأرث ، ما لبثت أن أمست هي وحدها القضايا التي تُعْرَض

على القاضي الشرعي .[70]

وكان القاضي قادراً ، في باديء الأمر ، على تكوين رأيه الخاص في المسائل غير المنصوص عليها في القرآن أو في الحديث . بيد أن أصفاد التقليد ما لبثت أن غلّت يديه واكرهته على اتّباع الأحكام المقرّرة بصرف النظر عن مصدرها الأصلي . حتّى إذا تعاظمت سلطة الخليفة كان طبيعياً ان يتأثر القاضي برغبات الرجل المالك صلاحيةَ تعيينه وعزله . وأخيراً تولّت المحاكم المتنافسة التي أقامها الخليفة ، في عهد العباسيين ، جمهرةَ مهامّه المدنية .

وعُيّن « المحتسِب » (ضابط الشرطة) لقمع المخالفات المدنية ، وأنشئ منصب « ناظر المظالم » (قاضي الشكاوى) . كان المحتسب يفتش الاسواق ، ويراقب الاخلاق العامة ، ويُقرّ النظام في البلد — وهي أشياء تتولاها اليوم دوائر الشرطة العصرية . وكان « ديوان المظالم » ينظر في الجرائم التي لم يكن للقضاء أو رجال الشرطة قِبَلٌ بقمعها . وقد اكتسبت « دواوين المظالم » هذه سلطتها العظمى بفضل صلتها الوثيقة بجهاز الحكومة التنفيذي ، وبسبب من أنه كان في ميسورها إرجاء إبداء الرأي في القضايا المعروضة عليها . فقد كان القانون يفرض على القاضي أن يحكم في القضية المرفوعة اليه في الحال ، حتّى ولو لم تتوفّر لديه الوقائع كلها . زد على ذلك ان القاضي كان مُلْزماً باتّباع حرفية القانون ولو عنى هذا انزال أقسى العقوبة . ولقد شعر واحد من صحابة الرسول أنفسهم أن أحكام القرآن قاسية جداً . فنصح ذات مرة امرأةً متهمةً بالسرقة بأن تنكر جريمتها ، لكي تنجو من الحكم القاضي بقطع يدها .[71] وهكذا يتضح ان التطبيق والنظرية اتخذا ، كرةً أخرى ، سبيلين مختلفين .

* * *

---

[70] راجع « جب » و « كرايمرز » ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ٢٠١ .

[71] راجع غرونيباوم ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ١٦٥ .

إن أيما دراسة للقانون ، سواء أكان غَرْبياً أم إسلامياً ، يجب أن يُفْرَد لها – بسبب من طبيعتها البالغة التعقيد – كتابٌ كامل . فأن لم يتيسّر ذلك تعيّن أن تُسْتَعْرَض بأسلوب تعميمي وأن تُفْرَغ في تعابير تجريدية بعض الشيء . ولكي ننتهي بنظرتنا العامة هذه إلى خاتمة أكثر محسوسيّة يحسن بنا الآن ان ندرس تطبيق الشريعة على المشكلات اليومية في الحياة العصرية .

ولما كانت عادات الزواج في الاسلام مصدر اهتمام مشوّش في الغرب كان من الخير أن نقول كلمة في بعض تلك العادات التي اكتسبت صفة القانون . فالمَهْر ، أو ثمن العروس ، إنما يرقى إلى العصور الوثنية عندما كان من المألوف أن تُشْتَرى الزوجةُ شراءً . والواقع أن تعديلاً كبيراً طرأ على المهر من حيث القَصْد أو الغرض المراد به ، ولكن الشكل ظلّ كما كان . إن جزءاً من المهر فحسب يُدْفع عند الزفاف ، ومن المفروض أن يصطنعه والد العروس في تجهيزها . فأذا ما انحلّت عقدة الزواج تعيّن دَفْعُ بقيّتِهِ إلى أبي العروس – وذلك رادعٌ فعّال يحول دون استعجال الطلاق . وعلى الرغم من ان القرآن ينصّ على ان للمرء ان ينكح لربع زوجات فقد لطّف ذلك بما طالبَهُ به من العدل بينهن ومعاملتهن على قدم المساواة الكاملة . وهكذا نرى الشريعة ، فيما هي تبيح تعدّد الزوجات بمعناه الأبعد مدى ، تجعل ذلك التعدد مستحيلاً . واليوم تكاد عادةُ الجمع بين الزوجات ان تتلاشى ، في حياة الناس الواقعية ، بسبب من النفقة البالغة التي تنطوي عليها ، ومن استنكار الرأي العام لها .

والطلاق يسيرٌ ، نسبياً ، على المسلم . فليس عليه ، حتى تنفصم رابطة الزوجية ، إلا أن يعلن عن رغبته بكلام ملفوظ في ثلاث مناسبات مختلفات . أما المرأة فلا تستطيع تطليق زوجها إلا في عُسْر ، ولكن ذلك أمسى في هذه الأيام أيسر منالاً . لقد قال الرسول إن

أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، وإذن فيجب القيامُ بجميع المحاولات للحؤول دون حدوثه . ٧٢ وأجازت الشريعة الزواج المؤقت المعروف بـ « المتعة » ، ولكن العُرْف قضى بأن يعقد المحترمون من النـــاس أمثال هذه العقود ، إذا رغبوا في ذلك ، لأجلٍ لا يقلّ عن تسعة وتسعين عاماً . ٧٣

ويحرّم القرآن الزنا ، ويعاقب مرتكبه بمئة جَلْدة ، أو بالحبس حتى الموت . والعقوبة الأخيرة تبدو قاسية على نحوٍ خاص ، ولكنْ لما كانت الادانة تتطلب شهادة أربعة شهود فليس عجيباً أن نرى أنها لم تكن تُنْزَل بالمتهمين إلا في أحوال نادرة .

ويوم كانت النسوة يُعْتَبَرْن ، في العالم الغَرْبي ، مجرد متاع من الأمتعة ، ويوم كان القوم هناك في رَيْب جدّي من أن لهن أرواحاً ، كان الشرع الاسلامي قد منحهنّ حق التملّك . وتلقّت الأرامل نصيباً من ميراث أزواجهن ، ولكن البنات كان عليهن أن يقنعن بنصف حصة الذكر . وفي ضوء التطور العصري قد يبدو واضحاً أن أمثال هـذه القوانين الخاصة بالأرث لا تخلو من جَوْر . ولكن علينا ان لا ننسى أن الأبناء الذكور وحدهم كانوا ، حتى فترة حديثة نسبياً ، ينالون في الديار الغَرْبية حصةً من الارث .

وتهيمن صفةُ الشريعةِ الاخلاقيةُ على التجارة الاسلامية وعملياتها أيضاً . فدفع « الفائدة » ومختلف ضروب الربا محرّمة تحريماً قاطعاً في الاسلام . بيد أن المدّخرات البريدية سُمِح بهـا اليوم ، على الرغم من ان كثيراً من أتقياء المسلمين لا يزالون يستنكفون عن قبول « الفائدة ».

---

٧٢ راجع عبد الحكيم :

Abdul Hakim : *Islamic Ideology* . p. 162 Lahore : The Publishers Ltd. , 1951 .

٧٣ راجع تريتون ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ١٢٣ .

والشريعة تحرّم كل لون من ألوان العمل التجاري ينطوي على عنصر الحظ ويمكن أن يُعتبر ، من ثمّ ، مضاربة . ويدخل في هذا الباب ثمر الحديقة قبل أن يبلغ النضجَ ، وكومة القمح غير المَكيِلة ، والعبد الآبق الذي ربما تعذّر أسْرُه من جديد . ولكن العُرف كثيراً ما يزحزح الاعتبارات الشرعية الصارمة عن مواضعها ويحلّ محلها ، فاذا بالقوم يجيزون ضروباً من التعامل التجاري المخالف لحرفية القانون . وهكذا نجد التعاقد على سلعةٍ لمّا تُصنَعْ بَعْدُ عملاً مسموحاً به إذا ما نُصّ على شروط ومواصفات محدّدة ، وإذا كان للمشتري أن يرفض الدفع عند الاخلال بها .

والمظهر الديني للشريعة يمكن أن تمثّله إباحة الرهن لأنه يساعد على التفريج عن كُرَب المدينين – موقتاً على الأقل . والتأمين مقابل سلعة مطلوبة ينطوي على معنى أخلاقي إضافيّ من حيث ان دَفْعَهُ يساعد البائع على صيانة أمواله . وإذا ما اتهم امروٌ بالاحتيال والخداع باءَ بعقوبة مزدوجة : غضبِ الله والقصاص البشري ، وهي حقيقةٌ تؤكد كرة أخرى أن الشريعة مدنيةٌ ودينية في آنٍ معاً . [٧٤]

* * *

وفي حقل القانون الدولي عُدّلت الشريعةُ ، في السنوات الأخيرة ، لتلائم الاوضاع العالمية وضرورات الاجتماع الدولي . فقد أصبح مفهومُ الجهادِ [٧٥] الأصليّ ، بوصفه استشرافاً دينياً للشؤون الخارجية ، شيئاً مُماتاً . كذلك لم تعد جمهرة الفقهاء تقول بأن العلاقة بين عالم الاسلام والعالم المعادي له (دار الحرب) يجب أن تكون الحرب ، أو في احسن الاحوال ، هدنةٌ مسلّحة . وفي السياسة الدولية زال العنصر الديني ، إلا في أحوال قليلة نادرة ، وحلّ محله القانون العادي . وهكذا

٧٤ راجع آرنولد ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ٣٠٦ ؛ وتريتون ، المصدر المذكور سابقاً ، ص ١٣٩ وما بعدها .

٧٥ ويدعى ، عادة ، « الحرب المقدسة » .

يتضح أن تطبيق الشريعة قد كُيِّف ، لا في حقل القانون المدني والجزائي فحسب بل في حقل العلاقات الدولية أيضاً ، ليشمل القانون العادي والسوابق الاكثر انسجاماً مع اتجاه العصر الحديث .

* * *

لقد استشعر المسلمون الحاجة إلى الاصلاح الشرعي منذ قرون عديدة، ولقد أجْرَوْا ، تدريجياً ، بعض التعديلات . ففي ظل الامبراطورية العثمانية بُذِلت ، في أوائل القرن التاسع عشر ، جهود ناجحة لافراغ الشريعة في قالب عصري ، واستُحْدِثت قوانينُ تجارية وجزائية مبنيّة على أنماطٍ غَرْبية . وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر اصطنَعَتْ مصر قوانين مدنية مبنية على قانون نابوليون . ومنذ ذلك الحين والتعديلات تُجْرَى في النظام الشرعي الديني ، حتى لم يَبْقَ الآن للمحاكم الشرعية ما تنظر فيه غير قضايا الاحوال الشخصية .

وهكذا نرى أن تنقيح الشريعة ليس جديداً ، وأنه استُهِل منذ قرون وما يزال قائماً . وكانت تركية أول بلد أجرى تغييراً أساسياً في الشرع الديني ، ثم الغته عام ١٩٢٦ إلغاء كاملاً – إنها لم تعمد إلى افراغ الشريعة في قوالب دنيوية فحسب ، بل لقد أحدثت تغييراً جذرياً في النظام الشرعي . وفي البلاد العربية أيضاً أخضِعتِ الشريعة للتنقيح والتكييف . فمصر ، والسودان ، وسورية ، ولبنان ، والاردن ، والعراق ، ومراكش ، وتونس تسير كلها نحو اضفاء الصفة العصرية على الشريعة . ومن أجل تحقيق هذه الغاية يعمد المشرِّعون إلى الأفادة من سوابق المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسية ومن سوابق المذاهب المنقرضة كلما وجدوا ذلك مناسباً . فأذا ما اصطدم التشريع الجديد مع « الأجماع » ، انكر المصلحون ان يكون ثمة أيما دليل حقيقي على أن الاجماع حول تلك النقطة بالذات كان منعقداً فعلاً . [٧٦]

[٧٦] راجع ألفرد غييوم :
Alfred Guillaume : *Islam*, p. 168. Penguin Books, 1954.

ومحاكم الاستئناف أو التمييز ، التي لم تُذْكر في الشريعة مجردَ ذِكْر ، تحظى اليوم بالقبول ، لأن الكثرة الكبيرة من المسلمين يدركون أهميتها البالغة . ولقد استطاعت مصر أن تتجنّب ، من طريق مُداورٍ ، بعض الأعمال التي أباحتها الشريعة والتي ينفر منهـا التفكير الحديثُ ، بأن حظّرت عَرْض القضايا المنطوية على هـذه العادات والأعراف على المحاكم . ويَلْزَمُ عن ذلك ان أيما امرئ يقوم بعمل متعارض مع التفكير التشريعي الحديث ، ولكنه منسجم مع حرفية القانون توصد أبواب المحاكم في وجهه . ومن هنا تنشأ ، بالتالي ، طريقةٌ يستطاع بهـا الاحتيالُ على القـانون الديني ، من غير ما حاجة إلى تغييره . [٧٧]

ومن الخطوات التي اعتُبِرت سابقةً تشريعية « قانون حقوق العائلة » العثماني الصادر عام ١٩١٧ . ولقد كان هذا القانون هو الأساس لتعديل القواعد المتّبعة في الطلاق والزواج والارث ، تلك القواعـد الـتي احتاجت منذ عهد بعيد إلى بعض التغيير . واليوم ، تقود مصرُ القافلة الاسلامية في حقل التشريع الاجتماعي التقدّمي الذي يرتفع بالقانون ارتفاعاً سريعاً إلى مستوياتٍ عصرية مستنيرة .

وواضح من هذا كله أن نظام « الشريعة » الصُلْبْ القديم يكيّف نفسهُ شيئاً بعد شيء وفقـاً لمقتضيات التطور ، وأنه يخضع اليـوم للاصلاح ، بل حتى للألغاء عندما تقضي الضرورة بذلك . بيد أنـه يحسن بنا ان لا نخال أن القوانين العصرية قـد اصطُنعت في طول العالم الاسلامي وعرضه ، لأن قوى الرجعة ما تزال شديدة البأس منيعـة الحصون . ومع هذا فأن الاصلاح الذي تمّ والتقدم الذي أُحرِز قد أحدثا حركةً كان من نتائجهـا تجديـد الشريعة ، ومن ثم تجديـد الاسلام .

---

٧٧ المصدر السابق ، ص ١٦٩ وما بعدها .

قراءات مختارة

١ – خدوري، مجيد وليبسني هـ. ج. : القانون في الشرق الاوسط **Khadduri, Majid and Liebesny, H. G.** : *Law in the Middle East* (واشنطون ، ١٩٥٦) .

٢ – شاخت ، ج. : اصول الشريعة الاسلامية **Schacht, J.** *Origins of Mohammadan Jurisprudence* (لندن ، ١٩٥٥) .

•

معجم خاص

بالمصطلحات الشرعية الاسلامية ★

دار الحرب : كل بلد غير خاضع للشريعة الاسلامية .

دار الاسلام : كل بلد يعمل فيه بأحكام الشريعة الاسلامية ، ويكون خاضعاً لقيادة زعيم مسلم .

الفَرْض : كل ما تفرض الشريعة على المسلم عمله .

الفقيه : العالم بالفقه . المتضلع بالشرع الاسلامي .

★ اسقطنا من هذا المعجم بعض المصطلحات التي لا يحتاج القارىء العربي إلى فضل تعريف بها .

الفقه : المعرفة . الاسم الذي يطلق على التشريع الاسلامي .

الحد : أوامر الشريعة ونواهيها .

الحديث : سيرة الرسول وأقواله في صورتها المدونة .

الحرام : كل ما حظرته الشريعة حظراً كاملا .

الاجماع : اتفاق الرأي في مسألة شرعية غير واضحة في القرآن أو في الحديث .

الاجتهاد : حل المشكلات الشرعية بالعودة إلى المبادئ الأولية بدلا من قبول آراء الغير .

الاستحسان : (اعتبار ما هو أحسن)المبدأ الشرعي الذي أجاز إغفال السابقة عندما يكون في هذا الاغفال ما يعزز العدل الاجتماعي .

الاستصلاح : (اعتبار المصلحة العامة) هو شبيه بالاستحسان ، ولكنه مقيد تقييداً أقوى بما يعتبر في مصلحة الجماعة .

الجهاد : الحرب ضد الكفر . والجهاد قد يكون حرباً فعلية ضد غير المؤمنين ، وقد يكون نشاطاً دينياً لمقاومة الكفر .

المكروه : العمل الذي تكرهه الشريعة ولكنها لا تحرمه تحريماً فعلياً .

المندوب : العمل الذي تحبذه الشريعة .

المباح : العمل الذي سكتت عنه الشريعة ، فهي لم تحبذه ولم تحظره .

النص : الأمر الملزم الوارد في القرآن أو في الحديث .

القياس : استدلال قياسي يلجأ اليه عند فقدان النص ويبنى فيه الحكم الشرعي على أساس حادثة مماثلة منصوص عليها في القرآن أو في الحديث .

الرأي : اعتماد المرء رأيه الشخصي في مسألة شرعية حين يعدم سابقة في القرآن أو في الحديث أو في الشريعة .

الشريعة : (السبيل إلى المورد) الطريق القويم الواجب اتباعه لبلوغ الهدف الذي أقامه القرآن .

المذاهب الشرعية الرئيسية الاربعة
في الاسلام

المذهب الحنفي : أسسه أبو حنيفة (٧٠٠ – ٧٦٧) ؛ اعتمد اعتماداً كبيراً على الاستدلال القياسي من القرآن توسيعاً لنطاق الشريعة .

المذهب المالكي : أنشأه مالك بن أنس (٧١٣ – ٧٩٥) ؛ مذهب محافظ في اعتدال ، يعتمد في أحكامه الشرعية ، اعتماداً كبيراً ، على الحديث .

المذهب الشافعي: أسسه محمد بن ادريس الشافعي(٧٦٧ –٨٢٠)؛قيَّد اللجوء إلى الرأي الشخصي، ولكنه لم يسرف في الاعتماد على الحديث .

المذهب الحنبلي : أسسه ابن حنبل (٧٨٠–٨٥٥)؛ رفض اصطناع الرأي الشخصي ، واعتمد كل الاعتماد على القرآن و الحديث . إنه مذهب مغال في المحافظة على السنة.



الفصل التاسع

الفلسفة

•

لعله ليس من الخطأ ان نقول إنه كان في ميسور الاسلام أن يستغني ، في سهولة ويسر ، عن الفلسفة . لقد كان ديناً توحيدياً على نحو لا يعرف هوادةً ، ديناً واقعياً شاملاً ينتظم كل شيء . وخليق بمثل هذا الدين أن يقدّم جواباً عن الكثرة الكبيرة من المسائل الروحية والدنيوية ، وأن لا يبقي ايما مبرِّر للتأمل الفلسفي . لقد فسّر ألغاز الحياة بتعابير بسيطة ومحسوسة نسبياً ـ محسوسة أكثر بكثير ، في الواقع ، من تعابير النصرانية ، وأقلّ غموضاً بما لا يُقاس من تعابير الاديان الآسيوية الكبرى . والواقع ان المسلمين لم يستشعروا ، خلال القرن الأول الذي تلا وفاة الرسول ، كبيرَ حاجة إلى تفسير المعتقدات القرآنية تفسيراً عقلانياً . ولكن ما إن خمدت الحماسة الدينية الأولى ، وما إن غدا المسلمون أكثر بُعْداً عن الفطرة حتى مسّت الحاجة إلى تفسير عقلي للحقائق التي كان المؤمنون قد سلّموا بها تسليماً . والحق ان

الوضع كان قد أمسى شبيهاً جداً بوضع النصارى الذين ما فتئوا يحاولون ، منذ أيام اوريجين * والقديس اوغوسطين ** ، ان يسوّغوا عقيدتهم تسويغاً عقلياً .

وفي دنيا الاسلام استُشعِرت هذه الحاجة على نحو أكثر إلحاحاً . فما إن وُلِدت الامبراطورية العربية حتى اضطُرّ المسلمون إلى الدفاع عن عقيدتهم في وجه الهجوم العنيف الذي شنه النصارى عليها . ذلك بأن المسيحية اعتبرت الاسلام — ولقد كان لهذا الموقف ما يبرره — منافسَها الخطِرَ الوحيد . كانت اليهودية قد أمست دين اقليات غير ذات شأن ، ولم تكن تشكل أيّ خطر عليها . وكانت الوثنية قد هُزِمت ، على حين كانت اديان آسية ، كالبوذية والهندوكية ، مجهولة في أوروبة . ولكن بلدان شمال افريقية كلها كانت قد اعتنقت الاسلام ، وكذلك كان حالُ اسبانية ، وطوال فترة أقصر حال صقلية أيضاً . كانت الديار التي وُلدت فيها اليهودية والنصرانية قد أمست في أيدي المسلمين ، وكانت القسطنطينيةُ — مركز العالم المسيحي الشرقي — مهدّدةً من جانب القوى الاسلامية ، وهي قوى وُفّقت في كثير من المناسبات إلى أن تقرع أبوابها نفسها . وهكذا استشعر النصارى ان الواجب يقتضيهم أن يقارعوا لا جنودَ الاسلام فحسب ، بل ان يقارعوا أيضاً العقيدة التي زوّدتهم بالقوة الدافعة الأصلية إلى فتح هذا العدد الكبير من البلدان التي شكلتْ في يوم من الايام جزءاً من العالم المسيحي . ولقد اصطنعوا في معركتهم هذه ضد الاسلام وكتابه المقدس ورسوله وسائل بعضها شريف وبعضها غادر .

ولم يكن الدفاع المليّ عن النفس هو وحده الحافز الذي دفع المسلمين

---

* **Origen** لاهوتي نصراني عاش في الاسكندرية حوالى (١٨٥ — حوالى ٢٥٤)المعرب.

** زعيم الكنيسة النصرانية الأولى ، ومؤلف « مدينة الله » و « اعترافات » (٣٥٤— ٤٣٠) . (المعرب)

إلى الأخذ بأسباب التفكير الفلسفي . ذلك بأنهم اكتشفوا ، شيئاً بعد شيء ، تناقضاتٍ ظاهريةً في القرآن ، تناقضاتٍ لا سبيل إلى ازالتها إلا بالتمحيص العقليّ . وكان في قتل بعض المسلمين لعلي ، صهر الرسول ، وللحسين ، حفيده ، ما واجهَ الجماعة الاسلامية بهذين السؤالين اللذين يكادان يستعصيان على الأجابة : « كيف يستطيع مسلم ان يقتل أخاه المسلم ؟ » و « ما مقوّمات المؤمن الحقيقي ؟ » ولم يكن بمستطاع الايمان ، في ذات نفسه ، ان يقدم جواباً صحيحاً عن هذين السؤالين . وعلى أية حال ، فما من فلسفة يمكن ان تُستَحضَرَ من خَواء vacuum . فلا معدى ، في إنشاء أيما نظام فلسفي ، من أدوات وقواعد عقلية مخصوصة . ولقد كان ماضي العرب الثقافي بدائياً إلى حدٍّ يعجز عن تزويدهم بهذه الادوات أو بتلك القواعد . لا ، ولم يكن في ميسور اليهودية أو النصرانية أن تزوّدهم بشيء من ذلك ، لأن كلتا هاتين الديانتين وجدت نفسها في ورطة مماثلة . وكانت فلسفات الجنوب وآسية الشرقية مجهولة عند العرب . وحتى لو عرفوها فأن شَغَفهم بكل ما هو بعيد عن التجزيد وبالحقائق غير المبهمة كان خليقاً به ، في أغلب الظن ، أن يحول بينهم وبين الافادة منها على نطاق واسع . وهكذا لم يبق في متناولهم غير تراث عقلي واحد ، هو تراث الاغريق . فقد كان الشرق الادنى مشبعاً ، ما يزال ، بالحكمة اليونانية ، وهي حكمة لم تكن أوروبة ، الغارقة في ظلمات القرون الوسطى ، قد سمعت بها .

* * *

إن قصة اكتشاف المسلمين الفلسفةَ اليونانية ونقلهم إياها إلى الغرْب لتؤلفُ فصلاً من أروع الفصول في سِفْر التقدم البشري من دنيا الجهل إلى دنيا المعرفة .

وعلى الرغم من أن أوروبة لم تكن تعوزها المخطوطات اليونانية ،

فأن الكثرة الكبيرة من هـذه المخطوطات مخبوءة تحت اكداس من الغبار في مختلف الأديرة . ويحدثنا روجر بيكون في كتابه *Philosophiae* أن القيّمين على تلك المخطوطات أكثر جهلاً ولا مبالاة من أن يدرسوها. وكانت الترجمات اللاتينية لا تزال غير موجودة . ولقد بزّت القسطنطينية رومةَ كمركز للنشاط العقلي ، ومن طريق القسطنطينية وفارس ، في المقام الأول ، اكتسب العرب معرفتهم باليونان .

وبعد فتح الاسكندر الشرقَ الأدنى وجدتِ الثقافة الاغريقية ترحيباً حاراً حتى في أقصى المراكز الأمامية من امبراطوريته المترامية الأطراف . وفي القرن الخامس للميلاد أدت المنازعات الدينية إلى طرد كثير من العلماء المسيحيين من مواطنهم في الامبراطورية البيزنطية . وكان أعظمَ هؤلاء شأناً النساطرةُ ، الذين اعتبرتهم الكنيسة الشرقية هراطقة . بيد أن فارس والعراق فتحتا أبوابهما في وجههم ، فأسسوا في ثاني هـذين البلدين مدرسة الرها الشهيرة . كان بعضهم يونانياً ، وكان بعضهم الآخر سوريين ، ولكنهم ترجموا المخطوطات اليونانية الكثيرة التي حملوها معهم إلى اللغة السريانية دون غيرها ، وهي لغة مشتقة من الآرامية .

حتى إذا رقي عرشَ الخلافة ، في بغداد ، المأمونُ بن هارون الرشيد ، عام ٨٠٣ كان المسلمون يَعُون أحسن الوعي وجود التراث الاغريقي العظيم ، وكان خليفتهم هو الذي ساعدهم على إشباع شهواتهم العقلية الجديدة . لقد بعث بالرسل إلى كل بلد تراءى له أن فيه مخطوطات يونانية ، وأسس أكاديمية خاصة للمترجمين ، هي « دار الحكمة » ، في بغداد ، وجنّد عدداً لا يحصى من المترجمين فنقلوا تراث اليونان الكلاسيكي إلى العربية . وفي هـذه المهام كلها استخدم علماء مسلمين ونصارى ويهوداً على حد سواء . وهكذا أمست دراسة التراث اليوناني هُياماً عند العرب وعند الفرس اخوانهم في الدين . وشيئاً بعد

شيء انتقلت ترجماتهم للآثار الاغريقية وشروحهم عليها من بغداد إلى صقلية وإلى اسبانية حيث درسها علماء مسيحيون من مثل مايكال سكوت، وروجر بايكون ، والبرت الكبير ، وجيرارد الكرموني دراسة نهمة . والواقع ان الفيلسوف المسلم ، ابن رشد ، هو الذي شرح كتب ارسطو للغرب وبذلك مكّن العلماء النصارى – وبخاصة القديس توما الأكويني – من وضع الأسس لفلسفة نصرانية ولاهوت نصراني .

وكان ارسطو ، من بين عباقرة الاغريق كلهم ، هو الوجه الذي بجّلَهُ المسلمون أكثر ما بجّلوا ، واعتبروه مصدر الحكمة الكلاسيكية الأصلي . ومع ذلك ، فأنهم في دراساتهم الفلسفية الخالصة ، من دون دراساتهم العلمية ، آثروا أن لا يعتمدوا ارسطو في المقام الأول ، ولكنْ ذلك المزيجَ من أرسطو وافلاطون الذي كان أفلوطين ورجال مدرسته الافلاطونية الجديدة هم أبرز ممثّليه . وكان الكتاب الذي خلّف في تفكيرهم أعظم التفكير هو كتاب « اللاهوت » *Theology* لأرسطو الذي تألّف ، في الواقع ، من الكتب الثلاثة الاخيرة من الـ *Enneads* لأفلوطين .

* * *

إن المشكلات التي شَغَلَتِ الفلاسفة المسلمين كانت مشكلاتٍ أثارت اهتمام معظم المفكرين الغربيين على نحو موصول : – التناقض الظاهري بين الاله الكامل والعالم الذي يعوزه الكمال ؛ بين الاله الواحد الذي لا يتجزأ والكون القائم على التعدد ؛ بين حرية الارادة والقضاء والقدر ؛ بين خيريّة الاله وما يحفل به العالم من شر . وعلى الرغم من أن استشراف المفكرين المسلمين لهذه المشكلات كان استشرافاً فكرياً وعقلانياً فانهم لم يجيزوا ، البتة ، لمكتشفات العقل أن تَنسَخَ المعتقدات الدينية . لقد كانت غايتهم ، في الواقع ، ان يوفقوا ما

بين حقائق الدين وحقائق العلم . وجائز أن لا يكون النجاح قد حالفهم في هذه المهمة مخالفةً كاملة ، إلا أنهم اقتربوا من تحقيق هذا الهدف بقدْر ما اقترب أيما فيلسوف من فلاسفة الغرب ، وتركوا أثراً عميقاً في الفلسفة المدرسية (السكولاستية) النصرانية وفي تفكير الفلاسفة الغربيين بوجه عام . وليس من المبالغة ان نقول ان الفلسفة المسيحية ما كان في ميسورها أن تكون ما هي ، لو تعيّن عليها ان تستغني عن النتائج التّي توصل اليها رجال كالفارابي وابن سينا ، والغزالي وابن رشد .

وقبل أن ينجب الاسلام فلاسفة عظاماً أطْلعَ عدداً من الحركات الفكرية التي وضعت ، برغم الصفة الثيولوجية التّي غلبت عليها ، أساساً صالحاً للنشاط العقلي الخالص الذي قام به الباحثون عن الحقيقة ، في فترة متأخرة نسبياً . وبعض هذه الحركات تبدو لنا اليوم ، ونحن ننظر اليها من على مَبْعدة ألف عام ونيف ، حركاتٍ أقرب إلى أن تكون بدائيةً . وهكذا حاول المرجئة ، والقَدَرية ، والجَبْرية أن يحلوا الثنائية القرآنية الاساسية الخالصة بحرية الارادة والقضاء والقدر . بيد أنهم بدلاً من محاولة الوصول إلى حل عقلي خالص اكتفوا بالسفسطات الثيولوجية وباللعب على الألفاظ . حتّى إذا نشأ مذهب الاعتزال ، الذي أسسه في القرن الثامن واصلُ بن عطاء ، وجدنا أنفسنا لأول مرة أمام حركة عقلية جدية حاولت ان تفيد من جميع الأدوات الفلسفية الميسورة في ذلك العصر . ونحن نقع عند الأشعري (٨٧٣ – ٩٣٥) ، مؤسس « المدرسة » الاشعرية ، على بذور كثير من المفاهيم التّي اصطنعها في ما بعد خلفاء له تمتعوا بشهرة أعظم . فقد عُنِيَ ، بالاضافة إلى مشكلة حرية الارادة ، ببعض المفاهيم الأساسية، كمفهوم الوجود ومفهوم النفس . وفي امكاننا ان نذهب إلى حد القول إنه سبق « كانت » ، **Kant** ، أو كاد ، إلى مذهب « الشيء في

ذات نفسه » (*das Ding an sich*) وكذلك وضع أتباعه ، الاشاعرة ، نظريةً في « الجوهر الفرد » **Atomism** سبقت في بعض مظاهرها نظرية الذرات التي وضعها لايبنيتز في وقت متأخر جداً . أما حركة اخوان الصفا ، الذين تؤهلهم أعمالهم الموسوعية لحمل لقب « الآنسيكلوبيديين » الأولين ، فقد كانت لها ترجيعات لا في الفلسفة فحسب ، بل في السياسة العربية والعلم الاسلامي ، على الجملة ، أيضاً .

وعلى الرغم من أن المسلمين أطلعوا عدداً كبيراً من الفلاسفة ذوي الجدارة التي لا جدال فيها ، فأن ستة منهم ليس غير اكتسبوا منزلة عالمية ، وهم : الكِندي ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، وابن عربي . وسواء أكان هؤلاء الفلاسفة مؤيدين للاغريق ، أو معادين لهم (كالغزالي) ، فقد عبّوا كلهم من ينابيع الافلاطونية الجديدة . وحتى اولئك الذين حاولوا من بينهم أن يدحضوا المقدمات الارسطوطاليسية اضطُرّوا إلى اصطناع المنطق ، وفي كثير من الاحيان نفس المصطلحات ، التي وضعها كتاب « المنطق » *Organon* لأرسطو في متناولهم . وقد تبنّى معظمهم أيضاً الصيغةَ التي ابتدعها افلوطين ، والتي قالت بأن الله ليس هو المسؤول ، مباشرةً ، عن الكون وعن جميع المشكلات الناشئة عن وجوده ، ولكن المسؤول هو عاملٌ وسيطٌ يدعى الـ « لوغوس » **Logos** أو « نوس » **Nous** ، أي الروح الكليّة أو السبب الأول . ولكن حلّ أفلوطين البارعَ لتلك المشكلة الاساسية ترك ثغراتٍ كثيرة ، واسئلة عديدة من غير جواب . ولقد كان الفلاسفة المسلمون هم الذين هذبوا نظامه هذا وبلغوا به غاية الكمال ، وأضفَوْا عليه مظهراً عقلياً لا عيب فيه . وعلى الرغم من أن فلسفتهم هي في أصولها اغريقيةٌ على نحو واضح ، فأنهم قد أحالوها إلى نظام اسلاميّ السِمة على نحو واضح أيضاً ، نظامٍ لا يتنافر البتة

تنافراً كاملاً مع العقائد القرآنية . ومع ان السياسة ومشكلات الأخلاق لم تَشْغل الفلاسفة المسلمين إلى أيما حدّ صارخ ولم تصرِفْهم عن شؤون الفكر الأخرى ففي ميسور الباحث أن يقع عليها في آثارهم ضمن إطار اسلامي واضح .

* * *

إن أول الفلاسفة المسلمين العظام هو ابو يعقوب الكِندي (القرن التاسع) الشهير بـ « فيلسوف العرب » بسبب من نسبِهِ العربي الصريح . كان واحداً من أقدم المفكرين « العقلانيين » في الاسلام ، وكان إلى ذلك شديد الاعجاب بسقراط ، ونصيراً من أنصار الافلاطونية الجديدة ، والفيثاغورية الجديدة . وكانت له أيضاً مشاركةٌ ناشطةٌ — شأنَ معظم الفلاسفة المسلمين — في كثير من شُعَب المعرفة الأخرى . فقد ألّف في الطب وفي علم التنجيم ، وترجم وعرّب بعض الكتب عن اليونانية مباشرةً . لقد ذهب الى ان الرياضيات هي الاساس الذي تقوم عليه لا الدراساتُ العلمية فحسب ، بل الدراساتُ الفلسفية أيضاً . وقد اختلف مذهبُهُ في خلْق الكون بعضَ الشيء عن مذهب أفلوطين ، برغم انه اقتبس منه فكرة « السبب الاول » (بوصفه العنصر المبدع) وفكرة « روح الكون » . وفي حقل المنطق ، وما قد نستطيع أن ندعوه « علم النفس » تكشّف الكِندي عن مفكّر أصيل . وعلى الرغم من ان نظريته في الطرائق التي تعمل بها الروحُ في الانسان مستمدةٌ على نحو جزئي من الاسكندر الأفروديسي ، الشارح الارسطوطاليسي الذي نشط للعمل والتأليف في أثينا ، في أواخر القرن الثاني للميلاد ، فان صياغته لتلك النظرية كانت أدقَ وآنقَ من صياغة سلفِهِ الاغريقيّ . وكان طبيعياً ان يؤمن الكِندي ، وهو الذي عُني عناية بالغة بعلم التنجيم ، بأن للاجرام السماوية أثراً في حياة الكائنات البشرية ؛ ولكنه أنكر ان يكون لها مثل هذا الأثر في النفس الانسانية ، ذاهباً إلى ان سلطانها مقصورٌ

على الاحداث المادية الخالصة ، وأن دورها ثانوي لا يعدو تحريك هذه الأحداث وإثارتها .

* * *

وفي إمكاننا القول إن الفلسفة الاسلامية لم تبرز إلى حيز الوجود إلا في ظل العباسيين ، في القرن التاسع للميلاد . ومع ذلك فلم تكد تنقضي على ظهورها مئةُ عام حتى اطلعت مفكراً عالميّ المنزلة حقاً ، هو الفارابي (٨٧٠ – ٩٥٠) ، أحد معاصري الاشعري . ونحن نستطيع ان ندرك مدى الاثر العظيم الذي كان للفارابي في الفلسفة السكولاستية المسيحية إذا درسنا مؤلفات القديس توما الأكويني ، أبرز فلاسفة النصرانية في جميع العصور . ففي كتابيه الرئيسيين « الخلاصة ضدّ الأمم »*Summa contra Gentiles*و « الخلاصة اللاهوتية » *Summa Theologica* لا يسرف القديس توما في التوكؤ على الفارابي فحسب ، بل يصطنع (من غير ما اشارة مباشرة إلى الفيلسوف العربي) أهم فكراته وحججه ، وكثيراً ما يقتبس أقواله ، بالحرف الواحد تقريباً ، ناقلاً إياها بخاصة من كتبه التالية : « فصوص الحِكَم » و « العقل والمعقول » [٧٨] . ومع ذلك فأن ثلاثمئة عامٍ من التطور السياسي فصلتِ الفيلسوفَ المسلم عن خالَفِهِ الغربي ، ولقد تراكمت خلال تلك القرون الثلاثة مادةٌ فلسفية ضخمة .

وكان الفارابي ، الذي لقّبه المسلمون بـ « المعلم الثاني » أي الفيلسوف الذي تلي منزلتُه ، منزلةَ ارسطو ، المعلم الاول ، مباشرةً ، ابنَ قائد فارسي من أصل تركي . ولقد مثلتِ الرياضيات ، في ثقافته المتعددة

---

٧٨ راجع روبرت هاموند :

Rev. Robert Hammond : *The Philosophy of Alfarabi and its Influence on Medieval Thought* . **New York : The Hobson Book Press , 1947** .

الجوانب ، دوراً حاسماً . ولكنه ألّف في الفترة الأخيرة من عمره في الطب ، والفيزياء ، وعلم النفس ، والالهيـات ، والمنطق أيضاً . كان عالماً بارزاً بالألسن ، ويقال إنه كان متمكناً من سبعين لغة .

ومن العسير على المرء أن يقرر في أيّ حقول الثقافة المتشعبة التّي اشتغل بها الفارابي قدّم هذا الفيلسوف أروع مآثره : في ما وراء الطبيعة ، أم في علم النفس ، أم في علم المنطق ؟ ولقد أوصى ابن ميمون ، أعظم الفلاسفة اليهود ، بدراسة كتابه « السياسة المدنية » بهذه الكلمات : « انا لا أوصيك بأن تقرأ أيمـا كتاب في علم المنطق غير تلك الكتب التّي وضعها الفيلسوف ابو نصر الفارابي » . ومع ذلك فقد كان ابن ميمون مطّلعاً لا على كتب ارسطو المتصلة بهذا الموضوع ، بل على كتب معظم الفلاسفة اليونان والمسلمين والنصارى الآخرين ، الذين عاشوا قبل القرن الثاني عشر ، أيضاً . وفي علم المنطق ، اشتهر الفارابي أكثر ما اشتهر بمذاهبه في البرهان ، والمعايير ، والتعريفات ، وبقانون التناقض الذي وضعه . لقد شرح ، على نحو أكثر وضوحـاً مما فعل ايما امرئ قبله ، كيف أنه لا سبيل إلى استقراء الحقائق الكلية إلا بعد التثبّت من الحقـائق المفردة ، وكيْف أن المعرفة التجريدية ، أو التصوّرية ، يجب أن تُسْبَقَ بـ « المُدْرَكات » ، يعني بالمعرفة المكتسبة من طريق الخبرة الحسّية .

ولا تقلّ عن هذا ، أهميةً وشأناً ، أو تكاد ، نظرياته في مـا يؤلف « الكائن الحق » ، وفي حقيقة « الجوهر » و « الشكل » . لقد استعاض عن المفهوم الاسلامي السنيّ « لأرادة الله » ، بوصفها القوة المسؤولة عن خَلْق الكون ، بمفهوم ألْصَق بالفلسفة يقول بـ « المعرفة الالهية لمـا هو ضروري » . واذ ذهب إلى ان المعرفة أعظم شأناً حتى من الأخلاق ، فقد زعم أن علم الرياضيات مُجَذّراً **rooted** في علم الفلك يجب ان يكون هو أساسَ المعرفة العقلانية كلها . ولقد اعتبر

مثلَ هذه المعرفة الخبرَ الأسمى الذي يستطيع الانسان بلوغه .

ومثل معظم الفلاسفة المسلمين ، عالجَ الفارابي ، في تبسّط ، موضوعَ النبوّة والنبوءة . وعلى الرغم من أن كثيراً من فكراته الفلسفية مستمدٌ ، من غير ما ريب ، من أفلاطون فقد استعاض عن فكرة « الملك ـ الفيلسوف » التي قال بها افلاطون بفكرة الحاكم الذي يجب ان يكون نبياً أيضاً .

ولعله لم يكن بين فلاسفة المسلمين ، في العصور المتأخرة ، فيلسوفٌ واحدٌ غيرُ مَدِين للفارابي وآثاره ؛ وإن كثيراً من الفكرات والنظريات التي انشأها خلفاؤه في فترات قصيّة لتكمن جذورها في فلسفته هو .

* * *

وعلى الرغم من أهميته الحاسمة في تطوّر التفكير الفلسفي ، فقد ظلت شهرة الفارابي في العالم الغَرْبي اضعف بكثير من شهرة ابن سينا فيه . وليس يرجع الفضلُ في هذه الشهرة العريضة التي تمتع بها ابن سينا في الغرب إلى كتاب بعينه من كتبه [الكثيرة] أو إلى مُنْجَز بعينه من منجزاته [الهامة] ، ولكنه يرجع في المقام الأول إلى شمول آثاره واتساع أفقها . والواقع ان جميع الموضوعات التي عالجها ، سواء أكانت في ميدان العلم أو الطب ، أو الفلسفة أو علم النفس ، لتنمّ عن عقل متفوق ، وعن استيعابٍ فكري بالغ الحيوية والنفاذ .

وُلد ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا في أفْشَنة من أعمال فارس ، عام ٩٨٠ وتوفي عام ١٠٣٧ في هَمَذان . ولقد وُفِّق ، في عُمْرٍ قصير لا يعدو سبعة وخمسين عاماً ، إلى وضع عدد مُذْهل من المؤلفات في عشراتٍ من الموضوعات المختلفة ، وهو صنيعٌ مُعجز لا يفسّره غير نشاط عقلِهِ الذي لا يُضارَع وغيرُ قدرةٍ على التمثيل والهضم لا يقدّم الينا التاريخ غير بضعة أمثلة رائعة عليها . لقد تلقى ، بوصفه ابن موظف من موظفي الدولة ، ثقافة حرة وشاملة إلى حد

استثنائي ، وأتيحت له فرصة التتلمذ على أبرع المعلمين في بيئته . ومع ذلك فيبدو أن أياً من معلّميه لم يكن كفوءاً له . فلم يكد يبلغ العاشرة من العمر حتى كان قد حفظ القرآن وجانباً كبيراً من التراث الاسلامي . ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة حتى كان قد تضلّع من الشريعة ، ومن جانب كبير من تراث ارسطو ، وأقليدوس ، وبطليموس ، بالاضافة إلى عدد لا يحصى من الشارحين « الافلاطونيين الجدد » . وفي السادسة عشرة كان قد طالع معظم كتب الطب التي تيسّر له العثور عليها ، وكان قـد باشر نشاطه كطبيب . وفي السنوات القليلة التالية وقف جهده على توسيع معرفته بالمنطق ، والفلسفة ، وما وراء الطبيعة .[٧٩] وتنقّل ابن سينا ، خلال الفترة العظمى من حياته ، من بلاط إلى بلاط ، شاغلاً في بعض الاحيان منصب الوزارة ، جاذباً إلى دروسه في الطب أو الفلسفة حشوداً كبيرة من الطلاب المتحمسين ، دارساً أثناءَ ذلك كتاباً أو مؤلفاً كتاباً في تدفقٍ موصول والواقع أن الطب والفلسفة ، والرياضيات وعلم الفلك ، ومشكلات الحركة ، والخواء **vacuum** ، واللانهاية ، والضوء ، والموسيقى ، وعلم طبقات الارض ، والكيمياء ، وعلم الاقراباذين **pharmaceutics** كانت بعض الموضوعات التي ألّف فيها . ولسنا نقع على شمولية في العقل مماثلةٍ إلا عند ليوناردو دا فنشي مع العلم ، طبعاً ، ان [العبقري الايطالي] أتيح له اطّلاع أوسعُ بكثير على تراث المفكرين الأسبقين .

وإذا كان في ميسور أيما جملة واحدة أن تلخص فلسفة ابن سينا جاز لنا القول انها ليست ثمرة استشرافٍ عقلي ذي جانبٍ واحد ، وإنها اقتضت تعاون العقل والحدْس جميعاً . وبينا استُمِدّ جزء كبير مـن

---

٧٩ راجع ويكنز :

G. M. Wickens , editor , *Avicenna : Scientist and Philosopher* . **London : Luzac and Co. , 1952 .**

فلسفته من آثار ارسطو والفارابي فأن فكرته القائلة بأن الحقيقة كلها هي فيض أو حركة كانت من إبداعه هو مثة بالمثة . وهذه الفكرة تنهض دليلاً على انه تمثّل ، من طريق الحدس ، بعضَ المفاهيم الرئيسية في فيزياء القرن العشرين .

وعلى الرغم من أن ابن سينا كان قبل كل شيء عالماً وفيلسوفا ، فانه لم يفارق قط عمود الوحدانية الاسلامية ، والله هو في نظام الخلق عنده رأس كل شيء وعلّة كل شيء . فالله وحده هو « واجب الوجود » والكائن الذي يُعتَبَرُ جوهرُهُ عَيْنَ وجودِهِ . أما كل ما عداه فمجرد ممكن ؛ إنه قد يوجَدُ وقد لا يوجَدُ ، فوجوده عَرَضيّ . وعلى الغرار نفسه فأن التعددية والفردية لا يمكن ان يوجَدا إلا في المخلوقات العَرَضية – أي في جميع المخلوقات باستثناء الله . والمادة هي المبدأ المسؤول عن التعددية والفردية ، بوصفها الحد الذي يقف عنده عملُ الروح . ولم يكن لابن سينا مناصٌ من الاحجام عن محاولة تعريف المادة ، ذاهباً إلى أنها كمونيّة * **potentiality** ليس لها ، برغم أنها أزليّة ، أيما « وجود » في ذات نفسها *per se* ، او ليس لها على الأقل نزعة نحو « اللاوجود » . وهي نقيض الوجود المحض الملازم لله .

وكرّس ابن سينا فترة طويلة لمشكلات المنطق ، ولعمليات العقل في محاولته اكتساب المعرفة . وعلى الرغم من أنه أفاد في نظرياته الخاصة بهذين الموضوعين مما انتهى اليه الكندي والفارابي فأن استنتاجاته الشخصية تتكشّف عن وضوح أعظم وفطنة أغزر من الوضوح والفطنة اللذين تكشفت عنهما استنتاجات أسلافه . وليس عند علم النفس الحديث أشياء كثيرة يستطيع أن يضيفها إلى رأيه في الطرائق التي يعمل بها العقل ، وهو رأي صنّف فيه مختلف ملكات الادراك العقلي . ولسنا

* أو وجود بالقوة .

نجد في فكرات القديس توما الاكويني عن المعرفة البشرية غير نَزْر يسير لم تنصّ عليه ، من قبلُ ، نظرياتُ ابن سينا . ليس هذا فحسب ، فأن ادراك ابن سينا الحَدْسي إلى حد بعيد للحقيقة القائلة بأن للعقــل وجوداً مستقلاً عن الجسد (ومن ثمّ بأن النفس خالدة) قــد سَبَق بأكثر من خمسمئة عام الفكرة التي ذهب اليها ديكارت ، والقائلة بأن في استطاعتنا أن نتخيل أنْ ليس لنا جسد ، ولكن ليس في استطاعتنا ان نتخيـّل اننا غير موجودين .

والواقع أن الفلاسفة الغربيين تبنـّوْا كثيراً من فكرات ابن سينا ، ولكنْ من غير ان يُسْندوها إلى مصدرهـا الصحيح . بل ان نفوذه ليتجلّى على نحو أوضح في مذاهب الفلاسفة اليهود ، وبخاصة في مذهب موسى ابن ميمون (١١٣٥ – ١٢٠٤) ، الذين قام كثير منهم بدَوْر حلقة الوصل بـين مفكري الاسلام وفلاسفة النصارى المدرســين (السكولاستيكيين) .

* * *

كانت السنوات الـتي عقبت وفـاة ابن سينا سنواتٍ حرجةً جداً بالنسبة لتطور الاسلام ، سواء بوصفهِ نظامـاً دينياً أو بوصفه نظامـاً فلسفياً . ذلك بأن عـَمـَلَ الفلاسفة لم يكن دائماً موضع ارتياح ممثلي السنة ، إذ بدا وكأنه يتهدّد بساطةَ الايمان وصراحته بخطرٍ عظيم . ولكن التصوف ، الحركة الباطنية التي نشأت ضمن إطار الاسلام ، كان أشد خطراً على « السنّيّة » . وكان التصوف الذي حاول في الأصل أن يصوغ نظامـاً يُستطاع بواسطته إنشاء علاقة شخصيةٍ تتّسم بصميميّة أقوى بين الانسان والله ، قـد اتخذ أشكالاً عاطفية إلى حد الاسراف . ولقد زعم كثيرٌ من المتصوفة ان الحياة الدينية ليست رهناً بالتزام فرائض الاسلام الخمسة ، وهو زعم استلزم بالضرورة أن عمودَ السنّة والسلطة الدينية يمكن إغفالهما ، وأن كل فردٍ هو الحَكـَم الوحيد الذي يقرّر

طبيعةَ العلاقة بينه وبين الله . بل لقد ذهب بعضهم إلى حد الزعم أنهم هم الله . وشعر آخرون انهم مخوّلون لا حقّ إغفال القانون الديني فحسب ، بل حقّ إغفال القانون الاخلاقي أيضاً . وانتهى كثيرٌ منهم إلى إدمان الخمر وانغمسوا في حياة عاطفية افتضاحية exhibitionist مَرَضية وفي مسالك فاسقة شهوانية ، وكلها ضلالات حاولوا تبريرها بقولهم انها لوازم مشروعة لحياتهم الدينية .
وبين تفسيرات الأيمان الشاذة هذه ، من ناحية ، وعقلانية الفلاسفة ، من ناحية ، وجدتَ « السنّية » نفسها مهدّدة بالتفسّخ ، ووجد الاسلام نفسَه ، ككلٍّ ، في عَماء chaos روحي .

في هذه اللحظة الحرجة بالذات ظهر في الديار الاسلامية مفكرٌ من أعظم مفكري المسلمين وأغناهم موهبةً ، هو الغزالي ، لكي ينقذ الموقف . وقد وُلِد ابو حامد ابن محمد الطوسي عام ١٠٥٩ في خراسان ببلاد الفرس . وعلى الرغم من أن أباه توفي عنه وهو بَعْدُ حَدَثٌ فقد تلقّى ثقافة ممتازة . وسَرعان ما اعترف القوم بمواهبه العقلية البارزة ، فتولى في سنّ الثالثة والثلاثين منصباً اكاديمياً كان من أجلّ المناصب التي يطمح اليها العلماء المسلمون في ذلك الزمان ، أعني منصب الاستاذية في الجامعة « النظامية » الشهيرة في بغداد ، وهي الجامعة التي أسسها نظام المُلْك ، الوزير العظيم الذي عهد اليه السلطان السلجوقي ألب أرسلان بادارة شؤون الدولة . وبعد بضع سنوات مرّ الغزالي بأزمة خطيرة كان لها وجهان : نفسيّ وجسماني في آن معاً ، فاعتزل مهامّه التعليمية ، وأمسى ناسكاً يطوّف في البلاد . ثم إنه استأنف التدريس ، ولكنه عاد فاعتزله ليحيا حياة عملٍ متوحّدٍ وتأمّلٍ موصول . وتوفي في طوس ، عامَ ١١١١ .

وكان من نتائج الازمة الأصلية أن تحوّل الغزالي من معلم للدين والفلسفة حريص على الدنيا إلى صوفيّ . ومن سيرة حياته بقلمه نعلم

أنه بعد أن درس آثار الفلاسفة والفقهاء وعلماء الالهيات درساً عميقاً خَلُص إلى ان الحقّ المطلق لا يمكن ان يُكْسَبَ إلا من طريق الكشف الصوفي . وأهم كتاباته على الاطلاق ليست غير تجويد لهذه الفكرة . وفي عملية التجويد هـذه وُفـّق الغزالي إلى تطهير التصوف مما علق به من أدران ، وتحرير الفلسفة الاسلامية من بعض عقلانيّتها الباردة ، إن لم نقل من بعض دينويّتها . وكانت مؤلفاته التي مكّنته ، أكثر ما مكّنته ، من تحقيق هذه المهمة هي « المنقذ من الضلال » ، وفيه طرفٌ من سيرته الذاتية ، و « إحياء علوم الدين » ، وأخيراً كتابه الأبعد شهرةً ، « تهافت الفلاسفة » . وفي هـذا الكتاب الاخير ، حـاول الغزالي – برغم تبنّيه ثمرات الرياضيات والعلم والمنطق وبرغم اصطناعه اسلحة الفلسفة الارسطوطاليسية – أن يقوّض شهرة ارسطو (والاغريق) كمرشدين للفلسفة الاسلامية . وعلى نقيض الفارابي ، انكر ان يكون في ميسور العقل (وبالتالي ، الفلسفة) أن يحيط بالمطلق واللامتناهي ، وأصرّ على ان من واجبه أن يَقْصُرَ نفسه على المتناهي والنسبيّ . إن الحق المطلق لا سبيل إلى بلوغه الا من طريق الخبرة الباطنية التي هي جوهر الدين الصحيح .

وكانت مفاهيم الغزالي الاساسية متعارضة ، على نحو متوقّع ، مع تلك المفاهيم التي عمل أسلافه المسلمون جاهدينَ من اجل إنشائها على أساس من المذاهب الافلاطونية الجديدة . وهكذا ، فبينا ذهب اولئك الأسلاف إلى ان الكون متناهٍ في السّعة ولكنه غير متناه (سرمديّ) في الديمومة ، حاول هو أنّ يثبت ان الزمان غير المتناهي يستلزم أيضاً المكان اللامتناهي ، ما دام المكان متصلاً بالجسد ، والزمان متصلاً بحركات الأجساد (يعني أجرام النجوم والكواكب) . وإذ أنكر الغزالي ان يكون ثمة بين الله ومخلوقاته أيما عاملٍ وسيطٍ ، كاللوغوس **Logos** (الروح الكليّ) ، والنّوس **Nous** (العقل) ، والعلة الأولى فقد

ذهب إلى ان الله مسؤول مباشرةً عن كل ما هو موجود . وهكذا ، بينا زعم الفلاسفة الآخرون ان الله يعنى بالكليات دون الجزئيات قال الغزالي بأن الله يعنى حتى بأدق تفاصيل العالم الذي أبدعه . ومنذ أيام المعتزلة أمسى بَدَهياً القولُ بأن قبول الصفات الالهية (اسماء الله الاسلامية التسعة والتسعين التقليدية) يفترض قبولاً لتعدّدية الهية . بيد أن هذا لا يتّسق ووحدته تعالى ويتعارض مع وحدانية العقيدة الاسلامية الصارمة . أما الغزالي فلم يتردد في قبول صفات الله ، التي اعتبرها متواجدةً **coexistent** مع وحدته .

وعلى الرغم من ان الفارابي وابن سينا وأمثالهما من الفلاسفة عُنوا بمشكلات الخلافة عناية غير يسيرة ، فان مسائل الحكومة الصالحة والسلوك السياسي والاخلاقية في ذات نفسها *per se* لم تَشْغَلْهم إلا قليلاً . أما الغزالي فقد رفع هذه المسائل إلى المقام الأسمى ، وهو في كتابه « بداية الهداية » يعالج في تفصيلٍ كبيرٍ كل مظهر من مظاهر ما اعتبره السلوكَ الاخلاقي والدينيّ الصحيح . إن أيما شيء مما يتصل بمثل هذا السلوك لا يفوت انتباهه وهو يقدّم ارشادات دقيقة لحلّ مشكلاتٍ كثيرة تشمل حتى المزاحَ ، وتبرير الذات ، والاغتياب ، والمجادلةَ ، واللعن ، والنهم ، وما اليها .

وأروع خصائص الغزالي ــ بصرف النظر عما تمّ له من معرفة هي أقرب إلى الفلسفة وأشد لصوقاً بها ــ استقامتُهُ البالغة ، وجدّية هدفِهِ ، والإلحاح شبه التراجيدي الذي كان يحدوه في اداء رسالته . انه يجسّد في شخصه وفي فكراتِهِ مزاجاً متآلفاً بين التقوى الدينية الصادقة والموضوعية الفلسفية ، ويجسّد هياماً صوفياً بالله ودقة تكاد تكون علميةً ، في الطريقة التي حاول اصطناعها في التعبير عن ذلك الهيام . ولا سبيل إلى الشك في أنه عمّق مفاهيم الاسلام الدينية ونفَحَ « السّنيّة » بنفحةٍ روحية . ليس هذا فحسب ، بل لقد خلع على

التصوف وقاراً كان قد فقدَه قبل ظهوره . وكان يدعو ، في حقل الدين ، إلى تكوين المؤمن ذي الخلق القويم لا الشديد الثقة بأخلاقيته الخاصة ، والمؤمن الفَرْدانيّ النزعة لا الفاسق الخالع العذار . وتضارع مكانتُهُ في الاسلام مكانةَ القديس توما الاكويني في النصرانية .
وليس ج. ف. مور هو العالم الغربي الوحيد الذي يعتقد بأن « الخدمة الشخصية التي أسداها الغزالي إلى علم الالهيات (اللاهوت) كانت أعظم من تلك التي أسداها اليه اللاهوتي النصراني » (يقصد القديس توما) . [٨٠]

ومنذ القرن الثاني عشر ترجمت كتب الغزالي (لا في ما وراء الطبيعة والمنطق فحسب ، بل في الفيزياء أيضاً) إلى اللاتينية (وبخاصة في مدينة طليطلة) ؛ ومنذ البدء كان لهذه الترجمات سلطان عميق على السكولاستية النصرانية واليهودية . وبينا جُذِب ابن ميمون وبار هيبريوس **Bar Hebraeus** وغيرهما من المفكرين اليهود نحو تعاليمه الاخلاقية تقبّل الفلاسفة النصارى ، في نَهَمٍ مذهب الغزالي في « الخلْق من عدَم » *creatio ex nihilo* ، هذا المذهب الذي الغى كل وساطة بين الله ومخلوقاته . ويكاد يكون من الثابت ان القديس توما تبنّى فكرات الغزالي في عجز العقل عن تعليل الاشياء الالهية ، وفي وحدة الله بوصفها شيئاً يفترضه كمالُهُ ، وفي اسماء الله ، وفي امكانية الرؤيا الطوباوية **beatific vision** .

* * *

وفي استعراضنا الاضافي للفلسفة الاسلامية يتعين علينا أن نولي وجهنا عن بلدان الشرق الادنى وشخصياته ، وأن نمضي في اتجاه الغرب . ذلك بأن العروبة الغربية ، المتمركزة في المقام الأول في المدن الاسبانية

---

٨٠ راجع ج. ف. مور :
G. F. Moore : *History of Religions*, **Vol. 2, p. 457, 1919.**

الثلاث ، قُرْطُبة وطُلَيْطُلة وإشْبِيلية ، كانت قد أمست أعظم شأناً من وجهة النظر الثقافية حتى من بغداد أو أية مدينة من مدن فارس . والواقع ان الحيوية الفكرية التي تكشفت عنهـا اسبانية الاسلامية يمكن ان تقارَنَ بحيوية اثينا الفكرية في أوج مجدها ، وتبزّ حيوية فلورنسا الفكرية في عهد النهضة الاوروبية (الرونيسانس) . وحتى أعضاء الأسَر الحاكمة الجديدة ، البُسَطاء نسبياً ، كالموحدين في مراكش ، ما لبثوا أن أمسوا رُعاةً للمعرفة والفن . ولقد كان في التسامح الديني الذي أظهره حكام اسبانية المسلمون ، ما أجاز لكثير من العلماء النصارى واليهود أن يخلعوا غنىً جديداً على الثقافة التي قُدّر لها أن تصبح مَجْدَ شبه الجزيرة الأيبيرية وموضع اعتزازها في ظل سادتها المسلمين .

وعلى الرغم من ان بعض العلماء الاسبان تعوّدوا أن ينعتوا فلاسفة الغرب المسلمين الكبار بـ « الاسبان » ، فقد كانوا كلهم في الحقيقة الواقعة عرباً ، بدليل ان أسَرهم كانت قـد نشأت في الاصل في الشرق الادنى ثم ارتحلت إلى اسبانية في حين نشأت أُسَر قلة منهم في مراكش . وبينا كان اشهرهم على الاطلاق هو ابن رشد ، المعروف في الغرب باسم Averroês ، فقـد كان ثمة كثير غيره تركوا طابعهم الواضح على الفلسفة النصرانية .

ومن أقدم الفلاسفة « الاسبان » ابن حـَزْم ، المولود عام ٩٩٤ . كان ضرباً من الرائد في واحد من حقوله المختارة ، فقد الف أول دراسة شاملة في الدين المقارَن أُخْرِجت للناس في أية لغة من لغـات العالم ، وكان أول من أثار عدداً من القضايا الهامة المتصلة بتفسير « العهد القديم » و « العهد الجديد » . ولكن شهرته العظمى في العالم الاسلامي مستمدة من كتابه « طوق الحمامة » وهو من اقدم المؤلفات التي شرحت نظرية الحب الافلاطوني . وبعض الفكرات الـتي اشتمل عليها تنعكس في [شعر] التروبادور الاسبان والفرنسيين وفي الادب الرومانتيكي الاوروبي في القرون الوسطى . أمـا في حقلي الفلسفة والتصوف فتقوم

أهمية ابن حزم ، في الدرجة الأولى ، على الأثر الذي تركته كتبه في تفكير ابن تومرت ، المصلح المراكشي الذي أسس دولة الموحدين ، وفي تفكير مواطنه ، ابن عربي ، احد المفكرين الاكثر أصالة لا في الاسلام فحسب ، بل في العالم كله .

وكان خلف ابن حزم ، ابو بكر محمد بن يحيى ، الشهير بابن باجة ، والمعروف في الغرب باسم **Avempace** ، ذا شعبية أعظم في العالم المسيحي . ولد حوالى مختتم القرن الحادي عشر ، وكان من اسبق المفكرين المسلمين إلى الفصل ما بين حقائق الدين والحقيقة العقلية . وعلى الرغم من أن بعض اخوانه في الدين رفع آثاره الفلسفية إلى مرتبة آثار الفارابي العظيم فقد اشتهر في الغرب ، اكثر ما اشتهر ، بوصفه عالم فلك ، وعالم رياضيات ، ومشتغلاً بالخيمياء أو الكيمياء القديمة **Alchemy** .

ومن أبرز « الفلاسفة الاسبان » وأقربهم إلى النفس ابن طفيل (توفي عام ١١٨٥) الذي قضى معظم حياته في بلاط الموحدين في مراكش ، حيث لمع نجمه كوزير وكطبيب ملكي في آن معاً . وتقوم شهرته ، في الدرجة الأولى ، على « روايته » الغريبة النادرة ، « حي بن يقظان » التي مثلت شيئاً جديداً كل الجدة في التراث الفلسفي في عهد صاحبها . فتحت ستار حكاية من حكايات المغامرة يصف ابن طفيل ، في « حي بن يقظان » ، باستبصار روحي عميق ، نشوء الانسان نشوءاً عضوياً من مرحلة شبه حيوانية ، أو تكاد ، إلى مرحلة تطورية يغدو فيها الفهم الكامل لله ، والاتحاد الكامل به ، أمرين ممكنين . وبالمناسبة ، ففي استطاعة كتابه هذا أن يزعم انه كان هو النموذج الذي احتذته نظيرته الغربية ، وإن تكن مفرغة في قالب أقل روحانية ، أعني قصة روبنسون كروزو .

* * *

أما أشهر رجال العرب « الغربيين » فابن رشد ، وهو مفكر نحن مدينون له بأكثر مما تظن الكثرة الكاثرة منا . وُلِد عام ١١٢٦ في قرطبة ، وكان أبوه قاضياً كبيراً ، فتكشّف في سن مبكرة عن مواهب فكرية استثنائية . وكان لا يزال في العقد الثاني من عمره عندما اكتسب شهرة ، كفيلسوف ، وعالم ، وفقيه ، وعندما دعاه عاهل مراكش الموحِّديّ إلى اصلاح النظامين القضائي والتربوي في تلك البلاد . وما هي إلا فترة يسيرة ، حتى سأله ذلك العاهل أن يوضح النقاط الرئيسية في فلسفة أرسطو ، وهي نقاط لم تكن قد شُرِحت حتى ذلك الحين شرحاً صحيحاً . ولبّى ابن رشد الدعوة الملكية ، فشرع يؤلف شروحه الثلاثة لفلسفة ارسطو ، تلك الشروح الشهيرة التي اكسبته كلمات دانتي الشهيرة في « الكوميديا الالهيــة » (ch ' l gran comento feo) أو « الشارح الأكبر » . وطوال عدة قرون تالية درست اوروبة فلسفة أرسطو من خلال عيني ابن رشد ، واحتلت « الرشدية » مقام السيادة في الجامعات الغربية الكبرى .

ولم يكن اثر ابن رشد في الفكر الاوروبي وسلطانه عليه مقصوراً على شروحه الارسطوطاليسية . فقد طبعت فكراتُهُ الفلسفية الخــاصة الفلسفة السكولاستيةَ النصرانية بطابعها ، وكان هذا الطابع أشد عمقاً حتى من أثر شروحه الارسطوطاليسية في الفكر الغَرْبي . واذْ قاوم ابن رشد في حماسة بالغة نظريات الغزالي الاكثر اتّسامــاً بالصفــة الثيولوجية ، فقد ردّ على حملة هــذا الاخير على الفلاسفة ، بأن وضع كتابه « تهافت التهافت » . ومثلَ القديس توما ، الذي استعار كثيراً من فكراته ، دافع ابن رشد عن فكرة تناغم الايمان والعقل . ولكنه رفض – على نقيض بعض زملائه المسلمين – محاولةَ المزج ما بينهما . إن الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية يجب أن تظلاّ منفصلتين، باعتبار أن الحقيقة الفلسفية وقفٌ على القادرين على فهمها فحسب . ولقد

ساعد مذهبُهُ القائل بـ « الحقيقة المزدوجة » على تحرير الاستطلاع الفكري من سيطرة علم الالهيات ، ومن ثم على فتح الابواب للبحث العلمي . وكان طبيعياً أن يعنى ابن رشد، بوصفه طبيباً ذا كفاءة عظيمة ، بنقاء هذا الضرب من البحث وصفائه .

وعلى الرغم من محاولة ابن رشد الفصل ما بين الدين والفلسفة ، فإنه لم يخرج على عمود العقائد الاسلامية الرئيسية . لقد ظل أميناً لهذه العقائد ، فتصوّر الكونَ « صيرورةً » ازلية ، يقف المحرّك الأزلي وراء حركته الازلية . ولكن جوهرَ ذلك المحركِ المبدعَ لم يكن ، عنده ، الارادة الالهية كما نصّ عليها القرآن ، ولكن الفكر الالهي. وإذ اعتمد ابن رشد في استدلالاته القياسية على العقل أكثر مما اعتمد على قبول الحقائق الثيولوجية فأنه لم يأخذ بنظرية الغزالي الجارفة القائلة بأن الله يُعْنَى بالكليات والجزئيات جميعاً . لقد افترض بدلاً من ذلك اننا لا نستطيع – ما دام الجوهر الالهي يسمو على الكليات والجزئيات معاً – أن نقرر هل يُعنى الله بالكليات ام بالجزئيات ، أم بالكليات والجزئيات في آن واحد .

ومن فكرات ابن رشد التي راقت أكثر ما راقت للمفكرين النصارى تلك الفكرات المتصلة بعمليات العقل البشري ، والمتجسّدة في نظريته القائلة بالعقلَيْن الفعّال والمنفعل . وكان الرأي الذي أكسبَهُ عداوة الكنيسة الكاثوليكية والذي جعل زملاءه المسلمين يرتابون فيه هو رأيه في النفس البشرية . ذلك بأنه زعم أن النفس الفردية تفقد ، بعد الموت ، فرديّتها ، وترجع إلى النفس الكلية التي كانت قد انبثقت منها . وقد وجد المسيحيون والمسلمون ، على حد سواء ، في هذه النظرية إنكاراً لخلود النفس البشرية ، وهي عقيدة أساسية في دين هؤلاء ودين اولئك . ومع ذلك فإن هذه الفكرة ، التي رُبطت في ما بعد بنظريات « المذهب النفسي الكلّي » ، أمست مقبولة أكثر ما

يكون القبول لدى العلماء في القرون الوسطى . واتّهم ابن رشد أيضاً بتهمة الزندقة بسبب من آرائه في المنطق الكامل الكامن وراء كل شيء في الكون . وإذ كان كل ما في الكون مترابطاً على نحو منطقي فلم يبق ثمة محلّ للمعجزات . ومع ذلك فالقرآن يُعتبر ، في الاسلام ، معجزة إلـهية عظمى ، وفي النصرانية كانت المعجزة نقطةً رئيسية في العقيدة كلها . ومن هنا لم يكن من قبيل المصادفة ومجرد الاتفاق أن أشد أتباع ابن رشد حماسةً كانوا هم الفلاسفة اليهود ، وأن آثار ابن ميمون لا يمكن ان تُفهَم إلا على ضوء النموذج « الرشدي » الذي تدين له بأعظم فكراتها شأناً .

* * *

وإذا كان العلماء الغربيون قد أدركوا طوال فترة مديدة من الزمان — ولو على كرهٍ منهم — مكانةَ الفلاسفة الذين تحدثنا عنهم في الصفحات السابقة وعلوّ منزلتهم فأن اوروبة لم تَقْدُرْ ابن عربي حقّ قدره إلا في السنوات الأخيرة . ولعل مردّ ذلك إلى أصالة مذهب ابن عربي المذهلة ، وإلى التعقيد الغالب على طريقته واسلوبه ، وإلى ندرة المادة المماثلة في اللغات الغربية . اضف إلى ذلك كله طابع فلسفته الصوفي إلى حد متميّز . وبينا تَلْزَم صوفية الغزالي عمود الاسلام التزاماً دقيقاً ، نجد ابن عربي يطوّف في دنياوات أرحب بكثير ، ويمعن في الغوص إلى صميم التجربة الصوفية .

كان التصوف الاسلامي ، باديءَ الأمر ، حركة فارسية في الأعم الأغلب . فقد كان ابو يزيد الفارسي البَسْطامي أول من وضع نظرية « الفناء » . وأكد الجُنَيْد البغدادي على فكرة « الاتحاد » مع الذات الالهية ، وأطلق تلميذه الحلاّج (توفي عام ٩٢٢) الكلمة الشهيرة ، ولكن التجديفية ، « أنا الحق » (أنا الحقيقة المبدعة ، أو أنا الله) ، ومثّل الصورة العليا للصوفي « النشوان » الذي يلمح الذات الالهية في

كل مظهر من مظاهر الوجود ، حتى في ذات نفسه هو . ومن ابن خفيف ، والهُجْويري ، ومواطنهما الأعظم شأناً بكثير ، أبي سعيد ، وغيرهم من صوفيي القرنين العاشر والحادي عشر ، إلى الشاعرين [جلال الدين] الرومي ، وحافظ [الشيرازي] كانت كثرة المتصوّفة « الشرقيين » من الفرس .

ومع ذلك فقد نشأت « مدارس » صوفية متميزة في اسبانية الاسلامية وفي شمالي افريقية ، وبخاصة في مراكش التي كانت ولا تزال حتى اليوم تقريباً مركزاً شعبياً للاخويات الصوفية ، الزائفة والحقيقية . وكان عبد الله بن مسرّة القرطبي (٨٨٣ – ٩٣١) هو الصوفي « الاسباني » الذي يستحق أن يُعَدّ مفكراً أصيلاً ، ومجدّداً امتد نفوذه إلى ما وراء تخوم بلاده . وعلى الرغم من هـذا فقد حجَبَ ابن عَرَبي ، حكيمُ مُرْسية العظيم في جنوب شرقي اسبانية ، أهميةَ ابن مسرّة وشهرتـه الذاتيتين . وإنمـا كرّس ابن عربي حياته – التي نقلته من اسبانية ، عبر مراكش ، إلى مكة وآسية الصغرى وسورية حيث توفي عـام ١٢٤٠ ، اقول إن ابن عربي كرّس حياته ، في المقام الأول ، للدراسة والتأمل والتدريس . ولقد رُوي أنه ألّف نحواً من ثلاثمئة كتاب في التصوف ، والالهيـات ، والفلسفة ، والسيرة ، والشعر . صحيح ان بعض هذه الكتب كانت موجزة ، ولكن بعضها الآخر آثار رئيسية تتألف من مجلدات عديدة .

ومع ان ابن عربي كان في جوهره صوفياً سَبَّر ، على نحو أعمق مما فعل ايمـا صوفي آخر ، أسرار الله والانسان فقد وُفّـق إلى تجسيد رؤاه في نظام فلسفيّ لا يقلّ تماسكاً ومنطقـاً عن نظام أكثر الفلاسفة دقة . وعلى الرغم من ان اسلوبه ، في كثير من الأحيان ، مجازي إلى حد بعيد وعلى قدْر كبير من التعقيد ، فأن لمذهبه وحدةً ومحتوميـة inevitability تبزّان وحدة أيمـا مذهب من مذاهب زملائه الاسلاميين

ومحتوميته . وبينما لم يُوَفّق أحد من اولئك الزملاء توفيقاً حقيقياً إلى تقديم تفسير مُرْضٍ للتناقض الظاهري بين الخير والشر ، وبين الارادة الحرة والقضاء والقدر ، وبين وحدة الله والتعددية في نطاق الكون ، وما إلى ذلك وضع ابن عربي مذهباً من اللاثنائية **non-duality** كاملاً تنحلّ فيه هذه الثنائيات كلها . وفي استطاعته أن يدعي أنه المفكر الوحيد في العالم الساميّ « الغربي » الذي وُفّق إلى القيام بذلك .[81]

وإذْ كانت فكرة ابن عربي الرئيسية هي « ليس ثمّة شيء غير الله » فأنه كثيراً ما اتهم بالقول بوحدة الوجود **pantheism** . والواقع ان مذهبه يقيم البرهان لا على القضية المسلَّمة **postulate** القائلة ، على أساس من وحدة الوجود ، ان كل شيء هو الله ، ولكنه يقيم البرهان على القضية المسلّمة المختلفة إلى أبعد الحدود والقائلة بأن الله يتجلّى في كل موجود . ومن هنا فإلـه ابن عربي ، على الرغم من أنه في ذات نفسه مَحْضٌ ومن غير صفات ، فأنه يتكشّف عن بعض الصفات حالما يتجلى في مظهر من مظاهر الوجود . وهكذا فالكون هو مجلى موصولٌ للوجود الالهي . بيد أن الله لم يخلق الكون أو يسبّبه أو يَنشأه ، كما تؤمن الكثرة الكاثرة من الفلاسفة المسلمين الآخرين ؛ إن الكون لا يعدو ان يكون — عند ابن عربي — تجلّياً لشيء موجود قبل ذلك في ذات الله . والشيء لا يُصبح في حيز الوجود بسبب من مشيئة الله ولكن بسبب من الطبيعة الخاصة للنواميس العاملة ضمن الشيء نفسه . وهكذا فإلـه ابن عربي هو في الواقع عَلَمٌ على جميع النواميس الملازمة للوجود .

---

٨١ راجع روم لاندو :

Rom Landau : *The Philosophy of Ibn Arabi* . **In** *The Muslim World* **(Hartford, Conn.) . Vol. XLVII , Nos. 1 and 2 , 1957 .**

وإذْ كان كل موجودٍ من الموجودات مظهراً أو مجلىً للجوهـر الالهي ، فليس عند ابن عربي أيّ فصل بين الانسان والله . إن شعورنا بالانفصال ظاهريّ ليس غير ، راجعٌ إلى جهلنـا . وإلى هذا ، فعلى الرغم من أن الله لا يريد الشر ولا يتقصّده ، فان الشر نفسه (أو على الاصح ، مـا يعتبره الانسان شراً) هو مجلىً لبعض النواميس التي تقوم كينونتها في ذات الله . ولكي يكون الكون كاملاً ، يعني تاماً ، يتعين عليه ان يشتمل على ما ندعوه نقائص أو عيوباً ، وإلا كان غير كامل . وإذ كان كل شيء مظهراً من مظاهر الله فالارادة الانسانية لا تعدو هي الاخرى أن تكون واحداً من تلك المظاهـر . وبكلمة أخرى ، إن أيمـا عمل يفعله الانسان إنمـا يصدر عن الله . بيد أن هـذا لا يستلزم الزعم بأن الله طاغية ذو أهواء ونزوات ، وأنه يفرض قراراته على الانسان عـامداً متعمداً . وإذا كان الانسان لا يستطيع اجتنابَ اتخـاذِ موقف بعينِـه فمردّ ذلك إلى أنه لا يستطيع التمرد على النواميس الكامنة في ذات نفسه . ومثل هـذا التعليل لا يفترض القضاء والقدر بأية حـال . ذلك بأن الانسان لا يعي أبداً تلك النواميس الـتي يعمل بأمرتها ، وعياً كاملاً ، وهكذا يتعين عليه أن يسلك وكـأنه يتمتع فعـلاً بأرادة حرة . إن مصـائره ليست مقدورةً عليه بقضاء وقـدر ؛ إنه هو الذي يقررها على نحو ذاتيّ .

وحتى في معـالجته موضوعاتٍ تنطوي على ثنائية « واضحة » ، كالعلة والمعلول والفاعل والمنفعل ، يُوفّق ابن عربي — على نحو عبقري — إلى البقـاء ضمن نطاق مذهبه القائل بالوحدة المطلقة . إنه يُظهر كيف ان العلة لا مناص لهـا من ان تكون معلولاً أيضاً ، كما أنه لا منـاص للمعلول من أن يكون علة . وهكذا فـان التمييز بين الفاعل والمنفعل لا وجود له ، في الحقيقة ، إلا في أذهاننا .

إن المسائل الصوفية المحضة لتحتل حيّزاً كبيراً من مصنفات ابن

عربي الضخمة . وتعليلاته لحالات « الفناء » و « البقاء » الصوفيين أدقّ بكثير وأعمقُ بكثير من تعليلات المتصوفة الآخرين . وهو في نظرياته المُحكَمة إلى ابعد الحدود عن الحالات الصوفية ينتهي إلى وضع نظريةٍ في « اللوغوس » (المبدأ العقلاني في الكون) تختلف اختلافاً كبيراً عن نظريتي فيلون وأفلوطين . ذلك بأنه يوحد ما بين « اللوغوس » وبين النبي محمد ، لا محمدِ المكيّ ، ولكن « محمدِ – الروح » بوصفه المبدأ الفعّال للمعرفة الالـٰهية .

وعلى الرغم من ان ابن عربي يحاول أبداً أن يظل أميناً لمعتقدات الاسلام الرئيسية ، فانه لم يوفق إلى ذلك إلا باعطائها تفسيراً باطنياً لا يقبله المسلم « المستقيم » إلا بشق النفس . فليس عجيباً بعد ذلك أن يكون المحافظون من المسلمين قد نظروا اليه بعين ملؤها الريبة البالغة . ومع ذلك ، فأن أصالةَ عقلِه وعمقَهُ كانا كفيلين بلَفْت أنظار المفكرين اليه ، منذ البدء . وهكذا نجد – إذا أردنا الاقتصار على مثل واحد – انعكاساتٍ لنظرياته لا يمكن للمرء أن يخطئها ، في عدد لا يحصى من صفحات « الكوميديا الالـٰهية » لدانتي .

* * *

لقد سبقتِ الفلسفةُ الاسلامية ، في كثير من الاحوال ، إلى الإلماع إلى عدد من الفكرات والنظريات الـتي « اكتشفها » وطوّرها ، بعد مئات السنين ، مفكرون من أهل الغرب . والواقع ان السكولاستية الغربية في القرون الوسطى ، كما مثّلها ألبرت الكبير ، وروجر بايكون ، وميكال سكوت ، ورامون لال ، والقديس توما الاكويني ، استمدت بعض مفاهيمها الأساسية من فلاسفة الاسلام . ولقد تعين علينا طبعاً ان نجتزىء في هذه الصفحات بالاشارة إلى أبرز هؤلاء الفلاسفة . ومع ذلك فان نفراً من فلاسفة الطبقة الثانية طبعوا الفكر الاوروبي بطابعهم أيضاً .

حتى إذا كان القرنُ الثالث عشر وغزت جحافل المغول الامبراطورية العربية ، بلغ ازدهار الثقافة العربية نهايته . وليس معنى ذلك أنه لم يَبْق لها وجود بالكلية ، ولكن معناه ان أصالتها وسلطانها نَقَصا منذ ذلك الحين نقصاناً كبيراً . ثم كان الانتصار العثماني ، وبه تلقّت روح العرب المبدعة ما بدا وكأنه ضربةٌ نهائية قاضيةٌ . والحق أن كره العثمانيين للأخذ بالفكرات الجديدة ، وعدم تسامحهم مع رعاياهم العرب ، وصرامة نظامهم كلِه ، والظلامية التي هيمنت عليه في الأعم الأغلب ، كل اولئك حجب العرب عن سائر العالم وحال بينهم وبين الأسباب التي تمكّنهم من متابعة حياتهم الثقافية الخاصة . لقد أُكرهوا ، طوال اربعمئة عام ، على ان يحيوا حياة أمة مستعمَرَة ضُرِب عليها حَجْرٌ سياسي وروحي .

ولم يُنجب الاسلام مفكراً آخر ذا وزن عالميّ إلا في القرن العشرين ، وذلك في شخص محمد إقبال ، أحد خالقي باكستان الحديثة الروحيين . وإقبال ، الذي نهل حتى الارتواء من ينابيع الفكر الهندي ، والفارسي ، والعَرَبي ، والغَرْبي (الانكليزي والألماني في المقام الأول) يجب ان يُعْتبر فيلسوف الاسلام الحديث الأكبر وواحداً من شعرائه البارزين . وهو يحاول ، في مصنّفه الفلسفي الرئيسي ، « تجديد الفكر الديني في الاسلام *The Reconstruction of Religious Thought in Islam* » أن يقدّم تفسيراً لعلمي الالـهيات وما وراء الطبيعة الاسلاميين لا على أساس من المفاهيم الاسلامية فحسب ، بل على أساس من مفاهيم بعض المفكرين الغربيين أيضاً ، مثل نيتشيه ، وهنري بيرغسون ، وبلانك **Planck** ، وهوايتهيد ، والبرت آينشتاين أيضاً . وسواء أقْرَرْناه أو لم نُقِرّهُ على فكرته الرئيسية أو على النتائج التي خَلَص اليها فيتعيّن علينا أن نسلّم بأن كتابه يمثل أول محاولة في الاسلام الحديث إلى اعادة التفكير في ميتافيزيقية تلك العقيدة بروح الموضوعية

objectivity العلمية . ومع ذلك ، فان إقبال لم يضحِّ في اي يوم من الأيام بولائه للاسلام وتشبّثه بمبادئ القرآن الاساسية .

* * *

ولو أردنا أن نلخص قيمة الفلسفة الاسلامية ومكانتها في كلمات قليلة استطعنا أن نقول أنها ، بالاضافة إلى نقل حكمة اليونان وتفسيرها وتطويرها ، قد علّمت المفكرين المسيحيين كيف يوفقون ما بين الفلسفة والدين . ولكن أهم من هذا كله أن الفلسفة الاسلامية كانت هي وحدها المنارة الفكرية المشعة في ظلمات العصور الوسطى المبكرة ، وبذلك قامت — لكي نغيّر الصورة المجازية — مقام جسر وَصَلَ ما بين فلسفة الاغريق وفلسفة ما بعد عهد النهضة أو الرونيسانس ، التي ترمز اليها اسماء سبينوزا ، وباسكال ، وديكارت ، ولايبنيتز .

قِراءَاتٌ مُخْتَارة

١ — اوليري ، دو لاسي : الفكر العربي ومكانته في التاريخ ، **O'leary , de Lacy** : *Arabic Thought and its Place in History* (لندن ، ١٩٢٢) .

٢ — دي بوير ، ت. ج. : تاريخ الفلسفة في الاسلام ، **de Boer , T. J.** : *The History of Philosophy in Islam* (لندن ، ١٩٣٣) .

جَدْوَل كْرُونُولوجي

الفلسفة

فرق ومذاهب فلسفية	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
المرجئة (أوائل القرن الثامن)	أرجأوا حكمهم على الآثمين من المؤمنين ، وبالتالي على الامويين. ابرز ممثليهم ابو حنيفة، الفقيه العظيم.	
القدرية (أوائل القرن الثامن)	آمنوا بحرية الأرادة (القدر = القدرة) ؛ عارضوا القول بالجبر ؛ أول مدرسة فلسفية في الاسلام ؛ حظوا بتأييد عدد من الخلفاء الامويين .	
الجبرية (أوائل القرن الثامن)	جبريون متزمتون قالوا بأن الانسان لا يملك القوة (حرية الارادة) على ان ينجو بنفسه من الالزام الآلهي (الجبر = الألزام) .	
المعتزلة (القرن التاسع)	أسسها ، في القرن الثامن الحسن البصري وواصل ابن عطاء ؛ تمثل أول حركة ذات طابع فلسفي صحيح في الاسلام ؛ حاولت ان تعطي تفسيرات عقلانية للحقائق الدينية : طبيعة الله ، وصفاته، وإبداعيته . كان لها أثر عظيم في الفلسفة	

فرق ومذاهب فلسفية	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
	الأسلامية . في عهد المأمون (٨١٢ – ٨٣٣) هيمنت الفكرات المعتزلية على العقيدة الرسمية للامبراطورية العباسية .	
اخوان الصفا (القرن العاشر)	كانت في الاصل حركة دينية – فلسفية في البصرة ذات أهداف سياسية ؛ نشرت سلسلة من الكتب العلمية يغلب عليها الطابع الموسوعي ؛ هدفت إلى ايجاد صيغة تركيبية **sinthesis** توفق ما بين المعتقدات الشيعية والفلسفة الارسطوطاليسية والفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، ووضعت علم كون **cosmology** معقداً ، مبنياً على علم التنجيم وعلى اصطناع سحري للارقام . وكان لأخوان الصفا أثر في تفكير الغزالي .	

الفلاسفة الرئيسيون (الشرق الاوسط)	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
		العرب يكتشفون الفلسفة الاغريقية ، وفي المقام الأول فلسفة ارسطو وفلسفة افلوطين(الافلاطونية الجديدة) في أوائل القرن التاسع ، ويترجمونها إلى العربية ، ومن ثم انتقلت إلى أوروبة .
الكندي (القرن التاسع)	أول فيلسوف عربي نظامي . كان من أتباع الفلسفة الافلاطونية الجديدة والفلسفة الفيثاغوريةالجديدة. وضع التوكيد على الرياضيات ، ولكنه ألف أيضاً في الطب والموسيقى الخ . أقر نظرية أفلوطين في خلق الكون .	ظهرت مؤلفاته الفلسفية ومؤلفاته العلمية في ترجمات لاتينية عديدة . كان له أثر في تفكير روجر بايكون .
الفارابي (٨٧٠ – ٩٥٠)	يعتبره المسلمون أعظم الفلاسفة على الاطلاق ، باستثناء ارسطو . ألف في الفلسفة والرياضيات والطب ، ووضع كتباً هامة في الموسيقى ونظريتها . أسهم إسهاماً أصيلا في علم ما وراء الطبيعة ، والمنطق ، والنظرية السياسية . ترك أثراً عميقاً في تفكير الكثرة الكبيرة من الفلاسفة المسلمين .	اثر أعظم التأثير في ممثلي الفلسفة السكولاستيكية الغربية ، وبخاصة القديس توما . وفي الفلاسفة اليهود ، وبخاصة ابن ميمون .

الفلاسفة الرئيسيون (الشرق الاوسط)	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
الاشعري (٨٧٣ – ٩٣٥)	كان عالماً في الالهيات أكثر منه فيلسوفاً . أسس الثيولوجيا السكولاستيكية في الاسلام (علم الكلام) . ألف ثلاثمئة كتاب ؛ انشأ الحركة الأشعرية ، التي قالت بالمذهب الذري .	كان له أثر في اوروبة لا من طريق مباشر ، ولكن من طريق المؤلفين المسلمين الآخرين ، الذين ندر أن كان بينهم من لم يتأثر بالأشعري .
ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧)	أشهر المفكرين والعلماء المسلمين ، وكان ذا شأن عظيم في حقلي الفلسفة والعلم معاً . أكمل نظريات الفارابي في خلق الكون. اسهم إسهاماً هاماً في علم المنطق وعلم النفس . ادخل عنصر الحدس في الفلسفة ؛ سبق ديكارت إلى مذهبه .	كان أثره في المفكرين الاوروبيين أعظم من أثر أي مفكر مسلم آخر ؛ تجلى أثره بخاصة في تفكير ألبرت الكبير ، والقديس توما الاكويني .
الغزالي (١٠٥٨ – ١١١١)	أحد الفلاسفة المسلمين الذين تمتعوا باعظم السلطان والنفوذ العقلي ؛ اطرح الفلسفة (وأرسطو) وانصرف إلى التصوف، موفقاً ما بين الصوفية والسنية . حدد ، فلسفياً ، دور العقل ودور الأيمان. عني بمشكلات خلقية واخلاقية أهملها غيره من الفلاسفة المسلمين .	أثر تأثيراً عظيماً في الفلسفة السكولاستيكية المسيحية واليهودية . تبنى كثير من اللاهوتيين النصارى مذهبه في «الخلق من عدم» .

الفلاسفة الرئيسيون (المغرب : اسبانية ومراكش)	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
ابن حزم (٩٩٤ – ١٠٦٤)	ينسب اليه تأليف اربعمئة كتاب في الفلسفة ، والالهيات ، والتاريخ ، والشعر الخ ... اشتهر بكتابه « طوق الحمامة » ، وهو مجموعة شعرية تمجد الحب العذري . الف أول كتاب شامل في علم الاديان المقارن . كان ذا أثر في تفكير ابن تومرت ، مؤسس دولة الموحدين .	آراؤه في الحب العذري تبرز من جديد في شعر التروبادور الاسباني والفرنسي في الادب الاوروبي الرومانتيكي .
ابن باجة (توفي عام ١١٣٨)	فيلسوف ، وعالم ، وطبيب ، وعالم فلك . كان معدوداً بين الملحدين . لقد فصل الحقيقة الدينية عن الحقيقة العقلية . اثر في تفكير ابن طفيل وابن رشد .	ترجمت آثاره إلى العبرية واللاتينية . كان ذا أثر في تفكير البرت الكبير .
ابن طفيل (توفي عام ١١٨٥)	طبيب وفيلسوف ارسطوطاليسي في بلاط الموحدين في مراكش . اشتهر أكثر ما اشتهر بقصته الفلسفية « حي بن يقظان » ، وكانت هي النموذج المحتذى في قصة « روبنسون كروزو » .	اكتسب شعبية واسعة في اوروبة منذ القرن السابع عشر من طريق ترجمات قصته المتعددة .

الفلاسفةالرئيسيون(المغرب : اسبانية ومراكش)	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
ابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨)	أعظم الفلاسفة المسلمين كلهم نفوذاً . عمل في بلاط الموحدين في مراكش . وضع ثلاثة شروح على فلسفة ارسطو ، وكتباً ذات شأن عظيم في الطب والفلسفة . هاجم « لا عقلانية » الغزالي ؛ دافععن فكرة الحقيقة « المزدوجة » : الدينية والعقلية . عارض فكرة خلود النفس الفردية وفكرة المعجزات . اعتمد على العقل لا على الحقيقة الثيولوجية .	لم تعرف أوروبة أرسطو ، طوال مئات من السنين إلا من خلال شروح ابن رشد . تبنى القديس توما كثيراً من فكرات ابن رشد . وكذلك فعل معظم السكولاستيكيين اليهود والنصارى ، الذين حظي عندهم بشعبية أعظم من تلك التي حظي بها عند المسلمين . وقد ظلت « الرشدية » تتمتع بأعظم النفوذ العقلي حتى عصر النهضة (الرونيسانس) .
ابن عربي (١١٦٥ – ١٢٤٠)	احد المفكرين الاكثر أصالة في العالم « الغربي » . أحدث « تركيباً » موفقاً ما بين الصوفية والفلسفة . كان مؤلفاً خصب الانتاج ، وضع الفلسفة « اللاثنائية » الوحيدة في الغرب . حل معظم المشكلات التي أعيت من سبقوه . ارتاب به أهل السنة ، ولكنه فتن معظم المتصوفة والمفكرين المسلمين وأثر فيهم .	أثر في بعض المفكرين النصارى ، من مثل برونيتو لاتيني ، ودانتي الذي يبدو أنه اقتبس كثيراً من مفاهيم ابن عربي للجنة والنار . « أعيد اكتشافه » في الغرب ، خلال السنوات الأخيرة ، فشرع كثير من العلماء الغربيين يدرسون آثاره .

الفَصْـلُ العَـاشِرُ

العُـــلوم

•

١ . الرياضيات وعلم الفلك

« العلم هو أجلّ خدمة أسدتهـا الحضارة العربية إلى العالم الحديث . فالاغريق قد نظّموا ، وعمّموا ، ووضعوا النظريات ، ولكن روح البحث ، وتركيم المعرفة اليقينية ، وطرائق العلم الدقيقة ، والملاحظـة الدائبة المتطـاولة كانت غريبة عن المزاج الاغريقي . وإنما كان العرب هم أصحاب الفضل في تعريف أوروبة بهذا كله . وبكلمة ، فـأن العلم الاوروبي مدينٌ بوجوده للعرب . » هذا ما يقوله بريفو **Briffault** في كتابه « تكوين الانسانية » *Making of Humanity* . أمـا جورج سارطون فيقول في كتابه العظيم ، « مقدمـة لتـاريـخ العلم » *Introduction to the History of Science* : « عندما أمسى الغرب مستعداً استعداداً كافياً للشعور بالحاجة إلى معرفة أعمق ، وعندما أراد آخر

الأمر ان يجدد صلاته بالفكر القديم ، التفت أول ما التفت ، لا إلى المصادر الاغريقية ، ولكن إلى المصادر العربية . »

وحين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة انقضت على وفاة الرسول ليس غير ، وعمقُ ذلك التقدم ، أمراً يدعو إلى الذهول حقاً . ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضاً ان النصرانية احتاجت إلى نحو من الف وخمسمئة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة « مسيحية » . فما هي ، اذن ، الدواقع الرئيسية إلى منجزات العرب العلمية ؟ إن في استطاعتنا أن نلخص هذه الدوافع في ما يلي : رغبة متقدة في اكتساب فهمٍ اعمق للعالم كما خلقه الله ؛ قبول للعالم المادي ، لا بوصفه دون العالم الروحي شأناً ومقاماً ، ولكن بوصفه صنواً له في الصحة والرسوخ ؛ واقعية قوية تعكس في صدق واخلاص طبيعة العقل العربي اللاعاطفي ؛ وأخيراً فضولهم النهم الذي لا يعرف الشبع . كان كل ما في الوجود صادراً عن الله ، ابتداءً من وَجْد الصوفي (أو نشوته الروحية) وحنان الأم وحبّها ، إلى انطلاق السهم والطاعون الذي يقضي على بلاد برمتها وقرصة البعوضة . إن كلاً من هذه ليكشفُ عن قدرة الله ، ومن هنا فهو جدير بالتأمل والدرس . ففي الاسلام لم يُوْل كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقاً معاكسة . لا ، والواقع أن الأول كان باعثاً من البواعث الرئيسية للثاني .

٢ إن الرياضيات هي ، كما نعلم ، أُمّ العلوم التجريبية كلّها ، ولقد لعبت الرياضياتَ ، من غير ريب ، دوراً حاسماً في العلم العربي . ومع ذلك ، فحتّى في علم « تجريدي » كالرياضيات كان الدين ، كما سوف نعلم ، هو الذي قرر طبيعة منجزات العرب ومداها . ولم يكن لدى العرب ، في الأصل ، أي رياضيات خاصة بهم طبعاً ؛ وكشأنهم في الفلسفة تعيّن عليهم ان يعتمدوا في المقام الاول على

رصيد المكتشفات الموروثة عن الاغريق . ولكنهم مـا لبثوا ان وجدوا ان الرياضيات الاغريقية لا تلائم عرضهم ، وعلى أيدي العرب دون غيرهم عرفت الرياضيات ذلك التحول الذي مكّنها آخر الأمر من أن تصبح الاساس الذي قـام عليه العلم الغَرْبي الحديث . فلولا الرياضيات كما طوّرها العرب كان خليقاً بمستكشفات كوبرنيكوس وكبلر وديكارت ولايبنيتز أن يتـأخر ظهورها تأخراً كثيراً . وفي امكاننا ان نوجـز اسهام العرب في الرياضيات بمـا يلي : نقل علم الحساب الاغريقي ، وتبسيطه ، وجعله أداةً طيّعة للاستعمال اليومي من طريق اصطناع الارقام العربية والنظـام العَشْري ؛ واختراع علم الجبر ، في مفهومه المعروف في العصور الحديثة ؛ ووضع أسس حساب المثلثات **trigonometry** وبخاصة الكرويّة منها . ففي خـلال القرنين التاسع والعاشر اكتسبت الرياضيات — وهي علم ظلّ بعد ألف عـام مجرد خليط مشوّش ضخم من حقـائق لا يكاد يربط مـا بينها رابط — اكتسبت شكلاً ومادة في آن معاً،ولقد وُسّعت تلك المادة وزيدت غنىً في توال **progression** حسابيّ وهندسي في آن معاً . وفي أثناء أعوام التقدم المتَيْن هـذه حُقّـقت عمليتا التكامل **integration** والتصييغ **formulation** . والظاهرة المذهلة حقاً في إسهام العرب الرياضي هي الصلة الوثيقة ما بين مُكتشفاتهم في هذا العلم وبـين مبادئ الدين وأوامره . فلأغراض الدين أمسى من الامور الهـامة جداً عند المسلم أن يضبط موضع الكعبة — على نحو يقينيّ — بالنسبة إلى مختلف أجزاء العـالم التي يحيا فيها المسلمون ، وأن يحدّد على وجه الضبط مواقيت اشراق الشمس وطلوع القمر الـتي تمكّن الجماعة الاسلامية من تنظيم صوم رمضان ، وأخيراً أن يمسح الاراضي ابتغاء تقسيم الضياع بعد أن اقترن تجزيء الارض الموروثة على نحو مشترك بتصديق الٓهي في القرآن . ولانجاز هـذه المهام المختلفة كلها اضطر العرب إلى انشاء طرائق رياضية كان لا بدّ لها — إلى جانب

شرطَيْ البساطة والصفة العملية – أن تكون بالغة الدقة . وواضح أنه ما كان لهم ان يبلغوا هدفهم هذا لو اعتمدوا على نظام الارقام الرومانية الثقيل المُرْبِك القائم آنذاك ، وعلى الهندسة والجبر الاغريقيين البدائيين نسبياً . وفي تقدمهم المثير في حقل الرياضيات وجدوا في لغتهم الرّخصة نفسها مُسْعِفاً رائعاً ، ذلك بأن العربية – وهي لغة مَرِنة ، غنية ، دقيقة – تساعد أروع ما تكون المساعدة على صحة المصطلح ودقته .

والعلماء المحدثون لمّا يتفقوا بعدُ اتفاقاً إجماعياً على أصل الارقام العربية . صحيح أن هذه الارقام هي ، في الراجح ، اختراع هندي ، ولكنه ليس ثمة ما يمنع ان يكون العرب قد استقَوْها من بعض المصادر الافلاطونية الجديدة (راجع كارا دو فو : « تراث الاسلام » ص ٣٨٤ – ٣٨٥) . وأياً ما كان الأصل الصحيح لهذه الارقام فقد كان العرب هم الذين جعلوها الأساس لنظام مَرِنٍ عمليّ إلى حد بعيد جداً يمكن أن يحظى بقبول العالم كله . ولقد كانت الخدمة العربية الرئيسية التي أسداها العرب في هذا الحقل هي استخدام « الصفر » استخداماً عملياً . وقد دعاه العرب بهذا الاسم الذي يعني « الفارغ » ، ومنه اقتُبِست لفظة *cifra* اللاتينية ، التي تعني الشيء الذي لا قيمة له والصفر في وقت واحد . وكان العرب قد سلخوا مئتين وخمسين عاماً على الاقل وهم يستخدمون الصفر عندما اقتنعت اوروبة النصرانية ، في القرن الثاني عشر ، بأن « الفارغ » (الصفر) لم يكن اختراعاً أحمق إلى الدرجة التي توهمها مدّعو العلم الغربيون .

إن تطوير الرياضيات من مرحلتها الاغريقية البدائية نسبياً إلى مرحلتها العربية العلمية ليقدّم لنا مثلاً فاتناً على الطرائق التي تستطيع بها المعتقدات الدينية الراسخة لشعب من الشعوب ان تكيّف وتشكّل حتى

الجهودَ الدنيويةَ التي ينطوي عليها حقل علميّ خالص كحقل الرياضيات . ذلك بأن الفرق بين الرياضيات الاغريقية والرياضيات العربية ليس فرقاً علمياً فحسب ، ولكنه يدلّ أيضاً على تغاير عميق في ضروب الاستشراف الروحي والايديولوجي .

وكان مثل الاغريق الأعلى ، كما نعلم ، هو الجمال ، وبخاصة الجمال المنظور (وإن لم يقتصر ذلك المثل الأعلى على هذا الضرب من الجمال) سواء أكان جسمَ رجلٍ أو أثراً من آثار النحت والعمارة . ومثل هذا الجمال يجب أن يكون مبنياً على أساس من النِسَب الصحيحة ، يعني على التوازن الصحيح بين مختلف الاجزاء التي يتألف منها شيء ما . ولا يمكن للاجزاء المُفْرَدة أن تتحد على نحو متناغم لتؤلف صورة جميلة إلا إذا تحقق ذلك التوازن . ومبدأ النسب الكاملة هذا هو الذي فرض شكل الدراما الاغريقية كما فرض شكل فني العمارة والنحت الاغريقيين سواء بسواء . بيد أن النِسَب تعتمد على صلات رياضية محدّدة ثابتة بين أجزاء الكل الواحد . فما إن يلم الاضطراب بهذه الصلات حتى يُفْلِت التناغم المطلق من بين يدي الخالق ، وعندئذ يكون صنيعه الفنيّ غير « جميل » . أحدِثْ تغييراً في الصلة الصحيحة ما بين طول عمود اغريقي وعرضه وتقوّسه تُتْلِفْ كماله الفردي . والقاعدة نفسها تصحّ ، طبعاً ، في تمثال لفينوس أو لأبولو أبدعه ازميلُ نحّاتٍ . ومن هنا يتضح ان المثل الأغريقي الأعلى في الجمال مبني على الصلات الرقمية التي هي نهائية ، وعلى الارقام التي تمثل احجاماً ثابتة لا تتغير .

أما المثل الأعلى الاسلامي فلم يكن ، من غير ريب ، الجمال المنظور ، ولكنِ اللهَ في كماله ، يعني اللهَ في جميع مظاهره على اختلافها ، والنجوم والسموات ، والارض والطبيعة كلها . وهكذا فالمثل الأعلى الاسلامي هو اللامتناهي . ولكننا لا نستطيع ، حين

ندرس اللامتناهي كما تصوّرَه المسلمون ، ان نقتصر على المكان وحده ؛ إنّ علينا أن نعتبر الزمان أيضاً . ولم ينظر الاغريق إلى الكون على ضوء اللامتناهي ، والمكان والزمان عندهم تغلب عليهما صفة السكون . ومن هنا كان هدف الاغريق بالذات هو الجمال المنطوي على وحدة سكونية static ، وهي وحدة كانت طبيعتها نفسها تمقت الدينامية dynamism . فالهيكل الاغريقي مخطّط في وضوح وقابلٌ للتحديد بجلاء على ضوء بلاد اليونان النيّر . إنه ، بتوكيده على المحور الأفقي المشدود إلى الأرض ، لا يتكشّف عن شيء من الدينامية الـتّي يندفع بها برج الكاتدرائية الغوطية المستدقّ الطَرَف نحو السماء ، مضيعاً نفسه ، بتلك العملية ، في ضباب أجواء أدنى إلى الشمال وفي سُحبها . الهيكل الاغريقي يمتّ بأوثق النسب إلى الكون المادي . وإذ كان حيّزه سكونياً فأن عنصر الحركة – وبالتالي عنصر الزمان – ليس له فيه أهمية عملية . والواقع ان الزمان كان ، عند زينون وافلاطون ، شيئاً وهمياً ، وكان ، عند هيرقليطس ، محصوراً في دائرة . لقد كان العالَمُ الاغريقي كله سكونياً في جوهره ، تفهمه الحواس والعقل جميعاً ، غير مبهم . إنه « كينونة » being بأدق معاني الكلمة .

أما الكون فكان عند المسلمين مظهراً حياً ، وبالتالي متغيراً ، لأبداعية الله . إنه لم يكن « كينونة » being ، ولكنْ « صيرورة » becoming أزلية . ومع ذلك ، فهل نستطيع ان نتصوّر « صيرورة» ما بلُغَةِ المكان وحده ؟ لا ، فالزمان لا بد ان تكون له بالنسبة إلى هذه الصيرورة أهمية لا تقل عن أهمية المكان . وإنما كان البيروني (٩٧٣ – ١٠٤٨) الرياضي والفلكي والفيزيائي والجغرافي المسلم العظيم هو الذي عبّر عن الاعتقاد بكونٍ « صيروريّ » حيّ بِلُغَةِ رياضية من طريق إعطائه الأعدادَ (وكانت وسيلته إلى ذلك هي علم المثلثات) عناصرَ وظيفيّة بالاضافة إلى منفعتها الاساسية كمجرد كميّات ؛ وهذه

العناصر الوظيفية تستلزم من غير ريب حركةً (أو ديناميةً) وتستلزم، بهذا الوصف، زماناً.

والواقع ان الخطوة الرياضية الأولى من المفهوم الاغريقي السكوني للكون إلى المفهوم الاسلامي الديناميّ له إنما قام بها، قبل البيروني، العالمُ الرياضي «الخوارزمي» (٧٨٠ — ٨٥٠) واضع علم الجبر الحديث. وكما قلنا من قبل، فأن قضايا الارث وتقسيم الاراضي وما اليها كان لها أكثر من معنى دنيوي، بعد ان دُرِست بتفصيل كبير في آيات القرآن المنزلة. ولتمكين المسلمين من العمل بموجب هذه الوصايا والأوامر بأقصى الدقة عمد الخوارزمي إلى وضع جبره، الذي بزّ جَبْر الاغريق البدائي وسبقه بمراحل. لقد عزّز، في جَبْره، الصفة الحسابية المحضة للأعداد بوصفها كميات متناهية **finite** من طريق إظهار امكانياتها كعناصر في التكييف والاستقصاء اللامتناهيين للخواص والعلاقات. ففي الرياضيات الاغريقية لا تستطيع الأعداد أن تنبسط إلا بعمليات الجمع والضرب الشاقة. أما رموز الخوارزمي الجبرية التي اصطنعها بدلاً من الأعداد فتحتوي في ذات نفسها على كمونيات **potentialities** اللامتناهي. وهكذا نستطيع القول ان التقدم من الحساب إلى الجبر ينطوي على خطوة من «الكينونة» إلى «الصيرورة»، من الكون الاغريقي السكونيّ، إلى الكون الاسلامي الحيّ الذي يتخلل الله كل جزء من أجزائه. وإنما اعترف الغرب بأهمية «جَبْر» الخوارزمي في القرن الثاني عشر عندما ترجم جيرار الكرموني رسالته إلى اللاتينية. وحتى القرن السادس عشر ظلت هذه الترجمة هي الكتاب الرئيسي لتعليم الرياضيات في الجامعات الاوروبية. ولكن سلطان الخوارزمي لم يقف عند حدود الجامعات، بل تجاوزها وذهب إلى أبعد منها بكثير. فنحن نجده منعكساً في المؤلفات الرياضية التي

وضعها ليبوناردو فيبوناتشي Leonardo Fibonacci البيزوي * ، والمعلم يعقوب Master Jacob الفلورنسي ، وحتّى في مؤلفات ليوناردو دا فنشي Leonardo da Vinci أيضاً . والحق أن معظم الرياضيين المسلمين كانوا علماء فلكيين ، شكّل علم الفلك في الواقع جزءاً لا يتجزأ من بحوثهم واستطلاعاتهم . ومن أبرز علماء الفلك المسلمين (وكان عالماً رياضياً أيضاً ، طبعاً) البتّاني ، وهو من أهل العقود المتأخرة من القرن التاسع . ونحن مدينون له بفكراتنا عن النِسَب المُثلّثيّة trigonometrical ratios على الوجه الذي لا تزال تُستعمل به حتّى يوم الناس هذا ؛ وبإحلال الجيب sine محل الوتر chord ؛ وباصطناع الظلال tangents وظلال التمام cotangents . ليس هذا فحسب ، بل لقد دفع علم « الرياضيات الفلكية » إلى أمام بتصحيح نظريات الخوارزمي عن الخاصّات ** anomalies القمرية ، وعن الخسوف والكسوف ، وعن ميل فلك البروج inclination of the ecliptic وكثير غيرها من الفكرات التي كانت تنعم بالقبول . ثم جاء ابو الوفا (توفي عام ٩٩٧) الذي لم تسبِق دراساته في علم المثلثات دراسات كوبرنيكوس فحسب بل تجاوزتها في بعض النواحي أيضاً ، أقول ثم جاء ابو الوفا فدفع هو الآخر بدوره مكتشفاتِ البتّاني خطوة واسعة إلى الأمام .

وقُدّر لعالم مسلم آخر أن يكون صاحب الفضل في تطوير جبْر الخوارزمي إلى وضعه الحاضر تقريباً . وكان هذا العالم هو عمر ابن ابراهيم الخيام (١٠٣٨ – ١١٢٣) ، الشاعر الفارسي الكبير الذي أحبّه الغرب (والفضل في ذلك يعود إلى ترجمة فيتزجيرالد الشهيرة)

---

* نسبة إلى مدينة بيزا .

** البعد الزاوي angular لكوكب من الكواكب عن أقرب نقطة في فلكه إلى الشمس ، كما يُرى من الشمس . (المعرب)

بوصفه صاحب « الرباعيات » . والواقع ان كتابه في الجبر يمثل خطوة هائلة إلى الأمام لا بالنسبة إلى منجزات الاغريق فحسب ، بل بالنسبة إلى منجزات اسلافه من العلماء المسلمين أيضاً . ففي اصطناعه طريقة الهندسة التحليلية سبق ديكارت في نواحٍ كثيرة ، وبخاصة في كتاب هذا الأخير الموسوم بـ « الهندسة » *Géométrie* . وأسدى المسلمون أيضاً خدمات هامة لما يمكن أن يُدعى علم الفلك « العملي » وفي حقل الأدوات الفلكية . ففي عهدٍ قصيّ يرقى إلى أوائل القرن التاسع ، في ظل الخليفة المأمون ، قاسوا درجة من خط الهاجرة بوسائل أفضل بكثير من تلك التي استخدمها الاغريق ، وانشأوا مرصداً في بغداد . وأشهرُ من مرصد بغداد نفسِهِ مرصدُ مراغة في آسية الصغرى ، وقد أسّس في القرن الثالث عشر . هناك أُبدِعت بعض الادوات الفلكية الاكثر تقدّماً . ولكي يكون الخطأ قاصراً على الحد الادنى ليس غير جعل فلكيو مراغة ادواتهم اضخم من أي من الادوات الفلكية المعروفة لعصرهم . وعندما اعتزم الفونس ملك قشتالة إنشاء مُحلّقة * **Armilary Sphere** التفت إلى العرب يلتمس مساعدتهم . ونشر المسلمون أيضاً عدداً من الجداول الفلكية لم يكن في ميسور علماء الفلك الغربيين الاستغناء عنها . ولقد ظل « المدخل الى علم هيئة الافلاك » الذي وضعه الفَرْغاني موضعَ الاعتماد في أوروبة طوال قرون عديدة ؛ وفي عام ١٥٧٣ أعاد ميلانتشثون **Melanchthon** الكبير نشره في نوريمبورغ . ولم يكن علم الفلك شعبياً عند عرب الشرق الادنى فحسب ، بل كان شعبياً بين عرب المغرب (الغرب) أيضاً . ففي اسبانية بالذات اخترع الزرقالي اسطرلاباً تمّ له من الشهرة قَدْر جعله مُنْطَلَقاً لتراث فلكيّ كامل . وفي كتابه *De Revolutionibus Orbium Coelestium* يستشهد كوبرنيكوس بالزرقالي وينقل عنه

---

* آلة فلكية . (المعرب)

فاذا أردنا أن نوجز قلنا ان الصفتين المميزتين للرياضيات العربية هما شجاعة المشتغلين بها وحرية تفكيرهم . إن سلطان الوجوه العلمية المبجّلة ، من مثل بطليموس **Ptolemy** ، نادراً ما أفزعهم . لقد كانوا تواقين دائماً إلى وضع النظريات موضع الاختبار ، ولم يملّوا التجريب **experimentation** في ايما يوم من الايام . وعلى الرغم من ان روح دينهم كانت هي الدافع المحرك لهم ، وعلى الرغم من ان تلك الروح تخلّلت نشاطهم كله فأنهم لم يجيزوا للعقيدة كما فسّرها علماء السنّة ان تعترض سبيل بحثهم العلمي . وإذْ كانت أهدافهم عملية لا تجريدية فقد تعيّن عليهم ان يصطنعوا التبسيط والوضوح . ومع ذلك فأن أهم مظهر من مظاهر خدمتهم في حقل الرياضيات هو ، بعد كل شيء ، أنها كانت تعبيراً عن ايمانهم الديني ، ذلك بأنهم لم يقاوموا العقيدة نفسها ، بل قاوموا انحرافات العقيدة التي حاول فرضها بعض الجبناء فكرياً .

٢ . الجغرافية وعلم وضع الخرائط

في الامكان القول إن الجغرافية هي شقيقة علم الفلك . ومن هنا لن نعجب إذا وجدنا العلماء الجغرافيين المسلمين تحدوهم في دراساتهم وبحوثهم حوافز شبيهة بتلك التي مكّنت المسلمين من إنجاب ذلك العدد الضخم من علماء الفلك والرياضيين البارزين . فلم تكد تنقضي على وفاة النبي محمد مئة عام حتى وجد المسلمون أنفسهم يحيون في امبراطورية مترامية الاطراف تمتد من الهند إلى مراكش واسبانية . وكان كل مسلم من هؤلاء يرجو أن يؤدي فريضة الحج إلى مكة مرةً في عمره

على الأقل . ومع ذلك فأن آلافاً من أميال البقاع المجهولة قد تفصل ما بين بلده ومدينة الاسلام المقدسة . وقد يستغرق الحج اشهراً ، بل سنوات ، من الرحلة عبر الصحارى والجبال ، والسهول والمدن . وهكذاً أمسى امراً أساسياً بالنسبة إلى الجماعة الاسلامية ان تكتسب معرفة بالمناطق التي تفصلها عن مكة . وفي بادىء الأمر قام بتزويد الجماعة بهذه المعرفة ، في المقام الأول ، اولئك التجار الذين انتهوا حتى في صدر الامبراطورية العربية ، إلى الصين والروسيا ، وإلى زنجبار وطرف افريقية الجنوبي . ولدينا وصف عربيّ للصين يرقى حتى إلى القرن التاسع ، وهو وصف وردت فيه اشارة إلى استعمال بصمات الأصابع بدلاً من الامضاء .

وشيئاً بعد شيء اكتسب المسلمون حب الرحلة عبر العالم لمجرد الاستمتاع بكَسْب المعارف الجديدة . ولقد كان لهم من فضولهم العارم ومن قوة ملاحظتهم الفطرية ما جعل منهم باحثين ممتازين وجهوا انتباههم إلى الجغرافية بقدر ما وجهوه إلى حيوانات بلادهم ونباتاتها ، وإلى المؤسسات السياسية والاجتماعية ، وإلى التاريخ وعلم الاقتصاد . والواقع ان الاحترام الذي أكنّهُ العرب دائماً لرجال العلم كثيراً ما أغراهم بالرحلة إلى مختلف الديار القصية التماساً للعلماء ، وللجلوس عند أقدامهم — إذا أمكن — جِلْسة الطالب المستفيد . وهكذا فأن كثيراً من كتب الرحلات التي خلّفها جوّابو الارض العرب تمثّل ، ولو على سبيل الاتفاق والمصادفة ، مناجم نستمد منها معلومات نافعة عن فقهاء العصر وفلاسفته وعلمائه . وأشهر هؤلاء الرحالة (وأكثرهم إمتاعاً) ابن بطوطة الطنْجي * (وُلِد عام ١٣٠٤) الذي يشتمل كتابه على وصف لرحلاته في سيلان ، والصين ، والهند ، والقسطنطينية وكثير من أجزاء الكرة الارضية غير المعروفة . وإنما يزوّدنا كتابه

* نسبة إلى مدينة طنجة .

بذخيرة كاملة من المعلومات عن كل مظهر من مظاهر الحياة جميعها ، تقريباً ، في العالم الاسلامي خلال القرن الرابع عشر .

ونحن نقع على قدر كبير من المعرفة التاريخية والعلمية في كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذي وضعه في ثلاثين مجلداً واحدٌ من أبرز المؤرخين المسلمين في القرن العاشر ، هو المسعودي [المتوفى في مصر عام ٩٤٦] . أما قاموس [ياقوت] الحموي [الرومي] (١١٧٩ – ١٢٢٩) الموسوم بـ « معجم البلدان » فيعتبر أثراً جغرافياً بالمعنى الأدقّ للكلمة . والواقع ان هذا الكتاب هو موسوعة حقيقية تشتمل ، بتعدّيها نطاقَ الجغرافية وإمعانها في الذهاب إلى ما وراء حدودها ، على ثروة علمية ضخمة .

ولأسباب واضحة حظي علم الخرائط ، عند المسلمين ، بأهمية لا تقلّ عن أهمية الوصف الجغرافي . وأبرز المشتغلين في هذا الحقل هو الادريسي (١٠٩٩ – ١١٦٦) ، من أهل سبتة في شمالي مراكش ، الذي عمل في بَلَرْم في خدمة رُجار الثاني ملك صقلّية . وكتابه الرئيسي ، الموسوم بـ « كتاب رُجار » ، يتضمّن ، بالاضافة إلى المادة الجغرافية المستقاة من كتب أسلافه ، قدراً كبيراً من المعرفة الجديدة كل الجدة . وإنما بُنيت هذه المعرفة ، في المقام الأول ، على تقارير الرحالين الذين أوفدهم الملك رُجار لهذا الغرض إلى مختلف الديار والبلدان . والقيمة الرئيسية لكتاب الادريسي تقوم على خرائطه السبعين التي تعطينا صورة عن العالم أكثر دقة من أيما مجموعة أخرى من الخرائط المعاصرة . ومن بين سماتها الرائعة قبولُ مؤلفها لكروية الارض في زمان سادَ خلاله الاعتقاد بأنها مسطحة ، وتعيينُهُ ينابيع النيل ، وهو صنيع لا يزال كثيرٌ يعتبرونه ، حتى اليوم ، اكتشافاً غربياً لا يرقى إلى أبعد من القرن التاسع عشر .

ومن فكرات المسلمين الجغرافية الهامة التي تهمل في كثير من الاحيان

تلك التي تقول إن في وسط نصف الكرة المعروف « ذروة للعالم » عُرِفت بـ « قبة أرين » . ولقد اكتسبت فكرة « ذروة العالم » هذه أنصاراً كثيرين في أوروبة ، بينهم روجر بايكون وألبرت الكبير . وفي عام ١٤١٠ ظهرت في كتاب *Imago Mundi* للكاردينال بيتر اوف آيلي **Peter of Ailly** ، ومنه عرف كريستوف كولومبس بها في ما بعد . والواقع أنها جعلته يؤمن بأن الارض هي في شكل الاجاصة وان نصف الكرة الغربي يجب ان يكون هو « قبة أرينها » . وهكذا فليس من المبالغة في شيء ان نقول ان في إمكاننا ان نعزو بعض الفضل في اكتشاف اميركة إلى الجغرافيين الاسلاميين . وحتى رحلةُ فاسكو دا غاما البحرية إلى الهند لا يمكن ان تجرّد من بعض المشاركة الاسلامية . فعندما بلغ فاسكو دا غاما ساحل افريقية الشرقي تولى مرشده العربي ، أحمد ابن ماجد ، هدايته إلى طريق الهند . وكان ابن ماجد هذا هو الذي قاده إلى هناك . وهذا المرشد نفسه وضع كتيّباً عن الملاحة في البحر الاحمر ، والخليج الفارسي ، والمحيط الهندي ، ومياه آسية الجنوبية الشرقية . بل ان بعض العرب يذهبون إلى حد اعتباره مخترع البوصلة .

وكانت الكتب الجغرافية ، سواء أكانت فلكية ام طوبوغرافية ام تاريخية أم وصفية ، ذات شعبية كبيرة في البلدان الاسلامية . وكانت كثرة هذه الكتب تبزّ أيما أثر مماثل أطلعه الغرب وتمثل بالنسبة إليه خطوة تقدمية . والحق أن معرفة اوروبة بمختلف اجزاء الكرة الأرضية ظلّت ، طوال قرون متعددة ، مبنيّةً على مكتشفات العلماء المسلمين . وهكذا ، فحتى العصور الحديثة تقريباً ، كان المرجع الثقة في شؤون إفريقيةَ هو « الأسد الافريقي » **Leo Africanus** ، الحسن الوزّازي ، الرحّالة المراكشي ، الذي ظلّت كتبه عن رحلاته في افريقية والموضوعة في أواخر القرن السادس عشر تُنْشَر ويُعاد نشرها

على نحو دَوْريّ ، طوال مئتي سنة ، في لغـات اوروبيـة مختلفة .

٣ ـــ الطب

وكما في الرياضيات كذلك في الطب : إنّ لتفوّق المسلمين على الاغريق مُنْطَوَيات **implications** أعمق بكثير من المنطويات ذات الصفة العلمية الخالصة «وهم في دراساتهم وبحوثهم الطبية لم يوسّعوا آفاق الطب فحسب ، بل وسّعوا المفاهيم الانسانية على وجه العموم . وكرة أخرى وُفّقوا إلى ذلك بسبب من معتقداتهم الروحية الناسخة لكلّ ما قبلها . صحيح أن بحوثهم الطبية كانت ذات طبيعة علمية بالمعنى الدقيق ولكن الروح التي دفعتهم وحرّكتهم كانت عميقة الجذور في إيمانهم كمسلمين » وهكذا لم يكن مجردَ مصادفة أن تقودهم هـذه البحوث إلى آفاق كانت على نحو حتمي وراء متناول معلميهم من الاغريق . وإذا كان من واجبنا أن نعتبر فلق الذرة والقنبلة الذرية رمزاً لأروع المنجزات العلمية في منتصف القرن العشرين فلن يبدو من مجرد المصادفة أيضاً ان تكون جهود المسلمين الطبية المبكّرة قد قادتهم إلى اكتشاف لا يقلّ عن هذا الكشف الذريّ ثوريّةً ، وإن يكن في أغلب الظن أكثر منه نفعاً .

ففي عالم الاغريق السكونيّ **static** نسبياً كان الانسان يُعتَبر « وجوداً » مستقلاً في ذاته إلى حد قليل أو كثير . فاذا اتفق أن لازم فراش المرض كانت تبعة ذلك واقعة على نفسه هو في المقام الأول ، باعتبار أنه هو مصدرُ مرضه وسَلَفُهُ . ومن عجب أننا نقع على مفهوم مماثل في واحد من أكثر المذاهب شعبية في قرننا هذا ، أعني في علم النفس الفرويْدي الذي يلتمس التفسير لعلل الانسان وأدوائه

ضمن نطاق النفس البشرية نفسها ، ضمن نطاق احلامها ولا وَعْيها ، وأخيراً ضمن نطاق حياتها الجنسية . والواقع ان السيكولوجيا الفرويْدية تزعم ان جميع حوافز الانسان وأذواقه ومعتقداته تنشأ في طبقة لا وعيهِ التي يهيمن عليها « الجنس » . ومع ذلك « فالجنس » بوصفه « جنساً » يمكن أن يُعتبر أحطّ مخارج الانسان المشتركة . انه بتركيزه نظرَهُ على « الجنس » إنما يركّزه على أشد العناصر في نفسه حيوانيةً وانانيةً . وليس من ريب في أن انهماك المرء في نفسِهِ ذاتها على هذا النحو الكثيف يُضعف اهتمامه بالآخرين . بل انه قد يقوده إلى أنانية يكاد يتعذر التمييز ما بينها وبين الانفصال عن سائر الجنس البشري بل يكاد يتعذّر التمييز ما بينها وبين معنى من العزلة المطلقة .

وواضح ان أيما مذهب أو علاج قد ينطوي ، بأية صورة من الصور ، على انعزال الأنسان عن اخوانه في الانسانية أو عن العالم كله خليقٌ به ان يكون غريباً على المسلمين . فالكون الاسلامي ، مشتملاً على الجنس البشري وعلى الطبيعة ، لا يستطيع ، بوصفه القناع الحيّ الذي يحتجب الله خلفه ، أن يجيز لأيما جزء من الاجزاء التي يتألف منها أن يكون في حال من الانعزال . وخليقٌ بأيما فلسفة قوامها الانطواء على النفس وتركيز التفكير عليها ، تحت أي ستار مهما يكن ، ان تكون غيرَ معقولة وجديرةً بالاستهجان عند العقل المسلم . فقد كان ذلك العقل عاجزاً عن ان يعتبر الانسانَ ، سواء أكان في حال من الصحة أو من المرض ، كائناً منعزلاً عن الله ، وعن اخوانه في الانسانية وعن العالم المحيط به .

ولعله كان من الحتميّ ، وقد نظر المسلمون إلى الانسان وإلى مركزه في العالم هذا النوع من النظر ، أن يكتشفوا أن المرض لا ينشأ بالضرورة في جسم الانسان نفسه ، بل قد ينتقل اليه من خارج نفسه . وبكلمة أخرى كان من الحتمي ان يكونوا أول من قرّر ، في وضوح ،

وجود العدوى ؟

وسنحت للأطباء المسلمين فرصٌ كثيرة للملاحظة السريرية لأمراض رهيبة كالجدري ، والكوليرا ، والطاعون الدمّلي . وعلى أية حال فهذه الامراض وأمثالها كانت شائعة في البلاد غير الاسلامية شيوعَها في الديار الاسلامية . ومع ذلك فقد كان الاطباء المسلمون سباقين إلى اكتشاف وجود العدوى وطبيعتها . وليس في الإمكان اعتبار ذلك ضرباً من المصادفة . لأن مفهوم المسلمين الديني والفلسفي الأساسي جعلهم يعتبرون الانسان حلقة في سلسلة قد يكون من حلقاتها الاخرى أخاه في الانسانية أو ثوباً ملوّثاً أو هواء أو ماء ملوثين . إن أياً من هذه كلها لا يوجد منفرداً بنفسه في خواء vacuum ، وهي كلها مجتمعةً تشكل اخوّةً تعكس وحدة الله . وواضح ان الانسان الذي يعي أنه حلقة في سلسلة يختلف من ذلك الذي يؤمن بأن في ميسوره ان يكتشف كل اسرار طبيعته ومحرِّكاتها ضمن نفسه ذاتها . إذ بينا يحيا هذا الأخير في عزلة وكأنه جزيرة صغيرة مسيَّرة على نحو ذاتيّ فأن الأول لن يستشعر البتة أنه متوحد ، ولن يُمنَى البتة بالخيبة التي يفضي اليها ، في كثير من اليسر ، استيحاش المرء وشعوره بالوحدة .

وفي حضارة تجعل من قرب الانسان إلى الله واعتماده على الله قضيتها المسلّمة الأولى يكون من غير المحتمل ان يتكل الطبيب على العلاج الجسدي المحض . ان المعالجة الروحية خليقٌ بها ان لا تقل ، عنده ، اهمية وخطراً . والواقع ان الاطباء المسلمين نادراً ما أهملوا العامل الديني ، وحتى ذلك النوع من الاستشراف الذي يدعى ، في اللغة العصرية ، « المعالجة بالايمان » . بيد أنهم لم يقتصروا على هذا النوع من المعالجة (كما هو الحال في « العلم المسيحي » *) ، بل اصطنعوه بالاضافة

* Christian Science دين ونظام في معالجة امراض العقل والجسد، وهويقول بأن في الامكان التغلب على الاثم والمرض والموت من طريق الفهم الكامل للمبدأ الالهي في تعاليم المسيح وشفائه المرضى . (المعرب)

إلى المعالجة الجسدية . وليس عجيباً أن يتحول ذلك في كثير من الاحيان على أيدي الجهلة والدجالين ، إلى مجرد خرافة و « سحر » . وأياً ما كان ، فأن هذا لم يُبْطل لا حكمتهم ولا فعالية طريقتهم التي حاولوا ان يجمعوا فيها ما بين الحقائق الروحية والجسدية معاً .

* * *

تقول الروايات ان حُنَيْن بن اسحق ، من أهل القرن التاسع ، هو أبو الطب العربي . فقد كان هو رئيس « مدرسة » المترجمين الشهيرة التي انشأها الخليفة المأمون في بغداد ، وأعظم مترجم عربي لتراث الاغريق الكلاسيكي . وينسب اليه انه نقل إلى العربية كامل مصنفات جالينوس الطبية ، وبفضله تمتّع جالينوس بتلك الشهرة العظيمة التي نالها عند العلماء القروسطيين في الشرق والغرب جميعاً . وترجم حنين ، بالتعاون مع تلامذته ، معظم مؤلفات الطبيب الاغريقي العظم الآخر : أبقراط . واليه يرجع الفضل أيضاً في وضع الترجمة العربية لكتاب الأقرباذين *Materia Medica* لديوسقوريديس **Dioscorides** ، وهذه الترجمات وحدها تشير إلى اهتمام حنين بالطبّ على نحو ناشط زاخر بالحيوية . ولكن هذا الاهتمام إنما تؤكده مؤلفاته الكثيرة في الموضوعات الطبية ، واشهرها كتابه « مسائل في الطب » ، وكتابه « رسالة في العين » الذي يعتبر أول كتاب نظاميّ في طب العيون .

وعلى غرار حنين بن إسحق كان معظم مترجمي المؤلفات الطبية الاغريقية العرب أطباء ممارسين أيضاً قدموا إلى علم الطب خدمات أصيلة . وأبرز هؤلاء الرازي ، المعروف في الغرب باسم **Rhazes** (٨٦٥ ـ ٩٢٥) . والمؤلفون في تاريخ الطب يعتبرونه واحداً من أعظم الاطباء في جميع العصور . وإذ كان الرازي خصب الانتاج فقد ترك لخلفائه تراثاً ضخماً من الكتب ، بعضها موجز ذو أهمية عابرة أو محلّية خالصة ، وبعضها ضخم مؤلف من عدة مجلدات لم تكسف

أنوارها طوال الف سنة تقريباً . وهو يقدّم الينا في رسالته عن الجدري والحصبة أول وصف سريريّ لهذين المرضين ، وصفٍ يمكن اعتباره دقيقاً إلى حد مذهل حتى على ضوء المعرفة الطبية الحديثة . والواقع ان كتابه « الحاوي » هو من غير ريب أضخم وأشمل كتاب طبي قدّر لمؤلف فرْد أن يخرجه للناس . وهو يعطينا في مجلداته التي تربي على العشرين بَسْطاً كاملاً لجمّاع المعرفة الطبية الاغريقية والسريانية والعربية في عصره . وفوق هذا ، يقدّم الينا الرازي في كتابه ذاك طريقة معالجة كل مرض من الامراض وفقاً لآراء الاخصائيين اليونان والسريان والعرب والفرس والهنود ، مُرْدَفةً بمكتشفاته الخاصة المبنية ، إذا جاز التعبير ، على خبرته السريرية الخاصة .

ولئن كانت موسوعة الرازي الطبية أول اثر اتّسم بهذه الصفة الاستغراقية فأنها لم تكن ، بأية حال ، آخر هذه الآثار . ذلك بأن طبيعةَ الثقافةِ الاسلاميةَ الشموليةَ بعامة ، ونزعات العلماء المسلمين واهتماماتهم الشموليةَ بخاصة قضت ، على نحوٍ حتميّ ، بأن يكونوا مؤلفين غزارَ الانتاج للكتب الموسوعية وقرّاء نهمين لها . ومع أن بعض علمائهم كانوا مؤهلين للأجادة في حقل من حقول المعرفة أكثر من أهليتهم للاجادة في غيره ، فانهم نادراً ما قصروا اهتمامهم على حقل بعينهِ فحسب . وأشهر ممثلي الشمولية الاسلامية وابرز وجه من وجوه العلم الاسلامي هو ابن سينا ، المعروف في الغرب باسم **Avicenna** (٩٨٠ — ١٠٣٧) . ولقد احتفظ ، طوال الف من السنين ، بشهرته الأصلية كواحد من أعظم الفلاسفة وعلماء الطب في التاريخ . كان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره عندما أهّلته براعته وشهرته كطبيب ناجح لأن يُدْعى إلى احد البلاطات الفارسية لمعالجة سيّد ذلك البلاط من مرض ألمّ به . وكان هو الذي فتح الابواب مشرعةً — بأدراكه ان المرض قد يُنْقل من طريق الماء أو التراب ، وان السل الرئوي قد

ينتقل من شخص إلى آخر – لمفهوم جديد كل الجدة في المعرفة البشرية.
وإنما تقوم شهرته كمؤلف في الطب ، أكثر ما تقوم ، على مجلدات كتابه « القانون في الطب » الكثيرة ، وهو موسوعة طبية يقارب عدد كلماتها مليون كلمة . وهو يصف ، في هـذا السِفر ، جميع الامراض المعروفة لعهده وطريقة معالجتها ، ويتوسع توسعاً كبيراً في الكلام على العقاقير (الاقرباذين) التي تكشّف دائماً عن أشدّ العناية بها . و « قانون » ابن سينا يمثل ذروة العبقرية الاسلامية في التنظيم والسَّتْمَة systematizing . والواقع ان بعض العلماء يأخذون عليه سَسْتمته هـذه قائلين إنها مفصلة أكثر مما ينبغي ، وأنها تكاد ان تكون مصنوعةً متكلّفة . ومع ذلك ، فقد حظي الكتاب بشعبية هائلة في طول العالم الغَرْبي وعرضه ، فأعيد طبعه في ترجمات عديدة طوال قرون كثيرة على غير انقطاع .

إن ابن سينا ليرمز إلى انتصار العروبة ضمن نطاق الحضارة الاسلامية. فعلى الرغم من كونه فارسياً عاش في فارس في حقبة كانت سيادة العرب السياسية قد أمست خلالها خبراً من أخبار الماضي ، فقد ألّف جميع كتبه الفلسفية والعلمية باللغة العربية . بيد أن هذا كان أمراً لا مناص منه ، لأن العربية كانت قد أمست في طول العالم الاسلامي وعرضه ، وفي جملته صقلية واسبانية ، هي لغة العلم والمعرفة .

ألف ابن سينا في الرياضيات ، والموسيقى ، وعلم طبقات الارض ، ومسائل الضوء ، وجاذبية الأرض ، والحرارة ، والحركة بمثل السعة والتبسّط اللذين ألّف بهما في الطب والفلسفة . وفي امكاننا القول إنه بشموليته الجازمة ، وتوقّد ذهنه ، ورحابة نظراته وأذواقه، وتقديره لما يدعى « اشياءَ الحياة الصالحةَ » وأخيراً وليس آخراً بطبيعة حياته الحافلة بالمغامرة – أقول في امكاننا القول إنه بهذا كله كان رائداً لشخصيات النهضة الايطالية العظام في أدقّ خصائصهم وأكثرها نموذجيةً،

بل إنه قد فاق هؤلاء في ذلك وتخطّاهم . والناحية الوحيدة التي اختلف فيها عن الكثرة الكبيرة منهم هي ورعه الصادق إلى حد بعيد . فنحن نعلم مثلاً ان ابن سينا كان ، إذا استعصى عليه حل مسألة علمية ، كثيراً ما يعتكف في المسجد ويفرغ للصلاة ساعات طوالاً . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان إذا ما اهتدى إلى حل مشكلة بالغة العسر مضى إلى المسجد ليحمد الله على ما أسبغ عليه من فضل .

وعلى الرغم من ان الطب العربي في الشرق الأدنى لم ينجب قط عبقريةً تضارعه فـأنه لم يكن بأية حال آخر الاطباء العظام في ذلك الجزء من العالم . ان احداً من خلفائه لم يبلغ ما بلغه من الشهرة وبُعد الصيت ، ومع ذلك فقد لمع من هؤلاء عددٌ غير يسير وفقوا إلى خدمة الطب خدمات من الطراز الاول . وليس بين مكتشفات هؤلاء ما هو أكثر ثوريةً من ذلك الذي تمّ لابن النفيس ، وهو طبيب مصري أو سوري توفي عام ١٢٨٩ . لقد انتقد نظرية جالينوس ونظرية ابن سينا معاً في ما يتصل بمجرى الدم الوريدي بين البُطَيْن الايمن والبُطَيْن الأيسر ، وبذلك أثبت أنه كان رائداً سبق وليم هارفي [إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى] . ليس هذا فحسب ، بل لقد اكتشف أيضاً المبادئ الاساسية للدورة الشريانية ، موضحاً ان الدم كان يطهّر في الرئتين حيث يُخضع لعملية تكرير من طريق احتكاكه بالهواء الذي يتلقّـاه الجسم من الجو الخارجي . والحق ان اكتشافاته تقدّمت اكتشافات العلماء الاوروبيين بثلاثة قرون . ومع ذلك فقد ظلّ مغموراً طوال مئات من السنين ، ولم يشرع العلماء في ادراك شأنه العظيم إلاّ في أيامنـا الحاضرة .

* * *

حتى إذا جنحت شمس العلم الاسلامي في الشرق الأدنى للأفول ، عند منبلَج القرن الحادي عشر ، كان عصره الذهبي قد آذن بالاشراق

في المغرب ، أي في مراكش واسبانية . وفي المغرب أيضاً ، كان الطبيب العظيم كثيراً ما يحتل منصب الوزارة أو منصب المستشار الشخصي للامير الحاكم أيضاً . ومن مشاهير الاطباء في بلاد « الموحدين » المراكشيين ابن زُهْر ، المعروف في اوروبة باسم Avenzoar . ويختلف كتابه « التيسير » (تسهيل المعالجة) عن الموجزات المألوفة وعن الموسوعات التي أحبها الاطباء المسلمون حباً جماً بأنه مبنيّ في المقام الاول على خبرات مؤلفه السريرية الشخصية . ولقد كان إلى ذلك واحداً من كتب الاطباء العرب العديدة التي قدّر لها أن تنعم بشعبية عظيمة عند زملائهم الاوروبيين .

وابرز اسم في دنيا الطب في ديار العروبة الغربية هو اسم ابن رشد (المعروف في اوروبة بـ Averroës) ، الفيلسوف الارسطوطاليسي العظيم ، الذي شغل ، كما قلنا من قبل ، مناصب هامة مختلفة في بلاطات عدد من ملوك الموحدين . وإنما يحتل مقام الشرف ، بين مؤلفاته الطبية ، كتاب « الكليات في الطب » . ففي هذا الأثر لا يعمد ابن رشد ، مخالفاً في ذلك كثيراً من زملائه ، إلى مجرد تقديم خلاصات للمعرفة الطبية الاغريقية والمعرفة الطبية العربية ، بل يحلل المعرفتين ويقارن ما بينهما ، موازناً بين آراء الرازي وابن زهر ، وآراء جالينوس وأبقراط .

إن العروبة « الغربية » هي التي أعطت العالم الاثبات الواقعي الأقوى لفكرة المرض بالعدوى . ولقد كان السبب المباشر المفضي إلى هذا الكشف هو الطاعون العظيم الذي اجتاح العالم في القرن الرابع عشر . فبعد أن تفشّى ، أول ما تفشّى ، في الهند عام ١٣٣٢ ، انتشر على نحو تدريجي حتى بلغ الروسيا الشرقية من ناحية ، ثم انتقل عبر سورية والقسطنطينية إلى أوروبة الجنوبية ، ليجتاح آخر الأمر ، عام ١٣٣٨ ، اسبانية في الجنوب ، وانكلترة في الشمال . وفي طول اوروبة وعرضها

اعتبر الناس ذلك الطاعون « عملاً » من أعمال الله ، وحتى العلماء ظلوا في جهل كامل لحقيقة انتقاله بالعدوى ، يحملها الجرذان والبراغيث (ويقع القارئ على وصف شهير للطاعون في مقدمة بوكاشيو لكتابه ديكاميرون *Decameron*) .

وبينا أحدث الطاعون في معظم البلدان فيضاً من الكراريس الورعة المثقلة باللاهوت الطفلي والخرافات السائرة – لقد قيل ان الاسباب الرئيسية لانتشار الطاعون هي إما اليهود أو الثوران البركاني أو ولادة عجل برأسين اثنين – نقول بينا احدث الطاعون هذا الفيض من الكراريس ألّف طبيبان مغربيان رسالتين مبنيتين من الفهما إلى يائهما على الملاحظة العلمية . وكان هذان الطبيبان هما ابن الخطيب – احد ابناء غرناطة – (١٣١٣ – ١٣٧٤) ، وقد اشتهر أيضاً كمؤرّخ وسياسي ومؤلف ، وابن خاتمة (١٣٢٣ – ١٣٦٩) ، وكان طبيباً وشاعراً ومؤرخاً .

الف ابن الخطيب عدداً من الكتب التاريخية الممتازة التي عالجت ، في المقام الاول ، مختلف مظاهر التاريخ الاسباني والمراكشي . ووضع أيضاً كتباً في الرحلات والمقالات الادبية ، وطار له صيت بعيد في بلاغة اسلوبه وتجديداته اللغوية . ولقد سلخ معظم أيام حياته وزيراً في بلاط بني نصر الشهير في الحمراء بغرناطة . أما أهم كتبه ، من وجهة النظر العلمية ، فرسالته « في الطاعون » ، وهي تمتاز بما انطوت عليه من جرأة ومن حجج مقنعة اوردها دفاعاً عن فكرة العدوى . ذلك بأنه كان من الجرأة البالغة أن يعارض مسلم آراء لا تعتنقها الجماعة الاسلامية كلها فحسب بل يزكّيها « الحديث » ، أعني مجموع الروايات المتصلة بحياة النبي وأقواله . ومع ذلك فقد ناقض ابن الخطيب، في بسطه نظرياته الطبية ، الحديث النبوي . لقد كتب يقول ما معناه : « يجب أن يكون بين مبادئنا ان البرهان المنتزع من الحديث يتعين إخضاعه للتعديل حين يتعارض تعارضاً واضحاً مع البيّنة المنتزعة من طريق

الادراك بالحواس* . » وقد أعطانا ابن الخطيب دليلاً على استقلال في الرأي وشجاعة أدبية مماثلَيْن في تأليفه رسالته الطبية الاخرى الموسومة بـ « أمَلُ من طَبَّ لمن حَبَّ » ، والمرفوعة إلى احد ملوك بني مَرِيْن في مراكش . إذ إلى جانب معالجته في هذه الرسالة لبعض المسائل الطبية العامة تصدّى في فصل أخير لمسائل خلافيّة إلى أبعد الحدود ، كالاجهاض (وقد اقرّه في الاحوال التي تتعرض فيها حياة الأم للخطر) ، ودعوته إلى اصطناع العقاقير المقوية للباه لأسباب قومية واجتماعية ، واستعمال الخمر لاغراض طبية .

ووضع ابن الخطيب أيضاً ترجمة لزميله ابن خاتمة الذي كانت رسالته في الطاعون أعظم شأناً من رسالة ابن الخطيب نفسه . وإنما كتب ابن خاتمة رسالته تلك عام ١٣٤٩ عندما بلغ « الموت الاسود » ذروته في ألمَرِيّة ، باسبانية ، حيث كان يقيم . والواقع أن مكتشفاته مبنيّة كلها على ملاحظاته الخاصة . ونحن نقع في رسالته على هذه الجملة التي كانت تمثل في ذلك العهد ثورة فكرية : « إن ثمرة اختباري الطويل هي انه حين يحتك شخص بمريض يصاب في الحال بذلك المرض وتبدو عليه اعراضه نفسها ... ثم إن المريض الثاني ينقل الداء بدوره إلى غيره . » ** ولا يجد ابن خاتمة غضاضة في دراسة مظاهر الطاعون الثيولوجية ، ولكنه يضع معظم توكيده على طبيعة المرض السارية ، وعلى طريقة معالجته واسلوب الوقاية منه .

إن أياً من هذين الطبيبين العظيمين لم يقدّم الينا تعريفاً للعدوى يكون نظامياً ومانعاً **watertight** . فالحق ان تقدم المعرفة العلمية آنذاك

---

* نأسف لعدم تمكننا من الوصول إلى هذه الجملة في كتب ابن الخطيب ، فعسى ان يهتدي اليها بعض الباحثين فيرشدنا إلى نصها الأصلي مشكوراً . (المعرب)

** نقلنا هذه الجملة أيضاً عن الترجمة الانكليزية لعدم تمكننا من الاهتداء اليها في الأصل العربي . فعسى أن يرشدنا اليها بعض فضلاء الباحثين لنثبتها في الطبعة القادمة بنصها الاصلي . (المعرب)

كان دون المستوى الذي يساعد على وضع مثل هذا التعريف . وكان لا بدّ من انقضاء مئتي سنة أخرى قبل ان يصبح ظهور كتاب جيرولامو فراكاستورو **Gerolamo Fracastoro** « العدوى » *De Contagione* امراً ممكناً . والحق ان الكلمة الفَصْل في الطبيعة الحقيقية للعدوى ما كان لها ان تقال إلا في العصر الحديث مع متكشّفات باستور البكتريولوجية . ومع ذلك ، فقد كان ابن الخطيب وابن خاتمة أول من أعطيانا وصفاً سريرياً للعدوى ، وبذلك احدثا ثورة في مفاهيم عصرهما الطبية .

كان الطب ، في أوروبة ، خلال الصدر الاول من القرون الوسطى يُمارس في الأعم الأغلب على يد جماعة من الدجالين ، أو على يد بعض الرهبان الأتقياء ولكن غير المتمتعين بقدْر من العلم عظيم . وخلال الحقبة نفسها كان الاسلام يُنجب نفراً من ألمع رجال الصناعة الطبية النظريين والعمليين في التاريخ البشري كله . وفي الديار الاسلامية كانت مهنة الطبيب تُعتبر احدى المهن الأكثر نبلاً وشرفاً ، وكان أصحابها يتمتعون بمركز اجتماعي رفيع ولقد حُفظت لنا روايات كثيرة عن الأجور الخيالية التي كانت تدفع إلى الأطباء لقاء خدماتهم وقد أنشأ المسلمون في وقتٍ مبكر جداً ، كما يتعيّن علينا ان نتوقع ، نظامَ المستشفيات . وكانت بغداد قد عرفت أول مستشفى من مستشفياتها في عهد هرون الرشيد ، أي في السنوات القليلة الأولى من القرن التاسع . وخلال ذلك القرن أضيفت إلى هذا المستشفى عدةُ مستشفيات جديدة . ومستشفى القاهرة الاول يرقى ، هو أيضاً ، إلى القرن التاسع . حتى إذا كان القرنُ التاسع عشر ألفينا عدداً من المستشفيات الجوّالة في مختلف أجزاء العالم الاسلامي

وحتى المستشفيات الاسلامية الأولى كانت مقسومة إلى اجنحة للرجال وأجنحة للنساء ، لكل جناح منها مستوصفه أو صيدليته الشعبية الخاصة . وكانت لبعضها حدائق مستقلة تزرع فيها الاعشاب والنباتات الطبية .

ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت بعض المستشفيات الكبرى تنتظم مدرسةً يتلقى فيها أطباء المستقبل علومهم ويتخرجون منها حاملين شهاداتهم . ولم يُخضع الاطباء وحدهم لرقابة الحكومة ، بل لقد أخضع لمثل هذه الرقابة أيضاً الصيدلانيون والحلاقون الذين كانوا يقومون ببعض العمليات الجراحية .

وثمة اسباب تسوّغ لنا الاعتقاد بأن اوروبة ، حين شرعت تنشىء المستشفيات آخر الأمر ، خلال الحروب الصليبية ، إنما أُلهمت القيامَ بذلك بالمثل الحيّ الذي ضربه لها العرب في الشرق الادنى . ذلك بأن الحكام السلاجقة والحكام المماليك كانوا قد أنشأوا في تلك الحقبة مستشفيات جديدة من الطراز الأول في كل من دمشق والقاهرة . (ان الصليبيين ، طبعاً ، لم يقدّر لهم البتة ان يصلوا إلى بغداد التي كان المغول ، على أية حال ، قد دمروها في منتصف القرن الثالث عشر تدميراً) . والواقع ان أول مستشفى أقيم في باريس ، وهو المستشفى المعروف باسم *Les Quinze-Vingt* إنما أسسه الملك لويس التاسع بعد عودته من صليبية عام ١٢٥٤ — ١٢٦٠ . ولكن أطباء هذه الحقبة النصارى لم يستطيعوا أن يوقعوا كثيراً من الاحترام في نفوس زملائهم العرب . ولدينا نصوص كثيرة تصف فيها المصادر العربية ، في كثير من الازدراء ، جهل الاطباء النصارى وأساليبهم البربرية في معالجة المرضى . وأياً ما كان ، فلم تكد أولى اشعة الفكر تخترق الظلمات التي اكتنفت اوروبة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية حتى شرع العلماء الغربيون يلتفتون في شوق ولهفة إلى العلم العربي ، وحتى تُرجمت آثار الاطباء المسلمين ، كما اشرنا من قبل ، إلى اللاتينية ليقبل طلاب الجامعات الاوروبية على دراستها بنهم ، وليفيد منها الاطباء النصارى إفادةً كبيرة .

٤ ـــ الكيمياء ، والخيمياء ، والفيزياء

كان للكثرة الكاثرة من الاطباء المسلمين عناية كبيرة بعلم الاقرباذين أو فنّ تركيب الأدوية . وكان كثيرٌ منهم أيضاً كيميائيين وخيميائيين **alchemists** . وعلى الرغم من أن الخيمياء **alchemy** كُسِيت آخر الأمر لباسَ الخزي والعار فقد مثّلت ، بالنسبة إلى العلماء المسلمين ، مجرد الجانب الروحي (أو الباطني) من نظام علمي على نحو جليّ . وكلمة « الخيمياء » نفسها من أصل عربي (الكيمياء) . وقد ذهب العرب إلى أن الخيمياء نشأت أول ما نشأت في مصر ، وقد ربطوا اسمها بتربة مصر السوداء (*kam - it* أو *kem - it*) ، على الأصح بدلتا النيل .

وبينا كانت طرائق الخيميائيين المسلمين المختبرية عاميةً إلى حدّ يمكنهم من القيام بعدد من الاكتشافات الكيميائية الهامة ، كانت غايتهم المطلقة تعدو مجرد العلم الكيميائيّ . ويمكن اعتبار نشاطهم الخيميائي ضرباً من « الرياضة الروحية » *exercicium spiritualis* ، أو ضرباً من الانضباط الروحي لم يكن الانضباط المختبري غير مجرد وسيلة خارجية اليه وغير مجرد رمزٍ له . ففي جهودهم التي بذلوها من أجل تنقية المواد الكيميائية إلى حد يساعدهم على ان يكتشفوا آخر الأمر مادةً تمكنهم من تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، سعى العلماء المسلمون ، في الوقت ذاته ، إلى تطهير نفوسهم تطهيراً باطنياً وإلى تهذيب ملكاتهم الروحية . وهذا في الواقع ما يحاول كل فنان أصيل ، سواء أكانت محاولته هذه شعورية أم لاشعورية ، ان يحققه . إنه في محاولته ان يهذب « رؤياه » **vision** ويطوّر ، في آن معاً ، تقنيةً تساعده على ان يعطي تلك « الرؤيا » تعبيراً مادياً كاملاً إنما يطهر نفسه روحياً من كل خَبَث قد يحول بينه وبين بلوغ غايته الفنّية المطلقة . لقد كانت الخيمياء ، في الحق ، فناً

بقدر مـا كانت علماً ، ولقد نظر اليهـا ممارسوها هذا النوع من النظر .

وحتى ضمن نطاق ابحاثهم الخيميائية الخالصة حقق الخيميائيون المسلمون نتائج لم تكن ، بأية حـال ، ضئيلة الاهمية . وهكذا استطاعوا ، في محاولاتهم اكتشاف « حجر الفلاسفة » elixir الذي يمكنهم مـن تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، أن يكتشفوا في كثير من الأحيان الخصائص الحَفّازة catalytic التي تمتـاز بهـا بعض العناصر والمواد ، تلك الخصائص التي كانت من قبلُ مجهولة . وفي عصرنا الحاضر ، وهو عصر ألكترونات أكثر منه عصرَ « مادة جامدة » ، يبدو تحويـل عنصر ما إلى عنصر آخر شيئاً أقلّ ايغالاً في الوهم والخيال ممـا بدا لرجال الاجيال السابقـة الذين ندّدوا بالخيمياء الاسلامية وطعنوا عليها .

واشهر عَلَم من اعلام الخيمياء الاسلامية هو جابر بن حيّـان (وقد عرفه الاوروبيون في القرون الوسطى باسم Geber) الذي عاش في الكوفة في القرن الثامن . ولا يزال جابر ، حتى يوم الناس هذا ، شخصية غامضة بعض الشيء ، إذْ بالاضافة إلى الآثار الـتي نعرف جيداً أنهـا من تأليفه توجد آثار أخرى كثيرة ظلت ، طوال الف عام ، تحمل اسمه على الرغم من معرفتنا أنهـا لا يمكن بحـال مـن الأحول ان تكون من نتاج قلمه . وأياً ما كان فأن تنافراً مماثلاً ليتخلّلُ حتى تلك الكتابات التي يبدو أنها له من غير ريب . فبعض هذه حافلٌ بتعليلات تجسيدية anthropomorphic وأرواحيّة * animistic لا يستطيع العقل العلمي آن يقبلها ، وبعضها الآخر يتكشّف عن آراء سليمة وتقدمية إلى حد رائع في حقل البحث الكيميائي . وهكذا فنحن مدينون له بأول تحضير معروف لموادّ كالزرنيخ والأثمد (حجر الكحل) من كبريتوراتها

* الأرواحية صيغة وضعناها لتؤدي معنى animism اي الايمان بأن كل الاشياء لها روح .
(المعرب)

sulphides ، وبنظرية في تشكّل المعادن الجيولوجي ، وبما يدعى نظرية المعادن الكبريتية الزئبقية . ولقد قام أيضاً بعمل هام في تحضير الفولاذ ، وفي استعمال ثاني أكسيد المنغنيز في صنع الزجاج ، وفي لاثقلية **imponderability** القوة المغناطيسية . ومنه تلقت الكيمياء ، أول ما تلقت ، مصطلحات من مثل الأمبيق **alembic** والأثمد **antimony** والقلي **alkali** والمادة المعروفة بملح النشادر **sal-ammoniac** .
أما كتابا جابر اللذان لفتا أنظار [الغربيين] أكثر ما يكون ، واللذان نقلهما إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر أعظم مترجمي العصر النصارى ، جيرار الكرموني **Gerard of Cremona** وروبرت التشيستري **Robert of Chester** فكانا « كتاب صناعة الكيمياء » و « كتاب السبعين » .

ثم جاء الطبيب الكبير ، الرازي ، وقد سبق لنا الكلام عليه ، فحسّن عملَ جابر وتوسّع فيه . والواقع ان الرازي ، شأن جابر نفسه ، ألّف في الكيمياء والخيمياء على حد سواء . وفي كتابه « كتاب الصناعة » (اي صناعة الخيمياء) قدّم الينا تصنيفاً مضبوطاً للمواد والعمليات الكيميائية ، متكشّفاً عن استبصار عميق وصائب لطبيعة الكيمياء الحقيقية بالقياس إلى الخيمياء .

وليس في ميسورنا ، حتى اليوم ، ان نقيّم أهمية الآثار الكيميائية والخيميائية التي وضعها جابر ابن حيان وأخلافه . ذلك بأن كثيراً مما ألّفوه في هذا الحقل لا يزال ينتظر النشرَ الدقيق والتحليل والتفسير العلميين .

* * *

لئن كانت المُنْجَزات الاسلامية في حقول الكيمياء قيّمة إلى حدّ أصبحت معه الاساسَ لعمل العلماء الغربيين في القرون الوسطى فأن المنجزات الاسلامية في الفيزياء كانت طفيفة نسبياً . إن الفيزياء تُعنى بالتفاعل المادي أو الميكانيكي المحض بين القوى الطبيعية . ومثلُ هذه

القوى كانت تُعتبر ، في نظر كثير من المسلمين ، أقرب إلى طبقة المادة الأشدّ انفصالاً عن الذات الألـهية من الخيمياء والكيمياء. وعلى الجملة ، لم يُعْنَ المسلمون بالفيزياء والميكانيكا المحضة غير عناية ضئيلة . ولم يعتبروا الفيزياء علماً جديراً بالدراسة إلاّ في حينما اتصلت ببعض الوظائف الـتي لم تكن ميكانيكية خالصة . وهكذا نجد العلماء المسلمين يُعْنون أعظم العناية بالساعات كيف تعْمل وكيف تُصْنع . والواقع ان الساعات آلات تبيّن ، من طريق تسجيلها تقدّم الزمان من لحظة إلى أخرى ، طبيعةَ الكون الحية ، وبالتالي طبيعةَ الله الذي لا يموت . إن البيروني وغيره من علماء الفلك المسلمين تمثّلوا الكونَ ، كما نذكر ، « صيرورةً » دينامية ، وبالتالي دليلاً على « تَمَظْهُر » الله على نحو سرمدي في عالم الظواهر **phenomenal world** . والحق أن كل ما يشير إلى العلاقة الوثيقة بين العالم وخالقه كان موضع اهتمام فائق عند المفكرين والعلماء المسلمين . والحركة المُحْدَثة من جانب الانسان وحده – كتلك التي نجدها في الأدوات الميكانيكية – كانت اقلّ استثاراً بعنايتهم وشوقهم من الحركة الناشئة عن قوىً تتجلى فيها ، على نحو أشد وضوحاً ، قدرةُ الله على الخلق والابداع . وهكذا نجد العلماء المسلمين يخصصون جهداً بالغاً لصنع الساعات التي تعمل بالماء أو الزئبق أو حتى بالشموع المضاءة . فقد بدت قوة الماء ، أو الزئبق ، أو النار ، والحركة التي يُحدثها أيّ من هذه جميعاً ، شاهدين مباشرين على الطبيعة الحية للكون والله اللذين استمدتا الحياة منه .

وكانت الساعة التي صنعها محمد بن علي في دمشق والعاملة بواسطة الماء إحدى الساعات الاكثر شهرةً في الاسلام . وبفضل الرسالة التي وضعها عنها ابنُ صانعها ، رضوان، في عام ١٢٠٣ احتفظت تلك الساعة بشهرتها حتى القرن السادس عشر . ولقد ألف المسلمون كتباً عديدة أيضاً – كتباً كثيراً ما زُيّنت برسوم فاتنة – عن ساعات أخرى وعن

مختلف ضروب الآلات الذاتية الحركة ، الخاصة بتوازن الموائع **hydrostatic automata** .

وكان من دأب العلماء المسلمين أن يصرفوا انتباههم ، في لحظاتهم الأشدّ بعداً عن الجِدّ ، وإشباعاً لنزوات ساداتهم ، إلى الدمى الميكانيكية . ولقد كانت هذه الدمى ذات شعبية ضخمة عند الأمراء ورجال الحاشية وسيداتها في مختلف البلاطات العربية . (وهذه الظاهرة لم تكن ، بالمناسبة ، مقصورة على البلاطات الاسلامية . فقد كانت مألوفة ايضاً ، على نحو متكافئ ، في بلاطات ايطاليا في عصر النهضة ، وفي مختلف البلاطات الاوروبية في تلك الحقبة . ونحن نقع على مظهر لها متأخر في الحماسة التي رعى بها آخر قياصرة الروسيا وأسرتُهُ الجوهريّ فابرجيه **Fabergé** وما صنعه من بيضات فَصّح بارعة ولُعَب أخرى ميكانيكية مُجَوْهرة .) وكانت الدمى الميكانيكية بارزةً على نحو شبه موصول في الهدايا المتبادلة بين الامراء المسلمين والهِبات المُغْدَقة في الأعراس الملكية وغيرها من الاحتفالات . ولقد كان أعظم ما أدهش رُسُل قسطنطين السابع البيزنطي في زيارتهم الرسمية ، عام ٩١٧ ، للخليفة المقتدر « قاعة الشجرة » التي اشتملت على شجرة مصنوعة من الذهب والفضة ذات أغصان كانت طيور اوتوماتيكية ذهبية تتنقّل عليها مغرّدةً في مرح وابتهاج .

وأياً ما كان ، فقد مثّلت هذه المستنبطات غير ذات المنفعة جانباً ثانوياً من نشاطات العلماء المسلمين . وكما سبق منا القول ، فان الميكانيكا التي شاقَتْهم ، أكثر ما شاقَتْهم ، كانت تلك المعتمدة ، بطريقة أو بأخرى ، على الماء ، بل كانت في الواقع « ميكانيكا » الماء نفسَها . ففي البلدان الزراعية قليلةِ المطر ، وبالتالي المعتمدةِ على الريّ ، تحظى امكانيات السيطرة على الطاقة المائية واستغلال فضائلها باهتمام سرمديّ . ولقد وضع كتّاب مصريون وعراقيون ومراكشيون كتباً كثيرة عالجت

مسائل ارتفاع المياه وموازينه ، والريّ بالاحواض والقنوات ، ومجارى المياه فوق القناطر ، والدواليب المائية . وألّف الكندي في المدّ والجزر وعلم الرصد الجوي . واقدم اثر اسلامي معروف في الميكانيكا ، وهو « كتاب الحيل » لأبناء موسى بن شاكر ، يعالج – إلى جانب موضوعات أخرى – موضوع الماء والآبار ، وأكواب الشرب وكؤوس الماء الحار والبارد .

* * *

وكما يتعيّن علينا أن نتوقع ، حقق المسلمون مآثر كثيرة نافعة في دراساتهم لطبيعة الضوء ووظائفه ، وبخاصة بالنسبة إلى الانسان ، مركزين اهتمامهم على علم البصريات . إن العين هي التي تُدْرِك الضوء طبعاً ، ولقد كانت للعلم الاسلامي عناية عظمى بذلك العضو الهام . وبسبب من الضوء القوي ومن انتشار الرمل والغبار في أرجاء الشرق الأدنى كانت أمراض العين ، ولا تزال ، متفشية في ذلك الجزء من العالم . وهكذا واجه الأطباء المسلمون – على عكس الكثرة الكبرى من زملائهم الاوروبيين – مسائل متصلة بالضوء والعين البشرية مواجهةً موصولةً .

وكان أبو علي الحسن بن الهيثم البصري (٩٦٥) ، المعروف في الغرب باسم Alhazen ، أول عالم حاول ان يدحض نظريات أقليدُس وبطليموس البصرية التي كانت تحظى آنذاك بقبول عام . وتذهب تلك النظريات إلى أن العين تتلقّى صُوَر الأشياء المختلفة من طريق إطلاقها أشعة بصرية إلى تلك الاشياء . وفي كتابه الموسوم بـ « كتاب المناظر » اقام ابن الهيثم الدليل على ان العملية تجري على نحو معاكس بالكلية . وبذلك وضع الأسس لعلم البصريات الحديث . وقد عبّر عن وجهة نظره بهذه العبارة : « ولا يكون الأبصار بشعاع يخرج من البصر وينتهي إلى المُبْصَر ، بل يكون بصورة تَرِدُ من المُبْصَرِ الى البَصَر . » وقد قام ابن الهيثم بتمهيد السبيل تمهيداً أساسياً للاكتشاف الذي تمّ في ايطالية ،

بعد حقبة طويلة – اكتشاف العدسات المكبِّرة . والواقع أن معظم المؤلفين الوسيطيين في علم البصريات ، وفيهم روجر بايكون ، اتخذوا من مكتشفات ابن الهيثم نقطة انطلاق لهم ، وبخاصة في كتابه « المناظر » ، وهو كتابٌ خلّفَ اثره حتى في تفكير ليوناردو دافنشي وجوهان كبلر . إن مؤلفات ابن الهيثم لتقوم على أساس راسخ من معرفة رياضية سليمة ، معرفة مكتَنَفَةٌ من بَسْط نظريات تكاد تكون ثورية في موضوعات من مثل هالة القمر ، وقوس قزح ، والكسوف والخسوف والظلال ، والمرايا الكروية والمرايا ذات القَطْع المكافئ .

وتابع عدد من العلماء المسلمين العملَ الذي قام به ابن الهيثم ، ومن أواخرهم وذوي الأهمية الحقيقية فيهم الفارسي كمال الدين ، من أهل القرن الرابع عشر ، الذي اشتهر أكثر ما اشتهر لتعليله لقوس قزح الأوليّ والثانوي ولتجاربه في ما يعرف بـ « الغرفة المظلمة » . ولعله جدير بالذكر ان الاسئلة الثلاثة الاكثر شهرة التي التمس فريدريك الثاني أوف هوهنستاوفن أجوبتها عند العلماء المسلمين كانت أسئلة تدور على علم البصريات. وهي هذه : لماذا يتوهم المصاب بأظلام العدسة الابتدائي ان أمام عينيه بقعاً صغيرة طافية ؟ لماذا تبدو المجاذيف أو الرماح نصف المغمورة في الماء وكأنها منحنية ؟ ولماذا يبدو « سُهَيْل» **Canopus** أكبر إذ يكون على مقربة من الأفق ، في حين أن فقدان البَلَل في الصحارى الجنوبية يُقْصي البَلَل كتفسير لهذه الظاهرة ؟

٥ ــ علم النبات ، والزراعة ، والبستنة

تكون النباتات ، بالنسبة إلى الشعوب التي تحيا في بلدان حارة شبه قاحلة نزرة الماء نسبياً ، شيئاً أثمن بكثير منها بالنسبة للشعوب التي تحيا

في ديار خصيبة الارض موفورة الثمرات . والحق أن الحياة النباتية كانت أبداً مجلىً من المجالي التي أثارت فضول الرحالين المسلمين في البلدان الاجنبية . لقد درسوا وجمعوا ووضعوا ضروباً من النبات ، وإن اوروبة لمدينةٌ لهم بالمصدر الأول لأبرز المآثر التي حُقّقت في علم النبات المبكّر . ولقد حداهم حسُّهم العملي القويّ إلى أن يُعْنوا عناية خاصة بالنباتات التي كان ممكناً أن تفي ببعض الاغراض المنفعية ، سواء في الزراعة أو الطب . قال البروفسور سارطون : « لقد كان التراث العربي أو الاسلامي ، في حقل الأعشاب ، هو في كل ناحية تقريباً أعظم بكثير من تراث أية أمة أخرى في هذا الحقل نفسه ... وهذه الاتجاهات الممتازة ، التي لا نعرف لها نظيراً عند الامم النصرانية ، واصلَتها خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر جَمْعٌ رائعٌ مؤلف من اربعة من علماء النبات . والواقع ان واحداً من هؤلاء ، ابن البيطار ، « صنّف أوسع كتاب في الموضوع (أي في علم النبات) ، بل أهم كتاب أُلِّف في علم النبات طوال الحقبة الممتدة من ديوسقوريدس إلى القرن السادس عشر . لقد كان ذلك الكتاب دائرة معارف حقيقية في هذا الموضوع ضمّت بين دفّتيها كاملَ الخبرات الاغريقية والعربية . »

ولكن علم النبات لم يكن غير جزء مما وقف ابن البيطار حياته لدراسته . فقد وصف أيضاً ما يزيد على ألف واربعمئة عقّار ونبتة طبية في طول منطقة البحر الابيض المتوسط وعرضها .

وكما سبقت منا الاشارة ، عُني المسلمون اعظم العناية بعلم العقاقير ، وألفوا في هذا الموضوع عدداً من الكتب ضخماً جداً . وكثير من الوصفات الطبية التي اشتملت عليها كتب كوهين العطار ، المؤلف اليهودي — وكان من أهل القرن الرابع عشر — وداود الانطاكي — وكان من أهل القرن السادس عشر — اقتبسه عنهما الصيادلة الاوروبيون . وكذلك اقتبسوا بعض الاسماء ذات الأصل العربي أو الفارسي ، مثل **syrup** ،

من لفظي «شراب» و «رُبّ» العربيتين ، لمزيج بعينه من العسل وعصير الفاكهة ، ومثل julep من اللفظة الفارسية «جُلاّب» ، أو ماء الورد ، لشراب طبيّ ذكيّ الرائحة .

* * *

لما كانت الفلاحة تشكّل المصدر الرئيسي لدَخْل الخلفاء وغيرهم من الأمراء المسلمين ، ولما كانت الكثرة الكبرى من رعاياهم تعيش على الزراعة فقد حظيَت البَسْتَنَةُ باهتمام بالغ من الحاكمين والمحكومين على حد سواء . والواقع ان المسلمين يجب ان يُعتبروا أول شعب ، في عالم ما بعد الرومان ، واجه مشكلات الزراعة بعقلية علمية . وطبيعي جداً ، كما لاحظنا من قبل ، أن توجّه في بلدان الشرق الادنى المعروفة بشحّ الماء ، عناية كبيرة إلى مشكلات الريّ . وقد أثبت أهل العراق ومصر ، واسبانية ومراكش ، انهم أبرع الشعوب جميعاً في فنون الري بالاحواض والقنوات ، وخزن المياه ، وحفر الآبار ومَتْحها ، وعلى الجملة في كل مظهر من مظاهر الافادة العلمية من الموارد المائية المتاحة . وحين جاء الفرنسيون عام ١٩١٢ بتقنيّاتهم الحديثة ، واحتلوا مراكش المتخلّفة [آنذاك] عن ركب الحضارة تعيّن عليهم ان يعترفوا بأنه لم يكن ثمة ما يستطيعون ان يلقّنوه الفلاحين المراكشيين الأميين في مختلف فروع الري على نطاق ضيّق *la petite hydraulique* .

وعلى الرغم من أهمية الخدمة التي أسداها العرب للريّ فأن أروع هدية قدّموها إلى الزراعة الاوروبية تمثّلت في تنوع ما أدخلوه من النباتات الجديدة ووفرة عدده ، ذلك بأن اللائحة تشتمل على بعض من أكثر فواكهنا وخُضَرنا شعبيةً . وهكذا فنحن مدينون لازدراعهم **transplanting** ببرتقالنا وليموننا ، وبخوخنا وارزّنا ، وقصب سكرنا وقهوتنا ، ورماننا وزعفراننا . ويوم كان العرب قد فرغوا من ادخال السكّر إلى اسبانية كانت بقية البلدان الاوروبية لا تزال تجهل وجوده .

والحق ان قليلاً من المكتشفات الحديثة التي وقع عليها الصليبيون ، في عهد متأخر ، في الارض المقدسة ، استطاع ان يبهج نفوسهم أكثر مما ابهجها قصب السكر هذا . وحتى تلك الفترة كان العسل هو عنصر التحلية الرئيسي المعروف في العالم المسيحي .

وكانت الكتب المؤلفة في الزراعة والبَسْتَنَة شائعة بين العرب شيوعَ الكتب المؤلفة في النباتات والعقاقير بينهم . وهذا يصحّ بخاصة في عرب الغرب ، أعني عرب أسبانية ومراكش . واشهر هذه الكتب ذلك الذي وضعه في القرن الثاني عشر العالم الزراعي ابن العوام الأشبيلي ، « كتاب الفلاحة » . وإن ثمة خبيراً غربياً واحداً على الأقل يعتبره « أهم مصنّف قروسطيّ في هذا الموضوع » (سارطون ، المجلد الثاني ، ص ٤٢٤) وهذا الكتاب لا يفيد من جُمّاع التراث الزراعي القديم ومن المعرفة الاغريقية والعربية القائمة في هذا الحقل فحسب ، بل يفيد أيضاً ، على نحو ادعى إلى الاقناع ، من تجارب المؤلف العملية الخاصة . وهو يدرس خمسمئة وخمساً وثمانين نبتة مختلفة وزراعة ما يزيد على خمسين شجرة مثمرة ، ومختلفَ ضروب التربة والسماد ، وطرائق التطعيم والتعاطف والتنافر الروحي بين النباتات (وهو موضوع يُعتبر ، في العادة ، كشفاً من الكشوف العصرية) وامراض النبات وعلاجها ، وتربية الماشية ، والنحل ، والطيور الداجنة .

وتشهد جنائن فارس ، أو مراكش ، أو الاندلس ، الشهيرة على عناية المسلمين البالغة بالبَسْتنة وحبّهم للرياحين . فجنائن فارس المسوّرة وجنائن الاندلس ومراكش المنوّرة في أفنية الدُوْر من أروع الأمثلة على فنّ إقامة الجنائن . إنها بعزلتها المصونة على نحو يرشح بالغيرة ، وأرضياتها المفروشة بالآجر ، وفوّاراتها وسواقيها ذوات الخرير ، وصفوف أشجارها وشجيراتها وزهورها المرتبة ترتيباً يبدو أول الامر اتفاقياً ولكنه

في الواقع ثمرة تفكير عميق ، وبما تكشّفت عنه من نفاذ دقيق إلى سرّ الصلة الجمالية بين فن العمارة ودنيا النبات ... نقول إنها بذلك كله قد طلعت بمفهوم جديد في إنشاء الجنائن . لقد كانت اقلّ « دراماتيكيةً » من جنائن ايطالية ، واقل فخامة أو « رسميةً » من جنائن فرنسة ، وأقلّ اتساعاً من الجنائن « الانكليزية » ، ولكنها كانت أشد اتصالاً بحياة أولئك الذين أقاموا ضمن نطاقها . ولا تزال ثمة في ارجاء الشرق الادنى وفارس ، وفي الحمراء باسبانية ، وفي الأوداية بالرباط ، حدائق كثيرة تبيّن سحر هذه المبتدعات الملهَمة اللانهائي .

ومما يتصل اتصالاً وثيقاً بحب المسلمين للرياحين ولوعهم بضروب الشذى المستخرجة منها . وهكذا أمست دمشق وشيراز وجُور شهيرة بعطر الورود الحمراء ، وبعطور البنفسج والبرتقال والياسمين وزنابق الماء . ولم تكن زهرات السوسن ، والنرجس ، والآس ، والليمون ، والنخيل لتقلّ شعبية عن الرياحين السابقة بفضل العطور المستمدة منها . وكانت العطور الفارسية والعربية قبلة أنظار الطالبين فهم يقبلون لشرائها من أقصى الارض : من اوروبة في الغرب والصين في الشرق .

* * *

منذ عصر النهضة انفصل العلم في الغرب ، انفصالاً أشدّ وضوحاً ، عن الدين ، أو بتعبير آخر ، تابع العلم سبيله غير ملتفت إلا قليلاً إلى مطالب الاخلاق وعلم الاخلاق . ففيما كان الانسان [في الغرب] يكتسب معرفة متنامية أبداً بالكون الطبيعي وسيطرة متعاظمة عليه كان تقدّمه الأخلاقي يتخلف متلكّئاً . وبتحرير العلم ، في القرون الوسطى ، من سلطان الكنيسة ، لم يفصل الغربُ العلمَ عن العقائد الدينية فحسب ، بل فصلَهُ عن مفاهيم الايمان والقيود الاخلاقية الملازمة لها أيضاً . أما العلم الاسلامي فلم ينفصل ، كما قد رأينا ، عن الدين قط . والواقع أن الدين كان هو ملهِمه وقوته الدافعة الرئيسية . ففي الاسلام

ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى الوجود لا ليحلاّ محلّ ألوهية الدين « البدائية » ، ولكن لتفسيرها عقلياً ، لاقامة الدليل عليها وتمجيدها . ومن هنا فليس عجيباً أن يكون العلم الاسلامي لم يجرّد في اي‌ما يوم من الايام من الصفات الانسانية – كما حدث في الغرب – ولكنه كان دائماً في خدمة الانسان . وبينا أُكره العلم الغربي في عهد مبكر نسبياً على اتخاذ سبيل التخصص ، بحيث أمسى كل فرع من فروعه يعمل – كثيراً أو قليلاً – في عزلة ، ظل العلم الاسلامي شمولياً ، يَجْهَدُ من أجل الوحدة ، وهي وحدة يلعب فيها كلٌّ من الكون المادي والله والانسان دوره الحاسم .

إنه لمن المتعذر على المرء ان يحزر هل كان في ميسور العلم العربي ان يحتفظ بتلك الوحدة أم لا لو لم يبلغ ، بحكم زوال الامبراطورية الاسلامية ، نهايةَ مطافه . والواقع ان ابن رشد ، وهو واحد من أواخر ممثلي عبقرية المسلمين العلمية ، ذهب إلى القول بأن حقائق الدين وحقائق الفلسفة (وبالتالي ، حقائق العلم) يجب أن تظلاّ منفصلتين . ومن يدري ، فلعل العرب لو قُدّر لهم أن يكتسبوا المعرفة العلمية الجديدة التي نشأت بعد عصر النهضة إذن لتمّ الانفصال عندهم ، على نحو محتوم ، ما بين العلم والدين . وعلى أية حال ، فالحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وُفّقوا ، طوال خمسة قرون كاملة ، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه ، وانهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح ، لا عامل تعويق وإحباط .



قراءات مختارة

١ – سارطون ، جورج : « مقدمة لتاريخ العلم » **Sarton , George ;** *Introduction to the History of Science* (بالتيمور ، ١٩٢٧ – ١٩٤٨)

٢ – آرنولد ، ت. و : (تحرير) « تراث الاسلام » **Arnold , T. W. (ed.)** *Legacy of Islam* (اكسفورد ، ١٩٣١)

جَدْوَل كْرُونُولوجيّ

للعلوم عند العرب

الفلك والرياضيات	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
	المثل الأعلى الاسلامي : اللامتناهي	المثل الأعلى الأغريقي في الجمال يقوم على أساس من النسب والأعداد بوصفها مقادير متناهية . اعتبار المكان والزمان سكونيين، والكون « كينونة ».
الخوارزمي (٧٨٠ – ٨٥٠)	يخترع جبراً « عصرياً » . يحول الأعداد إلى عناصر علاقة .	
البتاني (٨٥٨ – ٩٢٩)	يحل الجيب **sine** محل الوتر **chord** . يصطنع الظلال**tangents** وظلال التمام **cotangent** يقدم فكرات هامة عن النسب المثلثية .	
ابو الوفا (٩٤٠ – ٩٩٧)	يخترع طريقة جديدة لوضع جداول الجيب **sine** يدخل القاطع **secant** وقاطع التمام **cosecant** سبقت دراساته في علم المثلثات دراسات كوبرنيكوس .	
البيروني (٩٧٣ – ١٠٤٨)	يعين خطوط العرض وخطوط الطول. يخترع المسائل « البيرونية » . يحول الاعداد من مجرد كميات ومقادير إلى عناصر وظيفية . الكون عنده « صيرورة » .	
عمر الخيام (١٠٣٨ – ١١٢٣)	يخترع « جبراً » متقدماً . يعد تقويماً أدق من التقويم الغريغوري . صاحب « الرباعيات » .	في القرن الثاني عشر ترجم جيرار الكرموني وروبرت التشيستري وغيرهما من العلماء اللاتين المؤلفات العربية في الرياضيات وعلم الفلك .
	المسلمون يدخلون الارقام العربية ، والصفر ، والنظام العشري (القرن التاسع) .	اوروبة ترفض طوال مئتين وخمسين سنة (حتى القرن الثاني عشر) أن تتبنى النظام العشري .

الجغرافية وعلم وضع الخرائط	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
الخليفة المأمون (٨١٣ – ٨٣٣)	يصدر أمره بقياس درجة جغرافية ، وبوضع « صورة للأرض » .	الاغريق ، وبطليموس بخاصة ، يقدمون الأساس لجهود العرب ومآثرهم الجغرافية .
	علماء الفلك : الفرغاني(حوالى ٨٦٠)والبتاني (حوالى ٩٠٠) والبيروني (حوالى ١٠٣٠) يعدون جداول جغرافية لخطوط الطول والعرض .	
	الملاحون والتجار والحجاج المسلمون يجمعون معلومات جديدة عن البلدان الأجنبية .	
المسعودي (٩١٢ – ٩٥٧)	يضع أول موسوعة علمية تاريخية – جغرافية .	
الادريسي (١٠٩٩ – ١١٦٦)	يتصور الأرض كروية . يضع خرائط دقيقة . يؤلف « كتاب رجار » . يصنف موسوعة جغرافية .	آثاره تترجم في رومة عام ١٦١٩
ياقوت الحموي (١١٧٩ – ١٢٢٩)	يؤلف موسوعة في الجغرافية والعلم .	
	النظرية العربية في « ذروة العالم » أو « قبة أرين » تؤثر في العلماء النصارى تأثيراً عظيماً ، وتقولب وجهات نظر كولومبس .	
ابن بطوطة (١٣٠٤ – ١٣٦٩)	واحد من أعظم الرحالين في جميع العصور . في كتابه معلومات زادت معرفتنا بالشرق الأوسط وبآسية زيادة عظيمة .	
الحسن الوزازي Leo Africanus (١٤٩٥ – ١٥٥٠)	رحالة عظيم كتب أول كتاب شامل عن افريقية .	كتابه يترجم ، على التو ، في أوروبة .

الطب	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
حنين ابن اسحق (٨١٠ – ٨٧٧)	أول مترجم للمصنفات الطبية الاغريقية . يضع في الطب كتباً ذات أصالة .	الاغريق ، وبخاصة جالينوس وأبقراط ، يقدمون الأساس للطب العربي .
الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥)	واحد من أعظم الأطباء في جميع العصور . يقدم أول وصف سريري للحصبة والجدري. يؤلف أضخم كتاب في الطب .	آثاره تترجم مرات متعددة في اوروبة . فتؤثر في الاطباء الغربيين تأثيراً عظيماً .
ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧)	ابعد العلماء المسلمين أثراً . مؤلف « القانون في الطب » . يدرك طبيعة المرض السارية .	كتبه تترجم في اوروبة منذ القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر . يتمتع بالسلطان الطبي الأعظم ، في الغرب .
ابن زهر (١٠٩١ – ١١٦١)	الطبيب الشهير في بلاط الموحدين في مراكش .	كتابه « التيسير » يؤثر في الأطباء الاوروبيين تأثيراً عظيماً .
ابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨)	طبيب عظيم ، ولكنه عرف اكثر ما عرف بوصفه فيلسوفاً .	
ابن الخطيب (١٣١٣ – ١٣٧٤)	مؤرخ ورجل دولة وطبيب دافع في رسالته « في الطاعون » عن فكرة العدوى .	
ابن خاتمة (١٣٢٣ – ١٣٦٩)	مؤلف أهم رسالة عن الطاعون وضعت في القرون الوسطى. يوفق هو وابن الخطيب إلى أن يحل المفهوم القائل بأن الأنسان عضو في الاسرة الكونية متبادل العلاقة معها ، محل المفهوم الاغريقي السابق القائل بأن الانسان كل مستقل بذاته .	

الكيمياء والخيمياء والفيزياء	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
جابر بن حيان (حوالى ٧٧٦)	أبو الكيمياء والخيمياء الاسلاميتين . يحضر عدداً من المواد الكيميائية الجديدة . يقوم بعمل ذي شأن في حقل المعادن وصناعة الزجاج. يدخل كثيراً من المصطلحات الكيميائية إلى اللغات الاوروبية . خيميائي بارز .	الكيمياء الاغريقية والخيمياء الاغريقية والمصرية كانت هي صاحبة النفوذ الأعظم في نشأة هذين العلمين عند العرب . روبرت التشيستري يقدم في القرن الثاني عشر ، أول ترجمة لاتينية لأحد كتب جابر بن حيان .
الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥)	اشتهر أكثر ما اشتهر بوصفه طبيباً . يقدم تصنيفاً دقيقاً للمواد والعمليات الكيميائية . خيميائي بارز .	
اخوان الصفا (حركة علمية سياسية في القرن العاشر)	يصدرون عدداً من الرسائل الكيميائية والخيميائية ، ظهر بعضها باسم جابر بن حيان . في الفيزياء ، انصب اهتمام المسلمين في المحل الأول على الساعات ، والادوات العاملة بقوة الماء . وكانت لهم عناية بالدمى الميكانيكية .	
ابن الهيثم (٩٦٥ – ١٠٣٩)	أول عالم يصحح نظريات بطليموس الخاطئة في علم البصريات . يضع الأسس لعلم البصريات الحديث . أول من استعمل «الغرفة المظلمة» .	يترك أثراً كبيراً في المؤلفين في علم البصريات خلال القرون الوسطى ، وفي جملتهم روجر بايكون ، وكبلر ، وليوناردو دافنشي .

علم النبات والزراعة والبستنة	في العالم الاسلامي	في اوروبة والغرب
	المسلمون يدخلون إلى أوروبة البرتقال ، والليمون ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والزعفران ، والقهوة ، وزراعة قصب السكر ، والارز . ويدخلون أيضاً عدداً من النباتات الطبية ، ويحسنون طرائق الري . ونحن مدينون لهم بالنظرة العلمية إلى الزراعة .	
ابن العوام (نهاية القرن الثالث عشر)	يؤلف أهم رسالة في الزراعة وضعت في القرون الوسطى . يدرس ، على نحو علمي ، تطعيم النبات ، والسماد ، ومعالجة أمراض النبات .	ترجمات فرنسية واسبانية لكتابه الرئيسي تظهر في القرن التاسع عشر .
ابن البيطار (توفي عام ١٢٤٨)	أعظم عالم نباتي وصيدلي في القرون الوسطى . يؤلف أكمل موجز في علم النبات، ويدرس العقاقير والاغذية في توسع .	اوروبة لا تعترف بأهميته إلا في القرن التاسع عشر .
	إن مآثر المسلمين البارزة في البستنة هي : ادخال مختلف الرياحين إلى أوروبة ، والجنائن الفارسية والاندلسية . وإن بعض منتجات الفاكهة الاسلامية واسمائها قد نقلت إلى أوروبة ، مثل **Julep** (جلاب) و **Syrup**) من لفظتي « شراب » و « رب » و **Attar** (عطر) . وكانت بعض العطور العربية والفارسية ذات شعبية واسعة في أرجاء الغرب كله .	

الفصل الحادي عشر

الأدب

●

إن الادب العربي ليقدم الينا ، من وجهة النظر الأدبية ومن وجهة النظر التاريخية أيضاً ، حقلاً خصباً إلى حدّ بعيد للدراسه الحياة العربية والمؤسسات العربية . فعلى خلاف الشعوب السامية الأخرى التي اندثرت في الأعم الأغلب غير مخلّفة إلا مدوّنات صغيرة متقطعة وضبابيّة ، ترك العربُ مقداراً مدهشاً من المواد المخطوطة للدراسة مختلف وجوه تطورهم منذ القرن السادس . ومكتبة الأسكوريال في اسبانية ، والازهر في القاهرة ، ومساجد استانبول هي اليوم بعض مراكز المخطوطات لهامة .

والعربية ، لغةُ هذا الأدب العريض الذي يرقى إلى حوالى عام ٥٠٠ بعد الميلاد ، هي أحدث اللغات الساميّة . وحتّى في عهد مبكّر جداً طوّر بَدْوٌ ما قبل الاسلام ، بثقافة بدائية أُسست على البنْية القَبَلية المحدودة structure ، لغةً شعرية وشكلاً شعرياً أمسيا النموذج

المحتذى لمعظم الشعر العربي الذي نُظِم في ما بعد . وفي بعض الأحيان يقال ان اللغة هي ، عند العربي ، الوسيلة الأقرب إلى الفؤاد من وسائل التعبير عن الذات ، وأنه مفطور على ما يدعى « موهبة الفصاحة » « gift of the gab » . وبكلمة موجزة يتكشّف العرب ، على العموم ، عن ولوع بلغتهم وحبّ للاخذ بأطراف الأحاديث .

أما أن هذه اللغة أداةٌ بارعةُ الايجاز للتعبير عن الفكر فيتجلى في معنى لفظة « الاسلام » التي تفيد « الأمن من طريق الخضوع لارادة الله » ولفظة « المسلم » التي تعني « مَنْ يستمد مثل هذا الأمن من تلك الطريق » . وعلماء النحو العرب يقسمون الكلام اقساماً ثلاثة ليس غير هي الاسم ، والفعل ، والحرف . ولكن العرب استمدّوا غنىً في اللغة باشتقاقهم كلمات جديدة من جذور قديمة ، مُضْفين بذلك على الكلمات القديمة معنى جديداً ومفسحين المجال لظلال المعاني shades of meaning . وهـذه العملية أنشأت معجمية vocabulary بالغة الحيوية، شديدة التشخّص ، مفعمة بالطاقة التصويرية ... معجميةً أثبتت طواعيتَها البعيدة للأدب بعامة ، وللشعر بخاصة .

وقدّم الاحتكاكُ بالشعوب الأخرى والاستيلاء على بلدانها وسائل جديدة أفضت إلى إغناء اللغة . وحين اندفع الفاتحون الصحراويون إلى ما وراء تخوم شبه الجزيرة العربية كان اللسان العربي في سبيله إلى أن يصبح لغةً عالمية . وإذ كانت العربية قوةً دينامية dynamic لا قوةً سكونية static فقد اتسعت وتبنّت كلمات ومصطلحات جديدة . وحتى في الشعر الجاهلي يقع المرء على كلمات أجنبية ؛ وهنّاك عددٌ منها أكبرُ ، طبعاً ، في شعر عصر الفتوح . لقد استعيرت بعض التعابير الادارية من الفارسية واليونانية ، وبعض التعابير اللاهوتية والدينية من

العبرانية والسريانية ، وبعض التعابير العلمية والفلسفية من اليونانية[٨٢] . بيد أن العربية ظلت ، طوال عصر الفتوح ، هي لغة التعبير الرئيسية .

وما إن اطلّ القرن الحادي عشر حتّى كانت العربية قد أمست أهمّ لغة يصطنعها الناس ، ابتغاء التفاهم المشترك ، من الاندلس غرباً إلى الهند الاسلامية شرقاً . ولقد حلّت ، بوصفها أداة الثقافة الرئيسية ، محلّ اللغات الثقافية القديمة كالقبطية ، والآرامية ، واليونانية ، واللاتينية . كانت العربية قد أمست لغة البلاط والدين ، ولغة الأدب والعلم . لقد كانت هي الرابطة الجامعة التي لا تزال محتفظة بقوتها وسلطانها حتّى في يوم الناس هذا .

وفي حيثما لم تُعَرَّبِ البلدان تعريباً سرمدياً ترك اللسان العربي اثره واضحاً في اللغات الاسلامية الأخرى . وكما تأثرت الانكليزية تأثراً عظيماً باليونانية واللاتينية فقد اشتملت لغات المسلمين الجديدة ، الفارسية والتركية والاوردية والملايووية والسواحلية ، على عدد ضخم من الألفاظ العربية ، وكُتِبت بالحروف العربية . وحين انحلت وحدة الاسلام السياسية لم تعد العربية الفصحى هي اللسان المشترك للعالم الاسلامي كله . وفي بلاد العرب نفسها ، وفي سورية ومصر وغيرهما من البلدان الناطقة بالضاد اصطُنعت لهجاتٌ عامية . ولكن هذا لا يعني ان العربية قد اندثرت . على العكس ، فهي لا تزال في كثير من هذه البلدان لغة التجارة والأدب والتعلم . ولا تزال دراسة القرآن وتلاوته هي اليوم ، في الأعم الأغلب ، أول خطوة في ثقافة كل مسلم . ومن الوجهة النظرية ، يتعيّن على كل مسلم أن يتلو القرآن بنصّه العربي .

* * *

---

٨٢ راجع لويس ، برنارد :

Bernard Lewis : *The Arabs in History* , **3rd. ed. , p. 134, Hutchinson's University Library. London 1956** .

وإذن فأن لغة غنية ومعبِّرة – لغةً فرضت سلطانها وسحرها على ملايين من الناس – أتاحت للأدب العربي وسيلة رائعة من وسائل النمو والتطور . ولكن شيئاً من وهم التناقض ليتجلى عند تحليل هذا الأدب الذي هو على وجه القطع أدبٌ من الطراز الأعلى من حيث الشكلُ والتِقنية technique الخالصة . ذلك بأننا نتوقع من العربيّ بوصفه انساناً فردانياً إلى حد بعيد ، أن يتكشّف عن هذه الخاصيّة ، كتعبير عن الذات في أدبه أيضاً . ومع ذلك فأن هذا لا ينطبق على تراثه الذي يرقى إلى العهود الاسلامية . والواقع ان الفرد في الاسلام ليس له من شأن ، بما هو فردٌ ، إلا من خلال اتحاده بالله . ومن أجل ذلك نجد المسلم يكافح لفقدان فردانيته من طريق الفناء في الله . إن الاذعان المطلق للذات الالـٰهية ليقضي على إمكانية التأمل الشخصي والنفسي العظيم عند الأدباء العرب .

ومن هنا فليس في الادب العربي صنوٌ لرجل من مثل دانتي أو شيكسبير ، أو [جون] دونَ Donne * جديد ، أو فيرجينيا وولف أو جايمس جويس معاصران . إن النمط النوعي الشامل لا الخصائص السيكولوجية الفردية هو الذي يستأثر باهتمام الكاتب العربي . إننا نجد عنده موكباً لا نهاية له من الانماط الرسمية المتماثلة المفرغة في قوالب محددة – نجد المحارب ، والوزير ، والخليفة ، والوليّ ، والمخبول ، والفتى العاشق والفتاة العاشقة ولكننا لا نجد محاربين افراداً ، أو حكاماً افراداً ، أو عاشقين أفراداً . ولكن إذا تشبث الكاتب بالأنماط وأهمل الأفراد فأنه كثيراً ما تمّ له استاذية فائقة في الأسلوب ووصف الدقائق التفصيلية . إذ في هذا المجال تبرز مهارته الفنية الحقيقية ، وتزهر عبقريته الفذة . فاذا كان موضوع الكلام « روتينياً » رتيباً اكتشف القارئ أصالة في العرض مذهلةً . إن الاستعارات والتشابيه وتقنيّات

* شاعر انكليزي يعتبر زعيم الشعراء الميتافيزيقيين ١٥٧٣–١٦٣١ . (المعرب)

اللغة لتُصطنعُ في براعة تكاد تكون بهلوانية فتخلّف أثراً رشيقاً متنوعاً .

ولعل القصائد الجاهلية التي حُفِظت حتى أيامنا هذه نشأت في القرن الذي سبق الاسلام (٥٠٠ – ٦٢٢ ب. م.) ولكن شكلها المُحكَم المصقول ينهض دليلاً كافياً على أن مرحلة طويلة من تطور الفن الشعري لا بدّ أن تكون قد سبقت حتى هذه النماذج التي لا نعرف ما هو أعتق منها . وقليلٌ همُ العرب القُدامى الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة ، ومن أجل ذلك لم يكن في ذلك العهد ، في الأعم الأغلب ، غير أدب شفهيّ . وكما فعل الرابسوديستيون الذين أبقَوْا آثار هوميروس حيةً في بلاد الاغريق كذلك نقل الرواة العرب هذا الأدب نقلاً شفهياً ، ثم دُوّن بعد فترة طويلة انقضت على ذلك . ولم يقم العلماء بتدوين هذه الآثار الكلاسيكية الأشد عراقةً ولم يمجّدوها إلا في أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي . أما قبل ذلك العصر فكان الأدب يُنقل على ألسن الرواة المحترفين . ولا تزال ساحة جامع الفنْا في مدينة مراكش العصرية تحتفظ ببقية من فنّ « الرواية » هذا تتمثل في قُصاصها المحترفين .

* * *

إن الجاهلية (عصر البربرية أو الجهل) هي الاسم الذي خلعه الكتّاب المسلمون على تلك الحقبة الكلاسيكية التي سبقت الهجرة . وفي ذلك العهد لم يكن ثمة أدب نثريّ . فقد كان حقاً من حقوق الشاعر بل واجباً من واجباته ان يقصّ في قالب شعري تاريخ عشيرته ، سارداً أنسابهم ، ممجداً مآثرهم الحربية ، متغنياً بفضائلهم . لقد نهض الشاعر بوظيفة هامة إلى حد بالغ جداً في المجتمع العربي المبكّر . وكان نبوغ شاعر من الشعراء بين العرب مناسبةً عظمى للابتهاج والاحتفال . وكان العرب يؤمنون بأن الشاعر (كما يدل عليه اسمه ، أي الرجل الذي يَعْلم) يتمتع بمعرفة خارقة للطبيعة وبقوى سحرية . والواقع أن الشاعر

الوثنيّ كان عرّاف (كاهن) قبيلته أو حكيمها الذي يهدي أفرادها في السلم ويحضّهم على النصر في الحرب . وكان من دأب البدوي المترحل الضارب في مجاهل الصحراء وقفارها بحثاً عن الماء والمراعي أن يلتفت إلى الشاعر التماساً للمشورة في ما يتصل بالفوز بواحات جديدة .

وأقدم شكل أفرغ فيه الكلام الشعري هو السجع ، أو الكلام المقفّى من غير وزن . وقد اصطُنع السجع بعد ذلك في القرآن ومن أجل ذلك اتهم العرب الرسول محمداً بأنه شاعر . وعلى الرغم من أن النثر المسجّع بلاغيّ على نحوٍ لا لبس فيه فأنه ليس صنو ما يُعرف بالشعر المرسل **blank verse** وهو شكل يجهله العرب جهلاً كاملاً .

وأول الاوزان الشعرية إنما تطوّر من السّجع ، وكان يُعرف بالرَّجَز . والرجز وزن إيامبيكي **iambic** غير قياسيّ يتألف عادة من اربع تفاعيل أو ست تفاعيل على الاكثر في البيت الواحد . وجميع الأبيات ، حتى ولو بلغ عددها مئة بيت ، يجب أن تتناغم بقافية واحدة . وإنما ظهر الرجز أول ما ظهَرَ في إنشاد حادي الأبل (الحُداء) ومنه نشأ كما يُعتقد . إذ يُروى أن غلاماً ممن يسُوقون الأظعَان انكسرت يده فأنشأ يبكي ويكرر على نحو غير رواقيّ ووفقاً لخطى البعير الايقاعية الذي كان يمتطي متنه . « وا ، يداه ، وا ، يداه ! » (آه ، يا يدي !) وأيّاً ما كان فأن هذا الوزن العروضي نشأ على نحو لا واعٍ بالكلية من الخبرات الصحراوية التي عرفها البدوي الذي اصطنع حسّه الحدْسيّ للايقاع الشعري .

وإذا كانت أعظم مآثر الحضارة العربية في الحقل الروحي قد أُفرِغت في اللغة فأن أسمى منجزاتها ، بعد القرآن ، كان هو الشعر في نظر العرب . وإنما بدأ عهدُ الشعرِ الكلاسيكيّ أو عصره الذهبي في القرن السادس بعد الميلاد ، عندما كان الشعراء في معظم أرجاء شبه

المثالية وعَرْض الحياة الحيوانية .

* * *

إن كثيراً مما نعرفه عن خُلُق العرب وعاداتهم في القرن السادس ليتجلى في « المعلقات » الرائعة ، أي في القصائد السبع الطوال أو المعلّقة . وعلى الرغم من اننا لا نعرف أيّ تفسير مُرْض لهذا التعبير ، « القصائد المعلقة » ، فأن اللقب غير معاصر للقصائد نفسها . وأغلب الظن انه اصطُنِع في عهد متأخر هو عهد السلالة الاموية ، اصطَنَعَهُ جامعُها حَمّاد الراوية ، وهو يدلّ على منزلة الشرف التي تتمتع بها في الأدب العربي لا على تعليقها مسطورة بأحرف ذهبية ، على [استار] الكعبة في مكة[٨٤] .

وأول وأشهر المعلقات السبع معلقة امرئ القيس (توفي حوالى عام ٥٤٠ ب. م.) وهو أيضاً ، في أرجح الظن ، أعظم الشعراء الجاهليين جميعاً . والواقع ان مقامه في الأدب العربي أشبه ما يكون بمقام تشوسر **Chaucer** في الادب الانكليزي . إنه إذا ما نُظِر اليه على ضوء بعض العصور المتأخرة الأوسع ثقافةً بدت موضوعاته المحدودة وأوصافه للحياة الصحراوية الواقعية غير ملائمة للشكل الشعري ، على الرغم من أن قصائده تقدم الينا ، وفي سحرٍ فائقٍ في كثير من الأحيان ، صورة دقيقة للحياة البدوية . وكانت هذه الحياة ذات الفضائل الاساسية المتجهّمة تجعل من اللهو والمتعة الحسية غايتَها الرئيسية . والمسلك نفسه الخالي من الخصائص الروحية أو الدينية منعكسٌ أيضاً في حياة الشعراء أصحاب المعلقات الستّ الأخرى .

وإلى جانب هذه القصائد الجاهلية الأعرض شهرةً والتي دُعيت في شكلها المجموع ديواناً كانت ثمة مجموعات شعرية أخرى ذات شأن وخطر . ومن هذه المجموعات مجموعةٌ محكَمة الصّنعة معاصرةٌ للمعلقات دُعيت نسبةً إلى جامعها ، الفقيه اللغوي المُفَضّل ، بـ « المفضّليات » .

---

٨٤ المرجع السابق ، ص ٢٢ .

الجزيرة ينظمون بلغة شعرية واحدة ، ويتّبعون قواعد في بناء القصيدة متشابهة . وقد التزِمت هذه القواعد (أو هذا العمود) التزاماً صارماً حتى أواخر العهد الأموي عندما وضعها دعاة « الانشقاق » في ظل الخلافة العباسية موضع الشك ، لتعود بعد ذلك فتتكرّس بوصفها الزيّ الغالب حتّى يوم الناس هذا .

وأهم شكل [من أشكال الشعر] عُرِف في العصر الكلاسيكي هو القصيدة ، التي تألفت من عدد من الابيات متفاوت ، ولكنه لا يقلّ في العادة عن خمسة وعشرين بيتاً ، ولا يزيد على مئة . وكان في ميسور الشاعر أن يصطنع أيّ بحرٍ من بحور الشعر يشاء ما خلا الرجز ، الذي اعتُبر غير متكافئ مع مقام القصيدة الرفيع . بيد أن هذه الحرية كانت هي الحرية الوحيدة التي مُنِحها الشاعر ، لأن الموضوعات وطريقة معالجتها كانت مرسومة له ، فهو مُلْزمٌ باتّباعها في دقة وإحكام .[٨٣] كان واجبه الأول يقتضيه أن يستحضر ذكرى أطلال قبيلته أو أطلال قبيلةٍ صديقةٍ ثم أن يلتمس من رفاقه الذين يَرْحل معهم أن يقفوا لكي يُتاحَ له أن يخاطب نُزلاءها السابقين . ومن ثم ينتقل إلى مقدمة غزلية (النسيب) وقد يستعيض عن ذلك في بعض الاحيان بكلام مفصّل عن جمله وفرسه ، وكل منهما حيوان يتمتع عند العربي بأهمية سرمدية . إنه يصف ما أورثه اياه الترحّل في الليل وفي قيظ النهار من عنت وإرهاق . إن المياه لموحلةٌ ضاربة إلى الملوحة ، وإن النباتات لشائكةٌ مصوّحة . وأخيراً يبلغ غايته : موطنَ نصيرٍ من النُصَراء نُظِمت القصيدة على شرفه ، وهناك يلقي مديحه . والقصيدة الاسلامية تصوّر حياة الصحراء البدوية إلى مدى بعيد ، من طريق وصف الفضائل البطولية

---

٨٣ راجع نيكلسون ، رينالد :

Reynald A. Nicholson : *A Literary History of the Arabs*, **p. 76. Cambridge : The University Press, 1907 .**

انها ديوان يشتمل على نحو من عشرين قصيدة ومُقَطّعة ، كثرتُها الغالبة من نظم شعراء جاهليين ثانويين . وهناك أيضاً ديوان « الحماسة » وهو مجموعة تخيّرها ابو تمام الشاعر ، حوالى عام ٨٣٦ . والفرق بين « المُفَضليات » وبين « الحماسة » أن الاولى مجموعة من القصائد الكاملة ، في حين أن الثانية مجموعة من المقطّعات الشعرية البارعة .

* * *

وأقدم وثيقة من وثائق الأدب النثري ، عند العرب ، القرآنُ الكريمُ نفسُه . فحين ظهرت بوادر تؤذن بأن عدد الحُفّاظ آخذٌ في التناقص على نحو خطِر كُلّف كاتبُ الوحي ، زيدُ بن ثابت ، جَمْعَ الآيات القرآنية في شكل كتاب . وكان أبو بكر قد أشرف على هذه المهمة . وفي ما بعد ، إثر جَهْدٍ مستأنَفٍ بُذِل بأمر من الخليفة عثمان اتخذ القرآن شكله القانوني النهائي الذي وصل الينا سليماً لم يطرأ عليه أي تحريف .

وإن شيئاً من إنعام النظر إلى القرآن ليُظهر أن أسلوبه يتباين تبايناً كبيراً وفقاً لمختلف عهود حياة النبي التي تلقّى خلالها الوحي . أما ترتيبه ، على أساس من السُور الطُولَى اولاً ، تتقدمها الفاتحة ، ثم السُور الأشد قصَراً ، فاعتباطيّ محضٌ . فليس ثمة في هذا الترتيب أيما تسلسل تاريخي ، بل إن طول السّورة أو قِصَرَها هو وحده العامل الذي يقرّر مكانها من « الكتاب » . وبرغم افتقار القرآن إلى الوحدة الاسلوبية فأن السِّمة الغالبة على سورهِ كلها هي سِمة النثر البلاغي المسجوع .

وإنما نَزلت السور القصيرة أو الأشد قِدماً في مكة قبل الهجرة ، على حين نزلت السور الطويلة أو الأشد حداثةً في المدينة بعد الهجرة . إن قصار السور تبدو أشد إلهاميّةً من طِوالها ، وان بين آياتها ترابطاً إيقاعياً برغم انه ليس ثمة أيما وزنٍ نظامي . وفي الحق أن سماع السور

تُتْلى في الأصل العربي كثيراً ما يخلّف في نفس المرء أثراً شبيهاً بأثر السحر أو التنويم المغناطيسي . لقد أُريد بالقرآن ، مثل سائر الآثار الأدبية العظمى ، أن يُتْلى في صوت جهير . ويتعيّن على المرء أن يسمعه مُرتّلاً لكي يحكم عليه حكماً عادلاً ويقدره حق قدره .

وإذا كان القرآن يمثّل كلمة الله المباشرة – كما يؤمن جميع المؤمنين الصالحين – فعندئذ تكون قيمته الاساسية قائمة على مضمونه لا على شكله الأدبي . وذلك الشكل ، على الرغم من أوْحديّته **uniqueness** ، لم يُقَدّم النموذج المحتذى للشعر العربي في العصور التالية إذ أنه ما كان شعراً بالمعنى الحقيقي للشعر . وبوصفه كلمة الله الحقيقية كان معجزاً لا سبيل إلى محاكاته ؛ لم يكن ثمة ، بكل بساطة ، أيما شيء مِنْ مِثلِه . وهكذا فان الاتّهامات القائلة بأن القرآن خدّر ، مثل مسكّنٍ من المسكّنات ، ميلَ المسلمين إلى الأدب وكبّلَهُ بقيود أدبية مُحْكمة هي اتّهامات متكلّفةٌ بعض الشيء .

* * *

وخلال القرن الأول للهجرة ظلّ الشعر وثنياً في الأعم الأغلب . لقد تأثر النثر – بمعنى من المعاني – بالقرآن ، ولكن من حيث التناغم والأيقاع ليس غير . ولقد كان العربي ينزع نزعة فطرية إلى التوكيد على التوازن والتوازي في الفكرات .

وهناك نتيجةٌ هامةٌ إلى حدّ قصيّ من نتائج تدوين القرآن ، تلك النتيجة هي تقييس **standardization** اللغة العربية . فقد كانت الابجدية العربية تتألف كلها من أحرفٍ صامتة **consonants** . وهكذا فأن الحركات الصوتية **vowel marks** التي استعيرت من السريانية والنقط المميِّزة التي توضع فوق الاحرف الصامتة المتشابهة أو تحتها إنما ساعدت على جَعْل النصّ القرآني أشدّ دقةً وإحكاماً . لقد تعيّن على المسلمين أن لا يتركوا ، ثمة ، أيّ مجال للغموض أو سوء التأويل .

وفي الكوفة والبصرة بالعراق ، وكان كثير من صحابة الرسول قد شخصوا اليهما واستقروا في رحابهما ، نشأت مذاهب النحو الشهيرة . والواقع ان هاتين المدينتين الشقيقتين — وكانتا أول أمرهما معسكرين للجند بناهما عمر بن الخطاب — ما لبثتا أن أمستا مركزين بعيدي الصيت لدراسة اللغة العربية والنحو العربي على نهج علمي ، وقد شاركتهما هذه المكانة ، في عهد متأخر ، مدينةُ بغداد . ففي الامبراطورية الاسلامية المتنامية في سرعة بالغة كانت الحاجةُ إلى تعليم الداخلين في الدين اللسانَ العربي والرغبةُ في الاحتفاظ بصفاء اللغة في تفسير القرآن ، أقول ان هذه الحاجة وتلك الرغبة كانتا هما القوة الدافعة وراء الاهتمام الفعال بفقه اللغة وتأليف المعاجم .

وإن المرء ليعجب ، إزاءَ نفوذ اللغة العربية المتعاظم على نحو متسارع ، كيف تأتّى للشعر أن يظل غير متأثر بالحركات التوسّعية العظمى . فنحن لا نقع في الادب العربي على أيّ أثر للملحمة . ليس هذا فحسب ، بل إن الشعر [في عهد الفتح] ليكاد يلتزم عمود القصيدة البدوية المألوفة وأغراضها بدلاً من أن يجعل من نفسه سجلاً لمآثر المحاربين المسلمين البطولية . وإذا كان ثمة أيما غرض جديد أضيف إلى اغراض الشعر القديمة فذلك هو القصيدة الغزلية التي استحدثها مجتمعٌ بَلاطيّ أشد إمعاناً في المدينية **urbanism** والعالمية **cosmopolitanism** والواقع أن الغزل ، الذي كان يُصطنع كمقدمة تقليدية للقصيدة الجاهلية ، انتهى إلى أن يلعب في ظل الأمويين دوراً أشدّ بروزاً ، وأصبح يُنْشد لِذاتِه .

وأبرز الأدباء الذين وضعوا التوكيد على العنصر الغزلي عمرُ بن ابي ربيعة (توفي عام ٧١٩ ب. م.) ، دون جوان مكة أو أوفيد العرب ، ومواطنه جميل [بُثَيْنة] . وكلا الشاعرين يكاد أن يكون آخر ممثلي المدرسة البدوية ، أو مدرسة شبه الجزيرة العربية ، الخالصة . وكانت قصائد المناسبات التي انشئت ، تسجيلاً لأحداث معيّنة ، ذات أصل

شعبي في المقام الأول . وثمة اسطورة شعبية ظلت حية على مدى الاجيال في الروايات الفارسية والتركية ، وهي قصة الحب الخالد الذي استبدّ بالمجنون البطل لليلى الخرافية . ولم تعد القومية العربية الخالصة لتلعب أيما دور هام . فقد كان في ميسور الاجنبي ، بصَرْف النظر عن قوميته ، أن يصبح عربياً إذا ما اعتنق الاسلام وتكلم وكتب باللغة العربية . وهكذا أمسى الادب العربي أدباً كتبه ، باللغة العربية ، رجال كانوا في الواقع فرساً أو مصريين أو سوريين أو عرباً .

وإذا كان العصر الأموي مَن نواح كثيرة دَوْرَ حضانة بالنسبة إلى الفنون فأن هذا الحكم صحيح بالنسبة إلى الأدب على وجه أخصّ . والمقطّعات القليلة التي تحدّرت الينا من ذلك العصر ، وكثرتها شعرية ، لا تبدي الا انحرافاً ضئيلاً عن اسلوب الشعر الجاهلي . والواقع أنه لشدة الشبه بين الشعر البدوي الجاهلي والشعر الأموي فقد ذهب بعض النقاد إلى القول بأن الشعرين ربما كانا معاصرين ، باعتبار ان بعض الشعر الجاهلي مجرد تزوير أبيض – خلوٍ من الهدف الشخصي – قام به الأمويون .

ولقد عرف العصر الأموي ثلاثة من الشعراء الكبار ، هم الأخطل (غِياث بن غوث ، حوالى ٦٤٠ – ٧١٠) والفرزدق (هـَمّام بن غالب حوالى ٦٤٠ – ٧٣٢) وجرير (بن عطيّة ، توفي حوالى عام ٧٢٩) . والحق أن المدح والهجاء كانا معروفين في الجاهلية ، ولكن كلاً من هذين الغرضين الشعريين آتى أُكُلَهُ ، بوفرة بالغة ، في ظل أحوال جديدة من حياة المدن . وإنما سلخ الفرزدق وجرير معظم سني حياتهما في مبارزات أدبية شهيرة تتبّعها البسطاء من الناس ، أنفسهم ، في اهتمام ناشط فعّال . وشارك الأخطلُ النصراني في المعركة منتصراً للفرزدق على جرير . ولو كان في ميسور الكلمات أن تقتل إذن لمات كلٌ من الثلاثة مئة مرة ، إذ لم يكن ثمة أيما حدّ للشتائم المتبادلة بينهم .

وحين نذكر نزعات القصر الأموي المتنافية مع الورع تنافياً صارخاً لا يأخذنا العجب إذ نرى الامويين يجعلون الأخطل ، وهو نصراني ، شاعر بلاطهم . وكان الاخطل من مدمني الخمر ، ولقد كان خليقاً به أن يثير اشمئزاز أيما مسلم تقيّ لو وقعت عيناه عليه وقد دخل على الخليفة ، في غير استئذان ، رافلاً بالحرير الزاهي ، مطوقاً عنقه بسلسلة ذهبية يتدلى منها صليب ذهبي ! كان زعيماً من زعماء الخطابة الحزبية ، وذا نفوذ عظيم في تكوين الرأي العام . والنقّاد العرب يعتبرونه الشاعر المجلي في حَلْبة المديح ، والهجاء ، والغزل .

أما النثر فيتكشّف وجهه — على ما يؤخذ من القطع القليلة التي وصلت الينا منه — عن المسحة الدنيوية اللاإسلامية نفسها التي غلبت على الشعر الأموي .

* * *

كان اجماع الامويين منعقداً ، انعقاداً يجاور السخف ، على تفوّق القصائد الوثنية الجاهلية ، فلم يكن في ميسور أحد أن يطمع في مضاهاة كمالها الشعري . حتى إذا كان العصر العباسي حدث ارتكاس **reaction** لا مفرّ منه ضد هذه المحاباة ، وذلك بفضل عاملين اثنين : روح أشدّ تديناً شملت العصر الجديد ، ولو بالاسم فقط ، والنفوذ الفارسي المقاوم لطغيان العرب . وفي أوائل القرن التاسع تجاسر ابن قُتَيْبَة (توفي عام ٨٨٩ م.) على انتقاد النزعة الغالبة على النقد الأدبي ، واقترح أن تُدْرس آثار الادباء الكلاسيكيين وآثار الادباء العصريين على أساس جمالي لا على أساس كرونولوجي أو فيلولوجيّ . وإذ كان ابو نواس (توفي حوالى ٨١٠ ب. م.) هو دائماً ذلك المهاجمَ الجريء للمعتقدات المقدّسة فقد سخِرَ ، حتى في فترة من القرن الثامن أقدم وأبكر ، من طريقة الوقوف على الأطلال وتوجيه الخطاب اليها ، وتمجيد الفضائل

البدوية .

وأقدم شعراء المدرسة الحديثة المشهورين الذين تنكّروا للقصيدة البدوية ونبذوها وراءهم ظِهْرياً هو مطيع بن اياس . وقصائده في تمجيد الحب والخمر تمتاز بأناقة التعبير وعمق الشعور . بيد أن أبا نواس الخبيث هو الذي حطم ، بأقصى قَدْرٍ من البراعة ، التقليدَ الأدبي القديم وبذلك أمسى أبرز وجه بين وجوه الجماعة الجديدة . وإذْ كان نديماً لهرون الرشيد فقد تحدّرت الينا صورةٌ عنه تمثله وكأنه مهرّج البلاط في « الف ليلة وليلة » ، ولكن علينا أن نتذكّره بوصفه شاعراً كبيراً . لقد برع في الهجاء والمدح والرثاء ، وتفوّق في الغزل والخمريات . ولم يكن ليتورّع عن أيما إسراف في الانغماس في الملذات الجسدية . والواقع أن فسوقه وتهتكه كانا انعكاساً لحياة البلاط وللعادات السائدة فيه وفي طبقات المجتمع العليا .

واكتسب المتنبي (ابو الطيّب أحمد بن الحسين ، ٩١٥ — ٩٦٥ ب. م.) — أي مدّعي النبوّة — اسمَهُ هذا من أنه تخيّل نفسه ، طوال فترة بعينها ، مؤسسَ دين جديد . وهو يتمتع بشعبية بالغة عند كثير من النقاد العرب ، بل ان بعضهم يعتبره أعظم أديب في العربية على الاطلاق . ولكن شهرته لا تجد صدىً مماثلاً عند الغربيين الذين ربما نفّرتهم منه طريقة تعبيره المصقولة أكثر مما ينبغي ، وخيالاته الممعنة في البعد . بيد أن اصطناعه الموفق لعلم البلاغة وفخامةَ التعبير عنده لا بدّ أن يذكّرا المرء بشاعر عظيم من شعراء القرن التاسع عشر مثل فيكتور هيغو في أحسن أحواله . والحق أن براعة المتنبي واصالته في اصطناع الايقاع والقافية حبّبَتاه ، في غير ما تحفظ ، إلى قلوب العرب ، وإنه هو — دون غيره من أقرانه — الذي يُعتبر في بعض الأحيان شاعر القومية العربية الحديثة .

أما الشاعر الذي ينعم اليوم باستجابة مباشرة أكثر ، في العالم

الغَرْبي ، فهو ابو العلاء المعري (٩٧٣ — ١٠٥٧ م.) وُلِد في سورية عام ٩٧٣ وأصيب بالجدري فكُفّ بصرُه وهو بعدُ طفل . وهو يختلف عن المتنبي في أن أهميته تقوم على المضمون أكثر مما تقوم على الاسلوب : لقد كان عقلاً تأملياً وفلسفياً وجد تعبيره في شعر يتّسم بالسّخر والالحاد . لقد آمن بأن من الجريمة انجاب الأولاد ، وانكر أن يكون القرآن وحياً من عند الله . وذهب إلى القول بأن الدين خرافة ابتدعها القدماء . ولقد بلغت به الجرأة في هذا المجال مبلغاً أغراه بمحاكاة الاسلوب القرآني ، فوضع كتاباً مماثلاً قلّد فيه الكتاب المقدس تقليداً مضحكاً . وإذ كان يخشى العقائد الدوغماتية مهما يكن نوعها فقد وضع التوكيد على فلسفة انسانية خلْو من المضمون الدينيّ . ومن هنا يتعين علينا أن نعتبره مفكراً عقلانياً أو « مفكراً حراً » . وعند وفاته ، عام ١٠٥٧ ، في الرابعة والثمانين من عمره ، كان قد اكتسب ثروة وشهرة . ولقد شكل الطلاب الذين وفدوا لسماع دروسه في الأدب نوعاً من الاكاديمية (أو المجمع) العربية . ونحن حين نفكر بالهجمات التي شنّها على السُّنّة وعلى « الوضع الراهن » لا نستطيع إلا أن نعزو حريته في التنقّل والتعبير إلى ما أظهره الاسلام من تسامح عظيم .

* * *

وكان التأريخ وكتابة السيرة — بالاضافة إلى فقه اللغة وتأليف المعاجم — هما الثمرة المباشرة لتقدم الدراسة القرآنية . وقد وضع ابن اسحق (توفي عام ٧٦٨ م) [اول] سيرة للرسول في عهد مبكر . والواقع أن الحديث ، بوصفه الاساس الرئيسي الذي يقوم عليه الشرع الاسلامي ، قضى بجمع كل المعلومات الممكنة عن حياة صاحب الشريعة. وشرعت الاحاديث التي تصور أعمال الرسول وأقواله تبرز في سرعة بالغة . ولقد كان الحديث ، في الواقع ، هو المادة التي بُنيت عليها المؤلفات الموضوعة في السيرة والتاريخ .

وكان الاسهاب المغالي في التدقيق هو الطابع الغالب على هذه الأشكال الادبية . فقد هدف المؤلفون إلى الدقة أكثر مما هدفوا إلى التسلسل أو إلى الاستبصار **insight** السيكولوجي . فالأحداث تبدو فيها وليس يجمع ما بينها رابط ، فكأنها حبات سبحة لا ينتظمها سلك . والوقائع الثانوية تُروَى من غير باعث مباشر أو من غير مبرّر ، بمثل الامانة التي تُروَى بها الوقائع ذات الاهمية الرئيسية . بيد أن هذه الطريقة تتيح للمؤرخ المعاصر بهجة اكتشاف التاريخ المكتوب على نحو موضوعيّ . فالمجاميع التي لا تتخذ اما شكل غير الشكل الكرونولوجي لا تدع مجالاً لأي تأويل نفساني شخصيّ . وكل مصدر من هذه المصادر معزّز بالاسانيد والوثائق إلى حد يجعل نفس التاريخ المدوّن بهذه الطريقة مصدراً أولياً .

ومن أبرز الامثلة على الكتب التاريخية المصنّفة بهذا التقليد القائم على الدقة وتوخي الكمال في ايراد التفاصيل كتاب « تاريخ الرسل والملوك » للطبري (ابي جعفر محمد بن جرير ٨٣٨ – ٩٢٣ م) . وحوليات الطبري هذه ، ذات النطاق الكونيّ والموسوعيّ ، والمدوّنة بطريقة « الأسناد » ، تحاول أن تسند كل واقعة ، حيثما تيسّر ذلك ، إلى شاهد عيان أو إلى شخص معاصر انتهت روايته إلى المؤلف عَبْرَ سلسلة من الرواة ، وتلك مهمة تكاد تكون فوق طاقة البشر . وهكذا فأن هذا المصنّف هو في الواقع مجموعة من الوثائق الأولية – اللحم الذي يشتهيه المؤرخون . وإذا عرفنا أن تاريخه يستغرق الفترة الممتدة منذ الخليقة إلى عام ٩١٥ للميلاد لم نستغرب ما نسِب إلى الطبري من تأليف اربعين صفحة كل يوم طوال اربعين عاماً .

ومن المؤرخين ذوي الطابع الكليّ الشموليّ علي بن الحسين المسعودي (توفي عام ٩٥٦ م) وهو بغدادي فاز بلقب « هيرودوتس العرب » . لقد اصطنع طريقة الموضوعات **topical method** في تدوين التاريخ مستقطباً

الأحداث حول السلالات الحاكمة والملوك . وكان أسلوبه نابضاً بالحياة ظريفاً ، بسبب من لجوئه إلى الحكاية التاريخية . وقد وصلنا جانب من آثاره الواسعة البالغة ثلاثين مجلداً ، وذلك في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » . ولما كان هذا الكتاب يستغرق تاريخ العالم برمّته ويُعْنَى بكل ما أثار اعجاب المؤلف بوصفه شيئاً ماتعاً فقد جاء أقرب إلى الموسوعة منه إلى كتاب في التاريخ .

ومن الآثار النفيسة التي لا تستطيع أن تعطينا غير فكرة بسيطة عن مدى ازدهار الحياة العلمية في تلك الأيام كتاب « الفهرست » لمحمد بن اسحق البغدادي (توفي عام ٩٩٥ م.) الشهير بـ « صاحب الفهرست » . إنه واحد من أغنى مناجم المعرفة بسبب من الهدف الذي نصبه لنفسه . فهو ، بوصفه فهرستاً للكتب العربية مُسْهباً اسهاباً هائلاً ، يقدّم الينا ثبتاً بجميع الكتب الموضوعة في اللغة العربية ، على اختلاف الموضوعات وتعدّد الجنسيات . ليس هذا فحسب ، بل إنه ينصّ على أنساب المؤلفين وتاريخ ولادتهم أو وفاتهم ، كما يورد كل ما يراه مناسباً من المعلومات المتصلة بحياتهم . ومن أسف أن هذا السجلّ البيبليوغرافي النادر هو كل ما بقي لنا من معظم الكتب التي يصفها ويتحدث عنها .

أما كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلّكان (شمس الدين بن خلّكان ١٢١١ – ١٢٨٣) فكان أول « معجم عربي للسِيَر الوطنية » . لقد رتّبه صاحبه على الابجدية ، لا على التسلسل التاريخي ، فاذا به أقدم كتاب يضمّ بين دفتيه سِيَر جميع المسلمين البارزين (الأعيان) . وكمجموعات الحديث التي كانت هي النموذج المحتذى تكشّفت « الوفيات » عن الدقة والموضعية المألوفتين .

وأعظم مؤرخي الاسلام هو ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦ م .) . وُلِد في تونس ، وقضى معظم سني حياته في افريقية الشمالية . واشهر

آثاره « كتابُ العِبَر » . وقد اعتبر البروفسور توينبي « مقدمة » ذلك الكتاب « أعظم أثر من نوعه أبدعه حتى الآن أيما عقل في أيما زمان أو مكان » . [85] وإنما تتكشّف المقدمة الشهيرة عن رجل كان سياسياً وعالماً اقتصادياً وعالماً اجتماعياً خبيراً ، بقَدْر ما كان مؤرخاً كبيراً . وفي وسعنا اعتباره أبا الصوصيولوجيا أو علم الاجتماع المعاصر الذي يُعْنى ، جوهرياً ، بكثير من المشكلات التي تشغلنا اليوم : طبيعة المجتمع ، وأثر المناخ والحرفة في خُلق الجماعات ، والطرائق الفضلى في التربية الخ . وعلى خلاف سابقيه لم يكن ابن خلدون مجرد مؤرخ إخباري ، بل كان إلى ذلك مؤرّخاً مُقيِّماً ومحلّلاً وناقداً للاحداث ما كانت عينه الدقيقة الملاحظة لتخطئ أيما شيء ذي صلة بالمسألة التي يعالج . ويتعين علينا ، في الواقع ، ان نعتبره أول فلاسفة التاريخ على الاطلاق .

ولم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الحكم حتى كانت اللغة العربية قد تبلورت . ولكن الادب اكتسب ، في ظل النفوذ الفارسي ، دماثة جديدة ، فاذا بعنصري الايجاز والإرهاف البدويين يُخْليان مكانهما للاناقة والترف . كانت اللغة والعصر كلاهما مستعدين لظهور أدب نثريّ يستطيع أن يتكيف مع صنوف متعددة من وسائل التعبير . ومن هنا كان نشوء الادب ، أو المقالة المنشأة في المحل الأول للمتعة والتاريخ الادبي ، امراً لا مفرّ منه .

وبدأ الأدب بالجاحظ (عَمْرو بن بحر المتوفى عام ٨٦٩ م) البصري الذي ألّف كتباً ذات طبيعة قصصية مسلّية . وكان أبرز كتبه شعبية « كتاب الحيوان » . وترجم عبد الله بن المقفع (توفي حوالى عام

---

٨٥ راجع توينبي :

Arnold Toynbee : *A Study of History*, **III , p. 322 , London : Oxford Univ. Press , 1935 .**

٧٦٠ م .) ، وهو فارسيّ ، حكايات على ألسنة الحيوان ، من الفهلوية إلى العربية . أما ابن قتَيْبة (محمد بن مسلم الدّينَوَرِيّ المتوفى عام ٨٦٩) ، الذي وضع في القرن التاسع كتاباً في « أدب الكاتب » فيذكّر المرء باللورد تشيسترفيلد في تقريره سجايا الجنتلمان الكامل واخلاقه . ووضع ابو الفرج الإصفهاني (توفي عام ٩٦٧) كتاباً في التاريخ الادبي ضمّنه مختارات من الشعر القديم والحديث هو كتاب « الاغاني » الذي ظهر في القرن التاسع . إنه تاريخ لجميع الشعر العربي الذي غُنّي ولُحّن حتى أيام المؤلف بالاضافة إلى منتجات من آثار كبار الشعراء مع مادة قصصية [غزيرة] .

ولم تكن القصة لتلائم طبع العربيّ ملاءمةً قوية ، ومن هنا فأنها لم تُطوّر إلا قليلاً . فقد تاق العربي ، بنزعته الواقعية ، إلى الاشخاص العينيين أكثر مما تاق إلى الشخوص الخياليين . ومن هنا انشغاله المتطرف بالشخصيات التاريخية كالرسول [محمد] ، والخلفاء الاولين ، ومختلف أبطال الماضي الاسلاميّ . ومن ضروب القصة التي لقيت حظوة عند العرب تلك الحكايات الدراماتيكية التي جُمعت تحت اسم « المقامات » والتي كان نموذجُ المتشرد الظريف الثرثار يلعب الدور الرئيسي فيها . وحتى في هذه « المقامات » كان المضمون ثانوياً بالنسبة إلى الأسلوب . وقد بلغ هذا الشكل الأدبي أوجَهُ خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر في آثار الهمَذاني (بديع الزمان الهمذاني المتوفي عام ١٠٠٧ م .) والحريريّ (ابي محمد القاسم الحريري ، ١٠٥٤ – ١١٢٢ م.) وقد وُفّق الحريري إلى جعل شخصيةِ « أبي زيد » المستهترةِ شخصيةً مثقّفة إلى جانب كونها مُسلّية ، ولقد كان استاذاً في كل ضرب من ضروب التعبير الأدبي الفكِه الظريف . ولكن القارئ العربي كان مولعاً آنذاك بالحيَل اللغوية ، كالجمل التي تُقرأ طرداً وعكساً ، أو

تلك التي تتألف كلها من حروف معجمة * ، أو تلك التي تتألف كلها من حروف مهملة . * وفي الامكان القول ، بحقّ ، إن البهلوانيـة اللغوية لم تبلغ في أيما أدب من الآداب مثل تلك القمة التي بلغتهـا في الادب العربي .

وأشهر أثر أدبي عربي عند القراء الغربيين هو ، طبعاً ، كتـاب « ألف ليلة وليلة » . وإنما انبثقت « الياذة » العرب هذه أو « أوذيسّتهم » من الأدب الشعبي ثم تطورت خلال فترة طويلة من الزمان مُسْتقِيةً من ينابيع مشرقية متعددة . ولقد استقبلت اوروبة الكتاب ، أول مـا استقبلته ، في عام ١٧٠٤ من خلال ترجمة له قـام بها المستشرق الفرنسي انطوان غالان **Galland** . وسرعان ما راجت هذه الترجمة رواجاً عظيماً ، وتعدّدت طبعاتها . ثم إنها شقت طريقها إلى جميع اللغات الرئيسية في أوروبة وآسية ، واكتسبت في كثير من البلدان شعبية أضخم من شعبيتها في العالم الاسلامي نفسه .

وفي انكلترة وفرنسة كان سلطان « الليالي العربية » **Arabian Nights** — وهو الاسم العصري لذلك الكتاب — عظيماً إلى أبعد مدى . ولقـد أثار الكتاب ولوعاً لم يكن من قبل بالحكايات الشرقية ، فعمَدَ كثير من الكتّاب الاوروبيين إلى وضع حكاياتهم الشرقية المُنْتَحلة الخاصة . وكانت صيغة النجاح السحرية التي زوّد كتابُ الف ليلة وليلة الكتّابَ الغربيين بهـا هي صيغة « المغامرة » . ولقد كان عامل المغامرة هذا هو الذي ساعد كثيراً على نشوء الأدب الشعبي الأوروبي في ما بعد . ولولا التأثير العربي لمـا كان ثمـة شيء اسمه « روبنسون كروزو » أو « رحلات

---

* الحروف المعجمة هي الحروف المنقوطة كالباء والجيم ، والمهملة هي الحروف غير المنقوطة كالسين و الطاء . (المعرب)

جيليفر » . [٨٦]

* * *

وعلى الجملة ، فقد كان الادب العربي أضعف أثراً ، في الغَرْب ، من الفلسفة العربية ، والرياضيات العربية ، والعلم العربي . واذا كانت الصفات الرئيسية لأيما أدب من الآداب تضيع — على نحو لا مناص منه — عند الترجمة فأن هذا الحكم يصحّ بوجهٍ خاصّ على الادب العربي الذي يخفي أشياء كثيرة وراء لغة ناضرة غير مقتصدة .

لقد كان تراث اوروبة في الادب هو تراثَيْ رومة وبلاد الاغريق ببساطتهما وتحفّظهما وعقلانيتهما الاساسية . أما الأدب العربي فهو ، برغم أنه لا شخصيّ **impersonal** إلى أبعد الحدود ، أدب عاطفي ورومانتيكي من الطراز الأول . إنه يمجّد العاطفة البشرية ، ولكنه يفعل ذلك ضمن إطار الصرامة الرسمية . ومع هذا ، فقد ترك اثره في أدبٍ أوروبي بعينه وفي الايديولوجية التي رافقته .

لقد حُمِلت فكراتُ الفروسية والحب العذري القديمة — بما انطوت عليه من النظر إلى المرأة نظرة مثالية — من اسبانية العربية إلى أغاني التروبادور والشعراء البروفنساليين . وحتى في تِقْنيّات الوزن ، وشكل الدَوْر الشعري **stanza form** والقافية الداخلية تتكشّف القصيدة الغنائية الغزلية الاسبانية القديمة عن دَيْنها لتقنيات العرب في هذا الميدان . ونحن نقع على ضروب من التأثير العربي لا ريب فيها في آثار كلاسيكية مبكّرة من مثل « اوكاسّين ونيقوليت » *Aucassin et Nicolette* و « السِّيْد » *Le Cid* ، و « أنشودة رولان » *Chanson de Roland* . ولقد أفاد تشوسر في

---

[٨٦] راجع جب :

H. A. R. Gibb : *Legacy of Islam* **ed. by Sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume , p. 201 . London : Oxford Univ. Press , 1931 .**

« حكاية السيد الريفي » *Squire's Tale* وبوكاتشيو في « ديكاميرون » *Decameron* من الحكايات الشرقية .[87] وفي فرنسة نجد نكهة شرقية بعينها في آثار فولتير ومونتيسكيو . ويتجلى الاثر العربي والاثر الفارسي كلاهما في مؤلفات غوته ، ورووكيرت ، وفي الرومانسية الألمانية على الجملة . والواقع أن العروبة ، إن لم نقل الادب العربي في ذات نفسه، أمست في القرنين السابع عشر والثامن عشر قوة ذات شأن في تطوير الادب الغَرْبي .

* * *

وبلغ الأدب العربي عصره الذهبي في عهد كانت فيه أوروبة ملفّعة بالظلام . ولكنه احتفظ ، لسوء الطالع ، بتقاليده الجامدة في الشكل والاسلوب ، ومن هنا ظلت الشقة بين لغة الخطاب ولغة الكتابة تتسع وتتسع ، وظل الانفصام بين الادب والحياة بتعاظم ويتعاظم .

وفي سورية حدثت أول إثارة للنشاط الأدبي خلال القرن التاسع عشر ؛ وكان ذلك ، في المقام الأول ، ثمرة من ثمرات العمل الذي قامت به الارساليات التعليمية الفرنسية والامبركية في تلك الديار . وقصد إلى أوروبة — وبخاصة من مصر وسورية — عددٌ من العرب متعاظم عاماً بعد عام طلباً للثقافة الحديثة ، ثم عادوا إلى أوطانهم حاملين نماذج من الادب الأوروبي . وبانشاء المطابع العربية أخذت ترجمات الكتب الأوروبية في الصدور . وشيئاً بعد شيء ظهرت مدارس (مذاهب) في النقد الادبي ، وباشر الكتاب العرب عملاً إبداعياً بُني على أساس من نماذج فرنسية ، أو انكليزية ، أو ألمانية ، أو امبركية . وأبدع نفرٌ من المهاجرين العرب الذين استقروا في الأمبركتين الشمالية والجنوبية بعضاً من أفضل الشعر العربي المعاصر . ولقد كان للشاعر اللبناني ،

---

٨٧ المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

[جبران] خليل جبران ، الذي جاد بعطائه الأدبي في الولايات المتحدة الاميركية خلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين ، فضلٌ كبير في تعريف الغرب إلى العقل العربي .

إن السنوات الاربعين الأخيرة الـتي عاشت خلالها مصر في خضم من الهياج الثوري لم تفسح المجال إلا قليلاً للنشاط الأدبي الصرف . فالقيم والفضائل التي تؤكدها الوطنية ليست متماثلة ، ضرورةً ، وقيَمَ الأدب وفضائله . واشكال التعبير الأدبي العصرية الهامة ، كالروايـة والدراما الواقعية لم يكن لها وجود في الأدب العربي الكلاسيكي . وهكذا وجد توفيق الحكيم – الكاتب المسرحي المصري المعاصر الشهير – نفسَه مضطراً إلى الاقتباس من إبسن ومن المسرحية الفرنسية .

ولم يظهر فنّ المسرح في الأدب العربي إلا في القرن التاسع عشر . فيوم كانت شخصية الثقافة العربية رهن التشكّل نقل العرب عن الاغريق نقلاً كثيراً . ولكن الموضوعات الرئيسية للدراما الاغريقية كانت ذات صفة دينية أو أسطورية ، فلم ترق للعرب – ذوي المفاهيم الدينيـة المختلفة كل الاختلاف – إلا قليلاً . وهكذا فأن ثقافتهم المُبَرْعِمَة ظلت بعيدة عن التأثر بأعمال [مسرحيين عظام] من مثل سوفوكليس أو يوريبيديس . ولم يُنشأ المسرح العربي للمرة الأولى إلا في منتصف القرن التاسع عشر ؛ وإنما انشأه لبناني يدعى مارون نقاش . ولكن لما كان الادب العربي خِلواً من المسرحيات ، فقد تعين عليه أن يعتمد على المسرحيات الاجنبية (وبخاصة تلك التي وضعها موليير) ، وقدّمها للنظارة في اللغة العربية الفصحى . وقد اضطر خَلَفُهُ ، يعقوب صنّوع (ابو نضارة) ، الذي أسس أول مسرح عربي في مصر ، إلى مواجهة الوضع نفسه . لقد تعيّن عليه ، هو أيضاً ، أن يعتمد على المسرحيات الأجنبية . وإنما حدث هذا عام ١٨٧٠ ، ومنذ ذلك الحين والقاهرة مركز النشاط المسرحي العربي . ولكن القحط في المسرحيات الوطنية استمرّ حتى

العصر الحديث ، فكان على المسرح المصري أن يتكل ، في المقام الأول ، على المستوردات الأجنبية ، ابتداء من شيكسبير وكورنَيْ إلى الكوميديات الموسيقية الفيينّية * . ولم يبدأ الادباء العرب أنفسهم يوسّعون نطاق نشاطهم بالتأليف للمسرح إلا في العقد الثالث من القرن الحالي . وبينا حاول بعضهم أن ينفذ إلى نفوس الجماهير باصطناع العامية الحديثة وجدت الكثرة الكاثرة من العسير عليها أن تتحرر من العربية الفصحى ، وهي عربية لا يفهمها غير المثقفين فحسب وهم قلة . وحتى يوم الناس هذا لا يزال المسرح العربي يعاني مشكلة الصراع بين النزعة الكلاسيكية والتجديد ، وهو صراع غير مقصور على اللغة وحدها .

وكان الرجل الابعد أثراً في كسر الروابط التي شدّت الادب إلى الماضي وفي جعله أدنى إلى الواقع هو طه حسين ، اشهر الادباء في مصر وفي العالم العربي الحديث كله . وقد أصيب منذ طفولته بالعمى الكامل ، ولكنه تغلّب عليه وعلى حياة من الفقر المبكر ومن ثم نهض بأعباء الحياة العملية كعالم وكمسؤول في الحكومة . ولقد كان يؤمن دائماً بأن الاستقرار والاستقلال الحقيقي خليق بهما أن يتيحا للمصريين فرصاً ملائمة لخلق أدب جديد وأصيل .

ومن المشكلات الرئيسية التي تواجه الكتّاب العرب المحدثين مسألة ازدواجية اللغة . والواقع ان هؤلاء الكتّاب لم يشرعوا في قبول العامية وسيلةً من وسائل التعبير الأدبي إلا في السنوات الأخيرة . بيد أن الكثرة الكبيرة من الكتب تُصنّف اليوم في شكل معدّل من أشكال العربية الفصحى . ومع ذلك فيتعين علينا أن نتوقع أن يفضي انتشار الثقافة ، وانخفاض نسبة الأمية ، إلى تضاؤل المصاعب اللغوية على نحو متعاظم يوماً بعد يوم .....

* نسبة الى فيينا عاصمة النمسا . (المعرب)

قراءات مختارة

١ – جب ، هـ. أ. ر. : « الادب العربي : مقدمة » Gibb , H. A. R.
Arabic Literature : an Introduction (لندن ، ١٩٢٦)

٢ – نيكلسون ، ر. أ. : « تاريخ أدبي للعرب » Nicholson , R. A.
A Literary History of the Arabs (كايمبريدج ، ١٩٣٠)

جَدوَل كرُونُولوجي

للأدب العربي

تواريخ	مؤلفون	تقييم وآثار
توفي حوالى ٥٤٠ م.	امرؤ القيس	صاحب أول السبع الطوال أو المعلقات السبع .
٦٥١ م.		القرآن ، الوثيقة الأولى في النثر العربي .
حوالى ٦٤٠—حوالى ٧١٠ م.	الاخطل (غياث ابن غوث)	شعر هجائي ومدحي وغزلي .
توفي حوالى ٧١٩ م.	عمر ابن ابي ربيعة	شعر غزلي . دون جوان مكة ؛ أوفيدالعرب
توفي حوالى ٧٢٩ م.	جرير (بن عطية)	شعر هجائي ومدحي وغزلي .
حوالى ٦٤٠—٧٣٢ م.	الفرزدق (همام ابن غالب)	شعر هجائي ومدحي وغزلي .
توفي حوالى ٨١٠م.	أبو نواس	عارض المدرسة التقليدية في الشعر وتزعم المدرسة «الجديدة» . تفوق في الهجاء والمدح والرثاء والغزل والخمريات .
توفي عام ٨٦٩ م .	الجاحظ (عمرو بن بحر)	كتاب الحيوان .
توفي عام ٨٨٩ م.	ابن قتيبة	ادب الكاتب ؛ كتاب الشعر والشعراء ؛ كتاب المعارف .

تواريخ	مؤلفون	تقييم وآثار
٨٣٨-٩٢٣ م.	الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير)	كتاب الرسل والملوك .
توفي ٩٥٦ م.	المسعودي (أبو علي الحسين)	مروج الذهب ومعادن الجوهر
٩١٥ - ٩٦٥	المتنبي (ابو الطيب أحمد بن الحسين)	واحد من أكثر الشعراء شعبية . اصطناع رائع لعلم البلاغة . فخامة في التعبير . فيكتور هوغو العرب .
توفي ٩٦٧ م.	الاصبهاني (ابو الفرج)	كتاب الاغاني .
توفي ٩٩٥ م.	محمد بن اسحق البغدادي	كتاب الفهرست .
توفي ١٠٠٧ م.	الهمذاني (بديع الزمان)	المقامات .
٩٧٣ - ١٠٥٧ م	ابو العلاء المعري	هاجم السنة « والواضع الراهن » . شاعر العقلانية والتنور .
١٠٥٤ - ١١٢٢ م.	الحريري (ابو محمد القاسم)	المقامات .
١٢١١ - ١٢٨٣ م.	ابن خلكان (شمس الدين)	وفيات الاعيان .
١٣٣٢ - ١٤٠٦ م.	ابن خلدون	كتاب العبر .
١٨٨٣ - ١٩٣١ م.	جبران خليل جبران	كتاب النبي .
١٨٨٩ -	طه حسين	كتاب الأيام .
١٨٩٨ -	توفيق الحكيم	مسرحي وروائي مصري معاصر بارز .

الفصل الثاني عشر

الفنون

•

إن الفن الاسلامي لم يُنجب – ولنَختَرْ هذه الاسماء ، كيفما اتفق ، من بين المعلّمين العظام – لا عبقرياً مثل فيدياس ، ولا عبقرياً مثل رامبرانت ، ولم يُطلِع أيما أثر تمكن مقارنته بـ « داود » ميكال آنجلو أو بـ « عذراء » رافاييل . إنه ، بكلمة موجزة ، لم يُعْطِ العالم أية لوحات فنية كبيرة أو أية تماثيل خالدة . وفي الغرب ، كان الفن الاسلامي أقلّ شهرة حتى من الفن الصيني ، والفن الياباني ، والفن الهندي . وقد نستنتج من ذلك أن فنون الاسلام لم تكن ذات أهمية بالغة . ولكن هذه نظرة سطحية ، تتركّز على الفنون التشكيلية * . وإلى هذا ، فقد لا يكون ضعفُ الاسلام الظاهريّ غير ظاهرة من ظواهر القوة .

لقد كانت اللغة ، دائماً ، هي اداة التعبير الرئيسية عن عبقرية

* أي التصوير والنحت . (المعرب)

العرب الابداعية . ومن الأقوال المأثورة عند العرب قولهم : « لقد استقرت الحكمة في ثلاثة أشياء : عقل الفرنجة ، وأيدي الصينيين ، وألسنة العرب » . وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد بعيد . ومع ذلك فأن ندرة اللوحات الفنية والتماثيل العربية ، بالقياس إلى تراث الغرْب منها ، ليست راجعة بالضرورة إلى قصور خاص أو إلى ضعف في « الحكمة » عند العرب . والواقع ان علينا أن نعزو ذلك إلى وصية دينية تحرّم الفن التمثيلي . فقد كان النبي محمد يزدري الفن التشبيهي . ولكي يستأصل ، مرةً وإلى الأبد ، عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين من العرب حرّم نحت التماثيل أو أيّ ضرب من ضروب الصور . ويستفاد من حديثين اثنين أنه قال : « مَنْ صوّر صورةً كُلِّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً . » و « إن الذين يصنعون هذه الصور يُعَذّبون يوم القيامة ، يُقال لهم أحْيُوا ما خلقتم . »

وإذ حُرّم على المسلمين الاهتمام بالفن التشبيهي ، فقد تعيّن على مواهبهم الفنية أن تلتمس منافذ لها في اتجاهات أخرى . ومن خلال هذا السعي أحدثوا فناً يستطيع ان يدّعي — بصرف النظر عن محاسنه أو نقائصه الأخرى — انه واحدٌ من « أصفى » الفنون التي نعرفها . والواقع انه فن لا يستمد مادته لا من الادب ولا من الدين ، ولا من التاريخ ولا من الدراما كما فعل الفن الغَرْبي طوال ألفي عام أو يزيد . إنه يعتمد مئة بالمئة على عناصر الفن البَصَري الحقيقية ، أعني على العناصر الجمالية الخالصة . الفن الاسلامي لا يهمه أن يروي قصة ، أو يلقّن موعظة ، أو ينافس الخالق الأوحد في محاولة إلى إنشاء « الكائنات » . إن اهتمامه مقصورٌ على التلاعب بالخطوط ، والاشكال ، والألوان . ومن طريق استقصائه امكانيات هذه العمليات نشأت مأثرته المميِّزة أكثر ما يكون التميز : فن الزخرفة العربي **the arabesque**،

وهو تعبير جمالي خالص شديد التركيز وجدّ منطقيّ عن الروح الفنية . ولقد أفاد الفنان المسلم من « فن الزخرفة العربي » لتزيين أشياء الحياة اليومية كلها تقريباً ، من سقف المسجد وسجادة القصر ، إلى الطاسة التي في بيت الفلاح والمشاية التي تنتعلها زوجته . إن « فن الزخرفة العربي » لم يَبْقَ لغةَ الفنانين الخصوصية ، كشأنه في الفن التجريدي الحديث بخاصة ، أو مِلْكاً لذوي الخبرة أو للاثرياء . لقد جمّل الحياة اليومية لكل طبقة من الطبقات الاجتماعية . ولقد خلع « فن الزخرفة العربي » طابعه المميِّز على الفن الاسلامي في اسبانية ، كما خلعه على الفن الاسلامي في الهند ، وصقلية ، والقسطنطينية ، وفي شبه جزيرة العرب وآسية الصغرى . وحيثما واجهَك استطعت ان تتبيّنه في الحال وتعرفه بسيماه .

وفي تاريخ جدّ مبكّر اكتسب الفن الاسلامي صفة دوليةّ أكثر منها قومية . فليس من الضروري ان تكون خبيراً لكي تتبيّن لأول وهلة ان اللوحة التي رسمتها ريشة فراغونار * هي فرنسية ، وأن اللوحة التي رسمتها ريشة تيتيان ** هي ايطالية ، وان اللوحة التي رسمتها ريشة كونستابل *** هي انكليزية . ولكن عليك ان تكون خبيراً لكي تستطيع أن تقول ما إذا كان « فن الزخرفة العربي » الذي تجده في مبنىً بعينه أو تحفة خزفية بعينها نشأ في القاهرة ، أو قرطبة ، أو بُخارى . وعلى الرغم من أن بعض الطّرُز المستقلة ـ وبخاصة في فن العمارة ـ نشأت في فارس ، ومصر ، والمغرب ، وتركية فأن العناصر المشتركة في ما بينها رجّحت سماتها المميِّزة . وقد عُزّز هذا التراث المشترك وأُغْنِيَ بتبادل موصول ومتعدد الجوانب بين

---

* Fragonard رسام فرنسي (١٧٣٢ - ١٨٠٦) . (المعرب)

** Titian رسام ايطالي (حوالى ١٤٧٧ - ١٥٧٦) . (المعرب)

*** Constable رسام انكليزي (١٧٧٦ - ١٨٣٧) . (المعرب)

مختلف البلدان الاسلامية . فقد كانت ثمة تجارة سهّلت تبادل السِّلع ؛ وكان ثمة اعمال سخرة تُنْقَل من جزء من الامبراطورية الواسعة إلى آخر ، وأخيراً كان ثمة تحوّل للرساميل من مكان إلى مكان ، وقد صاحَبَ ذلك تبادلٌ محتوم في « المعلّمين » والفنانين والصُنّاع . ومن هذه التبادلات نشأ تنوّع الفن الاسلامي واصطفائيّته **electicism** وتمازُج العناصر العربية والفارسية ، والمؤثّرات الشرقية ، من صينية وتيمورية ، بالعناصر والمؤثرات الخاصة باسبانية الاسلامية . فنحن نجد الاصطناع الزخرفي للحجر الأسود والابيض الكثير الشيوع في سورية مُكرّراً في قرطبة الاسبانية ؛ ونجد أنماط النّسُج الشرقية ظاهرةً في نُسُج صقلية العربية ؛ ونجد الحوافز والتِقنيّات الصينية منعكسةً في الخزف الفارسي والمُنَمْنَمات الفارسية . ويتكشّف الفن الاسلامي أيضاً عن كثير من المؤثرات غير الاسلامية ، متمثّلةً في القوس والعمود الرومانيين ، أو في الصَحْن النصراني في المساجد التي كانت من قبلُ كنائس .

١ . فن العمارة

من الاشياء الأولى التي تَبْدَهُ العين عندما ندرس فن العمارة الاسلامية تلك الندرة الاستثنائية في المباني الدنيوية الباقية لنا من الماضي . إن المانية لا تزال قادرة ، حتى بعد حربين عالميتين ، على أن ترينا كثيراً من القصور الخاصة ، وكثيراً من البيوت الخاصة التي سكنها أفرادٌ من أبناء المدن والتي عُمّرت طوال قرون في كولونيْ وهامبورغ ، ونورمبورغ وبريمن . وفي فلورنسة ، وجنيف ، وأمستردام لا تزال بعض بيوت التجار ، الذين قضوا نحبهم منذ عهد بعيد ، قائمةً حتى يوم الناس هذا ، فهي تَبْدَهُنا بعظمة بُناتها

ووفرة إنتاجهم . أما في البلدان الاسلامية فلسنا نقع على شيء من هذا الضرب . وليس في دنيا الاسلام غير قلة قليلة من الآثار التي نستطيع أن نقارنها حتى بقصور فرنسة ، وبيوت انكلترة الفخمة ، وصروح ايطالية . فباستثناء الحمراء في غرناطة (وهي قصر وقلعة في آن معاً) وأمثلة أخرى قليلة ، لم تُبْقِ لنا الأيامْ أيما نموذج من فن العمارة الأهليّ على نطاق ضخم .

ولكي نفهم الوضع يتعين علينا أن نعرف شيئاً عن الروح التي نظر بها المسلمون إلى بناء بيت من البيوت . ذلك بأن النزعة للارتداد إلى الأصل ، ذلك التعلق الغامض بالانماط البدوية في الفكر والسلوك ، لم تكفّ عن التأثير في تكوين المسلم النفسي . ولقد كان بيت البدوي خيمة تُنْصَب مؤقتاً في أيما مكان يتيح لماشيته مرعىً تغتذي عليه . حتى إذا استُنْفد المرعى (أي وسيلة البقاء) نُقِل البيت إلى مرعى آخر . وهكذا فلم يكن البيت ليُعْتبر دليلاً باقياً على منزلة المرء أو ثروته . لقد كان يُقام لغرضٍ منفعيٍّ محضٍ وبالقياس إلى حاجات الحاضر على وجه الحصر . والواقع ان بناء بيت للحاضر وللذرية ، كما فعل نبلاء اوروبة وابناء مدنها ، يقتضي حافزاً إلى التخليد الشخصي . وحتى في يوم الناس هذا نستطيع أن نعجب بغنى وقوة وذوق امرئ من آل ستروتزي **Strozzi** أو آل مديشي **Medici** في فلورنسة ، ومن آل جون تشرتشل في بلنهايم أو آل فوغور **Fugger** في نورمبورغ ، ما دمنا قادرين على أن نرى البيوت التي شادوها لأنفسهم منذ قرون . وخليق بمسلك هؤلاء البُناة أن يُعتبر ، في الاسلام ، غطرسةً متنافية مع التقوى . فالانسان لا يملك الحق في محاولة تخليد ذاته من طريق الحجارة . فالخلود لله وحده ، والتوقير بعد الوفاة امتياز مقصور على أقرب الناس اليه ، أعني الأولياء . ومن هنا فقد يكون ثمة حافزٌ مشروع لاقامة الاضرحة للاولياء أو للملوك المعدودين ممثلي الله على

الارض . ومع ذلك ، فحتّى « القُبّة » و « المرابط » كما يُدعى ضريح الوليّ في ديار الاسلام الشرقية والغربية على التوالي ، يعتبرهما المسلمون الملتزمون للسنّة عملاً مستهجناً إلى أبعد الحدود .

وعلى الجملة فأن الكثرة الكبرى من المساكن الاسلامية الخاصة لم تشيّد ابتغاء البقاء السرمديّ ، ولكنْ سدّاً لبعض الحاجات المباشرة ، ليس غير . وكانت مادة البناء رديئة عادةً : طيناً ، أو طيناً وقرميداً . ونادراً ما كانت حجارة صلدة . فما ان يقضي الباني الأول نحبه حتى يعمد وريثه إلى هدِّ المنزل أو تركِهِ يتخذ سبيله نحو الدمار بعد أن يستنفد زخارفه الداخلية كالنقوش الخشبية وضروب البلاط لكي يُستفادَ منها في تشييد المسكن الجديد . وفي بعض البلدان الاسلامية ، كمراكش مثلاً ، كان بناء البيوت الخاصة نفسِها يعتبر ضرباً من الزكاة لله ، أو ضرباً من « الصلاة في الحجر » ، كما عبّر ذات مرّة أحد الكتّاب المغاربة . وكالصلاة ، كلما تكرر بناء البيت كان خيراً وأبقى .

إن العربي واقعيّ يحيا في الحاضر . أما المستقبل ففي يد الله ، وأما الماضي ففي ميسوره ان يُعنَى بنفسه . وهكذا فالبيت ، عنده ، لا يمثل حقيقةً واقعة إلا إذا كان آهلاً مؤدياً الغرض الحقيقي منه . وحتى أروعُ الآثار القديمة لا تعني في نظره شيئاً ، وهو يعتبر اعجابنا الغربيّ بالآثار ومحاولاتنا صيانتها عملاً صبيانياً عاطفياً . والشيء الوحيد ذو الشأن ، عنده ، هو تلك الاعمدة أو الحجارة التي يجد في نفسه القدرة على نقلها لدمجها في بيت جديد ، بيتٍ مفروض فيه هو الآخر أن يسدّ بعض حاجات الحاضر لا أن يطيل عمر الماضي على نحو لا طائل تحته . *

* لسنا ندري كيف انزلق مستشرق حكيم منصف ، كروم لاندو ، إلى هذا الرأي الذي لا يقره سند صحيح من تاريخ العرب القديم أو الحديث ، والذي يعتبر من أعجب الأحكام وأمعنها في الضلال ، إلا إذا قصد به تصوير حال العرب في جاهليتهم الأولى . (المعرب)

وعلى الرغم من نزعة العربي الاجتماعية فقد كان يقيم حداً مميزاً بين حياته العامة وحياته الخاصة . وهو يعتبر في إصرار أشدّ بكثير من إصرار الانكليزي المضروب به المثل – أن بيتَهُ هو قصره . ومن هنا مظهرُ بيته الخارجي الغُفْل ، بل البشع في بعض الأحيان . وقد نجد في بعض بلدان الشرق الأدنى نوافذ خارجية ، بل قد نجد شرفات ، ولكن صيانتها من الأعين الغريبة لا بدّ أن تؤكدها مصاريع دقيقة وستائر شَعريّة تحول بين تلك الأعين وبين اختلاس النظر . وفي المغرب لا تتألف الواجهة إلا من أسوار عالية غير ذات نوافذ وإلا من باب أماميّ مكين . وإذ كانت الحياة البيتية مركّزة على الداخل فقد بُنِي المنزل حول جزئه الأشد إيغالاً في الباطن . وليس في ميسور ايما عين متطفلة أن تنتهك حرمة البيت . والعربي يختلف في هذه الناحية اختلافاً كلياً عن الاميركي الذي يتجهم وجهه لمشهد الأسوار والأسيجة والوشائع * ، والذي كثيراً ما تزوّد حياتُهُ المنزلية الخاصة كلاً من عابري السبيل بمشهد لا تخطئه عيناه . وليس من ريب في أن إدمان العزلة قد قرّر تصميم البيت العربي ، وهو تصميم ليس لمادة « الواجهة » ونِسَبها وزخارفها أية أهمية فيه . إن الرغبة في الجمال لتجد ما يُشْبعها في داخل البيت ، هناك تستطيع أن تستمتع بالابواب والسقوف المنقوشة ، وبالفسيفساء التي تكسو الارض ، وبالآجرّ البارد في الجدران ، وبفوّارة ماء في وسط الفِناء ، وبشجرة برتقال وبرياحين وازهار . وإذ كان الفِناء أو الحديقة يشغل معظم المساحة المتاحة ، فطبيعيّ ان تكون الحُجُرات التي تحيط به طويلة ضيقة لا مربّعة . وهناك ، طبعاً ، خروجٌ كثير على هذا العمود في تصميم البيت – وهو خروج أكثر شيوعاً في المغرب منه في بلدان الشرق . وكذلك فأن المنزل القاهري يختلف من نواحٍ كثيرة عن المنزل

* جمع وشيع ، وهو سياج من نبات يجعل حول الحديقة صيانة لها من الطارئين .

قـاد المسلمين إلى تبنّي القبة وإلى اتقانهـا حتى الكمال . وفي امكاننا القول إن المكعب والقبـة معـاً يمثلان رمزاً كاملاً لماهيّة الاسلام : وحدة العـالمين المنظور وغير المنظور ، عالمَيْ الأرض والسماء .

وعلى الرغم من ان القبـاب لم تكن اختراعـاً عربياً فقد طوّرهـا العرب ونوّعوا أشكالها إلى أبعد من أيما شيء عرفه أسلافهم ، مستوحين في ذلك تراث الرومان والبيزنطيين . وهكذا أمست القباب سِمةً للمساجد تكاد تكون محتومةً في طول العـالم الاسلامي وعرضه — في فارس وفي القاهرة ، في العراق وفي القسطنطينية . وفي المغرب وحـده ظلّت القبة شيئاً نادراً حتى يوم الناس هـذا . أمـا عمق توق المسلمين إلى الملاءمة على نحو كامل مـا بين المكعب والقبة وعِظَمُ قابلية عبقريتهم الفنية لتحقيق هذا الكمال فيتجلّيان في قبة الصخرة في بيت المقدس ، وهي أقدم أثر باقٍ من آثار المسلمين المعمارية . والواقع ان ذلـك الصّرح — الذي شيده الخليفة الاموي عبد الملك عـام ٦٩١ ، أي قبل أن تشارف الثقـافة العربية في أيمـا مكان ذروة ازدهارها بفترة طويلة — يحقّق توازناً بـين الجسم المثمن الزوايا وبين القبة لم يُعْرف في القرون التالية أيمـا شيء يبزّه أو يضاهيه . ولكأن بُناته أرادوا ان يُظهروا أستاذيتهم في تحقيق ذلك التوازن فكرّروا القبة حتى في إطار بِنْية المسجد المستطيلة الدّنيا ، مضمّنين هذه البِنْية رَوْطنا (أو بناء مستديراً) ذا أعمدة وعقود داعمة ، يُمْسك بالصخرة المقدسة وكأنها ضمن خاتم نفيس .

* * *

واستعار المعماريون المسلمون استعارات أخرى واسعة من النماذج الرومانية والفارسية والبيزنطية . إنهم لم يقتصروا على اقتباس القبة ، بل عَدَوْا ذلك إلى اقتباس الاقواس والاعمدة وتيجان الاعمدة . ومع ذلك فقد وفّقوا دائماً إلى ابداع آثار لا ريب في سِمتها الاسلامية

المكي أو المنزل الدمشقي .

* * *

وبصرف النظر عن القلاع ، التي تتطلب بطبيعتها المتانةَ والقوة ، لا نجد في المباني الاسلامية غير ضرب واحد من البناء يُشاد لا لمجرد الحاضر بل على رجاء الديمومة والبقاء ، ومن هنا مادته البنائية الصلبة . ذلك الضرب هو المسجد . ولكن ليس في هذا أيّ تعارض مع القاعدة العامة ، لأن الغرض من المسجد ليس ايواء شخص بعينه أو تمجيده : إنما يُبْنى المسجد لتيسير عبادة الله والتشجيع عليها . ولا تزال قائمةً ، في طول العالم الاسلامي وعرضه ، مساجدُ يبلغ عمرها ألف سنة ، كمسجد عُقبة بن نافع في القيروان ، والمسجد الأموي في دمشق ، ومسجد قرطبة ، وكلها تَرْقَى إلى القرن الثامن للميلاد ؛ وكمسجد الصخرة المقدسة في القدس ، وهو يرقى إلى القرن السابع ؛ وكمسجد ابن طولون في القاهرة الذي يرقى إلى القرن التاسع ؛ وكالجامع الازهر في القاهرة أيضاً ويرقى إلى القرن العاشر ؛ ومسجد القرويين في فاس وهو أقدم من ذلك عهداً .

وكان تصميم المساجد الأصليّ غاية في البساطة : مربعاً مؤلفاً من صفوف من جذوع النخل تحيط بها جدرانٌ من آجرّ وحجارة مفروضٌ ان يعلوها سقف رقيق من سَعَف النخل . على هذا النحو بُني أول مسجد في الاسلام ، أعني ذلك الذي في المدينة ، والذي أسهم النبي – كما هو معروف – في تشييده بيديه . وهو في تصميمه الأساسي ينسج على منوال الكعبة ، في مكة . إن المكعب ، المتطوّر عن المربّع – والكعبة ليست غير مكعّب – ليرمز إلى العناصر الاربعة . ولكن الاسلام لا يُعْنى بعناصر الكون المادي الأربعة فحسب : إنه ينتظم أيضاً اللهَ وسماواته . وليس من ريب في ان حافزاً لا واعياً نحو دمج السماوات دمجاً رمزياً في بيت العبادة هو الذي

الخالصة . وكان من دأب الامويين والعباسيين جميعاً أن يستقدموا الاجانب من المهندسين المعماريين والصناع ، المنشّئين على العقائد الرومانية أو البيزنطية . ولكن المستخدِمين العرب وفّقوا في غير ما استثناء إلى إشعار اولئك المعماريين بروح دينهم الخاص ، وهكذا أبدعوا — مفيدين احسن الافادة من عوالم مختلفة — آثاراً اسلامية بحقّ ، وليست رومانية أو بيزنطية . وههنا ، كما في كثير من مجالات الحضارة الاسلامية الاخرى ، نجد العبقرية الاسلامية الفريدة عاملةً ناشطةً ، وهي عبقرية عرفت كيف تمتصّ عناصر منبثقة من أشد الينابيع تنافراً ، لكي تحيلها إلى « تركيب » **synthesis** جديد متجانس .

وعلى الرغم من أن طبيعة المسجد تبرّر العناية بالمظهر الخارجي (وكثير من المساجد تتمتع بواجهات فخمة) فأن التوكيد الاعظم قد وُضع ، حتى في المساجد ، على الجزء الداخلي ، سواء اتخذ ذلك الجزء شكل « صحن » كبير أو شكل فِناء مستطيل واسع يحيط به صفّ من الاعمدة مسقوف ، كما نرى في المسجد الاموي بدمشق . وروعة « الصحن » العريض ، الحافل بأعمدة منتزعة من المقالع والمذكّر بجذوع النخل الأصلية التي اصطُنعت في بناء مسجد المدينة الأول إنما تتمثل في جامع قرطبة بغابته المؤلفة من صفوف من الاعمدة الرخامية يتشكل كل منها من عمودين قائمٍ أحدُهما فوق الآخر .

*وقد يكون صحيحاً أن المسلمين لم يضيفوا إلى فن العمارة أية اضافات أصيلة على نحو أساسيّ . لقد استعاروا ، كما رأينا ، العمود والقبة والقوس ، من الآخرين . ولكن أيديهم اخضعت هذه العناصر لعملية تحويل خلعت عليها سِمة مميّزة . فاذا كان قوس نعل الفرس قد وُجِد في رومة فأنه لم يكتسب حتميّته وأهميته الوظيفية إلا في شكله الاسلامي . والقبة ، سواء في شكلَيْها الفارسيين البَيْضيّ والبَصَليّ ، أو في شكلها القاهريّ المرفوع على أعمدة ... أقول ان هذه القبة لم

تعد من غير ريب رومانية ، بل آمست « شرقية » على نحو واضح ، أو – في الواقع – اسلامية . وإذا كانت المئذنة مشتقة من المنائر القديمة فليس من ريب في أن المسلمين هم الذين اعطَوْها صفتها الخصوصية . والمئذنة ، لا المنارة القديمة ، هي التي أمست بعدُ نموذجاً احتُذِي في تشييد برج الأجراس النصراني . وبرج جيرالدا في اشبيلية ، وهو واحد من أروع ابراج الكنائس في العالم المسيحي ، إنما بناه في الأصل حكام مراكش الموحدون ليكون مئذنة مسجد . وهناك أثر من المئذنة لا يخطئه المرء ، في بعض ابراج الكنائس الاوروبية الشهيرة ، كبرج بالاتزو فيتشيو **Palazzo Vecchio** في فلورنسة ، وبرج « ديل كومون » **Torre del Commune** في فيرونا . ونحن نجد صدىً من أصداء المئذنة حتى في الابراج الأنيقة التي شيّدها المعماريّ [السير كريستوفر] رين **Wren** في بعض كنائس لندن .

أجل ، لقد استعار المعماريون المسلمون أشياء كثيرة من مصادر أجنبية ، ولكن حركة الاستعارة لم تكن ذات وجهة واحدة . إن العرب كانوا أول من اصطنع الزُّمَرَ المتعاقبة من الحجارة السوداء أو الحمراء والبيضاء كجزء من الزخرفة المعمارية .. ونحن نجد مثلاً من أروع الامثلة على هذا الصنيع في مسجد قرطبة الذي بناه أمويو الاندلس ، وفي استطاعتنا ان نلاحظ نُسَخاً من ذلك في الكنائس الغربية ، وبخاصة كنائس توسكانية . والأقواس المسنّنة التي كثيراً ما تبرز في كنائس فرنسة وانكلترة الراقية إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر مَدِينة بأصلها إلى بعض النماذج الاسلامية كمسجد سامرّا الذي يرقى إلى القرن التاسع . والاقواس الرحيبة ، المستدقة ، المعروفة عادة بالاقواس التيُودورية **Tudor** ، والتي نقع عليها في « كرايست تشيرتش هول » **Christ Church Hall** في اوكسفورد (القرن السادس عشر) مثلاً ، وفي مبانٍ أخرى ، وبخاصة في انكلترة ، يعود أصلها في

أغلب الظن إلى « القوس الفارسي » الذي تتصل انحناءتُهُ – في انبثاقها الناهد إلى أعلى – بعمودها الداعم لا اتصالاً بيضيّ الشكل ولكن في خط مستقيم .

والابراج المزدانة بالزخارف المتشابكة **traceried** – تلك الابراج المتأخرة التي نجدها في الآثار القوطية والآثار الراقية إلى عصر النهضة – حيث يُصطنع الآجر لإحداث بعض الاشكال النافرة .... أقول إننا نجد لمحاتٍ من هذه الابراج في برج جيرالدا باشبيلية الذي ذكرناه آنفاً ومئذنة الكتبية بمراكش ، وكلاهما يرقى إلى القرن الثاني عشر . وأخيراً وليس آخراً يتعين علينا أن نشير إلى النقوش الخطية لزخرفة المباني ، كتلك التي كثيراً ما نجدها في واجهات ومداخل وأقواس الكنائس القوطية ، وفي ما بعد على مبنى كل كلية غرْبية ، تقريباً ، « مشيدةٍ على الطراز القوطي » . إن أصول هذه الزخرفة يجب أن تُلْتَمَسَ في شَغَف المسلمين بالخط العربي ومن ثَمّ في شغفهم بدمجه في جميع ضروب التصاميم الزخرفية . (ولسوف يجد القارئ مزيداً من الكلام على اصطناع الخط في الفن العربي عند دراستنا فن الزخرفة العربي .)

قد يكون المعماريون المسلمون لم يبدعوا شيئاً يَعْدِل الاكروبوليس أو يعدل أروع الكاتدرائيات المسيحية ، ومع ذلك فأن قبة الصخرة ، وحمراء غرناطة ، ومساجد مصر وفارس وتركية التي لا تحصى هي شواهد باقية على إلهام فنيّ ليس أدنى من الالهام الذي اوحى بالاكروبوليس والكاتدرائيات بأية حال .

٢ . فن الزخرفة العربي

وإذْ حُظّـِر على المسلمين أن يمارسوا الرسم التمثيلي والنحت (وهما

يكادان يكونان شكليْ الفن التشكيلي الوحيدين غير المنفعيين **non-utilitarian** مئة بالمئة) فقد تعيّن على توقهم إلى الجمال أن يتلمس ما يروي ظمأه في إبداع أشياء ذات نفع يومي . والواقع أن براعاتهم الابداعية إنما وجدت تعبيرها ، الأشد إرضاءً ، في الفنون الثانوية . وإذْ كانوا يعتبرون جميع الاشياء المنفعية جديرة بالتناول الفنّي فنحن نجد براعتهم الفنية متمثلة في الأشكال المنزلية العادية في المقام الأول . إن خيال العربي ، وبراعته ، واستعداده لقبول الانظمة التي تفرضها طبيعة المواد المُتاحة له ، تتجلى كلها في عمل الخزاف والحائك كما تتجلى في عمل النحّات والمشتغل بالمعدن والجلد .

وعلى الرغم من انه كان ثمة في العهود الاسلامية فنانون أفراد وضعوا تصاميم مخصوصة – اتخذت شكل الزخرف العربي **arabesque** عادةً – للبُسُط والسجاد ، أو انتجوا آيات فريدة من الخزف أو الزجاج وتحدّرت الينا اسماؤهم بفضل هذه الآثار ، فأن الكثرة الكبرى من آثار الفن الاسلامي ظلت غُفْلاً لا يُعرف صانعها . والواقع أن التصاميم والاشكال التي اصطنعها جيلٌ من الصناع إثر جيل إنما نشأت شيئاً بعد شيء عن التجارب والاعمال التمهيدية التي قام بها هذا الخزاف أو ذاك ، أو هذا النحّات أو ذاك ، وكل منهم كان في ما يبدو فناناً مبدعاً ولكن اسمه لم يَحْظَ بتدوين . ففي الاسلام يندر أن يكون في عمل الفنان ما يشير إلى شخصيته الفردية . وهذا يفسّر تهمة « الطبع الصبيّ » **stereotyping** التي توجّه عادة إلى الفن الاسلامي . واليك جوهر المسألة : ففي عهد مبكر نسبياً ، نشأت في العالم الاسلامي بعض الاشكال والتصاميم الفنّية ، وقد حُفظت هذه واصطُنعت طوال مئات من السنين ، ولكن كل جيل من الاجيال كان يُدخل عليها تعديلاً طفيفاً ، مضيفاً اليها تهذيبه الخاص ، مبدّلاً إياها على هذا النحو . بيد أن هذه الاضافات والاسقاطات لم تكن ثورية ولا أساسية .

لم يكن ثمة أية تغييرات جذرية ، أو شيء من مثل ذلك الاطّراح الجُمْليّ الذي غيّر وجه الفن الغَرْبي . ولم تكن ثمة محاولةٌ إلى المغامرة وراء الاطار العام الذي رسّخه التقليد . والحق اننا ، في فنون الاسلام ، لا نجد « طُرُزاً » متميزة يتعارض بعضها مع بعض من مثل تلك الطرز المتضاربة التي عرفها الغَرْب ، متمثلةً في الرومانسي والقوطي ، والباروكيّ والكلاسيكي ، والطبيعي والتأثّري .

لقد كان الفن الاسلامي ، في جوهره ، فناً تقليدياً ، غُفلاً ، ديموقراطياً . كان تقليدياً لأن الوصايا الدينية فرضت عليه منذ البدء صِيَغاً غير تشبيهية اتخذت أو كادت سلطانَ العقيدة . وكان ديموقراطياً إذ — بصرف النظر عن بعض الروائع النادرة نسبياً والتي أُبدِعت لمناسبات استثنائية ، كانت الاباريق والجرار ، والنقوش الخشبية والآجر ، والصواني النحاسية والحقائب الجلدية كلها لا تُصْطنع سداً لحاجات الاثرياء والاقوياء فحسب ، بل سداً لحاجات ابناء الشعب أيضاً . وكان غُفلاً لأن الفنان أو الصانع كان يعمل ضمن تقليدٍ محدّد جداً (شأنَ معظم الفنانين البيزنطيين) ، تقليدٍ عبّر عن أعمقَ مشاعر الجماعة الروحية والجمالية ، ومن هنا فأنه كان قانعاً أكمل القناعة بتمثيل دور الناقل لذلك التقليد .

وكان روح ذلك التقليد ، وجوهره تقريباً لا هو فن الزخرفة العربي arabesque : ذلك النَظْم المعقّد للاشكال الهندسية والعناصر النباتية المكيّفة وفقاً لطراز بعينه والخطوط العربية ، النظم الذي انتهى إلى أن يصبح بمثابة « دمغة المصوغات » بالنسبة إلى الفن الاسلامي ، والذي أُنفِق في سبيله قَدْرٌ ضخم من عبقرية الاسلام الفنية .

ولكي نقدر أهمية « فن الزخرفة العربي » حق قدره يحسن بنا ان نقارن ما بينه وبين الفن الغَرْبي كما يتمثل في شكليْهِ الاكثر نموذجيةً

most typical ، أعني الرسم والنحت . فمنذ عهد الأغريق ركّز الفن الغَرْبي نشاطه على تصوير الانسان ، ومن ثمّ على تمجيد ذلك الانسان . لقد زعم الاغريق أنهم يهدفون إلى إبداع الآلهة ، ومع ذلك فأنهم لم يوفقوا إلى أكثر من تصوير الناس ، مهما تكن النِسَب كاملة . ثم جاء فنانو الغَرْب بعدهم فزعموا هم الآخرون أنهم ينحتون ويرسمون الله ، والمسيح ، والسيدة العذراء ، والملائكة ، على حين انهم في الواقع مجدوا الصورة البشرية . وفي رسوم شفعائهم حاولوا ان يخلّدوا حتى بعضَ الافراد من الرجال والنساء .

أما الفنان المسلم فقد رأى (بقَدْرٍ ما من المغالاة في التبسيط ، كما يتعيّن علينا أن نعترف) ان هـذا الصنيع ينطوي على تأليه للانسان ، ومن ثمّ على وثنية . وقـد قنع ، في فن الزخرفة العربي ، بأن لا يصطنع أيمـا شيء غير العناصر الأساسية للفنون البَصَرية ، وهي الخط والشكل واللون مجردةً من أيّ معنى أدبي أو سيكولوجي أو أخلاقي . لقد اجتنب كل ما قـد يوحي بالمنافسة مـع الله ... مع خَلْق الله كوناً حياً . ومن هنا فأن فن الزخرفة العربي لا يُهْمل كل ما هو تمثيلي فحسب بل يهمل أيضاً كل ما قـد يفَسَّر بأنه خلقٌ للحقيقة متعمّد . وهكذا فلن نقع فيه ، مهما بحثنا ، على « منظور » **perspective** أو ظلال ، أو شيء مما يوحي ببُعْدٍ ثالث . ان فن الزخرفة العربي ، محصوراً ضمن تخومه الجمالية على نحو مطلق ، يتطلب أسمى النظـام والتركيز وحسّاً جماليـاً متطوراً إلى حدّ بعيد من جانب الفنـان . ولن يكون ثمة أية فائدة عملية في محاولة استشفاف أيما معنى رمزي جليّ في تصاميم الزخرف العربي ، أو تخمين درجة التسوية التي يمثلها اصطناع العناصر النباتية المكيّفة وفقاً لطراز بعينه ، في بعض ضروب الزخرف العربي .

وإنما حقق أصحاب الزخرف العربي غرضهم الزخرفي المحض من

طريق مَلء سطح معيّن بمنظومة من الخطوط تمتزج لتُحدِث أشكالاً ونماذج ذات بعدَيْن اثنين . وبرغم ان اللّون قد يدخل في فن الزخرفة العربي فأنه كان أقل أهمية من الخطوط والاشكال . إن النمط والشكل المتحررين من أيّ تداع association أدبي هما المحتوى الرئيسي في فن الزخرفة العربي . ولكن فنان الزخرف العربي ، باتكاله هذا الاتكال المطلق على الاشكال والأنماط ، أفاد مما يخبرنا العلم الحديث أنه هو أساسُ الحقيقة الفيزيائية نفسُه . ذلك بأن المفاهيم القديمة ، التي ذهبت إلى ان المادة هي أساس تلك الحقيقة ، استعيض عنها اليوم بمفاهيم جديدة تقول بأن ترتيب الالكترونات ، أو نمطها ، داخل الذرة هو الذي يزوّدنا بذلك الاساس . وهكذا أصبحنا نسمع أن النمط أو الشكل هو أساس الواقع المنظور كله . صحيح أن من غير المحتمل أن يكون الفنان المسلم قد وعى هذا المعنى الأساسي للشكل ، ولكن ما هو جدير بالملاحظة انه في سعيه وراء الحقيقة — الحافز الرئيسي للباحثين والعلماء المسلمين — وُفّق إلى ان يرفع الشكل المحض إلى مقام أسمى جاعلاً منه غاية الغايات ونهاية النهايات . ثم إن « التحرّر من ضروب التداعي الأدبي » لم يكن ناشئاً عن عدم وعي لذلك . ولو قد كان هذا التحرر غير متعمّد اذن لما كان ذا شأن عظيم ، بل إذن لكان من الجائز أن يكون حتى عيباً وموطن ضعف .

والتركيز على الشكل المحض ذو صلة وثيقة بأدمان الفنانين أصحاب الزخرف العربي اصطناعَ الخط ادماناً عارماً مشبوباً . فالسّمة الزخرفية القوية التي تغلب على حروف الأبجدية العربية ، المنظومة في كلمات ، تتيح فرصة رائعة للوفاء بأغراض « فن الزخرفة العربي » . والواقع ان هذا الخط يشكّل واحداً من خصائص « فن الزخرفة العربي » البارزة . والحب والبراعة الجليّان اللذان كثيراً ما رُسمت بهما هذه الحروف أو نُقِشت إنما يُظهران عمق الشعور الذي باشر به المسلم

عموماً ، والفنان خصوصاً ، مهمة اخراج كلمة الله في صورتها المنظورة . (فهذه النقوش هي ، في العادة ، ذات صفة دينية) . إن الكلمة ، أو الـ *logos* ، سواء في الاسلام ، أو في انجيل يوحنا ، أو في الفلسفة المسيحية المتأخرة ، قد اعتُبرت قوة الله الفاعلة المبدِعة . لقد كانت قوةَ الله المحيية التي نفخت الحياة في ما كان من قبلُ عَدماً . وهكذا فأن الكلمة *logos* يمكن أن تُعتبر بمثابة مبدأ الحياة المحيي . (إنها نَفَسُ الوليدِ الأوّلُ الذي يُثبت أنه قد اكتسب الحياة وليس مولوداً ميتاً .) وهكذا نرى أن العنصرين اللذين يشكلان المحتوى الرئيسي لفن الزخرفة العربي — النمط والكلمة ، « الشكل » و « المعنى » — يفيدان على التعاقب مبدأ الحقيقة المادية ومبدأ الحياة ، وبكلمة أخرى ، مبدأ الوجود كما بَرَأه الله . ولا جدال في أن الفنان المسلم لم يَختَرْ هذين العنصرين اختياراً مروّىً فيه . لقد أملت عليه ذلك معتقداته الروحية الأشد إيغالاً في الباطن ، سواء أكانت تلك المعتقدات واعيةً أو غير واعية . وهكذا يصبح فن الزخرفة العربي ، من غير ان يحاول أن يكون رمزاً متعمّداً مأوّلاً تأويلاً عقلياً ، أقول .. وهكذا يصبح هذا الفن رمزاً حقيقياً لموقف صاحبه من الله ومن العالم الذي يحيا فيه .

* * * *

لقد زين فَنّ الزخرفة العربي كل ما أخرجه الفنانون والصّناع المسلمون ، ابتداء من السجاد والسروج إلى مصاريع النوافد وظهور الموائد . ولقد نُقِشت بعض نماذج الزخرفة العربية ، الاكثر روعةً ، نقشاً — سواء أكان ذلك النقش على الجص أو الحجارة أو الخشب . وقليلةٌ عالم الفن الاسلامي هي الاشياء التي تفوق في براعة التصميم والكمال التِقْني تلك النقوشَ الخشبية التي أُخرِجت للناس في ظل الفاطميين في مصر ، أو عُلَبَ الحليّ العاجية المصنوعة في قرطبة ، أو النقوشَ الخشبية — الجصّية التي ازدانت بها المدارس المَرينيّة في فاس . وكانت

الألواح الخشبية الصغيرة المصطنعة إما في الابواب أو الخزائن ذات الأدراج أو السقوف تنعم بشعبية خاصة . وكان تنسيق تلك الألواح الخشبية يساعد على تكرار رسم فنيّ بعينه وعلى إنشاء « تآليف » تؤكد التناغم والتناسق . والحق أن الفنان المسلم شارك المفكرَ والعالم المسلميْن ولوعَهما بالنظام ، والجدْولة **tabulation** ، والتناغم . فقد التمس الفلاسفة ، كما نعلم ، تفسيراتٍ عقلانية لخلق اللهِ الكونَ ، ولم تكن قلوبهم لتطمئن إلا إذا اظهرت تفسيراتُهم منطق التناغمِ الكاملِ . أما الرياضيون وعلماء الفلك فالتمسوا أكمل شكل من أشكال التناغم ، أعني المعادلة الرياضية . وبطريقة مماثلة ابتهج الفنان المسلم بتنسيق التصاميم والأنماط التي كانت صفتها الهندسية الطاغية تساعد بصورة رائعة على « النظم » المتناغم .

وشارك كثير من المسلمين فنانيهم في ابتهاجهم بتصميم الزخارف العربية ، إذ كانوا يشاركون الفنانَ ، حتى ولو عدِموا براعتَهُ ، في مطامحه الروحية . وبينا تنعم أروع الزخارف العربية التي أبدعها الهواة بذَيْنك المنطق والجمال اللذين ينبثقان عادة كلما حاول امرؤ مخلص أن يترجم روح عرْقِهِ ودينه وحضارته الاشدّ عمقاً وإيغالاً في الباطن وينقلها إلى صورتها المنظورة .. أقول بينا تنعم اروع هذه الزخارف التي ابدعها الهواة بذينك المنطق والجمال نجد أن ثمة زخارف عربية أخرى لا يُحقق تعقيدها المكدود على نحو مرويّ فيه تلك الطَبَعيّة العضويةَ الضرورية ، ولكنه يحقق مجردَ الظهور بمظهرٍ متكلف مغالٍ في الصنعة .

٣ . الكتب

لما كان الخط يلعب دوراً هاماً جداً في فن الزخرفة العربي فقد تعيّن على الناقش المسلم ان يتعاون لا مع المصمّم فحسب ، بل مع الخطاط أيضاً . والواقع أن صناعة الخط كانت صناعة مبجّلةً في الأسلام

وقليلٌ هم نُصَراء الفنون أو العلماء الذين ترفّعوا عن ممارسة ذلك الفن . وحَسْبنا أن نذكر من الحكام المسلمين المختلفين الذين كانوا خطاطين موهوبين السلطانَ السعديّ الشهير ، أحمد المنصور ، الذي احتفظ بعلاقات طيبة جداً مع اليصابات ملكة انكلترة والذي فتح السودان الغربي .

وصناعة الخط وانتاج الكتب يجب ان يُعتبرا واحداً من أهم الفنون الصغرى في الاسلام . ولقد ظل المسلمون ، حتى فترة متأخرة من العصر الحديث ، لا يحبّذون في مختلف ديارهم طبع الآثار الادبية ، بالطرائق الآلية ، على نطاق واسع ؛ وكانت الكتب تسطّر عندهم بأقلام خطاطين محترفين (وَتُخرَج ، في العهود الاكثر حداثة ، بواسطة المطابع الحجرية .) ومع ان المسلمين لم يتبنّوْا الطباعة إلا بعد قرون من انتشارها في أوروبة فأننا مدينون للعرب بالكتاب الورقيّ . ذلك بأنهم شرعوا يصدرون الكتب الورقية بُعَيْدَ تعلّمهم من الصينيين كيفية صنع الورق في عهد يرقى إلى القرن الثامن . وحذت اوروبة حذو العرب في ذلك على نحو متمهل بطيْ ، فلم تستبدل الورق بالرّقّ **parchment** إلا في القرن الرابع عشر . ومع الكتب الورقية أدخل الاسلام إلى أوروبة صناعة « التجليد » بالجلد المزين بالنقوش النافرة ، كما أدخل « اللسان » الذي يصون حافة الكتاب الامامية .

٤ . الخزف

إن الطابع المُغْفل والسمة الديموقراطية اللذين يغلبان على فنون الاسلام الصغرى قد يكونان مسؤولين عن الحقيقة القائلة إن هذه الفنون لم تُخرج أيما شيء يمكن ان يقارَن بآثار [النحات الايطالي الذي اشتهر بروائعه المعدنية] بينفينوتو سيلليني **Benvenuto Cellini** [١٥٠٠–١٥٧١]

أو بأفضل روائع الخزف الصيني . ومع ذلك ، فقد كان المستوى العام لفنون الاسلام الصغرى – سواء في حقل المنسوجات أو في حقلي الخزف والآنية الزجاجيّة – مستوىً رفيعاً . وهذا الحكم يصحّ في ما يتصل بالخزف على وجه الخصوص .

وأقدم نفائس الخزف الاسلامي المعروفة ترقى إلى القرن التاسع . وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نتبيّن المؤثرات الصينية حتّى في ذلك التاريخ فمن الممتع ان نلاحظ ان « الازرق الصيني » الشهير الّذي يغلب على روائع الشرق الاقصى الخزفية يرجع في الواقع إلى أصل إسلامي . ولقد أشار الصينيون أنفسهم اليه بقولهم « الازرق الاسلامي » ، ذلك بأن مواد تركيبه الاصلية الخاصة ، التّي كان المسلمون أول من استخدمها ، إنما استوردها الصينيون من الشرق الاوسط . والحق ان الخزافين الصينيين كانوا يكفّون عن انتاج هذه الآنية البيضاء الضاربة إلى الزرقة التّي تمتعت برواج كبير كلما تعذّر عليهم الحصول على تلك المواد المستوردة .

وتمتع الخزف الاسلامي ، وهو فارسيّ في المقام الأول ، بشعبية كبيرة في الديار الهندية . فحتّى عهد متأخر ، في القرن السابع عشر ، كان من دأب التجار الهولنديين ان يستوردوا ذلك الخزف إلى أوروبة ، ويقدّموه للناس زاعمين أنه خزف صيني . والواقع ان الخزف الفارسي هو الذي ترك أعمق الأثر في الآنية الزرقاء المصنوعة في مدينة ديلفت **Delft** في هولندة ، وكانت ذات شعبية واسعة . واشتهرت فارس بضروب الخزف الأشدّ قوةً (السيراميك) ، المصنوع من فخار ذي حُبَيْبات أخشن ، شهرتها بآنيتها الخزفية . بيد أن هذه الآنية الخزفية لم تبلغ من اللطافة ما بلغه الخزف الصيني ، باعتبار ان الفخار الفارسي كان أخف وأحفل بالمسامّ من « كاوولين » * الصين الأكثر شفافية ، والأشد قوة ، والألطف حُبَيْبات . وعلى الجملة ، فلأن نتحدث عن

* **Kaolin** الفخار الأبيض الناعم الذي يستخدم في صنع الخزف . (المعرب)

« سيراميك » اسلامي ، أو فخار اسلامي ، أو قاشاني اسلامي ، أصحّ من أن نتحدث عن « بورسلين » اسلامي . وقطع السيراميك الفارسية الوحيدة التي تستطيع أن تدّعي أنها بورسلين حقيقي هي قطع بيضاء تكاد تكون نصف شفافة حاول صُناعها أن يضارعوا بها النماذج الصينية . ولكن هذه القطع هي على أية حال نادرة إلى حد بعيد .

وبلغ الخزف الاسلامي ذروته في منتجاته الصقيلة ، يعني في تلك القطع التي دُهنت فيها الرسوم بملح معدني على سطح مطليّ ثم ثُبّتتْ نهائياً من طريق الاحراق بالدخان . وبنتيجة هذه العملية يكتسب الخزف لمعاناً ذا ألوان متغايرة من ازرق فضيّ ، واصفر ضارب إلى الخضرة ، وأحمر نحاسيّ . ولسنا ندري على وجه التحقيق أين اصطُنِعت هذه الطريقة أول ما اصطُنِعت : في فارس أم في مصر أم في المغرب ، ذلك بأنه قد حُفِظت لنا في هذه الديار الاسلامية الثلاث كلها نماذج لم تضارعها ، في الجودة ، أية نماذج أخرى في أيما مكان آخر . وبصرف النظر عن خزف فارس اللماع ، انتُجِت أروع النماذج في بلنسية في ظل المسلمين . ولقد حظيت تلك النماذج بأعجاب عظيم في ايطالية ، حيث قُلّـِدت في نهم .

ومن الخصائص التي تميز الخزف الاسلامي عن الخزف الصيني هو أن الخزف الاسلامي اصطُنع ، على الجملة ، لأغراض الاستعمال اليومي ، في حين أن أهل الصين صنعوا خزفهم لمجرد العرض . إن منتجات الخزف الاسلامي لم يُقْصَد بها إلى أن تكون شيئاً خارج الحياة اليومية ، شيئاً مصنوعاً لأهل الخبرة فحسب ، بل قُصِد بها إلى أن تخدم اغراضاً عملية . وليس من ريب في ان المسلمين أبدعوا ، إلى جانب القطع العملية الساذجة ، نفائس أروع وأغلى . ومع ذلك فأن أياً من هذين الضربين لم يُنظر اليه كمجرد زينة ، وحتى الآنية الأشد رخصاً احتفظت بمستوى رفيع ، مشيرةً بذلك إلى ارتفاع مستوى الذوق عند الذين

اشتروها . إذ لو كان الزبائن يرضَوْن بالسلع الرديئة اذن لوُجِد خزّافون يزوّدونهم بأمثال تلك السلع من غير ريب .

وتشكّل صناعة القاشاني – الذي لا يزال حتّى اليوم مظهراً بارزاً من مظاهر الزخرفة الاسلامية – فرعاً هاماً من فروع الخزف الاسلامي. ولقد كان ذلك الضرب من الآجر ذا شعبية واسعة في فارس والمغرب ، وفي سورية والعراق على حد سواء . وكان يُصطنع لتغطية واجهة مسجد أو جدار حجرة ، أو أرضية فِناء من أفنية الدُّور . وانما تتجلى أناقة هذا الآجر أكثر ما تتجلى في بعض نماذجه ذات اللمعان المعدني ، التي غدت اليوم نادرة جداً ، والتي يبدو أنها نشأت أول ما نشأت في فارس .

ونافست منتجاتُ الزّجاج المسلم منتجاتِ الخزّاف . وبرعت سورية ، على نحو مخصوص ، في هذا الضرب من الصناعة . ولقد تنافس في اقتنائها أهل أوروبة ، حيث وجدت الدنان والمصابيح والقناني السورية الانيقة المكسوّة بطلاء الميناء النافر الملوّن سوقاً رائجة . وعلى الرغم من أن الصناع الاوروبين – وخصوصاً في البندقية – حاولوا منذ القــرن الخامس عشر أن يقلدوا هذه النماذج السورية فأنهم لم يوفقوا في أيما يوم من الأيام إلى ابداع مثل جمال تصميمها أو كمال صنعتها . وعلينـا ان نلتمس بعض الأمثلة الفضلى على الزجاج الاسلامي في مصابيح المساجد ، أو على الاصح في مشاكي * المساجد التي يستقرّ فيها اناء زيت صغير ذو ذبالة . فقد افرغ الصنّاع في هذه الادوات المنفعية كاملَ براعتهم الفنية وأطلقوا العنان لميلهم الشديد إلى الزخرف الغنيّ . وتزدان هــذه المصابيح ، عادةً ، بزخارف عربية **Arabesque** متعددة الألوان ، وبخطوط مزخرفة ، بـل وبرسوم ازهار معقّدة .

---

* جمع مشكاة .

٥. صناعات النسيج والمعادن والجلد

إن العربي والفارسي كليهما مولعان ، في المقام الأول ، بالاشياء الحسية ، شديدا الاستجابة لـ « نسيج » الاشياء الفنيّ و « ملمسها » . والواقع ان طلاءات الخزف العربي والفارسي اشبعت حسّ اللمس عند مالكيه المسلمين ورغبتهم في استشعار الرطوبة في آنٍ معاً . وكذلك استطاعت السطوح النافرة التي تميزت بها الزخارف العربية المنقوشة أن ترضي الاصابع المنزلقة فوقها وان تثيرها أيضاً . وإلى هذا فأن « نسيج » تلك السطوح الفنيّ اختلف من سلعة إلى سلعة ، ذلك بأن النقش قد يتمّ على المرمر أو الحجارة ، أو الخشب أو الجص ، بل حتى على الصخر البلوري .

وبالنظر إلى ولوع المسلمين بـ « نسيج » الأشياء التي زادت حياتهم بهجة ، لم يكن عجيباً أن ينتجوا المنسوجات من كل نوع . صحيح ان المسلمين لم يكونوا هم مبدعي تلك المنسوجات . ذلك بأن سورية قبل الاسلام ، وبيزنطة وفارس المجاورتين ، كانت قد انتجت منسوجاتٍ فاخرة قبل ظهور العرب على المسرح الثقافي . وفوق هذا ، فقد نظر النبي محمد نظرة ازدراء إلى الاثواب الحريرية . ولكن تقدير المسلمين للاشياء الجميلة ، ذلك التقدير الذي نما في سرعة ، ما لبث أن أنسى المسلمين هذا التحريمَ الثانوي الذي فرضه عليهم معلّم لم يملّوا ، في أيما يوم من الايام ، الاقتداءَ به في معظم المناحي الأخرى . والواقع أنهم أصبحوا أعظم تجار الحرير في العالم القروسطي ، وكانوا هم مخترعي عددٍ من الاقمشة التي لا تزال حتى يوم الناس هذا شاهداً على مواطن نشأتها . وأشهر هذه الاقمشة الدمقس **damask** (من « دمشق » **Damascus**–) ؛ والموصلين **muslin** الذي استورده التجار الايطاليون — تحت اسم *mussolina* — من الموصل ؛ والفُسطاطيّ **fustian** الذي كان يؤتى به

من الفسطاط ، عاصمة مصر الاسلامية الأولى ، والذي كان يتمتع بشعبية كبيرة في أوروبة القروسطية ؛ والتفتا **taffeta** التي نشأت في فارس تحت اسم *tafta* . وكانت نسبةٌ كبيرة من المنسوجات الاسلامية مُعَدّة للتصدير ، إذ كان نبلاء معظم البلدان الاوروبية على أتم الاستعداد لدفع أعلى الأثمان من أجل الحصول على الحرير الاسلامي والمطرّزات الاسلامية. وشيئاً بعد شيء أمسى الطلب على هذه السلع كبيراً إلى درجة دعت الاوروبيين إلى إقامة أنوالهم الخاصة ليصنعوا عليها منسوجات شبيهة بالمنسوجات الاسلامية . ومن أشهر مصانع النسيج الاوروبية ذلك المصنع الذي انشئ في بَلَرْم بِصِقِلّية في القصر الملكي ، والذي اشرف على ادارته خبراء عرب . ومن هؤلاء الخبراء العرب تعلّم العمال الايطاليون ، في ظل النورمان ، هذه الصناعة . ومن بَلَرْم انتشرت حياكة الحرير إلى المدن الايطالية الاخرى لتصبح بعدُ إحدى صناعات البلاد الرئيسية .

وكانت تصاميم نسّاجي الحرير المسلمين التقليدية تتألف في المقام الأول من « منظومات » زخرفية تمثّل رياحين وأثماراً ذات أشكال محدّدة ، وتتخلّلها كتابات تزيينية . بيد أن الصور البشرية ما لبثت أن اصطُنِعت شيئاً بعد شيء ، وبخاصة في المنسوجات الفارسية . وكثير من بذلات القدّاس وغيرها من الملابس الكنسية المصطنعة في كاتدرائيات أوروبة كانت مكسوّة بتصاميم فنية بالغة التعقيد بدت فيها رسوم الشباب الشرقيين التقليدية في أوضاع موغلة في الدنيوية وهم يقومون بنشاطات غير اكليركية . والمنسوجات الاسلامية تبرز حتى في لوحات الرسامين النصارى ، من مثل جيوتو **Giotto** وفرا آنجيليكو **Fra Angelico** . وهكذا فأن السيدة العذراء أو بعض القديسين النصارى قد يظهرون في تلك اللوحات وهم يرتدون ثياباً لا تمجّد الكلماتُ المطرّزةُ عليها غيرَ الله الواحد ورسوله محمد . ومن أعظم هذه اللوحات شهرة لوحة فرا ليبّو ليبّي **Fra Lippo Lippi**

الجميلة « تتويج العذراء » في متحف « اوفيزي » Uffizzi في فلورنسة، وفيها يتّشح الملائكة بعصائب شفافة طول كل منها ياردة واحدة... عصائب مكسوّة بخطوط عربية .

وحافظ النساجون الاتراك في ظل الخلافة العثمانية على الجودة الرفيعة التي حققها اسلافهم النساجون العرب . والواقع ان منسوجاتهم الحريرية نافست ، حتى في القرن الثامن عشر ، منتجات الصنّاع الايطاليين في الاسواق الاوروبية .

* * *

وإنما تتجلى مقاييس الصناعة اليدوية العربية ، تلك المقاييس القاسية المتطلّبة ، في صناعة المعادن ، سواء أكان المعدن نحاساً أو نحاساً أصفر، فضة أو فولاذاً . وقد أنتج فولاذ دمشق اللدن في الشرق ، كما أنتج فولاذ طُلَيْطُلَة المرن في الغرب ، تلك السيوف والمُفَقّرات* **rapiers** التي عُرِفت باسماء المدن التي نشأت فيها . وقد احتفظ الفولاذ الدمشقي – المطعّم بأشكال هندسية أو نباتية من الذهب أو الفضة أو من بعض المعادن الخسيسة – نقول احتفظ هذا الفولاذ بشهرته طوال قرون عديدة . والصواني والاباريق الصغيرة والكبيرة وركوات القهوة والاحواض المصنوعة من نحاس اصفر والمزدانة بنقوش زخرفية عربية لا تزال تُنتَج في الشرق الاوسط وفي المغرب حتى في يومنا هذا . وقد بلغت صناعة المعادن عند المسلمين ذروة كمالها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وبخاصة في الموصل التي اشتهرت بأباريقها وصوانيها وصناديق حليّها المطعّمة بالذهب والفضة . وكانت عُلَب الكتابة الصغيرة ذات « البيوت » المخصصة لأقلام القصب ، والمحابر ، ومواد اللصق ، والرمل ، والمزخرفة زخرفة دقيقة من داخل ومن خارج تتمتع بشعبية خاصة . وبعض هذه العلب هي اليوم من أنفس ما تعتز به متاحف أوروبة واميركة .

* * *

---

* جمع « مفقر » وهو سيف ذو حدين مستدق الطرف .

ومن الفنون الأسلامية الأبعد شهرةً خارج دنيا الاسلام صناعةُ الجلد. وإنما فازت بقصب السبق في هذا الميدان الديار المغربية (مراكش)، حيث طُوِّرت، منذ عهدٍ مبكر جداً، طرائق لدبغ الجلود حتى تصبح في مثل رقة الحرير تقريباً، وصَبْغ الجلد باصباغ نباتية تكاد ألوانها أن تكون ثابتةً لا تنصل. ونحن، حتى في يومنا هذا، نطلق على الجلد المخصص لتجليد الكتب ولبعض أدوات الترف اسم «موروكو» **morocco**. وعلى الرغم من أن مساند القدم **hassocks**، ومحافظ الجيب، والمشّايات والجزادين الجلدية وما اليها مما أُنتج في المغرب وفي غيره من البلدان العربية تمتعت دائماً بشعبية عند المشترين الغربيين فأنها لم تترك في السلع المماثلة المنتجة في أوروبة غير أثر ضئيل جداً. وأياً ما كان، فأن التجليد الاسلامي، بما امتاز به من تذهيب زخرفي وأشكال تزيينية ملوّنة مفرَّغة في الجلد، و «ألسنة» **flaps** واقية وجد في الغرب كثيراً من المقلدين، وبخاصة في البندقية (فينيسيا).

٦ . المنمنمات

أما أشهر الفنون الاسلامية وأكثرها انتزاعاً لأعجاب العالم الغربي فهو من غير ريب فن المنمنمات الفارسية. فإلى جانب الرسوم الزيتية المغولية في الهند تمثّل المنمنمات الفارسية خروجاً على التحريم الإسلامي للفن التشبيهي **figurative**. ذلك بأن الفرس كانوا حين دخلوا في الاسلام قوماً أصحاب ثقافة وتمدّن، وكانوا قد انشأوا اشكالهم الفنية الخاصة. وعلى الرغم من أنهم أمسوا بعدُ مسلمين ورعين — والواقع ان عدداً من أعظم المفكرين الدينيين واشهر المتصوفين كانوا فرساً — فقد كانوا على الجملة أكثر نزوعاً إلى الالحاد والعقلانية. وإن مجرد

تبنّيهم المذهب الشيعي لا المذهب السنّي ليدلّ على فردانيّتهم **individualism** والواقع أن ما عُرِفوا به من تقدم عقلي وحسّ جماليّ مرهف جعلهم لا يرتضون ضروب التحريم المعرقِلة التي كان خليقاً بها أن تعوق التماسهم للجمال . وهكذا فأن ملء احدى المنمنمات بصُوَر بشرية وبأشجار وأزهار وحيوانات لم يكن عندهم مخالفة للاوامر الدينية بقدر ما كان إقراراً بالحياة وتقديراً لها في بعض مظاهرها الأدعى إلى الفتنة . لقد وقف الفرس من التحريم الديني للصور المنقوشة – بوصفهم شيعة – موقفاً أكثر تحرراً من الموقف الذي اتخذه أهل السنّة .

وحتى المنمنمة الفارسية لا يمكن اعتبارها دائماً مثلاً على الفن التمثيلي بالمعنى الغَرْبي للتعبير . وعلى الجملة ، فأن صانع المنمنمات لم يشارك الفنان الغَرْبي المعاصر طُموحَهُ « إلى مضاهاة الله » في محاولة إعادة خلق الكائنات الحية . لقد كانت غايته جماليةً على وجه أشدّ حَصْراً . ولقد رسم الانسانَ لا في دوره كـ « إنسان حديث » **homo sapien** بقدر ما رسمه في دوره كواحد من عناصر كثيرة في تصميم زخرفيّ . ومن هنا لم يكن للانسان ، بين يدَيْ صانع المنمنمات ذاك ، شأنٌ أعظم أو أقل من شأن سُلّم ، أو زهرة ، أو سحابة ، أو زهرية . كان الذي همّه من الانسان ، أكثر ما همّه ، هو جدواه ، في حقليْ الشكل واللون ، كجزء من « نظم » **arrangement** زخرفي عام مشتملٍ على أشكال وألوان أخرى .

ولقد أُكِّدت صفته « اللاتمثيلية » **non-representative** ، فوق ذلك ، بفقدان « المنظور » **perspective** ، باعتبار أن المنمنمة الفارسية كانت في جوهرها « ثنائية الابعاد » **two-dimensional** ، كفن الزخرف العربي (آرابيسك) سواء بسواء .

ومن العناصر الحاسمة التي تعطي اللوحات الزيتية الغربية « واقعيتها » اصطناع « المنظور » والظلال . إذ بفضل هذه وحدها تبدو هذه اللوحات « ثلاثية الابعاد » **three-dimensional** . فالظلال و « المنظور » على السواء

هي التي توقع في النفس وَهْمَ المسافة . ووعينا للمسافة يوقظ في الحال ، أيضاً ، وعينا للزمن ، يعني الزمن الذي نحتاج اليه « ليختار » تلك المسافة المصوّرة . أما معظم المنمنمات الفارسية فلتجردها من « المنظور » ، البعد الثالث ، ولأنها لا تثير فينا أيّ شعور بالزمن ، فلا يمكن اعتبارها محاولات لاعادة خلق الحياة في « صورة » أمينة ، على طريقة « فيرمير » Vermeer * أو أحد الرسامين التأثريين . وهكذا فأن المنمنمة تصطنع عناصرَ الحياة البصريةَ لاغراض هي في المقام الأول جمالية . وبينا يؤكد الفن الغربيّ أهمية الانسان بل « الوهيته » تقريباً من طريق تصويره على نطاق ضخم في كثير من الاحيان ، نجد الانسان في المنمنمة الفارسية وقد أُحيلَ إلى حجم يكاد يكون ميكروسكوبياً . لقد كانت ثمة ، طبعاً ، استثناءات كثيرة ، وكان ثمة كثير من « المنمنمين » الذين تفوّقوا في رسم لوحات « واقعية » من غير أن يزدروا لا بالظلال ولا بالمنظور . ولكن بصرف النظر عما تعكسه هذه الآثار من مؤثرات أجنبية فأنها أقل دلالةً على السمة النموذجية لهذا النوع الفني كله من المنمنمات التي تمتاز بطبيعة جمالية على وجه أشدّ حصراً ، وبأنسانية مُفْرَغة في قوالب تقليدية .

وعلى الرغم من ان رسم المنمنمات الزيتي نشأ في ظل العباسيين في بغداد ، فأن أيما شيء من منمنمات ذلك العهد لم يصلنا ، أما أقدم النماذج الذي وصلتنا منها فترقى إلى القرن الثالث عشر . بيد أن هذه المنمنمات عربية أكثر منها فارسية ، وهي تتكشّف عن مؤثّرات هلينية لا تخطئها [العين الخبيرة] . وبعد تدمير المغول بغدادَ وحضارتها عام ١٢٥٨ ، انتقل مركز الرسم الزيتي الاسلامي إلى شمال فارس ، حيث أقام الفاتحون المغول عاصمتهم . وهكذا فأن في استطاعتنا أن نقول ان فن المنمنمات (والتصوير) الفارسي وُلد في أواخر القرن الثالث عشر . ومن ذلك الحين حلت المؤثرات الآسيوية ، وبخاصة الصينية ، محل

* رسام هولندي مشهور ١٦٣٢ – ١٦٧٥ . (المعرب)

المؤثرات الهلينية والبيزنطية الأولى . ثم إن الفتح المغولي الثاني ، في عهد تيمورلنك في القرن الرابع عشر ، أُدخلَ فارسَ وسورية والعراق في نطاق الامبراطورية المغولية التي كانت عاصمتها أول الأمر في سمرقند ثم في هراة . وحوالى تلك الفترة كانت المؤثرات الصينية قد أمست عميقة الجذور في رسم المنمنمات الزيتي . ونحن نجد نيّنات عليها في السحب الطافية ، وفي سِمة ايقاعية مخصوصة تغلب على الوجوه والملابس الفضفاضة ، وفي ظهور متواتر للحيوانات والطيور (وبخاصة البط الطائر) ، وفي ألوان أكثر هدوءاً ورقة ، وفي سمة « خطّيةً » calligraphic أقوى غالبة على تصميم الخطوط العام ..

ومن الموضوعات الاكثر شعبيّةً عند أصحاب المنمنمات ملحمة الفردوسي العظيمة ، « الشاهنامة » . والواقع أن المنمنمات التي تمثّل مشاهد من تلك الملحمة هي من أروع المنمنمات الفارسية على الاطلاق . وإنما بلغ رسم المنمنمات الزيتي أوجَهُ على يدَيْ كمال الدين بَهْزاد ؛ واحتفظ بمستواه الرفيع حتى في أوائل القرن الثامن عشر ، ومن ذلك الحين شرع في الانحدار .

* *

وكانت ثمة أحوال انتهك فيها الفنانون العرب وصية دينهم القائلة بأن الاشكال « الحية » يجب أن لا تُصوَّر . وهكذا انشأ الامويون مثواهم الطَرَديّ * في قُصَيْر عَمْرة وزيّنوه بصور جدارية تمثّل نساء عاريات ، وبرسوم رمزية ومشاهد طَرَدية . وأياً ما كان ، فنحن نعلم ان الامويين كانوا لا يبالون بالدين إلا قليلاً . وفوق هذا ، فأن لدينا سبباً يدعونا إلى الاعتقاد بأن صانعي هذه اللوحات الجدارية لم يكونوا فنانين مسلمين بل فنانين مسيحيين . وعلى الجملة ، فأن الرسوم البشرية التي أطلعوها هي نادرة في الفن العربي ندرةَ الأسود المحيطة

* نسبة إلى الطرد ، بفتح ففتح ، وهو مزاولة الصيد .

بالفوّارة في أحد أفنية الحمراء بغرناطة .

وكانت أشيعَ من هذه تلك الرسوم التمثيلية التي نجدها على الخزف والمنسوجات السورية والمصرية . وقد نقع بين هاتيك الرسوم على الخطوط الأولية لمغنية أو راقصة أو عازف على آلة موسيقية أو أمير يستمتع بكأس خمر . وهذه الصور مرسومة ، عادة ، لا على نحو مُحاكٍ للطبيعة ولكن على نحوٍ ثنائيّ الأبعاد ، فهي تذكّر المرء بصناعة الخط بقدر ما تذكّره بالتصوير .

فاذا رغبنا في أن نجد – بالاضافة إلى المنمنمات الفارسية – متوازيات بين الفن التصويري الاسلامي والفن التصويري الاوروبي فمن المحتملّ ان نكتشفها في فن البيزنطيين لا في فن الغرب الأقصى . ذلك بأن الفنان البيزنطي افرغ هو أيضاً رسومه على نحو ثنائيّ الأبعاد أكثر مما أفرغه على نحو ذي عمق ؛ ولقد ازدرى هو أيضاً اصطناع الظلال و «المنظور» ولم يجشم نفسه عناء التفكير في سمات الافراد وصفاتهم المميِّزة .

٧ . السجاد

كان الفرس يحبون الرياحين والجنائن حباً جماً . وكانت جنينتهم المسوّرة ، المعزولة جهد الطاقة عن العالم المحيط بها بهمومه ومتاعبه وكرّ أيامه ولياليه على نحو لا يرحم ، مقصوداً بها أن تكون جهد الطاقة أيضاً مثوىً ترفرف عليه غبطةٌ سرمدية ، وكانت الجهود تبذل دائماً لجعلها مشتملةً على نباتات نامية طوال شهور السنة الاثني عشر . ولقد دُعيت في الواقع فردوساً (من لفظتي « بيري » أي « حول » و « ديز » أي « شكّلَ أو أفرغ في قالب » وبكلمة أخرى : الجنينة المسورة) ، وهي الكلمة التي اشتقّت منها لفظتنا الانكليزية « **paradise** » . وعلى الرغم من ان العرب لم يسمّوا حدائقهم المنشأة في أفنية الدوْر بالاسم نفسه فقد

حاولوا هم أيضاً أن يخلقوا فيها جو الهدوء والغبطة الذي يلزم عادةً عن الطراوة ، وخرير الماء ، وقبل كل شيء عن النباتات التي تُطلع الاوراق الخضراء والرياحين في كل فصل من فصول السنة .

ووفّق الفرس إلى الاحتفاظ بجنّتهم الصغيرة الخاصة حتى ضمن جدران البيوت ، ولقد فعلوا ذلك بأن جعلوا من السجادة حديقةً . إن الرياحين ومساكب الزهور التي نجد رسومها منظومةً نظماً متساوقاً على صفحة السجادة لا تعدو أن تكون تمثيلاً للجنينة الفعلية الخارجية مُفرغاً في أشكال بعينها . ولكن « الجنينة » الداخلية تتمتع بحصانة تقيها أذى الأحوال الجوية القاسية وتبدّل الفصول ، وهكذا فأنها قليلاً ما تتلف بكرور الأيام . إن عنصر الزمن ، كما عرفنا من قبل ، مفقود في فن الزخرفة العربي (الأرابيسك) ، ولقد صُمّم البيت الاسلامي بحيث يغذو فكرة اللازمان . والمسجد ، وقد شُيّد للبقاء السرمدي ، لا يرمز إلى ديمومة الزمان بقدر ما يرمز إلى عنصر الازلية (اللازمان) الذي لا يستطيع المرء أن يستشعره إلا خلال اتصاله بالله ، أو في حضرة الله . ومن الظواهر ذات المغزى أن يكون الرسم الآخر الاكثر شيوعاً في السجادة الفارسية هو المحراب — أي مقام الامام في المسجد ويشير إلى موقع مكة — والمصباح المتدلي من سقف المسجد . وكلاهما رمز لتلك الازلية التي لا يستشعرها المرء الا من طريق الاتصال بالذات الالهية .

ونشوء صناعة السجاد حيث نشأت يكاد ان يكون ، في ما يبدو ، أمراً محتوماً . فقد قررت الدراسات الحديثة ان السجاد ، كما نفهمه عادةً ، اعني السجاد الوّبري المصنوع ، على نول ، صنعاً يدوياً من خيوط من الصوف (أو الحرير) تشدها عقدة في السداة الداعمة والمؤلفة من ضرب من الخيش ، كان معروفاً قبل التاريخ المسيحي . ولدينا أسباب وجيهة تحملنا على الاعتقاد بأن السجاد ، بهذا المعنى ، كان يُصنع في

ما بين القرن الثالث والقرن السادس بعد الميلاد في تركستان الصينية ، على تخوم على ما قدِّر له أن يمسي العالم العربي بعدُ ، ثم في القرن الحادي عشر ، بأيدي السلاجقة في الأناضول والمسلمين في اسبانية ، وكذلك في القرن الثاني عشر في فارس وبلاد القبق (القوقاز) .

وفي أوروبة ، حيث لم يُعرف السجاد الشرقي ، في أغلب الظن ، إلاّ في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ظلّ هذا السجاد فترة طويلة من الزمان اداةَ ترف . اما في المشرق فقد كان منذ البدء اداة استعمال يوميّ ، سواء استُعيض بـه عن الفُرُش أو عُلّـِق على الجدران، أو اصطُنِع لتغطية ارضيّات الحجرات . وقد مثّل ، في هـذا الاصطناع الأخير ، خطوة تقدمية بالنسبة إلى جلود الحيوانات الـتي غطّت أرضيّة خيـام البدو أو مساكنهم البدائية . وإذ كانت أغنـام فارس تزوّد القوم بصوف من طراز ممتاز فقد كان طبيعياً جداً أن يحلّ ذلك النوع من أغطية الأرض شيئاً فشيئاً محل تلك الجلود الجافية المتصلة بالمرحلة الأشد بدائية في تاريخ الفرس .

والحق ان السجادة كانت دائماً ، في نظر مالكها المسلم ، سلعـة أكثر حميميّةً بكثير ممـا يتصوره الناس في العالم الغربي . وكثير من الناس في فارس ، أو سورية ، أو في العراق أو ليبيا يعتبرون السجادة أثمن ممتلكاتهم وأنفسها . وإن في استطاعتها ، بالاضافة إلى قيمتها المادية والجمالية ، ان ترمز إلى الحديقة ، والمسجد ، بل ان ترمز حتّى إلى الجنة نفسها . وفي ميسورها (في وهم بعض الناس) أن تمنع الجن – تلك الكائنات الشريرة غير المنظورة التي تحبّ الاستكنان فوق سطح الارض – من أن تغزو الحجرة . وليس يخطر ببال أيّ مسلم ورعٍ ان يمشي على السجاد منتعلاً حذاءه . وهذا ينطبق أيضاً على السجاد الاصغر حجماً والمصنوع خصيصاً من أجل الصلاة . أما الحُصُر البالغة الصِغَر التي يحملها أصحابها إلى المسجد فهي – برغم كونها في بعض

الاحيان سجاداً حقيقياً ـ مصنوعة عادةً من مادة أخفّ وأقلّ إتقاناً وتجويداً .

* * *

وعلى الرغم من ان بلاد فارس أطلعت منذ قرون بعيدة سجاداً رائعاً فأن هذه الصناعة لم تبلغ ذروة كمالها إلا في القرن السادس عشر . ونادراً ما بلغ السجاد التّركي نفس هـذا المستوى الرفيع ، برغم انه كان من الجودة بحيث ضاهى السجاد الفارسي ، بل بحيث كان التمييز بينه وبين هذا السجاد أمراً عسيراً . (وبالمناسبة ، فأن أضمن وسيلة لتمييز السجاد الفارسي من السجاد التّركي هي التأكد من الطريقة التّي شُدّ بها كل خيط من خيوط الصوف إلى السّداة .)

وإذ كان الصوف أو الحرير الذي يُصْنع منه السجاد الفارسي من نوع واحد إلى حد كثير أو قليل فأن جودة ذلك السجاد تعتمد أول ما تعتمد على متانته ، أعني على شدّة الاحتباك بين الخيوط المفردة . فبينا تشتمل السجادة الممتازة ، في كثير من الأحوال ، على خمس عشرة عقدة بعشرين عقدة في الانش الواحد مثلاً ، أو على ثلاثمئة عقدة في الانش المربع ، فأن بعض السجادات الشهيرة المحفوظة في المتاحف الغَرْبية تمتاز بمستوى أرفع حتّى من هذا المستوى نفسه . ومن هنا فأن سجادة « تشيلسي » Chelsea التّي ترقى إلى القرن السادس عشر والمحفوظة في « متحف فيكتوريا وألبرت » في لندن تشتمل على احدى وعشرين عقدة باثنتين وعشرين عقدة في الانش الواحد . بل ان « سجادة القنص » الاعظم شهرة ، والمحفوظة في فيينا ، تنتظم تسعاً وعشرين عقدة بسبع وعشرين عقدة في الأنش الواحد ، يعني على سبعمئة وثلاث وثمانين عقدة في الانش المربع ! ومعظم هذه السجادات الباهرة صُنِع في عهد الدولة الصّفَوية .

وكان تصميم معظم السجاد الفارسي يتألف في المقام الأول من أشكال هندسية ورياحينية أو من المحراب ومصباح المسجد . ولكن بعض السجادات الاكثر روعةً – كـ « سجادة القنص » التي ذكرناها قبل بضعة اسطر مثلاً – مزدانة أيضاً برسوم حيوانات وبوجوه بشرية ، أو بأشجار وسُحُب وبكثير من الاشياء الأخرى التي أُولِعَ بها صانعو المنمنمات الفارسية . والحقّ أن فنّ المزخرِف – سواء أكان هذا المزخرف منمنِماً أو متخصصاً في تزيين الكتب بالصور والرسوم – هو الذي فرض سلطانه على تصاميم السجاد . بيد أن أمثال هذه السجادات يجب أن تُعتبر خروجاً على العمود الديني بالمعنى الاسلامي الخالص . والواقع ان كثيراً منها قد صُنع في أغلب الظن في تركستان والاناضول والقبق (القوقاز) – وقد اشتهرت كلها بسجادها – لا في فارس .

* * *

إن السجاد لا يزال يُصنَع في فارس حتى يوم الناس هذا . ولقد أضيفت إلى التصاميم التقليدية الرائعة تصاميم حديثة متعددة تدلّ مع الاسف على فسادٍ محزن في الذوق . والمؤثرات الغَرْبية هي المسؤولة أكثر من أي شيء آخر عن هذا الفساد ، كما هي الحال في طول العالم الاسلامي وعرضه كلما حلت مفاهيم فنية غريبة محل المفاهيم الوطنية ، المجذّرة **rooted** أعمق ما يكون التجذّر في تقاليد الشعوب الاسلامية الروحية والثقافية . وهذا لا ينطبق على صنع السجاد فحسب ، بل على الفنون الأخرى أيضاً .

وإنما يرقى أثر الغرب والعصرانية **modernism** إلى عهد حديث نسبياً في الاسلام . والفنانون المسلمون ، من باكستان ومصر إلى مراكش (المغرب) ، يرسمون اليوم لوحاتهم الزيتية في اسلوب « غَرْبي » . والنحاتون المسلمون ينتجون اليوم تماثيل نصفية ، وتماثيل نسوة عاريات ،

وما اليها . والمتمتعون منهم بمواهب حسنة تشرّبوا المزاج الغَرْبي في سهولة ويسر ، وأبدعوا بعض الأعمال الممتازة . ومع ذلك ، فأن هذه الأعمال قليلة الشأن إذا ما قورنت بالآثار الـتي أبدعهـا خير زملائهم الغربيين . وليس من ريب في ان علينا ان لا نتوقع من فناني الاسلام ان يقنعوا إلى الأبد باجترار الأنماط الفنية التي أبدعها أسلافهم . ونزوعهم إلى الأخذ بأشكال التعبير الجديدة والأصيلة ليس غير برهان على حيويتهم ، وتبادلُ الفكرات الشرقية الغربية محتوم في هذا المجال مِثْلَهُ في أي مجال آخر . ولكن هذه هي لحظةُ الاثر الأول ، وموسمُ التجربة ، والنبْذ ، والقبول المشروط . والتكامل ، كما هو واضح ، لا يمكن أن يصبح تاماً إلا بعد انقضاء سنوات عديدة ، وهذه العملية — عملية التوفيق بين المفاهيم والتِقنيات الجديدة وبين الفكرات والبراعات الموروثة — لا بدّ أن تكون عملية طويلة الأمد . وهذا الانصهار لن يكون مقصوراً على الفن ، طبعاً . انه يمثّل المشكلة الرئيسية التي تواجه العالم العربي الحديث في جميع نشاطاته تقريباً .

قِراءَاتٌ مُخْتَارة

١ . آرنولد ، ت. و. (تحرير) : « تراث الاسلام » **Arnold , T. W. (ed.)** *Legacy of Islam* (اكسفورد ، عام ١٩٣١) .

٢ . لاندو ، روم : « فن الزخرفة العربي » **Landau , Rom** *The Arabesque* (سان فرانسيسكو ، ١٩٥٥) .

٣ . ريفويرا ، ج. ت. : « فن العمارة الاسلامي » **Rivoira , G. T.** *Moslem Architecture* (اكسفورد ، ١٩١٨) .

جَدْوَل كُرُونُولوجيٰ

للفنون

الخصائص العامة : فقدان الفن التشبيهي ، فقدان الرسم الزيتي والنحت .

المجلي السائد : فن الزخرفة العربي (آرابيسك) .

العناصر النموذجية : المئذنة ، القبة ، قوس نعل الفرس ، اصطناع الخط لأغراض تزيينية ، المدليّات الزخرفية .

الاسهامات الرئيسية : في فن العمارة ، الخزف ، النسيج ، الاشغال المعدنية والجلدية ، النقش النافر . في فارس : المنمنات والسجاد .

فن العمارة

تأثر تأثراً قوياً بفن العمارة الروماني والبيزنطي والفارسي . ولكن جميع العناصر الأجنبية طورت حتى اتخذت سمات اسلامية جلية . وابرز تلك السمات : الاقواس المسننة ، الشرفات المبنية على شكل أسنان المنشار ، الابراج المزدانة بزخارف متشابكة ، اصطناع الحجارة ذات الألوان المختلفة ، والقباب البصلية ، سيور من الخط المنقوش ، اصطناع الآجر ، غنى شامل في الزخرفة والتزيين .

أثر ذلك في الغرب

تلمس مؤثرات فن العمارة الاسلامي في ابراج الاجراس الاوروبية ، والاقواس التيودورية ، والشرفات المبنية على شكل اسنان المنشار (في البندقية) ، والاصطناع التزييني لنقش الخطوط على الحجر ، وسمات مختلفة في القصور المحصنة ، والواجهات المخططة المتعددة الألوان (في فلورنسة) .

فن العمارة

ومن الامثلة البارزة : جامع عقبة بن نافع (القيروان) ؛ الجامع الاموي (دمشق) ؛ وجامع قرطبة ، وكلها ترقى إلى القرن الثامن . قبة الصخرة (القدس) وترقى إلى القرن السابع . جامع ابن طولون في القاهرة ، ويرقى إلى القرن التاسع . برج جيرالدا (اشبيلية) ، ومئذنة الكتبية (مراكش) ويرقيان إلى القرن الثاني عشر . الحمراء (غرناطة) وترقى إلى القرن الثالث عشر . جامع السلطان احمد (استانبول) ويرقى إلى القرن السابع عشر .

أثر ذلك في الغرب

الخزف والزجاج

لم ينتج المسلمون في ايما يوم خزفاً في مثل روعة الخزف الصيني . أما في صناعة السيراميك والآجر فلم تتفوق عليهم ايما امة من الأمم . ويتجلى اسهامهم الرئيسي في الخزف الصقيل ذي اللمعان وبخاصة ما صنع منه في فارس والمغرب . وقد بلغوا مستوى رفيعاً مماثلا في صناعة الزجاج ، وبخاصة في سورية .

تمتع الخزف الاسلامي بشعبية كبيرة في أوروبة. وكذلك تمتعت الآنية الزجاجية بمثل هذه الشعبية ، وقد قلدت هذه الآنية على نطاق واسع في ايطالية .

صناعة النسيج

كان المسلمون هم تجار الحرير الرئيسيين (في العالم القروسطي) . لقد أبدعوا الدمقس ، والموصلين ، والقسطاطي ، والتفتا . وكانت اقمشتهم تزدان برسوم تجريدية أو بأشكال زخرفية تمثل رياحين ذات أشكال محددة . وقد نقع فيها أحياناً على صور بشرية .

كان امراء أوروبة والقيمون على كنائسها يقبلون اقبالا شديداً على شراء المنسوجات الاسلامية التي قلدت في ايطالية على نطاق واسع . وكثيراً ما تظهر المنسوجات الاسلامية في اللوحات الزيتية الدينية التي وضعها الفنانون الأوروبيون .

صناعة المعادن

انتجت دمشق وطليطلة أفضل الفولاذ لصنع السيوف والشفرات . وصنعت كثرة البلدان الاسلامية أدوات مختلفة من الفضة والنحاس الأصفر ، والنحاس ، وكانت هذه الادوات تزدان بضروب النقوش . كذلك صنع المسلمون مختلف الأدوات المعدنية المطعمة بالميناء .

أثر ذلك في الغرب

لا تزال الاشغال المعدنية الاسلامية تتمتع في الغرب بشعبية غير يسيرة حتّى يومنا هذا .

صناعة الجلد

كان المراكشيون بين الشعوب السباقة إلى تجويد فني دبغ الجلد وصبغه . ونحن لا نزال نطلق على الجلد النفيس اسم « موروكو » . وفي معظم البلدان العربية تصنع اليوم أدوات من الجلد ذي النقوش النافرة أو من الجلد المطرز (كمساند القدم ، والقمطرات ، والمثايات) .

تأثرت صناعة تجليد الكتب في أوروبة ، منذ عهد مبكر ، بصناعة التجليد الاسلامية التي تميزت بزخارفها المصنوعة بأدوات خاصة وبنقوشها النافرة .

الرسم الزيتي

نادراً ما مارس المسلمون فن الرسم الزيتي التمثيلي ، برغم انه كان ثمة بعض الاستثناءات . وقد شاع الرسم الزيتي التصويري في المنمنمات ، وبخاصة في فارس . وقد بلغت المنمنمات الفارسية أوجها في عهد التيموريين خلال القرن الخامس عشر ، وفي ظل شاه طهماسب في القرن السادس عشر .

لم يتأثر الفن الغربي بالرسم الزيتي الاسلامي إلا قليلا . ولكن الموضوعات الاسلامية (من أنماط وأزياء وخطوط) كانت ذات شعبية واسعة عند الرسامين الأوروبيين منذ أوائل عهد النهضة حتّى عهد رامبرانت . وكان الهواة الغربيون يحرصون على جمع المنمنمات الفارسية .

السجاد

ظهر السجاد الوبري ، أول ما ظهر ، في العالم الاسلامي ، في اسبانية الاسلامية وفي الاناضول في القرن الحادي عشر ، وفي فارس في القرن الثاني عشر . وانفسه ما صنع في فارس ، حيث بلغ هذا الفن ذروة كماله في القرن السادس عشر . وعلى الرغم من ان ثمة سجادا ذا رسوم تصويرية ، فان تصميم الكثرة الكبيرة من السجاد يتألف من اشكال هندسية ورياحينية .
ومع ان مركزي صناعة السجاد الرئيسيين هما فارس وتركية فان هذه الصناعة معروفة في بلدان اسلامية أخرى ، وبخاصة في المغرب حيث يتمتع السجاد ذو الصوف الكثيف والتصاميم البسيطة بشعبية واسعة .

أثر ذلك في الغرب

لم تعرف اوروبة السجاد الوبري الشرقي الا في اواخر القرن الرابع عشر . ولقد ظل يعتبر هناك ، طوال مدة غير قصيرة ، مجرد اداة من ادوات الترف . وبرغم ان الغرب حاول ان يقلد السجاد الاسلامي فانه لم يوفق في أيما يوم من الايام الى مضاهاته سواء في الجودة او في التصميم ، أو اللون .



الاسلام والعرب ــ ٢٣



مصادر الكتاب

Adams, Charles C.: *Islam and Modernism in Egypt*. Oxford, 1933.
Affifi, A. E.: *The Mystical Philosophy of Muhyid Din-Ibnul Arabi*. Cambridge, 1939.
Ali, Ameer: *A Short History of the Saracens*. London, 1953.
Anderson, Eugene N.: *The First Moroccan Crisis*. Chicago, 1930.
Anderson, J. N. D.: *The World's Religions*. Grand Rapids, 1953.
Anshen, Ruth Nanda (ed.): *Mid-East: World Center*. New York, 1956.
Antonius, George: *The Arab Awakening*. London, 1939.
Arberry, A. J., and Landau, Rom: *Islam Today*. London, 1943.
Arberry, A. J.: *The Koran Interpreted*. London, 1955.
Arberry, A. J.: *Revelation and Reason in Islam*. London, 1957.
Arberry, A. J.: *Sufism*. London, 1950.
Arberry, A. J.: *The Seven Odes*. London, 1956.
Archer, John Clark: *Mystical Elements in Mohammed*. New Haven, 1924.
Arnold, Thomas (ed.): *The Legacy of Islam*. London, 1931.
Arnold, Thomas: *Painting in Islam*. Oxford, 1928.
Arnold, T. W.: *The Preaching of Islam*. London, 1912.
Asad, Muhammad: *The Road to Mecca*. New York, 1954.
Asin y Palacio, Miguel: *Islam and the Divine Comedy*. London, 1926.
Atiyah. Edward: *The Arabs*. Baltimore, 1955.
Aubin, Eugene. *Morocco of Today*. London, 1906.
Background of the Middle East. Ernest Jackh (ed.). Ithaca, 1952.
Barker, Ernest: *The Crusades*. London, 1925.
Battuta, Ibn: *Travels in Asia and Africa, 1325–54*. Tr. by H. A. R. Gibb. London, 1929.
Beazley, C. R.: *The Dawn of Modern Geography*. London, 1897.
Bergh, Simon van den: *Averroes' Tahafut al-Tahafut* (The Incoherence of the Incoherence). Oxford, 1954.
Bourguiba, Habib: *La Tunisie et la France*. Paris, 1954.
Briggs, M. S.: *Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine*. Oxford, 1924.
Brockelman, Carl: *History of the Islamic Peoples*. New York, 1947.
Browne, E. G.: *Arabian Medicine*. Cambridge, 1921.
Burton, R. F.: *Pilgrimage to al-Medinah and Mecca*. London, 1893.
Campbell, Donald: *Arabian Medicine and Its Influence on the Middle Ages*. London, 1926.
Carra de Vaux, Bernard: *Penseurs de l'Islam*. Paris, 1921–1926.
Coon. Carleton S.: *Caravan: the Story of the Middle East*. New York, 1951.
Coon, Carleton S.: 'North Africa', in Ralph Linton (ed.): *Most of the World*. New York, 1949.
Cromer, Lord: *Modern Egypt*. London, 1908.
Davis, William Stearns: *A Short History of the Near East*. New York, 1922.
de Boer, T. J.: *The History of Philosophy in Islam*. London, 1933.
De Lacy O'Leary: *Arabic Thought and its Place in History*. London, 1922.
Despois, Jean: *L'Afrique du Nord*. Paris, 1949.

Dozy, R.: *Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne.* Leyden, 1881.
Dozy, R.: *Spanish Islam.* London, 1913.
Fernau, F. W.: *Moslems on the March.* New York, 1954.
Freeman, Edward A.: *The History and Conquests of the Saracens.* London, 1876.
Fyzee, Asaf A. A.: *Outlines of Muhammadan Law.* London, 1955.
Gibb, H. A. R.: *Arabic Literature: an Introduction.* London, 1926.
Gibb, H. A. R.: *Modern Trends in Islam.* Cambridge, 1947.
Gibb, H. A. R.: *Mohammedanism.* London, 1949.
Gibb, H. A. R. (ed.): *Shorter Encyclopedia of Islam.* Leiden, 1953.
Gibb, H. A. R. (ed.): *Whither Islam?* London, 1932.
Gilman, Arthur: *The Story of the Saracens.* New York, 1887.
Guillaume, Alfred: *Islam.* Middlesex, 1954.
Guillaume, Alfred: *The Life of Muhammad.* London, 1955.
Guillaume, Alfred: *The Traditions of Islam.* Oxford, 1924.
Hakim, Abdul. *Islamic Ideology.* Lahore, 1951.
Hammond, Robert: *The Philosophy of Alfarabi and its Influence on Medieval Thought.* New York, 1947.
Hankin, E. H.: *The Drawing of Geometric Patterns in Saracenic Art.* Calcutta, 1925.
Harris, Walter B.: *Morocco That Was.* London, 1921.
Hitti, Philip K.: *History of Syria.* New York, 1951.
Hitti, Philip K.: *History of the Arabs.* London, 1956.
Hoskins, Halford L.: *The Middle East: Problem Area in World Politics.* New York, 1954.
Houtsma, M. T., *et al.*: *Encyclopedia of Islam.* London, 1908.
Huart, Clement I.: *History of Arabic Literature.* New York, 1903.
Hughes, Thomas P.: *A Dictionary of Islam.* London, 1935.
Hurewitz, J. C.: *Diplomacy in the Near and Middle East.* Princeton, 1956.
Hurgronje, C. Snouck: *Mohammadanism.* New York, 1937.
Hussein, Taha: *An Egyptian Childhood.* London, 1932.
Ibn Hazm: *The Ring of the Dove.* Tr. by A. J. Arberry. London, 1953.
Iqbal, Muhammad: *The Reconstruction of Religious Thought in Islam.* London, 1934.
Irving, Thomas: *Falcon of Spain.* Lahore, 1954.
Irwin, R. W.: *Diplomatic Relations of the U.S. with the Barbary Powers, 1776–1816.* Chapel Hill, 1931.
Issawi, Charles: *An Arab Philosophy of History: Selections from the Prolegomena of Ibn Khaldun of Tunis.* London, 1950.
Izzedin, Nejla: *The Arab World.* Chicago, 1953.
Julien, Charles-André: *L'Afrique du Nord en Marche.* Paris, 1952.
Julien, Charles-André: *Histoire de l'Afrique du Nord.* Paris, 1951 and 1952. 2 vols.
Jurji, E. J.: *The Middle East: Its Religion and Culture.* Philadelphia, 1956.
Khadduri, Majid: *War and Peace in the Law of Islam.* Baltimore, 1955.
Khadduri, Majid, and Liebesny, H. J.: *Law in the Middle East.* Washington, D.C. 1956.
Kirk, George E.: *A Short History of the Middle East.* London, 1948.
Lawrence, T. E.: *The Seven Pillars of Wisdom.* London, 1935.
Landau, Rom: *Arab Contribution to Civilization.* San Francisco, 1958.
Landau, Rom: *Mohammed V, King of Morocco.* Rabat, 1957.
Landau, Rom: *Moroccan Drama, 1900–1955.* San Francisco, 1956.

Landau, Rom: *Moroccan Journal*. London, 1952.
Landau, Rom: *Outline of Moroccan Culture*. Rabat, 1957.
Landau, Rom: *Search for Tomorrow*. London, 1938.
Landau, Rom: *The Arabesque*. San Francisco, 1955.
Landau, Rom: *The Sultan of Morocco*. London, 1951.
Lane, Edward William: *Manners and Customs of the Modern Egyptians*. London, 1837. 2 vols.
Lane-Poole, Stanley: *The Moors in Spain*. London, 1886.
Lenczowski, George: *The Middle East in World Affairs*. Ithaca, 1956.
Levi-Provençal, E.: *La Civilisation Arabe en Espagne*. Paris, 1948.
Levy, Reuben: *The Social Structure of Islam*. Cambridge, 1957.
Lewis, Bernard: *The Arabs in History*. London, 1950.
Longrigg, S. H.: *Four Centuries of Modern Iraq*. London, 1925.
Mahdi, Huhsin: *Ibn Khaldun's Philosophy of History*. London, 1957.
McCabe, Joseph: *The Splendour of Moorish Spain*. London, 1935.
Macdonald, D. B.: *Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory*. London, 1913.
Marlowe, John: *A History of Modern Egypt and Anglo-Egyptian Relations*. New York, 1954.
Meakin, Budgett: *The Land of the Moors*. London, 1901.
Meakin, Budgett: *The Moorish Empire*. London, 1899.
Mieli, Aldo: *La Science Arabe et son Rôle dans l'Evolution Scientifique Mondiale*. Leiden, 1938.
Middle East 1957. London, 1957.
Montagne, Robert: *La Civilisation du desert*. Paris, 1947.
Nicholson, Reynold A.: *A Literary History of the Arabs*. Cambridge, 1930.
Nicholson, Reynold A.: *The Mystics of Islam*. London, 1914.
Nuseibeh, Hazem Z.: *Ideas of Arab Nationalism*. Ithaca, 1956.
Realités Algeriennes. Algiers, 1953.
Riboira, G. T.: *Moslem Architecture: Its Origin and Development*. Oxford, 1918.
Runciman, Steven: *History of the Crusades*. Cambridge, 1951–1954. 3 vols.
Sarton, George: *Introduction to the History of Science*. Vols. I–III. Baltimore, 1927–1948.
Schacht, J.: *Origins of Mohammadan Jurisprudence*. London, 1955.
Schevill, Ferdinand: *A History of Europe*. New York, 1947.
Setton, Kenneth M. (ed.): *History of the Crusades*. Vol. I. The First Hundred Years, ed. by M. W. Baldwin. Philadelphia, 1956.
Sherwani, Haroon K.: *Studies in Muslim Political Thought and Administration*. Lahore, 1945.
Shwadran, Benjamin: *The Middle East, Oil and the Great Powers*. New York, 1955.
Smith, David E.: *History of Mathematics*. Boston, 1923.
Smith, Margaret: *The Sufi Path of Love*. London, 1954.
Stark, Freya: *The Arab Island*. New York, 1945.
Stevens, Edmund: *North African Powder Keg*. New York, 1955.
Storrs, Ronald: *Orientations*. London, 1937.
Strange, le, G.: *Baghdad Under the Abbasid Caliphate*. Oxford, 1900.
Strayer, R. Joseph: *The Middle Ages: 395–1500*. New York, 1942.
Stuart, Graham Henry: *The International City of Tangier*. Stanford, 1955.

Suter, H.: *Die Mathematiker und Astronomen der Araber*. Leipzig, 1900.
Sweetman, J. Windrow: *Islam and Christian Theology*. London, 1945.
Thomas, Bertram: *The Arabs*. New York, 1937.
Thorndike, Lynn: *History of Magic and Experimental Science*. New York, 1923 and 1934.
Toynbee, Arnold: *A Study of History*. London, 1935.
Tritton, A. S.: *Islam-Belief and Practices*. London, 1954.
Tritton, A. S.: *Muslim Theology*. London, 1947.
von Grunebaum, G.: *Medieval Islam*. Chicago, 1946.
von Grunebaum, G.: *Unity and Variety in Muslim Civilization*. Chicago, 1955.
Watt, W. Montgomery: *The Faith and Practice of Al-Ghazali*. London, 1953.
Watt, W. Montgomery: *Free Will and Predestination in Early Islam*. London, 1948.
Watt, W. Montgomery: *Muhammad at Mecca*. Oxford, 1953.
Watt, W. Montgomery: *Muhammad at Medina*. Oxford, 1956.
Wensinck, A. J.: *The Muslim Creed*. Cambridge, 1932.
Westermarck, Edward: *Ritual and Belief in Morocco*. London, 1926. 2 vols.
Whishaw, B. and E. M.: *Arabic Spain*. London, 1912.
Wickens, G. M. (ed.): *Avicenna: Scientist and Philosopher*. London, 1952.
Wustenfels, F.: *Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher*. Goettingen, 1840.

صحف ومجلات

Arabica, Quarterly. Leiden, Holland.
Islamic Review, Monthly. Woking, Surrey.
Middle East Journal, Quarterly. Washington, D.C.
The Muslim World, Quarterly. Hartford, Conn.

فهرست الاعلام

ب

ث

ج

ح

س

ش

غ

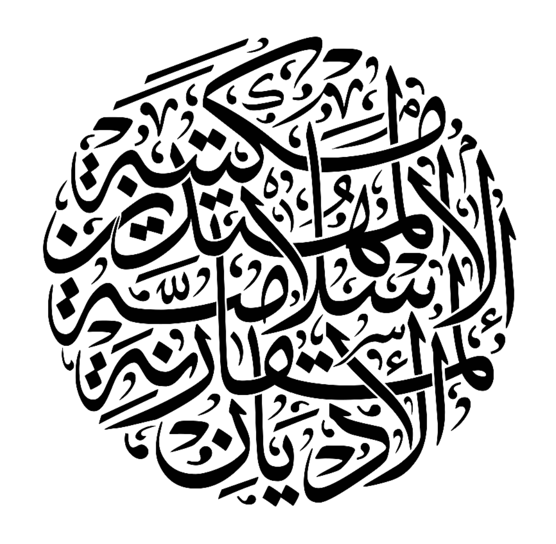
ف

ق

ل

م

ن



فهرست الموضوعات



مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان